

رُفَح

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا..
قُرْآنٌ كَرِيمٌ

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

تأليف
عفيف عبدالفتاح طباء

obeikandi.com



إِلَى أَهْلِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِي
الَّذِينَ يَتَمَسِّكُونَ الطَّرِيقَ السَّوِيَّ
لِبِنَاءِ عَالَمٍ جَدِيدٍ عَلَى أُسَاسٍ مِنْ
الْإِيمَانِ وَالْخَيْرِ وَالْحُبِّ وَالسَّلَامِ

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذِهِ هِيَ كِتَابُنَا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد بن عبد الله .

أما بعد :

قدمت جماعة عباد الرحمن منذ مدة وجيزة الى العالم الاسلامي
والى الانسانية الطبعة الأولى من هذا الكتاب ليدرس دراسة مجردة عن
الاغراض ، بعيدة عن الاهواء والتعصب الدميم .

وحين قدمناه كانت الثقة تملأ قلوبنا بأنه سيلقى كل ترحاب ويجوز
كل رضى لما بينه من حقائق ساطعة ومن وجوه الخير للانسانية كلها في
هذا الدين الحنيف ، ولما عالج من المشاكل البشرية علاجاً حاسماً بروح رزينة
وحجة واضحة ليضيء للناس مصباح الهداية فيريهم عظمة الاسلام وسمو
القرآن .

ولقد صدق ظننا ، وتحقق ما توقعناه ، اذ ما كادت الطبعة الاولى من
هذا الكتاب تتناولها أيدي القراء حتى اقبلوا على قراءتها بشوق ورغبة
فعبير عن آمالهم وحاز إعجابهم .

وما هي الا مدة وجيزة حتى نفذت نسخة من المكتبات فانها لت
علينا الرسائل تطلب بالحاج اقتناء هذا الكتاب . واستجابة منا لهذه
الطلبات ، وتقديراً منا لهذا الشعور الصادق الطيب ، نقدم الطبعة الثانية من
كتاب (روح الدين الاسلامي) سائلين الله أن ينفع بهذا الكتاب
قراءه وأن يكون برهاناً قوياً صادقاً على صحة هذا الدين وعظمته وصلاحيته
لأن يكون دستوراً للانسانية في حياتها وسعادتها .

محمد عمر الراعي

رائد جماعة عباد الرحمن

obeikandi.com

مقدمة الكتاب

لفَضِيْلَةِ الاسْتَاذ
الشيخ محمد سيد احمد الشال
من علماء الأزهر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الدعاة الى الحق والى طريق مستقيم وبعد : فقد جرت عادة المؤلفين قديماً ان يجعلوا مقدمة الكتاب حاضرة لأبوابه ، جامعة لاغراضه ، مشيرة الى غايته واهدافه ، حتى يكون القارىء بعد قراءتها على بيّنة بما يقرأ ، ومعرفة لما يهدف اليه الكتاب . وهذا أمر سهل لو كان للكتاب وحدة جامعة وغاية محددة لانها مهما اتسعت وتشعبت فالإيجاز يكفي للإشارة اليها والايان الى غايتها . اما اذا تشعبت ابواب الكتاب وتعددت فصوله ، واصبح الناظر فيه والمستوعب لمراميه كلما قلب صفحاته انتقل من باب الى آخر كأنه منفصل عن سابقه كل الانفصال - وان اتحدا في الهدف واسارا الى مقصد - فانه من الصعب ان تجعل له مقدمة حاضرة مهما اطلت فيها ، اللهم الا ان تضيف الى الكتاب كتاباً آخر ، وهذا مما تسأم منه نفس القارىء ، ولذلك سأكتفي بالإشارة العابرة الى امهات ابواب الكتاب لعل هذا اعطي فكرة مجملة عن موضوعه .

لقد عرض المؤلف اصول الاسلام عرضاً تحليلياً يتناسب مع ضيق الكتاب وتشعب ابوابه مع ذكر الحكمة لما يذكر وبيان الغاية منه ، واختار من الحكم ما يحقق قصده مع ايجازه ، فاقرأ له جميل اختياره للحكمة من التوحيد إذ يقول : « فالتوحيد في الاسلام الخالص من الشوائب الصادر من القلب تتبعه حتما جميع الفضائل المتعارف عليها ... ويستفيد

المؤمن من كلمة التوحيد عاطفة الاستقلال والحرية فليس لاحد عليه سلطات ويرى ان ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للملوك والزعماء المطلقين ورجال الدين سببه جهل الناس بالموثر الاعلى وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تريم ان قادتهم من طينة ارقى من طينتهم ... » ويؤيد المؤلف بيان الحكمة بالآيات القرآنية التي تقوي حجته وتدعم برهانه ، ثم ينتقل الى استعراض آداب الاسلام واحكامه ذاكراً اكل حكم الحكمة منه ، مؤيداً لهذه الحكمة بالآيات والاحاديث وآراء المفكرين المسلمين وغيرهم ان كانوا منصفين .

كل هذا على ضوء من طريقة القرآن الذي نهى عن التقيد بوجهة نظر واحدة ، فقد دعا الى الاخذ بالاحسن لان من الناس من يتخذ بما سمعه في اول عهده بالنظر وما قرأه لمن يحسن الظن بهم سدوداً امام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب الصحية ، فلماذا يظل على ضلاله ولا يجيد عنه . والاخذ بالاحسن نزعة جديدة في الاخلاص للحقائق فيجب على الباحثين ان يأخذوا باحسن ما يجدونه من جميع الفلسفات ، لان اسلوباً واحداً من البحث لا يصح ان يحتكر احسن طرق الوصول اليها ، قال الله تعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الألباب) .

ولقد سلك المؤلف هذا المسلك فلم يتعصب لرأي ولم يجعل حسن ظنه بمؤلف سداً يحول بينه وبين استعراض آراء غيره ، وربما استحسانه لهذه الآراء . وهذا مما يجعل القارئ تهدأ نفسه عند المطالعة لما يلمسه من حرية البحث وجميل الاختيار . واذا انتقلنا الى موضوع القرآن نجد المؤلف قد استعرضه من حيث ان القرآن وحي الهي مبين معنى الوحي وكيفية نزول القرآن وكتابته وجمعه ثم ذكر الحكمة من تحديه للعرب وعجزهم عن محاكاته فقال : « ومن طباع النفس التي جبلت عليها انها متى أخذت وكانت خذلانها من قبل ما تعدده اكبر مفاخرها واجمل صنعها ، واعظم همها ، واصابها الوهن في ذلك وضربها الخذلان باليأس ، فقلما تنفعها نافعة بعد ذلك او تجزئها قوة اخرى ... » ثم يستعرض خواص القرآن بشيء من التفصيل ، ويتعرض الى ما اشار اليه من النظريات العلمية في معرض الاستدلال على دعوته من وجود الله وتوحيده .

ثم يحتم المؤلف كتابه ببحث نبوة محمد ﷺ ويستعرض امرها على ضوء من العقل المجرد عن الفوى ويؤيد نبوته بالادلة التي يطمئن لها العقل بما ستقف عليه عند المطالعة .

وكان بودي ان استعرض شيئاً مما أتى به المؤلف من دحض بعض الشبهات عن الاسلام لولا ما اخذت به نفسي من انى ان اصيل لان دحض الشبه موزع في ثنايا الاحكام الكثيرة التي اشتمل عليها الكتاب والاشارة اليها تستلزم عرضها بايجاز او عرض الكثير منها وهذا يخرج بنا عن السنين الذي رسمناه ولذلك اكتفي بما استهل به بحث الحياة الروحية وردة على الذين يصفون الاسلام بانه شريعة مدنية لا تهتم بالمعاني الروحية بقوله : « والحق انه ليس هناك شبهة أبعد في الخطأ من هذا الزعم فالاسلام قد اشتمل على مبادئ وتعاليم روحية لا يوجد لها نظير في سموها وسرعة استجابة النفس لها في اي دين من الاديان الحاضرة » ولندع التفاصيل لتقرأ مع البحث في مكانه .

ولعلي ايها القارىء قد بررت بما اخذت به نفسي انى ان اصيل عليك ، ولعلك اخذت فكرة مجملة عن موضوع هذا الكتاب واهدافه وارجو ان وجدت تقصيراً في بحث ان تلتبس بالمعذرة للمؤلف فما احكم كتاب بعد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . نعم ارجو ان تلتبس بالمعذرة فما دفعه الى هذا العمل الا صدق النية في خدمة دينه مع انشغاله بمطالب الحياة ، وفي هذا ما فيه من تشتت الفكر وشروء الخاطر ، وعدم التفرغ لاستقصاء البحث او تمحيص الرأي ، ويشفع له حسن نيته واهل غايته .

حقق الله لنا وله الثواب ونفعنا والقارىء الكريم بما نعلم .

٩٥٤/١١/٢٧

اول ربيع الثاني / ١٣٧٤

محمد سيد احمد الشال

من علماء الازهر

مقدمة الطبعة الثانية

لفضيلة الأستاذ
سريف خليل بكر
المجازي القضاة من الأزهري

لا يزال القرآن الكريم منتجعاً خصباً للمؤلفين ، يستقون منه أروع المؤلفات الإسلامية التي تمس اعماق الاحاسيس البشرية ، ولا زالت المكتبة الإسلامية منذ فجر الاسلام الى يومنا هذا تتدفق عليها المؤلفات الدينية ، دون ان يحس المؤلفون لهذا المنتجع جفافاً ، او يشعرون لهذه المكتبة ريباً ، بل اننا نرى أن المكتبة الإسلامية تتطلب مع الايام انواعاً مبتكرة من المؤلفات لم تعرف طرائقها ونماذجها من قبل .

ان الكتب الدينية الموروثة رغم جودتها غير صالحة لأن توضع بين ايدي القراء أصحاب الثقافات المختلفة . ثم ان كثيراً من الكتب التي أضيفت حديثاً الى المكتبة الإسلامية ما هي في الواقع الا امتداد للاسلوب التقليدي القديم .

هذا وإن المنطق يقتضي أن تتناسب المؤلفات مع العصر الذي ألفت فيه ، وأن تراعي ثقافة جميع طبقات القراء لا ان تنحصر في طبقة بعينها . لذا فقد أصبح من الضروري ان توضع كتب جامعة عن الاسلام تعالج موضوعاتها وفقاً لروح هذا العصر وتفكيره .

لقد تنادى بعض حملة الاعلام في مختلف العالم الاسلامي الى ضرورة تأليف أمثال هذه الكتب ، فاستجاب لهذا النداء نفر من الكتاب اخرجوا كتباً قيمة تلقفها القراء بحماسة وشغف بالغ ، ولكن رغم ذلك كله فان ميدان الكتب لا يزال يشعر بنقص وفراغ ، وما برحت الحاجة ماسة الى أضعاف ما صدر من الكتب والى انواع اخرى مبتكرة .

لمس الأخ المؤلف هذه الضرورة فوضع كتابه هذا وقد جاء مطابقاً لرغبات

الجاهل فتلقته الايدي بسرعة مذهشة ، وقد استطاع هذا الكتاب أن ينتزع لفيلا لا يستهان به من قراء الكتب الاجنبية ، فقد رأى هؤلاء ان هذا الكتاب يغطي ما يشعرون به من نقص في ثقافتهم المدنية الخالصة .

وأرى ان من واجبي ان انوه بميزات هذا الكتاب الذي لقي شكر المتخصصين المعنيين بالابحاث الاسلامية ، لا اشهاراً له وانما تبياناً للحقيقة ، فهو كما قلت غني عن ذلك لأنه افتتح لنفسه ميادين جديدة كانت من قبل مغلقة دون سواه .

فميزات هذا الكتاب انه غزير المادة ، فهو عبارة مركزة لعشرات المراجع وامهات الكتب مع استنباطات جديدة مبتكرة في فهم اسرار القرآن ، وهو سهل العبارة ، بليغ الاسلوب ، بعيد عن المصطلحات العلمية الغامضة . والكتاب في نظري موسوعة موجزة للقضايا التي تهم العالم المتحدث عن الاسلام عاجلها المؤلف بامانة واخلاص .

لقد خدمَ هذا الكتاب خدمة قل ان نجد لها في كتاب مماثل له في موضوعه ؛ فالقارئ يجد لذة بالغة في مطالعة مواضيعه الشيقة والباحث لا يجد مشقة في الحصول على الابحاث التي يطلبها لجودة تأليفه وتبويبه .

اني الفت اليه نظر المربين طالبا منهم وضعه بين ايدي الطلبة الجامعيين والثانويين ليعرف هؤلاء الطلبة الاسلام على حقيقته الناصعة وليصححوا كثيرا من الاخطاء التي وقوت في اذهانهم بفعل التقاليد البالية ، أو بسبب مطالعتهم لكتب ومقالات كتبها خصومه المغرضون .

واذا كان من واجب المطلعين على حقائق الاسلام ان يعرفوا العالم على كنوزه الثمينة فقد قام مؤلف هذا الكتاب بقسط وافر من هذا الواجب .

وفقنا الله جميعاً لخدمة الانسانية والهمنا الخير والصواب .

شريف سكر

كلمة المؤلف

الحمد لله ، احمده واستعينه واستغفوره واصلي واسلم على محمد ﷺ من
ارسله الله رحمة للعالمين ، وبعد :

هناك ظاهرة واضحة تتميز بها المدنية الحديثة وهي : انتشار المذاهب
العقائدية والنظم الاجتماعية والسياسية ، وكثير من الافراد اليوم الذين نالوا
حظاً من الثقافة نراهم يتميزون بطابع خاص هو الاستقلال الفكري في اختيار
المذهب والنظام الذي يقتنعون به وما يرون مصلحتهم تتوافق مع اسسه .
هذا الاستقلال الفكري هل يؤدي - في القريب العاجل - بالمتقف
الى اختيار الدين الذي يقتنع به ؟

ان متبعي الاديان اليرم يرثون دينهم عن آباءهم ، فهذا مسلم وليس
هناك تعليل لذلك غير ان آباءه كان مسلماً فورث عنه الدين ، وهذا مسيحي او
يهودي بالوراثة أيضاً عن ابيه ، وحرى بنا في هذا العصر الذي بلغت فيه
المعارف الانسانية أوجها من المعرفة ان يتحرر العقل البشري من التقليد
ويختار عن علم وبيئة الدين الذي يطعن الى صحته ، وثبت قضاياها امام مجته .
ان العقيدة الدينية فطوة في النفس الانسانية وهي الملاذ الوحيد الذي
يعتصم به في الملمات ، هذه العقيدة جديرة بأن تأخذ حظاً وافياً من البحث
والدراسة وان تكون مبنية على الاقتناع في هدي من العقل الباحث المتحرر .
والاسلام - وبالاسف - لا يزال يجهل حقيقته وسماحته اكثر سكان
هذه الارض مع أن اي انسان نال قسطاً من العلوم لو درس الاسلام
دراسة خالية من تأثير الوراثة والعاطفة لبهرت وروعته ولانقادت نفسه بقوة
الى اعتناقه والاخذ بتعاليمه لما يرى في هذا الدين بما يبيل ظمأه الروحي وما
يشفي صدره من الآلام النفسية وما يرى فيه من الحقائق التي تسعد الناس

والتي هم عنها غافلون .

ولكن هذه الصورة الرائعة التي يتلقاها الدارس للاسلام لا يلبث ان يرى نقيضها عند التأمل في حالة المسلمين ، والحقيقة ان الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر . وقد احاب الشيخ محمد عبده في تقرير ذلك بقوله : « فجل ما تراه الآن مما تسميه العامة اسلاماً فهو ليس باسلام وانما حفظ من اعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الاقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات الى الجلود الذي ذكرته وعدّوه ديناً ، نعوذ بالله منهم وما يفترون على الله وعلى دينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وانما هو شيء آخر ، سموه اسلاماً »^١ وقد كان الشيخ جمال الدين الافغاني حكيم الاسلام يرى ان سوء حال المسلمين اكثف الحجب الحائلة بين شعوب اوروبا والاسلام ، ومن اقواله : « اذا اردنا ان ندعو احرار اوروبا الى ديننا فيجب علينا ان نقدمهم اولاً اننا لسنا مسلمين فانهم ينظرون الينا من خلال القرآن هكذا - ورفع كفيه وفرج بين اصابعها - فيرون وراءه اقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل ... فيقولون لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان اتباعه كما نرى ... »

والحق نقول : ان كثيراً من المسلمين اليوم مسلمون بالاسم لا يعرفون دينهم في تشويبعهم وعاداتهم التي يأخذون بها انفسهم في هذه الايام ، ولهذا لا يصح والحالة هذه اطلاق لفظ (الاسلام) عليهم فكما ان اي فرد لا يقبله اي حزب في عداده بدون ان يعمل ببادئ الحزب فكذلك الاسلام لا يصح اطلاقه على شخص لا تظهر اعماله مطابقة لتعاليم الاسلام ، ولهذا سوف نرى في هذا الكتاب ان الاسلام اشترط شروطاً خاصة ووضع اسماً يجب ان يعمل بها الفرد لقبوله في جماعة المسلمين .

ولكننا نرى اليوم في البلاد الاسلامية نهضة جبارة لاهياء الاسلام واظهار حقيقته تتراءى لنا تباشيرها بجهود كثير من العلماء المخلصين وبعض رؤساء الدول الاسلامية الذين ينتظر على يدهم الخير الكثير ، وبعض المعاهد والجمعيات الدينية التي يدرس فيها الاسلام على وجهه الصحيح .

وإذا كان حال العالم الاسلامي كما وصفنا فليس بغريب على غير المسلمين ان يتنكر للاسلام وخصوصاً العالم الغربي الذي يتميز بطابع خاص هو الجهل بحقيقة الاسلام، وسبب ذلك: تلك الحملة الباطلة التي قام بها اعداؤه لتشويه امام اقوامهم والتي فيها من الافتراء على التاريخ والكذب الشيء الكثير وذلك بما نشره من كتب ورسائل وقصائد تخدم غرضهم . يقول الكونت هنري دي كاستري في كتابه (الاسلام خواطر وسوانح) : « .. لست ادري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا اقايص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في اغاني القوال من المسيحيين ، فجميع اغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحروب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم وقد نتج عن تلك الاناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الاغلاط في الاذهان ولا يزال بعضها راسخاً الى هذه الايام فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبداء او ثان مارقين ... »^١

ويقول الاستاذ ديرمنجم : « حينما اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين واساء كل منها فهم الآخر ولكن يجب الاعتراف بان اساءة الفهم كانت من جانب الغربيين اكثر مما كانت من جانب الشرقيين . وفي الواقع انه على اثر تلك المعارك العقلية العنيفة التي ارهق فيها الجدليون البيزانتيون الاسلام بمساوىء واحتقارات دون ان يتعبوا انفسهم في دراسته ، هب الكتاب والشعراء المرتزة وأخذوا يهاجمون العرب فلم تكن مهاجمتهم اياهم الا نهماً باطلة بل متناقضة »^٢

والدراسة الجدية لتعاليم الاسلام والبحث الدقيق في اسراره ومزاياه لم يبدأ الا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية في اوروبا واخذ المستشرقون يجدون في كشف الثقافة الاسلامية وكان من وراء ذلك ان افترق الناس في القرآن الى معجب وطاعن فيه لغرض في نفسه .

ولا ريب ان الاسلام اليوم بحاجة الى بيان مزاياه وفضائله امام العالم

(١) نقلا عن الترجمة العربية للاستاذ احمد فتحي زغلول ص ٧

(٢) انظر صفحة ١٣٥ من كتاب « حياة محمد » لامييل ديرمنجم طبعة باريس ١٩٢٩

لمتمدن ودحض المعتقدات السيئة التي الصقت به واطهار حقيقته بما قدمه من علاج لأزمات الانسانية المستعصية ، وعرض أسسه التي تسمو بالانسان عن طغيان الشهوات والميول الفاسدة .

وفي العالم اليوم من يبحث عن العلاج الناجع مهما كان مصدره للخلاص من المشاكل التي تنتاب الانسانية ، والاسلام هو خير علاج لذلك كما سيتبين لك في هذا الكتاب .

وقبل ختام كلمتي هذه لا يسعني الا أن انوّه بالجهد الذي بذله صاحب الفضيلة الشيخ محمد سيد احمد الشال والشيخ محمد فهم ابو عبيه مبعوثا الازهر الى لبنان فقد ساهما جزءاً من اوقاتها الثمينة في مراجعة اجاث هذا الكتاب كما انها ابديا بعض الملاحظات والتوجيهات القيمة .

كما لا يسعني الا ان اشكر الاستاذ شريف خايل سكر المجاز في القضاء من الازهر والاستاذ حسين يوسف غزال المجاز في التدريس من الازهر والاستاذ الشيخ حسن خالد نائب قاضي بيروت اعترافاً بمعونتهم الصادقة وملاحظاتهم القيمة .

كما اقدم شكري وامتناني للدكتور زكي النقاش مدير كلية المقاصد الاسلامية في بيروت على ملاحظاته القيمة التي ابداهها على الطبعة الأولى . واشكر ايضاً الاستاذ مصطفى قصاص لجهوده الصادقة في الاشراف على تصحيح وطبع هذا الكتاب .

واشكر ايضاً الاستاذ درويش عبد الرحيم مدير مطبعة العباد على الجهود التي بذلها في طبع وتصحيح هذا الكتاب .

لهؤلاء جميعاً أسأل المولى ان يجزيهم خير الجزاء وييسرنا لخدمة دينه ، انه نعم المولى ونعم النصير .

عفيف عبد الفتاح طباره

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَتٍ يَهْدِيَهُ
يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
قُرْآنُ كَرِيمٍ

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ
فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ
قُرْآنُ كَرِيمٍ

الفصل الأول

مَعْنَى الْإِسْلَامِ

المعنى اللغوي - المعنى الشرعي - الأديان دعت الى وحدانية الله - الاختلاف في الدين بسبب البغي والعدوان .

الاسلام هو الاسم الذي عُرفَ به الدين الذي جاء به محمد عليه السلام ، ولم تكن هذه التسمية عن اختيار او اجتهاد وانما كانت من الله تعالى (ورضيت لكم الاسلام ديناً) المائدة : ٣ .

المعنى اللغوي

عني اللغويون والمفسرون والمستشرقون برد المعنى الشرعي للفظ (اسلام) الى اصله اللغوي ، وأثار البحث فيه كثيراً من الجدل . ونريد ان نثبت هنا الرأي الراجح ، فاذا تتبعنا مادة (س ل م) في اللغة رأيناها تأتي بهذه المعاني :

أولاً : معنى الخلوص من الشوائب الظاهرة او الباطنة . وفي معاجم اللغة أن السلم (بفتح فسكون) والسلام والسلامة تكون بمعنى الخلوص والتعري من الآفات الظاهرة او الباطنة .

ثانياً : معنى الصلح والامان ، ويقول اللغويون : ان السلم والسلام (بكسر السين وفتحها) معناهما الصلح .

ثالثاً : معنى الطاعة والاذعان . فالسلم (بفتحين) والسلم (بفتح فسكون) والسلم (بكسر فسكون) ، الاستسلام والاذعان والطاعة .

المعنى الشرعي

الاسلام هو توحيد الله والانقياد والخضوع واخلاص الضمير له والايثار بالاصول الدينية التي جاءت من عند الله .

فالقرآن جعل الاسلام في مقابلة الشرك (قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والارض وهو يُطعم ولا يُطعم قل إني أمرت ان أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين) الانعام : ١٤ .

كما ان القرآن جعله في مقابلة الكفر (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيامرکم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) آل عمران : ٨٠ . وجعله بمعنى الاخلاص لله (ومن احسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) النساء : ١٢٥ . ففي هذه الآية أثبت الله على من أخلص نفسه لله وجعلها سالة لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه .

وورد في القرآن بمعنى الخضوع والانقياد لله (وأنبيوا الى ربكم وأسلموا له) الزمر : ٥٤ . ولفظ (أسلم) اطلقه القرآن بهذا المعنى احياناً على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ومتقادون له بحكم خلقهم رضوا أم كرهوا ، نسري عليهم قوانين العالم ، ولهذا جاء في القرآن (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرها واليه يرجعون) آل عمران : ٨٣ . ومعنى أسلم هنا أي خضع لأمر الله واطاع لما وضع في العالم من قوانين ، ثم قصرت في الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً ، فكان (المسلم) هو الذي رضي بالطاعة الله فاجتمعت له الطاعة الطبيعية والطاعة بالارادة ، ولهذا تطلق كلمة (مسلم) على كل من خضع لله واطاع اي نبي من الانبياء . فالنبي نوح يقول كما جاء في القرآن (وأمرت ان اكون من المسلمين) يونس : ٧٢ . ويذكر الله نبيه ابراهيم في القرآن بقوله (واقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) البقرة : ١٣٠ - ١٣١ والنبي يوسف يقول مخاطباً ربه كما يقصه علينا القرآن (أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) يوسف : ١٠١ . كذلك النبي

موسى يقول لقومه (يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) يونس : ٨٤ . وجاء في القرآن عن عيسى (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون) آل عمران : ٥٢ . ثم ارسل الله رسوله محمداً عليه السلام بالشريعة المكملة لهؤلاء الانبياء ، يقول الله مخاطباً محمداً عليه السلام (انا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتيناه داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلمتم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء : ١٦٣ - ١٦٥ .

هنا يعترض معترض فيقول : إذا كان الله أوحى لمحمد كما أوحى إلى النبيين من قبله فلماذا تختلف هذه الاديان جميعها ؟ ...
هنا نرد على المعترض فنقول : ان القرآن نفسه عالج هذا الاعتراض وقدّم لذلك بدهيات علمية منطقية تلقي ضوءاً على الاديان الحاضرة وتبين الحق من الباطل .

الاديان دعت الى وحدانية الله

منها : ان القرآن أخبر بأن الله لم يرسل رسولاً الا بالدعوة إلى وحدانية الله ولهذا يخاطب الله رسوله محمداً عليه السلام بقوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون) الانبياء : ٢٥ . ولهذا أمر الله رسوله محمداً عليه السلام بدعوة اليهود والنصارى على هذا الاساس (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء^٢ بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا

١ اهل الكتاب : هم اليهود والنصارى

٢ سواء : اي عدل وانصاف

بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا شهدوا بأننا مسلمون آل عمران: ٦٤ .
فالقرآن ينطوق هذه الآيات يخبر بأن الله لم يرسل رسولاً الا بالدعوة
الى وحدانيته ، فغير التوحيد اذن دخيل على الاديان .

الاختلاف في الدين بسبب البغي والعدوان

ومنها : ان الدين واحد لا يجوز الاختلاف فيه وان الخلاف الذي
كان عبر العصور هو بسبب البغي والعدوان على الدين . وتحريفه من قبل
القائمين على الاديان بما يوافق مصالحهم وللوصول الى الرياسة وحظوظ الدنيا .
وكانت رسالة محمد اظهر هذه الحقيقة ، ودعوة الناس جميعاً ان يجتمعوا على
الدين الاسلامي قال تعالى : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو
العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم . ان الدين عند الله
الاسلام ٢ وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم
بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب . فان
حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب
والامين ٣ اسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ
والله بصير بالعباد) آل عمران : ١٨ - ٢٠ .

واذا كان الدين واحداً لا يجوز الاختلاف فيه فهذا الخلاف الذي حصل
من اتباع الاديان المسيحية واليهودية والاسلامية وافتراق كل طائفة الى فرق
وحصول العداوة بينهم هو مخالف لتعاليم الله الذي ما نزل الاديان الا لتكون
سلاماً على الارض ومحبة بين الافراد والامم ، ولهذا كانت رسالة محمد
التوفيق بين المتخالفين ، ببيان الحق الذي حادوا عنه وكان القرآن محذراً

١ ارباباً : جمع ربوهو السيد الرب الذي يطاع فيما يأمر وينهى ويراد به هنا من له حق
التشريع من تخريم وتحليل . اي لا تطيعوا احباركم ورهبانكم فيما احدثوا من التحريم والتحليل
من غير رجوع الى ما شرع الله .

٢ جملة (ان الدين عند الله الاسلام) مستأنفة مؤكدة للجملة الاولى فان قلت : ما فائدة هذا
التوكيد . قلت فائدته ان قوله تعالى (لا اله الا هو) توحيد ، وقوله (قائماً) تعديل فاذا اردف
قوله (ان الدين عند الله الاسلام) فقد اذن ان الاسلام هو العدل والتوحيد وهو الدين عند الله
وما عداه فليس عنده في شيء من الدين (عن الكشاف) .

٣ الامين : الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

أتباع محمد من الاختلاف ، ولهذا يقول تعالى مخاطباً أتباع محمد : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ^١ ولا تتفرقوا فيه ^٢ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا ^٣ الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لفضي بينهم وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فذلك فادع ^٤ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) الشورى : ١٣ - ١٥ .

فرسالة محمد غايتها اصلاح ما طرأ على الاديان من البدع والوجوع الى اصلها الاول مع الاتيان بشريعة كاملة تنسخ ما قبلها من الشرائع ، وهذه الشريعة توافق ما اقتضاه التطور العقلي للانسان وتصلح لكل زمان ومكان - كما سنبرهن على ذلك فيما بعد - وانما هي الشريعة المقبولة عند الله التي لا يقبل غيرها كما صرح بذلك القرآن (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) آل عمران : ٨٥ .

-
- ١ اقيموا الدين : اقامة الشيء توفيته حقه من عام وعمل . والدين المراد به دين الاسلام .
 - ٢ ولا تتفرقوا فيه : تحذير للمسلمين من الاختلاف والتفرق . والمسلمون قد عصوا في هذه الناحية فترى الفرقة قد اجتاحتهم مما اضعفت شأنهم واطمعت الغريب فيهم .
 - ٣ تفرقوا : يعني اهل الكتاب بعد انبيائهم .
 - ٤ الخطاب هنا محمد عليه السلام .
 - ٥ الله ربنا وربكم : بين القرآن الكريم مساواة الناس جميعاً وعدم استعلاء بعضهم على بعض فالله رب الجميع وكلهم متساوون لاميزة لاحدهم الا بالعمل الصالح (لنا اعمالنا ولكم اعمالكم) .

الفصل الثاني

القرآن الكريم

بَعْضُ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ وَالْأَدْلَالُ الْعِلْمِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

معنى الوحي - دحض شبهة عنه - كتاب القرآن - جمع القرآن
وتسغه في المصاحف - سلامة القرآن من التحريف - كيف كان
ينزل القرآن وحكمة ذلك - القرآن يتحدى - القرآن معجزة محمد
- أسلوب القرآن - بعض خصائص أسلوبه - شهادة بعض كتاب
الغرب في أسلوب القرآن - بعض وجوه إعجاز القرآن وهي : فصاحته
في كل المواضيع - وفرة بلاغته - سلامته من التناقض والخطأ - سمو
روحه - غزارة معانيه - اشتماله على انباء غيبية - قصصه - روحه - بعض
معجزاته العلمية .

القرآن هو الوحي المنزل من عند الله على رسوله محمد بن عبد الله خاتم النبيين
المنقول عنه نقلاً متواتراً^١ نظماً ومعنى ، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً .
وقبل ان نشرع في تفصيل موضوع القرآن يحسن بنا ان نلم المامة سريعة
بمعنى الوحي^٢ وكيف كان يأتي لمحمد عليه السلام .

١ التواتر : هو ان يتلقى الكلام الجمع العظيم عن النبي عليه السلام ثم ينقله جمع عن هذا
الجمع وهكذا حتى يصل الينا كما نطق به النبي من غير تحريف ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة .
٢ الوحي : يطلق الوحي في اللغة على عدة معان منها : الرسالة ، فيقال اوحى اليه وحياً
بمعنى ارسل اليه رسالة . ويطلق ايضاً على الالهام وعلى الكلام الخفي يقال : وحيت اليه واهويت
اذا كلمته بما تخفيه عن غيره .

معنى الوحي

اجاء الله الى انبيائه ورسله هو القاؤه اليهم ما يريد ان يعلموه من المعارف الدينية . ويعرفه الشيخ محمد عبده بقوله : « ان الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة او بغير واسطة والاول بصوت نفسه يتمثل لسمعه او بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتتساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو شبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور »^١

هذا التعريف يشمل انواع الوحي الثلاثة الواردة في قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً او من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء انه عليّ حكيم) الشورى : ٥١ . فالوحي هنا اللقاء المعنى في القلب ، والكلام من وراء حجاب هو ان يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما كلم الله موسى عليه السلام ، واما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله الى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل او غير متمثل ويسمعه منه او يعيه بقلبه .

الوحي في السنة

فصلت كتب الحديث مراتب الوحي التي كانت للنبي ﷺ تفصيلاً منها :
اولاً - الرؤيا الصادقة : ففي صحيح البخاري عن عائشة زوج النبي اُمّها قالت : اول ما بدى به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .

ثانياً - ما كان يلقيه الملك في روعه من غير ان يراه كما قال محمد ﷺ :
« ان روح القدس^٢ نفث في روعي^٣ أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فان ما عند الله لا يطلب الا بطاعته » .

١ رسالة التوحيد ط ١٠ ص ١٢٥ .

٢ روح القدس : اي جبريل .

٣ روعي : اي نفسي .

ثالثاً - ما كان يأتيه مثل صلصلة الجرس^١ .

رابعاً - ان يتمثل له جبريل رجلاً . جاء في صحيح البخاري : ان الحارث ابن هشام رضي الله عنه ، سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله : احياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم^٢ عني وقد وعيت عنه ما قال ، وحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

خامساً - رؤية الملك في صورته التي خلق عليها له ستمئة جناح فيوحى اليه ما شاء الله ان يوحى به .

سادساً - ما اوحى الله اليه به وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلوات وغيرها .

سابعاً - تكليم الله له من وراء حجاب بلا واسطة ملك كما كلم الله نبيه موسى وهذا ما ذكر في حديث الاضرأ .

وحض شبهة عنه

هذا ما روي في كيفية الوحي ، ولكن هذا الذي كان يحصل لمحمد عليه السلام هل هو صورة ذهنية ، أم حقيقة لها وجود في الخارج . لان الباحث المدقق يعلم ان ضروباً من الامراض العصبية وخصوصاً الهستيريا تظهر للمريض بها اشباحاً لا حقيقة لها ، وقد تجرأ بعض كتاب الغرب فقدم هذا الافتراء على محمد ، ووصف الوحي الذي كان ينزل عليه بأنه نوع من الهستيريا وجل علمه في هذا السبيل جهل بالوحي المحمدي او تعصب أعمى وكرهه لمحمد أملته بعض المصالح التبشيرية التي يخدمها . وهذا الافتراء لا يرتكز على أي اساس علمي او واقعي كما سيتبين لنا من هذه الوجوه .

منها : « أن الهذيان الهستيري لا يحدث الا مصحوباً باعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل ، وهو ما لم يحصل قط لمحمد حتى

١ صلصلة الجرس : صوت الجرس

٢ يفصم : ينفصل عنه ويفارقه

في أثقل حالات الوحي عليه .

ومنها : ان ما ينسب للهستيري من الهذيان يحدث في اثناء النبوة فإذا افاق المريض لم يذكر شيئاً مما قاله . وهذا على عكس حالة محمد فقد كان لا ينطق في اثناء الوحي بشيء حتى يتم ، فيعيد كل ما ألقى اليه ويأمر بتدوينه . . .
ومنها : ان مواضيع الهذيان الهستيرية لا تخرج عادة الا عن تصورات وهمية تناسب الاعصاب المتعبة المريضة كتخيل المريض رؤية روح شرير يتوعده بالأذى او يتقصده بالقتل ، او يقلقه بالاستهزاء والتحقير ، ولم يشاهد هذيان هستيري قط موضوعه نشر فضيلة او إذاعة هداية . . . ١ .

إذاً بطل افتراض الهذيان الهستيري من الوجهة العلمية كما رأينا ، ولم يبق امامنا الا فرض ان ما كان يأتيه محمد هو وحي من عند الله وهذا ما احببنا الدلالة عليه من ناحية بلاغته وتشريعه العادل الذي سبق ما استحدثته المدنية بقرون طويلة .

بدء نزول القرآن

بدأ نزول القرآن ٢ بمكة وأول ما نزل منه - عندما كان رسول الله يتعبد وحده في غار حراء - هذه الآيات (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) العلق : ١ - ٥ . ثم توالى نزول القرآن على حسب الحوادث حتى تم نزوله في ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

كتاب القرآن

وكان رسول الله قد اتخذ له كتاباً يكتبون ما ينزل من القرآن اشهرهم الخلفاء الأربعة : ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، كذلك زيد بن ثابت وابي بن كعب ، ومعاوية بن ابي سفيان واخوه يزيد ، والمغيرة بن شعبه والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد وكانوا يخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من

١ محمد فريد وجدي المجلد العاشر من مجلة الازهر ص ١٠٠ .

٢ القرآن لفظة قال الزجاج : هو وصف على وزن فعلان مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع وسمي الكلام المنزل على النبي قرآناً لانه جمع السور او جمع ثمرات الكتب المقدسة .

جريد النخل ، والحجر الرقيق ، وعظام الاكتاف والاضلاع من الشياه والابل وكل ما أصابوا من مثلها بما يصلح لغرضها . وكان النبي ﷺ يدلهم على موضع كل آية من سورتها .

وكان من الصحابة في العهد النبوي من جمع القرآن حفظاً عن ظهر قلب ، كعبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل مولى ابي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت .

جمع القرآن ونسخه في المصاحف

لم يجمع القرآن في مصحف على عهد رسول الله على أمل نزول الوحي عليه ما دام حياً ، ثم توفي رسول الله والقرآن في الصدور وفي ما كتبوه عنه ، وخلفه ابو بكر الصديق وكانت قد حصلت في خلافته حروب اهل الردة ومنها غزوة اهل اليامة ، والمخاربون اكثرهم من الصحابة ومن حفظة القرآن ، فقتل في هذه الغزوة كثير من الحفظة ، فأشار عمر بن الخطاب على ابي بكر بجمع القرآن في مصحف خشية ان يذهب بذهاب الحفظة ، فتردد ابو بكر اول الامر لانه فعل لم يكن على عهد رسول الله ثم ارتاح لرأي عمر لما فيه من المصلحة فدعا زيد بن ثابت لانه كان الزم الصحابة لرسول الله ومن احفظهم للقرآن وكلفه بكتابة القرآن في مصحف واحد ، فجمع زيد جميع الصحف واودع كل ذلك بين دفتي كتاب واحد ، ثم امسك ابو بكر تلك الصحف عنده الى ان توفاه الله ثم كانت عند عمر بن الخطاب ثم جعله عمر عند بنته حفصة ام المؤمنين .

ثم لما انتشر المسلمون في الافاق اختلف الناس بالقراءة على قدر اختلاف لغاتهم مثل كلمة « التابوت » كان يقرأها بعضهم بالتاء وبعضهم بالهاء فأخبر عثمان بن عفان وكان الخليفة فاستحضر الصحف التي كانت عند حفصة وجمع ستة من الرجال الذين اشتهروا بالحفظ والضبط وجمع القرآن وهم المعروفون بالنفر القرشيين وعهد اليهم بكتابة المصحف على ما استقر عليه الامر في العرضة الاخيرة التي عرض بها رسول الله القرآن على

جبريل في عامه الاخير على العادة التي جرت من مداورة القرآن بين جبريل والنبي في رمضان . ومع ذلك فقد كان زيد بن ثابت لا يكتب آية في المصحف الا بعد ان يشهد له رجلان بأنها سمعاها من فم رسول الله عند نزول الوحي . وقد كتب هؤلاء نفر القرشيون اربع نسخ وقيل ستاً وبعث بها امير المؤمنين عثمان بن عفان الى الآفاق : مكة والكوفة والشام ، وابقى لاهل المدينة مصحفاً يرجعون اليه ، وقيل بعث خامساً الى اليمن وسادساً الى البحرين ، وكتب لنفسه مصحفاً يقرأ به . ثم أمر باحراق ما عدا تلك الصحف الآتفة الذكر فكان كل مصحف من هذه المصاحف هو الامام في رجوع الناس اليه وتحويلهم في انتساخ مصاحفهم .

وسور القرآن تنقسم الى قسمين : فما نزل قبل الهجرة يقال له المكّي وما نزل بعد الهجرة يقال له المدني .

والسورة ^١ هي قطعة من القرآن مستقلة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر . وسور القرآن مئة وأربع عشرة سورة لكل سورة منها اسم خاص . وقد وقع لبعضها اسمان فأكثر ، من ذلك فاتحة الكتاب وتسمى ايضاً أم القرآن والسبع المثاني . واسماء السور تارة تؤخذ من مطالعها واوائلها ، وبعضها يسمى بأشياء لم تذكر في اوائلها ومطالعها وانما اختصت السورة بها وبعضها يسمى بماكثر تردده فيها من احكام وقصص .

سلامة القرآن من التحريف

لم 'تعن' أمة في العالم بكتاب سماري او أرضي عناية الامة الاسلامية بالقرآن الكريم . ولم يحط كلام الهي او بشري بمثل ما احيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس .

فقد كانت تنزل الآية او الآيات منه فيحفظها النبي عن ظهر قلب ثم يتلوها ساعة نزولها على المحيطين به ثم يأمر عشرات من القراء بتدوين ما انزل اليه كما ان النبي كان يحتفظ بنسخة مما كتب في داره .

١ قال الجاحظ : سمي الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمي العرب كلامهم حجة وتفصيلاً ، فسمى جملته « قرآنًا » وسموا « ديواناً » . وسمى بعضه سورة ، وسموا قصيدة . وسمى بعض السورة آية وسموا بيتاً . وسمى اخر الآية فاصلة ، وسموا قافية .

ثم لم يكن القرآن كغيره من الكتب المقدسة التي سبقته محتكراً في يد طائفة من الطوائف حتى يسبق الى الذهن ظن في احتمال طروء التعريف اليه قصداً او عفواً بل كان عاماً شائعاً بين ايدي المسلمين ، أمروا أن يتعبدوا بتلاوته في صلواتهم وان يحكموا به ، فكيف يتصور ان يقع فيه تحريف ولا يدري به جمهورهم وهم إذ ذاك جاعلوه دستورهم في كل محاولاتهم الدينية والاجتماعية ؟

ثم ان القرآن قبل ان يجمع زمن ابي بكر كانت اجزاؤه المكتوبة موجودة عند الرسول وكثير من الصحابة ، وكان هؤلاء يتلونه في بيوتهم ، ولما جمعه عثمان اخيراً كان كتابه وحفاظه لا يزالون على قيد الحياة فكيف يعقل ان يتطرق اليه التعريف . وصدق الله إذ قال في وصف القرآن (انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون) الحجر : ٩ .

كيفية نزول القرآن وحكمة ذلك

أنزل القرآن خلال ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، فرمما نزلت الآية المفردة وربما نزلت آيات عدة الى عشر ، وذلك بحسب الحاجة التي تكون سبباً في النزول ليكون ذلك أنس للعرب وأدعى للقبول ، وأبلغ في الحجة عليهم وأظهر لوجه اعجازه . ولولا نزوله متفرقاً آية واحدة الى آيات قليلة ما افهمهم الدليل في تحديدهم بأقصر سورة لان القرآن تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل سورة كما سيأتي - فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان لهم بعض العذر في معارضته ، ولكن

الآية او الآيات كانت تنزل في وقت وكان يفصل بين وقت وآخر زمن يكفي لأن تنهيا نفوس لمعارضته ، او الاتيان بمثله ، ولكنهم كانوا يعجزون رغم الفرصة الكافية التي كانت تسنح لهم ، وهذا من اعظم الدلائل على وجه اعجاز القرآن ، وبخاصة اذا اعتبرت ان اكثر ما نزل في ابتداء الوحي الى ان هاجر النبي من مكة انما هو من قصار السور وذلك ولا ريب مما تنهيا فيه المعارضة .

كما ان في نزول القرآن منجماً حكمة اخرى هي استدراج العرب وتصريف انفسهم بأوامره ونواهيه على حسب التوازل والحوادث - فمن الحكمة ان يكون الدواء عند حدوث الداء - ليكون نحوهم عن

اخلاقهم وعاداتهم بسهولة ويسر . فالعرب كانوا قبل الاسلام في اباحة مطلقة
فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم النكاليف فتتفرق قلوبهم عن
قبول ما فيه من الاوامر والنواهي .

ومن حكمة انزاله مفرقاً أن يحفظه النبي ويعيه وان يثبت الله به فؤاده
كلما اشتدت معارضة المعارضين ، قال تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل
عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً) الفرقان :
٣٢ . فقد كان الرسول امياً لا يقرأ ولا يكتب اما غيره من الرسل فقد كانوا
كاتبين قارئين يمكنهم ان يضبطوا ما ينزل عليهم من الكتب جملة .

الْقُرْآنُ يَتَحَدَّى

تَحْدِي الْقُرْآنُ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ إلهي

كانت العرب مفضولة على حب البلاغة والشعر والخطابة ، وحسبك انهم
كانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الخطباء وينشدون فيها اشعارهم
كسوق عكاظ وكان هناك شعراء فحول يحكمون بينهم .

وهذه الفنون من القول اشتهرت بين العرب ، وكانت اسمى ميزاتهم لأمرين :
اولاً - ان حياة البادية تدعو الى التأمل واثارة العواطف واناء الخيال
وهي امور تلهم الشاعرية وتوحي ضروب القول .

ثانياً - ان حياتهم القبلية كانت مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة
لذلك كانوا بحاجة الى الشاعر البليغ الذي يرفع منزلة قبيلته ويعلي من شأنها
ويحط من قيمة القبيلة الاخرى المخاصمة ، من هنا كثر اهتمامهم بالشعر ، فرفعوا
منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، ونوهوا بهما .

جاء القرآن الكريم افصح كلاماً وابلغ اسلوباً ومعنى ليجد السبيل الى
امتلاك الجزيرة العربية التي كانت مسرحاً للفوضى والاضطراب . . وهو

لا يستطيع ان يستولي عليها الا إذا كان اقوى منها فيما هي قوية به بحيث يشعر
اهلها بالعجز والضعف ، ومن طباع النفس التي جبلت عليها انها متى خذلت
وكان خذلانها من قبل ما تعده اكبر فخرها واجل صنعها واعظم همها ،
واصابها الوهن في ذلك وضربها الخذلان باليأس ، فقلما تنفعها نافعة بعد ذلك
او تجزئها قوة اخرى . . .

فمن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي
أكبر أمرهم ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم^١ .
سمعه فصحاءهم وبلغاؤهم فخرؤا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ، بهر
الشعراء منهم فخرست السنتهم ، وسكتت شاعريتهم ، وضاع الهامهم . وذهبت
كل بلاغة في تياره .

ولكن زعماء الشرك ابوا الاذعان للدين الجديد والايان برسالة محمد فأخذوا
يجاربون الحق بالالوهام ويؤلبون قوى الشرك على داعية الاسلام فقالوا في
في القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهو أساطير الاولين ، ولو نشاء لقلنا
مثل هذا ورموا محمداً بالجنون .

ولما كان من عادة العرب ان يتحدى بعضهم بعضاً في المساجلة بالكلام ،
والمقارضة بالقصيد ، لان ذلك مذهب من مفاخرهم يستعملون به ويذيع لهم
حسن الذكر وعلو الكلمة ، امام هذا تحداهم القرآن في آيات كثيرة ان يأتوا
بمثله او بعضه .

« وحكمة هذا التحدي وذكره في القرآن إنما هي ان يشهد التاريخ في كل
عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد^٢ ، والفصحاء اللسن . . . حتى لا يجيء بعد
ذلك فيما يجيء من الزمن مولد او أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة
فيزعم ان العرب كانوا قادرين على مثله وانه غير معجز^٣ . . . »

اما الطريقة التي سلكها القرآن في هذا التحدي فقد كانت مقصورة على
طلبه ان يأتوا بمثل القرآن ، قال تعالى في سورة القصص : (قل فأتوا بكتاب

٢ الخصم الشديد.

١ اعجاز القرآن للرافعي ص ٢١٨ ط ٣.

٢ اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٢ ط ٣

من عند الله هو أهدي منها اتبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم
انما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله
لا يهدي القوم الظالمين (: ٤٩ - ٥٠ .

طلب القرآن منهم في هذه الآية انشاء كتاب مثل القرآن ، وكان قد
نزل قبلها من القرآن سبع واربعون سورة .

حارت العرب في امرها لا تدري كيف تأتي بكتاب مثل القرآن ،
ويظهر انها حاولت ان ترد على هذا التحدي فعجزت ، ولذا نرى القرآن
يخاطبهم بما ورد في سورة الاسراء من انهم لن يستطيعوا ، بل ولن يستطيع
الانس والجن مجتمعين ان يأتوا بمثله ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس
والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيراً) : ٨٨ .

ومضى القرآن خطوة أخرى في تحديهم فلم يطالب بكتاب ولكن طالب
بعشر سور كما جاء في سورة هود (ام يقولون افتواه ، قل فأتوا بعشر سور مثله
مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم
فاعلموا انما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل اتم مسلمون) : ١٣ - ١٤ .
ففي هذه الآية جعل الله عجز العرب عن الاتيان بمثل عشر سور من القرآن
دليلاً على ان القرآن من عنده ودليلاً على وحدانيته .

ثم مضى القرآن خطوة ثالثة فطالب بسورة واحدة كما جاء في سورة
البقرة وهذا نهاية التحدي (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا^١
فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم^٢ من دون الله ان كنتم صادقين .

١ الريب : الشك .

٢ المبد : يطلق بمعنى الرقيق أي خلاف الحر ويطلق على الانسان ولو كان حراً باعتبار
معنى عام هو عبوديته لله وعلى هذا الوجه اطلق في الآية مراداً منه الرسول محمد عليه السلام وفي
اضافته الى الله تعالى « عبدنا » تنبيه على شرف منزلته عنده .

٣ شهداءكم : الهتكم فقد كان العرب يزعمون ان الهتهم تشهد لهم يوم القيامة بانهم على الحق
والمعنى : نادوا الذين اتخذوهم اولياء من غير الله ليعينوكم على المعارضة .

فإن لم تفعلوا - وإن تفعلوا - فأتقوا النار^١ التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (: ٢٣ - ٢٤ .

« فهذا القضاء الحاتم منه بانهم لن يستطيعوا ان يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشرياً ، ومن الصعب بل ومن المتعذر ان يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه ، الغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه « اي محمد » وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حشهم عليه^٢ .

سمع العرب آيات التحدي وانتشرت فيما بينهم ودارت على اللسنة فبدا عجزهم ، وظهر ضعفهم عن مجازاة هذا التحدي وعرفوا انها تعجزهم الى آخر الحياة .

« فلو ان هذا القرآن غير فصيح او كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي القيت اليهم ... لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والاقاصيص .. ثم لنقضوه كلمة كلمة وآية آية دون ان تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم ولكان لهم وله شأن غير ما عرف^٣ .

وهكذا عجز العرب أمام التحدي ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية او آيات أو سورة أو سور واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة لا فرق بين خطيبهم وبلغهم وشاعرهم .

يقول الجاحظ في معرض كلامه عن القرآن : « فحال كرمك الله ان يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الامر الظاهر والخطأ المكشوف البين مع التقرّب بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا اليه والحاجة تبعث على الحيلة في الامر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ! وكما انه محال ان يطبقوا ثلاثاً

١ فأتقوا النار : اي فخافوا العذاب الذي اعده الله للجاحدين وهو النار .

٢ رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٧٠ .

٣ اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٩ .

وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة فكذلك محال ان يتروكه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون اكثر منه .

ثم امتدت الاجيال وتوالت العصور ، والعلماء والادباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون باعجازه ويقرّون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان .

وفي تاريخ العربية فحول في النثر : كبن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع ، وفحول في النظم : كجرير والفرزدق وبشار وابي نواس وابي تمام والمتنبي والمعري وشوقي ، ولكن اين بلاغتهم من بلاغة القرآن ، وهل منهم الا من اذعن وبهر ، وخشع وخضع ، وأيقن انه وحي السماء . ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الادب والبيان حتى اليوم يؤمنون بإيماناً صادقاً بان لاسبيل الى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وانه كلام الله وكتابه ، وان نبوة محمد انما بنيت على هذه المعجزة .

القوآت معجزة محمد ﷺ

اقتضت حكمة الله ان تكون معجزة محمد من جنس ما اشتهر العرب بالنبوغ فيه ، لان كل رسول تكون معجزته من جنس ما نبغت فيه امته . ولهذا لما كان قوم فرعون اهل علوم رياضية وطبيعية واولي سحر وصناعة ، آتى الله رسوله موسى آيات كان العلماء والسحرة اعلم الناس بانها من عند الله لا من كسب موسى ، فكانت معجزة موسى عصا انقلبت حية تسعى فلققت كل حبال السحرة .

ولما كان قوم عيسى قد اشتهروا بالطب وغلب عليهم إنكار الروح آتاه الله من الآيات إبراء الاكمه والابرص واحياء الميت .

والحق يقال : ان عجائب الانبياء السابقين الدالة على صدق نبوتهم هي وقائع تنقضي ، يراها الذين عاصروا الانبياء ولا يراها الذين يأتون من بعدهم بل تصل اليهم بالاخبار ، وقد صارت في هذا العصر عند الملحدين مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وصحتها وفي دلالاتها ، ولهذا جعل الله

الآية الكبرى على اثبات رسالة محمد : القرآن ، المعجز للبشر بهدايته وتشريعه واسلوبه ومعانيه التي تتميز بخلودها وبقائها على الزمن ، فقد انزل القرآن بعد ان ترقى العقل البشري فكان البرهان الذي يتفق مع هذا الرقي .

وفيما يلي دراسة علمية موجزة عن اعجاز القرآن التي تشهد انه وحي الهي يقتنع بها كل ذي عقل سليم ولا يرفضها الا كل مكابر .

اعجاز القرآن

الاعجاز معناه في اللغة نسبة العجز الى الغير واثباته له ، يقال : اعجز الرجل اخاه إذا أثبت عجزه عن شيء ، واعجز القرآن الناس اثبت عجزهم عن أن يأتيوا بمثله « والقرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الاعجاز على اطلاقه ... فهو امر لا تبلغ منه الفطرة الانسانية مبلغاً وليس الى ذلك مأتى ولا جهة ، وانما هو اثر كغيره من الآثار الالهية يشاركها في اعجاز الصنعة وهيئة الوضع ١ ... »

ووجوه اعجاز القرآن وافرة ، إلا انها تحتاج الى تحليل واسهاب واستدلال عليها بالآيات القرآنية وهذه الامور تستغرق عدة مجلدات . ونحن مضطرون في هذا البحث الى الايجاز والاكتفاء بلمحة عن بعض نواحي اعجاز القرآن التي تشهد أنه وحي الهي ليكون لدى القارئ فكرة مجملة عن اعجازه . ونبدأ بأسلوب القرآن والخصائص التي يمتاز بها .

اسلوب القرآن

في القرآن مظهر غريب لاعجازه المستمر الا وهو اسلوبه ، فهو نط فريد في البلاغة والروعة واشراق البيان ، وجمال الدباجة ، واسلوبه مخالف لاساليب كلام العرب ومناهج نظمها .

يقول الدكتور طه حسين : « إن القرآن ليس نثراً كما انه ليس بشعر انما هو قرآن ولا يمكن ان يسمى بغير هذا الاسم . ليس شعراً وهذا

واضح فهو لم يقيد بقيود الشعر ، وليس نثراً لانه م
توجد في غيره وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر
النغمة الموسيقية الخاصة ١ .

ويقول الباقلاني : « ان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلافه ولقد
خارج عن المهود من نظام جميع كلام العرب ومباين للمألوف من ٢٧ .
خطابهم ، وله اسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ٢٤ .
« من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم انما ينفرد بأسلوبه لانه ليس وضماً
انسانياً البتة ، ولو كان من وضع انسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من
أساليب العرب او من جاء بعدهم الى هذا العهد ٣ ، وما من عالم أو بليغ
الا وهو يعرف ذلك ، ويعمد خروج القرآن عن أساليب العرب دليلاً على
اعجازه وعلى انه ليس من كلام الناس ولا من كلام محمد ولولا هذا الاسلوب
ما افهم العرب لانهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تؤديه طباعهم . ولما
حاول بعضهم معارضته (كسيلة) اخذ يقلده فجاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه
كلام نفسه فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها .

اختلاف اسلوب القرآن عن الحديث النبوي

وهناك ناحية جديرة بامعان النظر تشهد بان القرآن وحي الهي وهي انسا
نرى اسلوب القرآن مخالفاً لاسلوب كلام النبي عليه السلام . فاذا رجعنا الى
كتب الاحاديث التي جمعت أقوال النبي وقارناها بالقرآن رأينا الفرق واضحاً
في كل شيء : في اسلوب التعبير ، وفي الموضوعات . فالحديث النبوي تتجلى
فيه لغة المحادثة والتفهم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى
العرب بلغة منتقاة غير نابية وبإيجاز في القول بخلاف اسلوب القرآن الذي لا
يُعرف له شبيه في أساليب كلام العرب .

كما وان الحديث النبوي تستشعر من وراء أسلوبه بشخصية بشرية ،

١ من كتاب حديث الشعر والنثر ص ٢٥ ٢ عن اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٨ .

٣ عن اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٦٩ .

وذاية يعترها الضعف وتعز به هذا الضعف امام الله ، بخلاف القرآن الذي يتراءى لك من آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة رحيمة ، وهذه الذاتية لاتضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة ..

فلو كان القرآن من كلام محمد كما يدعي البعض لكانت اقواله والقرآن صنوبن لانه من المسلم به لدى اهل البصر الادبي انه من المتعذر على الشخص الواحد ان يكون له اسلوبان في بيانه يختلفان اختلافاً كبيراً احدهما عن الآخر .

فهذا الاختلاف الواسع المدى بين اسلوب القرآن واسلوب الحديث والذي يدركه من له إلمام ببسائط اللغة العربية يشهد بان القرآن وحي الهى .

بَعْضُ خِصَائِصِ اسْلُوبِ الْقُرْآنِ

التصوير الفني في القرآن

الاداة المفضلة في اسلوب القرآن والقاعدة الاولى فيه للبيان هو التصوير الرائع « فالقرآن يعبر بالصورة المحسنة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، او الحركة المتجددة . فاذا المعنى الذهني هيئة او حركة ، واذا الحالة النفسية لوحة او مشهد ، واذا النموذج الانساني شاخص حي ، واذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ...

فاذا ذكرنا ان الاداة التي تصور المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الانساني او الحادث المروي ، انما هي الفاظ جامدة ، لا الوان تصور ولا شغوص تعبر ادر كنا سر الاعجاز في تعبير القرآن .

والامثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله ، حيثما تعرض لغرض من الاغراض التي ذكرناها ...

فالتصوير الفني في القرآن ليس حلية اسلوب ولا فلتة تقع حيثما اتفق . انما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ... وطريقة معينة بفتن في

استخدامها بطرائق شتى ١ ... ،

ضرب الامثال

ومن خصائص اسلوب القرآن ضرب الامثال جاء في القرآن (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون) الزمر : ٢٧ . وذلك للتذكير والوعظ ، والاعتبار والتقريب والمراد للعقل في تصويره بصورة المحسوس ، لان ذلك اثبت في الالذهان واسرع الى اقناع الوجدان .

التكرار

وناحية أخرى يختص بها اسلوب القرآن هي التكرار في بعض آياته بعبارات مختلفة ولكن اصل المعنى واحد ، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها ، او في بعض عباراته لتحقيق النعمة ، وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره الى ما يكون من هذا الباب . فتريد الكلام حول معنى واحد في آيات مختلفة تتشابه لفظاً ومعنى ، فصاحة وبلاغة ، سرّاً من أسرار القرآن ، وضرب من ضروب القدرة الكلامية لا يعرف بهذه المثابة الا للقرآن حيث تنبل الاغراض وتبلغ المقاصد التي سيق لها الكلام قمم الرفة والسمو ، الامر الذي لمثله يستطاب التكرار .

وها نحن في عصورنا الحديثة التي نضجت فيها علوم النفس والاجتماع نرى كيف يعتمد أصحاب الدعايات الى التكرار في دعاياتهم ونشراتهم مع التلون في عباراتهم للوصول الى هدفهم .

فالتكرار من أفضل سبل الاقناع واكسب الوسائل لتوكيز الرأي والعقيدة في النفس البشرية ، وهذا الذي سار عليه القرآن .

١ التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ٣١ - ٣٢ . راجع هذا الكتاب ، فقد اجاد الاستاذ سيد قطب في اظهار هذه الناحية واستدل عليها بالشواهد القرآنية مع تحليلها .

الايقاع الموسيقي

وآخر ما سندكره من خصائص أسلوب القرآن هو ذلك الايقاع الموسيقي الناشيء من تخير الالفاظ العذبة ونظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها . « وهذا الايقاع الموسيقي الذي يمتاز به القرآن هو اشعاع للنظم الخاص في كل موضع ، وتابع لقصر الفواصل وطولها . كما هو تابع لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ولانسجام الالفاظ في الفاصلة الواحدة ... جاء في القرآن في الرد على مشركي العرب (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين) يس : ٦٩ .

وجاء في القرآن حكاية عما يقوله مشركو العرب (بل افتراه بل هو شاعر) الانبياء : ٥ .

وصدق القرآن الكريم ، فليس نسق القرآن شعراً . ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين يوم قالوا عن هذا النسق العالي : انه شعر ! . لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع ، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر ، وأخذ أسماعهم بما فيه من ايقاع جميل . وتلك خصائص الشعر الاساسية اذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل .

على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً . فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة ، والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة . واخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقي الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي ١ ، ...

شهادة بعض كتّاب الغرب بأسلوب القرآن

اعترف بعض كتّاب الغرب بمكانة القرآن الرفيعة في عالم الادب والدين فقال (ديومانجيم) : « ان كل نبي يجب أن يأتي يبرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته . وهذا البرهان يسمى بالمعجزة وهو يختلف

١ : التصوير الفني في القرآن للاستاذ سيد قطب من ٨٢ - ٨٣

عما يأتي به الاولياء وبسمى كرامة ... والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة فإن جماله الادبي الفائق وقوته النورانية لا يزالان الى اليوم لغزاً لم يحل ، وهما بضمان من يتلونه - ولو كانوا أقل الناس تقوى - في حالة خاصة من الحماس . لقد تحدى محمد الاناسي والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ١ »

ويقول (سيل) : « ان اسلوب القرآن جميل وفياض ... وفي كثير من نواحيه تجد الاسلوب عذباً وفخماً وبخاصة عندما يتكلم عن عظمة الله وجلاله ... ومن العجيب ان القرآن يأسر بأسلوبه هذا أذهان المستمعين الى تلاوته سواء منهم المؤمنون به والمعارضون له ويفسر المعارضون ذلك بقولهم ، انهم قد سجدوا بالقرآن وأسلوبه فأنصتوا وأعجبوا به ٢ »

وَجُوهٌ أُخْرَى مِنْ أَعْجَازِ الْقُرْآنِ

وللقرآن وجوه كثيرة من الاعجاز تشهد انه وحي الهي ، منها : فصاحته في كل المواضع

« إن عجب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه من ذكر قصص ، ومواعظ ، وحكم وأحكام ، ووعد ووعيد ، وأخلاق كريمة ، وغير ذلك .

واننا نجد ان كلام البليغ ، والشاعر المقلق يختلف على حسب اختلاف هذه الامور ، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجود في بعض النواحي من وصف الروض او الحمر او الغزل او الحكم او غير ذلك . ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابعة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر اجناس الكلام ، ومتى

١ حياة محمد لديرمانجيم ص ٧٦٢ ٢ نقلاً عن كتاب (الدين الاسلامي) تأليف العلامة مولاي محمد علي ص ٢٤ من الترجمة العربية للاستاذ محمد سعيد احمد .

تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الاحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فاذا جاء الى غيره قصر عنه ، وبان الاختلاف على شعره .

ومتى تأملت نظم القرآن وجدت أن جميع ما يتصرف فيها من الوجوه لا تفاوت فيها ولا انحطاط عن المنزلة العليا من البلاغة ١ .

وناحية أخرى جديرة بالاعتبار هي أن تخير الالفاظ المعاني المتداولة المألوفة أسهل واقرب من تخير الالفاظ لمعان مبتكرة ، فما قولك بالقرآن الذي أتى بأحكام تخالف طبائع وعادات وأخلاق العرب .
وفرة بلاغته

ووجه آخر من وجوه اعجاز القرآن هو أنه « ليس للعرب كلام مشتمل على هذه النصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر . وانما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة . . . وقد حصل القرآن على كثوره وطوله متناسباً في الفصاحة ٢ .

فمن أين لأبي كالبني عليه السلام ، أو متعلم منها أوتي من العلم أن يكون ستة آلاف آية - عدد آيات القرآن على التقريب - بهذه الفصاحة والانساق ؟ ان في ذلك لآية على أنه من عند الله .

سلامته من التناقض والخطأ

وشيء آخر هو أن القرآن على طوله يخلو من التعارض والتناقض والخطأ والاختلاف خلافاً لجميع كلام البشر ، فانتا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون ثم يطبعون وينشرون مؤلفاتهم ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والاعطال اللفظية والمعنوية ، أو تكون مؤلفاتهم أفضل الكتب وأحكمها في عصر مؤلفيها وبعد عصرهم بعدة عصور ثم

١ عن اعجاز القرآن للباقلاني باختصار ص ٣٩ - ٤٠

٢ اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٩

ترتقي العلوم وتتغير اصول العمران فيظهر الاختلاف والخطأ في كثير مما فيها وهذا امر مشهود عند العلماء .

وقد ظهر القرآن على لسان امي لم يتعلم القراءة والكتابة فكيف ير عليه اربعة عشر قرناً تتغير فيها العقلية البشرية ولا يظهر فيه اختلاف ؟ بل نرى الاصول التي أتى بها القرآن والتي سيأتي تفصيلها في هذا الكتاب تتناسب مع كل زمان ومكان .

سمو روحه

وناحية اخرى يختص بها القرآن « ان فيه من المعاني الكثيرة والاغراض الوافرة بما لو كان في كلام الناس لظهر عليه صبغ النفس الانسانية لا محالة بأوضح معانيه وأظهر ألوانه وبصفات كثيرة من أحوال النفس . وحسبك ان تأخذ قطعة منه في الموعظة والترويب او الزجر والتأديب او نحو ذلك بما يستفيض فيه الكلام الانساني فتقرنها الى قطعة مثلها من كلام ابلغ الناس بياناً وافصحهم عربية لتري فرق ما بين أثر المعنى الواحد في كلنا الفطمتين ولتقع على مقدار ما بين الطبقة الالهية والطبقة الانسانية في السعة والتمكن »^١ .

وليس شيء في أسلوب القرآن في بعض مواضعه بما يدخله في شبه من كلام او يرده الى طبع معروف من طباع البلغاء ، والى هذه الحكمة يشير الله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) النساء : ٨٢ .

غزارة معانيه

ومن خصائص اعجاز القرآن هي : « اننا نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقلب والمرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة ، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه ... وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم الا الفطرة ،

١ اعجاز القرآن للراعي ص ٢٧٣

وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم ، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من الأول ، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة ... وإن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه ^١ .

اشتماله على انباء غيبية

ومن الدلائل على اعجازه وكونه وحياً الهياً اشتماله على انباء غيبية صدقتها الحوادث ، وهذه النبوءات تشتمل على تأكيدات الله بأنه سينصر المسلمين على أعدائهم .

وبما يدهش العقل ولا يمكن تعليقه إلا بأنه وحي الهي هو محبي بعض هذه التأكيدات على حالة بخيل للناظر فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها ، من ذلك تبشير المؤمنين بأنهم سيخولون خلافة الله في الأرض . جاء في القرآن (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) النور : ٥٥ .

نزلت هذه الآية حين كان المسلمون بعد هجرتهم الى المدينة ، يبيتون ويصبحون في سلاحهم قائلين : هل يأتي علينا زمن نؤدي فيه شعائرنا آمنين مطمئنين على حياتنا . ولم يلبث ان جاء ذلك الزمن وتحقق مؤدى هذه الآية فآلت الى الامة الاسلامية خلافة الله في الأرض .

وبما ينتظم في هذا الباب ما جاء في القرآن (يأأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين) المائدة : ٦٧ . وكان بعض اصحاب النبي عليه السلام قد تطوعوا لحراسه من الكفار ، فلما نزلت هذه الآية أخرج النبي رأسه من حجرة وقال لحراسه : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس ، وهذه الآية من اقوى الدلائل على انها وحي الهي ، والا فمن يستطيع ان يؤكد أن رجلاً يتصدى لأمة يرمتها بطعن في ديانتها ويحقر من آلهتها

وبسلم بنفسه رغم أنه كان هدفاً لأذى المشركين .

وبما يتفق وهذا الموضوع ما جاء في القرآن أيضاً (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) غافر : ٥١ . وقد تحقق هذا الوعد وانتصر رسول الله على جميع أعدائه وانتشر الاسلام وعم نوره . كما جاء في القرآن : (يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون) التوبة : ٣٢ . هذه الآية من أقوى الدلائل على انها وحي الهي . وفي القرآن من هذا كثير .

ومن الآيات التي وردت في القرآن في الدلالة على انباء غيبية تحققت بعد زمن طويل من نزول القرآن ، قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الانعام : ٦٥ . وقد قال عبد الله بن مسعود أحد اصحاب الرسول في كلامه عن هذه الآية : « إنما نبأ غيبي عن يأتي بعد » . وقد ظهر مصداق هذه الآية في الحربين الاخيرتين .

فهذه الاخبار بالغيب دليل واضح على صدق نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله ، إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه .

القصص في القرآن

ومن الانباء الغيبية التي أتى بها القرآن الانباء عن قصص الاولين من الانبياء من غير انحطاط عن الكلام الجزل بأبلغ كلام وبتناسق لا يعرف له مثيل ، وهذا وجه نوره من باب اعجاز القرآن ، لأن محمداً عليه السلام لم يكن كاتباً ولا قارئاً ولا عرف عنه أنه يجلس الى اخبار اليهود ورهبان النصارى ، ثم جاءت هذه القصص في القرآن كقصص ابراهيم ويوسف وموسى وعيسى دليلاً على أنه وحي يوحى والقرآن ينص على هذا الغرض في مقدمات بعض القصص أو في ذيلها . جاء في أول سورة يوسف (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين) ، وجاء في سورة هود بعد قصة نوح (تلك من أنبياء الغيب نوحينا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) : ٤٩ .

وبما يشهد للقرآن أنه وحي الهي ان قصص القرآن تحالف كثيراً ما ورد في الكتب المقدسة السابقة وتسمو عليها ، فاذا نظرنا الى التوراة نراها تلحق ببعض الانبياء أفعالا لا يستسيغ العقل السليم صدورها من رسل أرسلهم الله لهداية الخلق ، بينما القرآن وصف الانبياء والرسل بالكمال واحسن الاعمال ما هو قدوة صالحة تزيد قارئها ايمانا وهدى .

فالقصص في القرآن لم يقصد بها تاريخ الرسول ولا تاريخ قومه وانما المقصود بها ما في هذه القصص من دروس وعبر فيها هدى وعظة لكل داع الى الحق ولكل مدعو اليه وقد شهد بذلك الدكتور فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب فقال : « ويقصد القرآن من عرض هذه القصص التوصل الى عبرة اخلاقية ، وما القصد الاسنى مجرد سرد حكاية ، بل البلوغ بالقارىء والسامع معاً الى مغزى سام أو عظة أدبية مثلى كأن يعلن للناس أن الله في القديم كان يجازي المستقيم على استقامته ويعاقب الشرير على شره »^١ .

وللقصة في القرآن أغراض كثيرة يضيق بنا البحث هنا عن الاطاحة بها ونكتفي بهذا القدر .

روح القرآن

وتجد في القرآن دليلا على اعجازه هو روحانيته التي جاء ذكرها في القرآن بما خاطب الله رسوله محمداً عليه السلام بقوله : (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم) الشورى : ٥٢ .

فالله سبحانه جعل القرآن روحاً لأنه يجيي نفوس الخلق فله فضل الارواح في الاجساد ، وجعله نوراً لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق .

ألا تدري كيف فعل القرآن بأولئك العرب الذين كانوا بالأمس مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية ولا قومية ، بل ولا دينية ، تتحكم فيهم كثير من العادات السيئة ثم ينقلب حالهم بعد مجيء القرآن الى أمة موحدة قوية

١ تاريخ العرب ج ١ ص ١٧٢ من الترجمة العربية ط ٢

تنشر الفضل والفضيلة والكمال في أرجاء العالم المضطرب ، أي حجة أكبر من هذه على أن القرآن وحي إلهي ، وأنه روح من عند الله .

هذه الروحانية اشتملت على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي وغيرها من الأصول التي أتى بها القرآن وسبق بها كل الأوضاع البشرية التي من نوعها والتي يؤلف مجموعها الصرح الأدبي الضخم لهذه المدنية الحديثة ، فكل ما أوجده علماء القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر وهذا القرن من الأصول العقلية والقواعد النظرية ، بما صححوا به النظر في الوجود والموجودات ، وتوصلوا به إلى بواهر الاكتشافات ، وما أوجدته العلوم الطبيعية من القوانين الحافظة للعقل من تعدي حدود قواه في تناول المعارف ، كل هذا مشمول بالنص لا بالتأويل في الأصول التي جاء بها القرآن في القرن السابع الميلادي ، أي في الزمن الذي كانت فيه الإنسانية ترسف في قيود الجهالة وتهم في وديان الأضاليل . أقول هذا الكلام لا من باب الادعاء المجرد عن الدليل ، ولكني أقوله واستدل على ذلك بالشواهد القرآنية في الابحاث المختلفة التي عالجناها في هذا الباب .

ولا شك أن هذا الوجه من أبرز وجوه اعجاز القرآن ، فإن علوم العقائد الإلهية والآداب والتشريع الديني والمدني هي أعلى العلوم وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون . فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكاملاً ، ويؤيده بالحجج والبراهين ، بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها - لأنه لم يوح إليه بالقرآن إلا بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

ولهذه الحكمة يأمر الله رسوله محمدًا عليه السلام مخاطبة العرب المتشككين بقوله : (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا إدراككم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) يونس : ١٦ .

والوجه الأخير الذي سنذكره من وجوه اعجاز القرآن ، اشتماله على

كثير من المعجزات العلمية التي لم تكن في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك ؛
انكشف للباحثين والمحققين في طبيعة الكون .

بعض معجزات القرآن العلمية

ان القرآن لم تكن مهمته أن يتحدث الى عقول الناس عن مشكلات الكون
وحقائق الوجود العلمية ، وانما هو كتاب هداية وارشاد للناس في حياتهم الدينية
والدنيوية ، ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة ولا من الاشارات
الخفية الى حقائق كثيرة من المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية بما يدل على
اعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله . ومن الثابت تاريخياً أن محمداً ﷺ
فضلا عن كونه امياً لا يقرأ ولا يكتب قد نشأ في مكة حيث لم تكن علوم
ولا معارف ولا جامعات ولا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية ، كما ان محمداً
كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي الذي كان موجوداً في الشام والاسكندرية واثينا
ورومية ، ومع ذلك فان النظريات العلمية التي أشار اليها القرآن لم تكن معلومة
في ذلك العصر في القرن السابع الميلادي ولم يكتشف العالم اسرارها الا منذ
امد قريب .

وهذه الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن والتي سنعرضها في هذا البحث نتركها
للقاريء ليحكم بعقله بعيداً عن هوى النفس ، ليرى هل يعقل أن تكون هذه
الآيات القرآنية من كلام محمد كما يفترون أم هي وحي الهى انزله الله على
محمد ﷺ .

قال الله تعالى (الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر
فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) نوح : ١٥ - ١٦ .

هذه الآية سمعها العرب ، ففهم بعضهم من نسقها ان القمر نور والشمس
نور ولكن اختلف اللفظان ليكون في ذلك تنويع بليغ ، ثم فهم أهل
العلوم الحديثة مع كل هذه الوجوه ان المراد من الآية اثبات ما كشفته

هذه العلوم من ان القمر جرم مظلم وانما يضيء بما ينعكس عليه من نور الشمس التي هي (سراج) اذ النور لا يكون من ذات نفسه ابتداء ولا بد له من مصدر يبعثه . فذكر السراج بعد النور دليل على ان هذا مصدره ذلك . فتأمل أيكن ان يكون هذا في طاقة رجل من العرب منذ ثلاثة عشر قرناً في تلك الجزيرة ، وهذا المعنى لم يعرفه المفسرون في عصور المدنية الاسلامية الزاهرة .

* * *

قال الله تعالى (او لم يروا انا نأتي الارض ننقصها من اطرافها) .
الرعد : ٤١ .

ان شكل الأرض بصورة عامة مستدير كروي غير أنها غير تامة الاستدارة وغير منتظمة التكوين ، فهي مبعدة عند قطبيها ومنتفخة عند خط الاستواء وبشكلها هذا دعيت بالقطع الناقص الجسم . وحينئذ نقص قطرها القطبي عن قطرها الاستوائي مقدار ٦ ، ٤٢ كيلومتراً تقريباً .

وتبسط الأرض عند قطبيها وانتفاخها عند خط الاسواء نتيجة لتأثير فعل القوة الطاردة المركزية المسببة من الحركة الدورانية الارض حينها كانت سائلة .

من أين لمحمد ﷺ هذه الحقيقة عن الارض ؟ والتي لم يمتد إليها الا منذ ثلاثة قرون تقريباً ، ان في ذلك لآية على أن القرآن من عند الله .

* * *

قال الله تعالى (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها) الرعد : ٢ . فقد ثبت في علم الفلك ان الكواكب واقفة بقوة الجاذبية وما ثم مادة تربطها وتوقفها مكانها ، وقد كان الفلكيون يزعمون انها مرتبطة بفلك الأفلak . ويقول الله تعالى ايضاً في هذا المعنى : (ان الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا) فاطر : ٤١ . فالله جل شأنه يمسك السماء والأرض بناموس الارتباط العام بين ذرات العالم اجمع ، وهو ناموس الجاذبية .

* * *

قال الله تعالى (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين

وتجعلون له انداداً ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً او كرهاً . قالتا : ائينا طائعين (فصلت : ٩ - ١١ .

فالقرآن يصرح ان السماء كانت دخاناً وهذا سر عجيب من أسرار خلق السماوات والأرض لا يعرف العلم الا ان السماء كانت يوماً دخاناً ولا تزال كحل هائلة مما سماه الله دخاناً يشاهده الفلكيون بمراقبهم القوية حديثاً في السماء . وقد قرأت اخيراً في مجلة الهلال عدد مارس سنة ١٩٥١ ان الدكتور « نيدل لانجار » العالم الفلكي قال : « ان الأرض والكواكب الأخرى تكونت نتيجة لتكثف سحابة مؤلفة من جزئيات صلبة غازية يبلغ حجمها ضعف حجم الكرة الأرضية الحالي عشرة آلاف مرة » .

* * *

قال الله تعالى (اولم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقاً^٢ ففتقناهما^٣) الانبياء ٣٠ .

هذه الآية تخبرنا ان السماوات والأرض كانتا شيئاً واحداً متصل الاجزاء . وهذه معجزة من معجزات القرآن يؤيد القرآن بها العلم الحديث في قوله : ان العالم الشمسي كان كتلة سديمية واحدة فانفصل بعض اجزاء الكتلة تدريجياً بطريقة ما فتكونت منها السيارات والأرض وغيرها التي اخذت تدور حول والدتها وهي الشمس

* * *

قال الله تعالى (ألم تر أن الله يزجي^٣ سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً^٤ فترى الودق^٥ يخرج من خلاله) النور : ٤٣ .

مفتاح هذه الآية هو في قوله تعالى (ثم يؤلف بينه) فقد كان الناس يرون بهذه الكلمات فيرونها مجازاً من المجازات البلاغية وهي حقيقة

١ الرق : الضم والالتحام ٢ الفتق : الفصل بين الشئين ٣ يزجي : يسوق برفق وسهولة ٤ ركاماً : اي متراكماً بعضه فوق بعض ٥ الودق : المطر .

من أمهات الحقائق الكونية التي كشف أسرارها العلم ، فإن التأليف بين السحاب ما هو الا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية .

فالسحاب مكهرب من غير شك كما اثبت ذلك فرنكلن لأول مرة في عام ١٧٥٢ ، والمعروف ان نوعي الكهرباء يتجاذبان ، وان الموجب والموجب او السالب والسالب يتنافران ، هذا التنافر من شأنه تفريق السحاب ذي النوع الواحد ، لكن الله سبحانه قد يجمعه برغبه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، ثم اذا شاء الله ساق السحاب بالرياح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قرباً كافياً ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابها هذا ان يزيد في كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ولا يزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيهما ، والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي .

فالعوامل المسببة للأمطار ومحورها اذا هي الكهرباء الجوية وقد اشير اليها اشارة واضحة في آية الحجر . قال تعالى (وارسلنا الرياح لواقح ^١) فأنزلنا من السماء ماء فاستقيناكموه وما انتم له بخازنين (الحجر : ٢٢) .

فالملاحظة في هذه الآية بين سحاب وسحاب ، والشبه تام بين هذا التلقيح والتلقيح النباتي ، لأنه في الحالين اتحاد تام بين شيئين متضادين متجاذبين يخفي به الشيطان ويظهر مكانهما شيء آخر غيرهما .

* * *

قال الله تعالى (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون) الانعام : ٣٨ . وصف الله في هذه الآية جماعة الحيوان والطير بالامم ، وانها تشبهنا بعض الشبه أي أن لها عقلاً تدبر به أمورها .

١ حل بعض العلماء وصف الرياح باللواقح في هذه الآية على انها لواقح للزرع والشجر وهذا منهم اغفال للنصف الثاني من الآية ، فقد رتب الله على ارسال الرياح اللواقح انزال الماء من السماء فتحت ان يكون اللواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع .

هذه حقيقة علمية اعترف بها العلم حديثاً ، فقد دل على أن جماعات الحيوان أهم يربط آحادها روابط اجتماعي وثيق العرا ، وان منها ما تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها ، وان لكل جماعة منها لغة يتفاهم آحادها بها .

بينما كان العلماء الاقدمون لا يعترفون للحيوان والطيور بعقل ولا بذكاء فكانوا يظنونها مجرد آلات حية تحس وتتألم لا تحيل عقلاً ، وكل ما يشاهد منها من آثار التفكير والتدبير يعتبرونه من ثمرات الالهام والغريزة .

بقي هذا الاعتقاد الى عصور متأخرة ، فكان الفيلسوف « ديكارت » يرى أن الحيوان كالألة المعقدة المجردة من الحياة العقلية ، فهو لا يفكر كما يفهم الناس بل يعبر في سلوكه عن الغرائز .

وقد اشتهر عنه هذا التعريف وتناقله الباحثون ، ولم يعترف للحيوان بعقل وتفكير نسيبين الا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، من ذلك ما أعلنه « دارون » ان التفكير موجود في الحيوانات ولكنه بدرجة أقل من الانسان .

ان هذه الحقيقة التي أعلنها القرآن هي ولا شك احدى معجزات القرآن الذي قرّر حقيقة اقربها العلم بعد ان استبحرت البحوث في الحيوان والطيور وقضى العلماء أعمارهم في ملاحظتها ودراستها .

* * *

قال الله تعالى (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصفر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) يونس : ٦١ .

كان علماء المادة منذ زمن ليس بالبعيد يقفون في ابجائهم عند الذرة ويقولون : انها الجوهر الفرد الذي تتركب منه المادة ، ولا يقبل التجزئة لتناهيه في الصغر والدقة ، ولكنهم اكتشفوا حديثاً ، قابلية الذرة

للتجزئة والتحطيم إذ حطموها فعلاً واستكشفوا ما فيها من اسرار . فكلمة (اصغر) في الآية القرآنية ليست اشارة الى الذرة فقط بل هي تصريح جلي بإمكان تجزئتها وتخطيطها ، وهذا سر من اسرار القرآن كشف عنه العلم حديثاً .

* * *

قال الله تعالى : (وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) هذه الآية لا يمكن ان يكون العرب الأولون قد فهموها الا من طريق التأويل المؤدي الى معنى خضوع كل شيء لعظمة الله حتى الجماد ، مع ان علماء الطبيعة يشبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء لا تراها العين ولا تحس بها سائر المشاعر ^١ .

* * *

قال الله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) الذوايات : ٤٩ . فقد ثبت علمياً ان الزوجية منبئة في الممالك الثلاث الكونية : الحيوان ، والنبات والجماد ، حتى الكهرباء فيه قوتان سلبية وإيجابية ، ولم يكن معروفاً ذلك في عصر محمد ﷺ ، وانما كانوا يعرفونه في المملكة الحيوانية وشيء من المملكة النباتية ، والحال ان القرآن جعل هذا المبدأ عاماً اذ قال : (ومن كل شيء) كما ان القرآن اثبت الزوجية للحيوان (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى) النجم : ٤٥ .

* * *

قال الله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) الانعام : ١٢٥ . فالآية صريحة بأنه من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الاختناق ، والعلم اثبت من قريب ان اوكسجين الهواء ينقص في طبقات الجو ، وانه كلما ارتفع الصاعد في اعماق الجو يشعر بعوارض الاختناق من صعوبة التنفس ولذا يستعمل الطيارون الذين يصعدون الى الاعالي آلات التنفس الصناعي الذي يحتوي على مادة الاوكسجين حتى يتفادوا الاختناق .

* * *

قال الله تعالى : (والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وإبتنا فيها من كل شيء موزون) الحجر : ١٩ . الشاهد في هذه الآية هو كلمة (موزون) فان علماء الكون الاخصائيين في علوم الكيمياء والنبات اثبتوا ان العناصر التي يتكوّن منها النبات مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من انواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا

١ عن كتاب الاسلام والطب الحديث ص ١

بأدق الموازين وكذلك تختلف نسبة بعضها الى بعض في كل نبات ، وهذه مسألة لم يكن شيء منها يحظر ببال بشر قبل هذا العصر .

* * *

قال الله تعالى : (وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) الحجر : ٢١ .

فقد أثبت العلماء في العصر الحديث ان اوكسجين الهواء لو زاد عن المقدار الذي هو فيه لهلك كل كائن يتنفس ، وذلك لان حاجة الكائنات الحية الى الاوكسجين لا تتعدى الكمية الموجودة حالياً ، فكما أن قلة الاوكسجين تسبب الموت اختناقاً فكذلك كثرتها تضر بالرئتين وتؤدي الى الموت . أجل ! كل شيء في هذا الكون بمقدار بحيث لو زاد لفسد نظام الكون ، فلو زاد الماء في الكرة الارضية لفرقت ولوانعدم لمات من عليها ، ولو زادت كمية الملح في البحر لهلكت الاسماك .. الخ .

* * *

قال الله تعالى : (لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة . يحسب الانسان أن لن نجعل عظامه . بلى قادرين على ان نسوي بنانه) القيامة . معنى هذه الآيات ان الله يقول : ايظن الانسان اننا لن نجعل عظامه بل نحن قادرون على ان نرتب اصابعه عند الحشر ونرجعها الى ما كانت عليه في الدنيا . هنا المعجزة وبديت القصيدة . فلماذا اختار الله سبحانه بنان الانسان ولم يختار عضواً آخر من أعضاء الجسم الكثيرة ؟

نعم تتشابه أعضاء الجسم في الانسان كالعين والانف والاذن وغيرها من انسان لانسان ، ولكن الاصابع لها مميزات خاصة لا تتشابه ولا تتقارب ، وهذه المميزات لم تعرف لأول مرة الا في القرن الماضي أي بعد نزول القرآآن باثني عشر قرناً ونصف القرن تقريباً . ففي سنة ١٨٨٤ م ، استعملت رسمياً في انكلترا طريقة الاستعراف والتعرف بواسطة بصمات الاصابع ، اذ ان بشرة الاصابع لدى الناس جميعاً مغطاة بخطوط على ثلاثة أنواع : اقواس ، او عراو ، او دوامات بمعنى دوائر متحدة

المركز . وكذلك يوجد نوع رابع يشمل جميع الاشكال التي لم توصف في الثلاثة السالفة الذكر وتسمى المركبات . وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة وتميز بين شخص وآخر .

فالقرآن ليس هو مجرد الفاظ ، فكل لفظ له مدلوله وكل آية لها مغزاها .

قال الله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق) :
العلق .

أثبت الطب أن مني الانسان ما هو إلا سائل يحوي حيوانات صغيرة لا ترى بالعين المجردة ، وترى بالمكروسكوب ، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه في شكله دودة العلق في شكلها ورسمها . فيقول الله سبحانه : (خلق الانسان من علق) أي انه خلقه من هذه الحيوانات التي تشبه العلق شكلاً وليقربها الى عقول البشر بهذا التشبيه .

وهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين ، الى ان اكتشف المكروسكوب وعرف كيف يتكوّن الانسان من هذه الحيوانات .

قال الله تعالى : (يخلفكم في بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك) الزمر : ٦ .

« ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن فقد أخبر ان الجنين له ثلاثة اغشية سماها ظلمات وهي الآن يطلق عليها الغشاء المنباري ، والخوريون ، والغشاء اللفافي والجدير بالذكر ان هذه الاغشية لا تظهر الا بالتشريح الدقيق وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة »^(١)

قال الله تعالى : « واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » الاعراف : ١٧٢
هذه الآية تنص على ان الله اخذ ذرية بني آدم من ظهورهم . والمعروف

١ عن كتاب الاسلام والطب الحديث ص ١١٦

ان الحصية موضوعة في الجزء الأسفل لا في الظهر ، ولكن الله تعالى يتكلم عن خلق الانسان وذريته ونشأته ، ولذا هو يتكلم عن علم Empryolog او « علم الأجنة » ، ويتكلم عن الجزء الذي يخصص للنطفة في جسم الجنين ، وهذا الجزء في الظهر عند اسفل الكليتين تماماً ومن هنا تنمو الاعضاء التي تكونت الحصيلتين ، وتبقى في الظهر تحت الكليتين حتى الاشهر الاخيرة من حياة الجنين في بطن امه ، ثم تنحدر الى اسفل ، وعند الولادة تكون في مركزها الطبيعي المعتاد ... فالآية الكريمة تشير والحالة هذه الى النقطة الأصلية في جسم الجنين التي تؤخذ منها النطفة ، وهذه هي الظهر بلا شك ولما كان علم تشريح الجنين لم يتقدم الا في المائة السنة الاخيرة ، فارت هذه الآية تعد في حكم المعجزات ، وثبت أن القرآن لا يأتيه الباطل ابداً^١

* * *

قال الله تعالى : « وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » يوسف : ٨٤

البياض المصعوب بضباع البصر غالباً معناه « الجلو كوما » والمعروف عند الاخصائيين في امراض العيون أن اهم سبب لها هو التغيرات في الاوعية الشعرية نتيجة لأسباب كثيرة من اهمها الانفعالات العصبية ... لاسيما الحزن ... وما اعظم اعجاز القرآن الذي وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن العالم يعلم شيئاً عن هذا المرض ولا عن اسبابه في ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويلاً^٢

* * *

قال الله تعالى : (واقد خلقنا الانسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين) المؤمنون : ١٢ - ١٤ .

إذا أمعنا النظر في هذه الآية وجدنا أنها دلت بوضوح لما دل العلم بعدها على أن الانسان خلق من طين فان النطفة في كل من الذكر والانثى التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الانسان واصل هذه التغذية

١ عن كتاب الاسلام والطب الحديث ص ٨١

٢ الاسلام والطب الحديث ص ٩٦

ومنشؤها التراب .

والمراد بالنطفة في الآية هي الحيوان المنوي للذكر والبويضة للانثى فخلق الانسان لا يتم الا باجتماع هاتين النطفتين والتلقيح بينهما .

والقرار المكين هو الرحم . وفي وصف القرآن بانه (مكين) اعجاز يفهمه الاطباء الذين درسوا التشريح . فقد ثبت ان الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن اسد التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح ، ففيه مخابىء عجيبة خلقت لذلك خلقاً وفيه مواد يفرزها لوقاية الجرثومة وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها وذلك كله تجده في تشريح كلمة مكين .

ثم يخبر الله تعالى بأنه يصير علقه وصحيح ان شكله يكون مثل علقه الماء تماماً ويستمر كذلك في الاربعة الاسابيع الاولى تقريباً . واذا عرفنا ان طوله حينئذ لا يزيد على خمس السنتيمتر الواحد ، وأنه لا يميز بالعين المجردة تماماً ، وان اول ميكروسكوب عملت في سنة ١٦٨٣ م اي بعد الف سنة تقريباً من نزول القرآن عرفنا انه كلام الله تعالى . هذا بينما فسر العلماء المسلمون قديماً قبل اختراع الميكروسكوب العلقه : بالدم المتجمد الغليظ .

على ان الجنين يصير بعد ذلك مستديراً بغير انتظام ومكوراً ، ويبقى كذلك بضعة اسابيع وقد سماه الله (مضغة) لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم المضغوطة وهي في الاصطلاح الطبي عبارة عن غو العلقه وتنوع خلاياها وتميز بعض اجزائها عن البعض الآخر ، وهنا يبدأ طور التكوين وتظهر آثار العظام في المضغة . وبعد ان تتكون العظام يبدأ اللحم في التكون بظهور العضلات وذلك بتنوع الخلايا التي تحيط بالعظام ، وبينما تظهر العظام والعضلات تتكون بقية اعضاء الجسم . وفي قوله تعالى : (ثم انشأناه خلقاً آخر) معجزة دقيقة من معجزات القرآن ، فقد ثبت ان الجنين اول تخلقه يكون في الانسان والحيوان على شكل واحد فتحوله الى الصورة الانسانية بعد ذلك انشاؤه خلقاً آخر .

ومن هذا كله يتبين لنا بوضوح ان اطوار الجنين المذكورة في القرآن هي نفس الحقائق التي نقب عنها العلم الحديث حتى اكتشفها ، أيكوت ذلك في مقدور امي في جزيرة العرب منذ اربعة عشر قرناً ان يأتي بها من عنده الا ان تكون وحياً او حاه الله اليه .

الفصل الثالث

الايمان بالله

البرهان على وجود الخالق -- طريقة القرآن في الدلالة على الخالق -- النظر في خلق السموات والارض - النظر في خلق الانسان - النظر في خلق الذكر بجانب الانثى - النظر في الاسلـات الانسانية - النظر في خلق الحيوان والزواحف والطيـر آيات متنوعة تدل على وجود الله - الايمان بالله فطرة في النفس الانسانية - بعض صفات الله في القرآن - دحض شبهة عن صفات الله -- العلماء اشد الناس ايماناً بالله .

العقيدة بوجود الله فطرة في النفس الانسانية ، وهي شيء ضروري يحصل للانسان كشجرة من ثمرات مواهب العقلية .
فمن الاشياء المتفق عليها أن كل شيء له علة توجده ، او صانع يصنعه ، فاذا نظر الانسان الى الكون واستعرض ما فيه من الكائنات ، حصل له علم ضروري بان هذه الكائنات لم توجد اتفاقاً ، بل لا بد لها من موجد أوجدها .

ولما كان الانسان لا يقف من معقولاته عند حد ، فقد نظرف بعض افراده من الفلاسفة والمفكرين فأنكروا وجود الخالق ، وزعموا ان الكون قديم وأن ليس فيه غير المادة ونواميسها الأزلية الأبدية ، وسرت تعالىمهم الى بعض الناس فألحدوا ، واستنـبع الحادهم خروج على نظام الخليقة وتعد على حقوق الغير ، فتصدى العلماء قديماً وحديثاً للرد على هؤلاء الملحدين وبيات فساد مزاعمهم .

البرهان على وجود الخالق

يقول المسيو بوشيت في كتابه المسمى (التذكرة في تاريخ البرهان على وجود الخالق) : « اعتقاد الافراد والنوع الانساني باسمه في الخالق اعتقاداً اضطرارياً قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الانسان بذكرته في تاريخ طفولته فلا يستطيع ان يجد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التي نشأت صامتة وصار لها اكبر الآثار في حياته . فقد حدثت هذه العقيدة في انفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا ، ولا شك أنها تحت تأثير أغاني الأمومة والدروس التهذيبية الأولى قد نمت تدريجياً وزادت نمواً في ادوار الحياة ، سواء بالدرس والبحث ، او بالتغيرات التي تحدثها الاحوال على ارق عواطفنا . وكل ما يحدث في طفولة الانسان يحدث نظيره في طفولة الامم سواء اعتبرنا ذلك في اول الخليفة او درسناها في الأزمنة القريبة منا ، حيث تجمع قبائل وثنية ذات تقاليد خرافية على ديانة جديدة . ففي الحالة الأولى يربنا التاريخ الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقه وحافضة للعالم وحاكمة بين الناس بالعدل ، تكافئ على الحسنة والسيئة سواء في هذه الدنيا او في الحياة المستقبلية .

في هذا الدور لم تظهر الشكوك باي مظهر من مظاهرها ، وعلى ذلك فلم تك من حاجة تدعو الى ظهور البراهين المثبتة لوجود الله .

وفي الدور الثاني لم تظهر الحاجة ايضاً الى الاستدلال على وجود الخالق بالبرهان والعقل والفكر ، والرجال الذين يتصدون لنشر هذه العقيدة جعلوها ارقى من أن يجادل فيها ، وأبدوا دعاويهم باحداث المعجزات او بالانتصارات الباهرة ، من هذا القبيل كان في الازمنة القديمة زرادشت وموسى ومشترو مصرين القدماء الخ . . . وقريباً منا عيسى ومحمد . ففي المسألة الخاصة التي تشغلنا اليوم لم تستفد البراهين على وجود الله شيئاً من زرادشت ولا من موسى ولا من مشترعي المصريين فقد اكتفى الجميع باعلانهم انهم رسل الله الى خلقه ، وقد خلفهم عيسى ناهجاً خطة الاسرائيلية

فقرر عقيدة وجود الخالق كأمر لا نزاع فيه ؛ ولم يشك لحظة في ان هذه العقيدة يقول بها جميع الذين ارسل اليهم على السواء . اما محمد فقد بنى العقيدة بوجود الله ووحدانيته على انقاض العقيدة المشوشة بتعدد الآلهة التي كان يدين بها العرب والتي اخذ على عهدته مكافحتها ، ولكنه في مواعظه المختلفة لم يظهر بمظهر من يريد ان يعطي على هذه المسألة البرهان الدقيق ، فقرر الحقيقة وطالب الاعتقاد بها وأمر منها بما أمر وفرض فيها ما فرض ولم يظهر منه او لم يكده يظهر منه انه مال لسد حاجة العقل منها بطريق منطقي او جدلي^١ ، انتهى .

ونحن نرى أن هذا الباحث على جدارة بحثه في التدليل على وجود الخالق ، قد اخطأه التوفيق في تقريره ان الاسلام قرر الحقيقة وطالب الاعتقاد بها من غير أن يدعم هذه الدعوة بالحجج المنطقية او الأدلة العقلية ، وسنرى بعد ان نسوق الأدلة على وجود الله التي وردت في القرآن ، ان كلامه في هذا الصدد لا يستند الى ظل من الحقيقة والتحقيق العلمي النزيه ، فاذا كان كلامه ينطبق على الأديان التي كانت قبل الاسلام فهو لا ينطبق على الاسلام ، وفي هذا البحث يتبين لنا بطلان ما ذهب اليه .

طريقة القرآن في الدلالة على الخالق

تكررت البراهين في القرآن على اثبات وجود الله ، لأنه يخاطب اقواماً ينكرون واقواماً بشر كون ، واقواماً يدينون بالتوراة والانجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة ، وكانت دعوته للناس كافة من ابناء العصر الذي نزل فيه وابناء سائر العصور ، فلزم تحميم القول في الربوبية عند كل خطاب وقامت دعوته على تحكيم العقل في الايمان بالله .

ولننظر في نصوص القرآن ومداه في اقامة الدليل الحسي على وجود الله ، نراهم سلكت في ذلك أوضح الطرق حتى توينا الامر محسوساً والحجة واضحة مع غاية الایجاز . من ذلك قوله تعالى : (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم . إن في خلق السماوات والأرض واختلاف

١ نللا عن دائرة معارف وجدي (مادة اله)

الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات ^١ لقوم يعقلون (البقرة :

١٦٣ ، ١٦٤ .

فالقرآن يبين ان في خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار ، والسفن التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء مما به حياة الأرض والنبات ، وحياة الحيوان الذي بثه الله على الأرض ، وتوجيه الرياح والسحاب وفق نظام معلوم ، كل ذلك من آيات الله ، على الإنسان ان يتدبر فيها ليصل الى معرفة الله كما هو مطلوب في آخر الآية (لآيات لقوم يعقلون) .

وعلى هذه الطريقة ذكر القرآن كثيراً من الآيات بأساليب متنوعة ، بعضها في الدلالة على وجود الله من ناحية خلق السماوات والأرض ، والبعض من ناحية خلق الإنسان والحيوان ، والذكر بجانب الإنشئ ، ووجود الحياة في المادة الى غير ذلك مما ذكر القرآن .

النظر في خلق السماوات والأرض

ومن الدلائل على وجود الله في القرآن خلق السموات والأرض ، قال الله تعالى : (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً) آل عمران : ١٩٠ ،

١٩١ .

وقال سبحانه (خلق الله السماوات والأرض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين) العنكبوت : ٤٤ .

وقال ايضاً (إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين) الجاثية : ٣ .
فالدلائل على وجود الله في السماوات ، هو تألفها من طوائف لكل منها

١ الآيات جمع آية وهي العلامة الظاهرة ، وهي في هذه الآية بمعنى الدليل على وجود الله ، فقد يكون في الشيء جملة آيات من نواح مختلفة ، فمن جهة انه اثر يدل على مؤثر فيه ومن ناحية تسويته واتقانه يدل على علم صاحبه وحكمته .

نظام محكم ، ولجميعها نظام واحد ، ومنه النظام الشمسي الذي يسير بسنن
الهيئة حكيمة يعبرون عنها بالجاذبية ، ولولاها لتصادمت الكواكب وهلك العالم .
فهذه العوالم السماوية تدل بذاتها على وجود صانعها ، ولهذا يقول العلامة
(لابلاس) : « ان النظام الحخير العقول ، المشاهد في حركات الاجرام التي
تتألف منها المجموعة الشمسية لا يمكن ان يحل على التصادف ، بل التصادف
كلمة لا يصح النطق بها في لغة العلم . إن التصادف معدوم ومحال في هذا العالم
الذي نرى فيه كل شيء خاضعاً لقوانين الموازنة وقوانين الحساب التي عينتها
ارادة غيبية ، وحكمة بالغة . وما الشيء الذي ندعوه التصادف الا محصل القوات
الغيبية التي لا نعلم عن صورة تأثيرها شيئاً ، بل لا نعلم عن وجودها شيئاً ، في
حين انها تحفل حولنا . وبناء عليه ليس من الممكن حمل هذا النظام الذي نراه
في المجموعة الشمسية على التصادف ، ولا بد من الاعتراف بوجود سبب أصلي
عام منظم لهذا النظام »^١

وقد جاء في القرآن ما يشير الى عظمة النظام الشمسي ؛ قال الله تعالى :
(فلا اقسم بمواقع النجوم^٢) وانه انفسهم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم)
الواقعة : ٧٥ - ٧٧ .

فقد اثبت علم الفلك ان للنجوم السيارات مدارات تجري فيها دائماً على
نظام ثابت بحيث لو انحرفت عن تلك المدارات قليلاً لاختل النظام الكوني .
وهذه الظاهرة استعان بها العلامة الفلكي نيوتن عندما سئل عن دليل اثبات
وجود الله .

فهل علم محمد ، وهو أمة بعظمة هذا النظام منذ اربعة عشر قرناً ، ما علمه
اكبر فلكي اوروبي بالوسائل الحديثة ؟ لو علم نيوتن ان استدلاله بنظام
الكواكب على مكوونها قد سبقه اليه القرآن لأعلن اسلامه وقال (انه لقرآن
كريم) كما قال الله تعالى بعد أن ذكر مواقع النجوم .

١ نقلا عن كتاب الدين والعلم تأليف المشير احمد عزت ص ٢١ من الترجمة العربية
٢ لا اقسم بمواقع النجوم ؛ لا : زائدة للتوكيد . والمعنى اقسم بمواقع النجوم . وقد اقسم
الله في القرآن بكثير من مخلوقاته دلالة على أهمية الشيء المقسم به والتي تدل على وجوده سبحانه
فاقسم بالشمس والقمر وغيرهما وهنا اقسم الله بمواقع النجوم لما فيها من الآيات التي تدل على وجود
خالق لها .

الشمس والقمر آيتان على وجود الله

كذلك من الدلائل على وجود الله في السموات : الشمس التي سخرها الله لحياة الانسان والحيوان والنبات ، تأمل احوالها في انخفاضها وارتفاعها لاقامة الفصول الاربعة وما فيها من المصالح ، ولو كان الزمن كله فصلاً واحداً لفاتت منافع الفصول الباقية .

ثم تأمل حكمة الله تعالى في إنارة القمر لاحتياج الحيوان الى شيء من الحركة في الليل فجعل ضوء القمر معونة للحيوان على هذه الحركات ، وكذلك جعل الليل ليبرد الهواء على الابدان والنبات ، فيعادل حرارة الشمس ويستريح الجسم ويسترجع نشاطه ولهذا يقول الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) : فصلت ٣٧ .

ثم تأمل كيف جعل الله للشمس وللقمر بروجاً ومنازل ، وبذلك يعلم حساب الاعمار ، قال الله تعالى : (هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) يونس ٥ .

الأرض آية على وجود الله

والدلائل على وجود الله في الأرض قيامها في الفضاء بأمر الله وتدييره ، وكيف هي متصلة بغيرها من العوالم بنظامها العام وجاذبيتها الشاملة ، كذلك ما فيها من جماد ونبات وحيوان لكل منها تأموس خاص في تكوينها وتوالد ما يتوالد منها ؛ يقول العلامة « كميل فلاماريون » في كتابه (الله في الطبيعة) : « ان النظام العام الحاكم في الطبيعة ، وآثار الحكمة المشهورة في تكوين كل شيء والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة كضياء الفجر والشفق في الهيئة العامة ، لا سيما الوحدة التي تتجلى بقانون التطور الدائم ، تدل على أن القدرة المطلقة الالهية هي الحافظة المستترة للكون ، هي النظام الحقيقي ، هي المصدر الأصلي لكافة القوانين الطبيعية

واشكالها ومظاهرها^١

وإذا نظرنا الى القرآن رأيناه يلفت انظارنا الى المظاهر الطبيعية للارض لان فيها دلائل على وجود الله الذي خلقها ، انظر الى هذه الآيات التي يصف فيها الله مظاهر قدرته (وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل والنهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) الرعد : ٣ ، ٤ .

يرينا الله في هذه الآيات الدلائل على وجوده من هذه الارض التي بسطها وجعل فيها السهل والوعر لينتفع بكل هذه الاقسام في وجهه ، وجعل فيها الجبال وقد يحسبها الجاهل فضلة في الارض لا حاجة اليها ، كيف ينزل عليها الثلج فيبقى في قلبها حافظاً لشراب الناس ؛ وجعل فيها ليزدوب بالتدريج فتسيل منه الانهار ، ثم بوجه الله أنظارنا الى الارض بماء فيها : حدائق من أعناب والزرع والنخل ، والجميع يسقى بماء واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض في الثمر فتري فيها الحلو والحامض على اتحاد الماء الذي تسقى به وقطعة الارض التي تنبتها ، أليس ذلك من أكبر الادلة على أن لها الهاً واحداً وهب كل نبات من الخصائص ما لم يهب غيره وأعدده لأن يأخذ من الارض ما ينمي فيه خاصته ويؤهله للغاية التي خلق لها .

والقرآن يعطينا صورة اخرى تدل على وجود الله من ناحية ما تنبت الارض من أصناف النبات والحبوب والفواكه . قال الله تعالى متحدثاً عن قدرته : (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً^٢ نخرج منه حباً^٣ متراً^٤ كبأ^٥ ومن النخل من طلعها^٦ قنوان^٧ دانية وجنات^٨ من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه أنظروا الى ثمره اذا أثر وينعه^٩ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) الانعام : ٩٩ .

١ نقلاً عن كتاب (الدين والعلم) تأليف المشير احمد عزت ص ٣٥ من الترجمة العربية .

٢ خضوا : اخضر ٣ متراًكباً : اي بعضه فوق بعض ٤ طلعا : كبرائها .

٥ قنوان : عراجين ٦ جنات : حدائق ٧ ينعه : نضجه .

النظر في خلق الانسان

ومن الدلائل على وجود الله خلق الانسان . قال الله تعالى : (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون) الروم : ٢٠ . وقال الله تعالى ايضاً (وهو الذي انشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون) المؤمنون : ٧٨ .

اما الدلائل على وجود الله في الانفس فهي اكثر من ان تحصى وكلما اتسع نطاق العلم تضافرت الادلة على ان لهذا الانسان البديع الصنع الها حكيما . اي ناحية من نواحي الانسان ليست مثار دهشة وعجب ! ليست اطواره في الرحم آية من آيات الله ؟ اليس نظام طعامه وشرابه وتحليل الطعام الى عناصر مختلفة بموازين يذهب كل عنصر الى حيث يؤدي وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد فيطرد الى الخارج ، اليس هذا كله آية من آياته ؟ اليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب الى جميع انحاء الجسم بواسطة الشرايين التي لا يحصي عددها الا الله ، ثم عودته الى القلب بواسطة الاوردة ، ومرور الهواء الجديد الذي جلبه التنفس ليصلح الدم بعد الفساد ويفيد منه الجسم ، اليس ذلك آية من آياته ؟ دع سمع الانسان وبصره ونطقه واحساسه ، بل دع ما يعرض له من ذكر ونسيان وحزن وسرور وعلم وجهل ومحبة وبغض فانها آيات كبرى على وجود الخالق .

النظر في خلق الذكر بجانب الانثى

ومن الدلائل على وجود الله خلق الانثى بجانب الذكر . قال الله تعالى متحدثاً عن قدرته : (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الروم : ٢١ . وقال الله تعالى : (فاطر السماوات الارض جعل لكم من انفسكم ازواجاً ومن الانعام ازواجاً) الشورى : ١١ .

فوجود الانثى بجانب الذكر لأجل التناسل ودوام بقاء الحياة للنوع الانساني من البراهين القوية على وجود الله ، وعلى وجود القصد في هذا الكون ،

وهذا يدحض القول القائل بقيام الكون على المادة العمياء دون غيرها .
وقد كتب الاستاذ مومنيه بحثاً في مجلة « الكوسموس » سنة ١٨٩٣ أثبت وجود الخالق فقال : « اذا افترضنا بطريقة تعلمو عن متناول العقل ان الكون خلق اتفاقاً بلا فاعل مريد مختار ، وان الاتفاقات المتكررة توصلت الى تكوين رجل فهل يعقل ان الاتفاقات والمصادقات تكون كائناً آخر مماثلاً له تماماً في الشكل الظاهري ومبايناً له في التركيب الداخلي وهو المرأة بقصد عمارة الارض بالناس وادامة النسل فيها ؟ اليس يدل هذا وحده ان في الوجود خالقاً مريداً مختاراً أبدع الكائنات ونوع بينها وعرز في كل نوع غرائز ومتمعه بمواهب يقوم بها امره ويرتقي عليها نوعه ١ » .

النظر في النسلات الانسانية

وبوجه القرآن نظر الانسان الى مصدر خلقه ، لأن في ذلك دليلاً على وجود الله ، من ذلك قوله سبحانه (فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) الطارق : ٥ - ٧ . وقوله ايضاً (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى . من نطفة اذا تمنى) النجم : ٤٥ ، ٤٦ . وقال في موضع آخر (قتل الانسان ما اكفره . من اي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره) عبس : ١٧ - ١٩ .

وقد الف الاستاذ كريسي موريسون الذي كان رئيساً لمجمع العلوم في نيويورك كتباً سماه « الانسان ليس وحيداً » ولخص فيه سبعة أسباب للآيمان بالحقيقة الالهية يعرفها الطبيعيون والرياضيون وتأبى عليهم ان يردوها الى المصادقة ومن اقوى هذه الاسباب السبعة قوله عن النسلات Genes وفحواه « انها تبلغ من الدقة ان جميع النسلات التي يتولد منها سكان الكرة الأرضية جميعاً لو وضعت في حيز واحد لما زادت على قمع الحياطة ولكنها كانت في كل خليفة حية وفي طواياها اسرار الخصائص التي يتصف بها جميع الآدميين » .

١ . نكلا عن دائرة معارف وجدي (مادة اله) .

ويقول : « وان قمع الحياطة لحيز صغير إذ يحتوي فيه جميع خصائص الافراد الموزعة بين الفتي مليون من البشر . ولكنه واقع لا ترقى اليه الشكوك فكيف إذن تنطوي في هذه الناسلات جميع عوامل الوراثة المتخلقة من حشود الاسلاف وتستبقي لكل فرد مقوماته النفسية في مثل هذا الحيز الذي بلغ الغاية من الدقة والصغر »

النظر في خلق الحيوانات والزواحف والطيور

ومن الدلائل على وجود الله خلق الحيوان . قال الله تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على اربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) النور : ٤٥ . ويقول سبحانه (أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) يس : ٧١ - ٧٣ .

والطيور من الدلائل على وجود الله . قال سبحانه : (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) النحل : ٧٩ .

والدلائل على وجود الله في الحيوانات والطيور لا تحصى ويحتاج تفصيلها الى عدة مجلدات وقد تكفل بذلك علم الحيوان . وقد قرأنا بحثاً للفيلسوف نيوتن يستدل فيه على وجود الخالق يقول : « كيف تكونت اجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ولأي المقاصد وضعت اجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل ان تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الابصار ونواميسه ، والاذن بدون المام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث ان حركات الحيوانات تتجدد بإرادتها ، ومن اين جاء هذا الالهام الفطري في نفوس الحيوانات ؟ » الى ان قال : « وهذه الكائنات كلها في قيامها على ابدع الاشكال واكملها ألا تدل على وجود الله منزّه عن الجسمية حي حكيم موجود في كل مكان »

(١) تأمل كيف خلق الله الطير على ذلك النحو الخاص ، له جناحان ومقدمة هي رأسه ومؤخرة هي ذنبه وبذلك الشكل الذي خلقه الله عليه استطاع ان يطير في الجو ، وقد اضاف الله الامساك اليه وحده (ما يمسكهن إلا الله) لانه هو الذي اعد الطيور بذلك الخلق لان تقف في الجو .

يرى حقيقة كل شيء ويدركه .

آيات متنوعة تدل على وجود الله

وانظر الى هذه الآيات القرآنية التي تدل على وجود الله بمظاهر الطبيعة والتي عددت أبرزها وهي في ذلك تعطينا صورة واضحة عن طريقة القرآن في الدعوة الى الايمان بالله . (وعلى الله قصد السبيل ^١ ومنها جائر ^٢ ولو شاء لهداكم اجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه ^٣ تسمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقي في الأرض رواسي أن تمتد بكم وانهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . فمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) النحل :

٩ - ١٨ .

فالقرآن وجه نظر الانساب الى الكون وما فيه من دلائل تدعوه للايمان بالله ، وان طريق الوصول الى ذلك هو العقل ، ولهذا رأينا في تذييل بعض الآيات السابقة (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) ، (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) .

واليك صورة أخرى لاسلوب القرآن الذي يركز على العقل في الدعوة للايمان بالله . قال الله تعالى : (أفى الله شك فاطر السماوات والأرض) ابراهيم : ١٠ . أي إذا لم يكن اله فن فطر السماوات والأرض ، وهذا البرهان الذي أتى به القرآن يعرف عند الفلاسفة بالسببية . ويقول الله تعالى

١ قصد السبيل : أي على الله يان الطريق المستقيم ٢ جائر : أي منحرف عن الحق ٣ تسمون : ترعون ٤ ذراً : خلق

في الرد على من ينكروونه متحدياً لهم (ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون
 ام خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون) الطور : ٣٥ ، ٣٦ . لا بد لهذا
 الاستدلال الموجز الرائع من أن يقنع الانسان بخالقه ، وبسيطر على شعوره
 فتتهف نفسه تردد ما جاء في القرآن (ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن
 آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار)
 آل عمران : ١٩٣

الإيمان بالله فطرة في النفس الإنسانية

ان الدراسات الدينية الحديثة كشفت عن امور كثيرة جديدة بامعان النظر
 وهي ان التدين صفة عامة لجميع بني البشر قديمهم وحديثهم فلم يعثر على أمة لا دين لها.
 وقد ذهب كثير من العلماء الى أن فكرة الله او الدين على العموم انما هي
 فكرة فطرية وجدت في عقل الانسان ولكن اوجدها فينا موجود اعلى وهو
 الله سبحانه .

وابرز العلماء الذين اعتنقوا الفكرة الفطرية هو العلامة الاسكتلندي « لنج »
 Andrew Lang وتتلخص آراؤه فيما يلي :

اولاً : كل انسان يحمل في نفسه « فكرة العلية » وان هذه الفكرة
 كافية لتكوين العقيدة ، ان ثمة آلهة صانعة وخالقة للكون وان كل انسان لديه
 فكرة عن صنع الاشياء ، انه يعتقد في وجود صانع يفعلها ولا يستطيع هو ان
 يفعلها .

ثانياً : اننا نجد لدى القدماء والمتوحشين الاعتقاد في أب ، في سيد ، في خالق ...
 ثالثاً : وجد العنصر الديني عند البدائيين في حالة من الطهر والنقاء الكاملين
 ثم تلا هذا ظهور العنصر الاسطوري .

غير أن نظرية « لنج » هذه بقيت في مجموعها غير مسلم بها حتى ظهر المنهج
 التاريخي في علم الاجناس وقد وافق هذا المنهج على كثير من النتائج التي

انتهى اليها لنج ، وأهم الابحاث التي تثبت فكرة « لنج » هي ابحاث الاستاذ Leopold von Schroeder الاستاذ بجامعة فينا عن الهنود الاوروبيين وقد توصل هذا الباحث الى وجود فكره الاله الاسمى عند الآريين واعتبر أساس الدين عندهم ثلاثة أصول : عبادة الطبيعة ، عبادة الموتى ، والاعتقاد في اله اعلى خير وخالق ، ولكنه لم يبين اي هؤلاء الثلاثة اقدم في الوجود . وقد ذكر في احد المواضع أن الامر يحتاج الى مزيد بحث ،

وفي ذلك الوقت نشر الدكتور كروبر DR. A. L. Kroeber ابحاثاً متعددة عن هنود كاليفورنيا ، أثبت فيها أن تلك القبائل هي أقدم القبائل في امريكا الشمالية ويبدو بوضوح من دراسته انه عثر على اله خير سام . بل إنه جزم بأن هؤلاء الهنود عرفوا الخلق بواسطة موجود سام ، بيده كل القوى ، القوي ، وتنسب اليه كل القدر .

وقد أثبت شمت -- عالم الاجناس -- ان اقزام افريقيا وهم اقدم الاجناس البشرية يؤمنون بوجود اله سام ؛ كما توصل الى وجود فكرة الوجودانية عند معظم القبائل الزنجية وعند كثير من القبائل الاسترالية الجنوبية الشرقية والقبائل الهندية الاميوكية الشمالية . أما عند غير تلك القبائل فقد ظهر اله سام موحد ثم تقدمت تلك القبائل وانتقلت الى اطوار أخرى من الثقافة فساد الفكر الديني تعقد وتشابك ، انتج فكرة تعدد الاله الواحد . وقد أنتج ايضاً فكرة موجودات عليا بجانب هذا الموجود الواحد الاسمى ...^١

هذه بعض آراء العلماء التي تبين ان وجود الله فطرة في النفس الانسانية .

وأخيراً نرى العلامة «ديكارت» يستدل بدليل الفطرة على وجود الله فيقول : « اني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت ذاته بوجود ذات كاملة واراني مضطراً للاعتقاد بان هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال وهي الله . » الى أن يقول :

١ اقتبسنا هذه النصوص من كتاب (نشأة الدين) تأليف الاستاذ على سامي النشار ابتداء من صفحة ١٨١

و ان عندي شعوراً بوجود ذات كاملة لا تقتوق في الوضوح عن شعوري بأن مجموع زوايا مثلث تساوي زاويتين قائمتين إذن فالله موجود ،^١

إن من الآيات التي تبهر الألباب في الاسلام انه سبق العلم في هذه الناحية بنحو ثلاثة عشر قرناً . فقد قرّر القرآن هذه الحقيقة بقوله (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين اليه واتقوه واقموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) الروم : ٣٠ ، ٣١ .

فالقرآن يقرر بأن الدين فطرة في الانسان فطر الله الناس عليها ، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون وانه واحد لا شريك له ، فإذا انفرد المرء بنفسه حكم بانه مخلوق لاله قادر حكيم خلقه وأنعم عليه .

ومعنى قوله تعالى (حنيفاً) أي مائلاً عن العقائد الباطلة . ثم ذيل الله الآية بقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهذا القول حق ، فانه لا يعلم أن الدين فطرة في النفس إلا أفراد ممن وقفوا أنفسهم على الابحاث العلمية في نشأة الدين واثره في النفس . لا جرم ان هذا معجزة علمية للقرآن وقد زاد الرسول هذا المعنى تأكيداً فيما يرويه عن ربه (كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالهم (اي ادارتهم) الشياطين عن دينهم وأمرهم أن يشرکوا بي غيري)^٢ . ويقول الرسول عليه السلام في هذا المعنى أيضاً (كل مولود يولد على الفطرة وإنما ابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) أي كل مولود يولد على ما قرره الاسلام من التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الاشراك وإنما البيئة والعائلة وفيها الابوان هي التي تحول فطرته عن الحقيقة التي انطبعت عليها نفسه .

ونرى القرآن يؤيد ما ذهب اليه العلم بأن العقيدة بوجود الله فطرة في النفس الانسانية لذلك يلجأ الانسان الى الله في الهنة والشدة قال الله تعالى : (وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه) الروم : ٣٣ .

فالنفس تدرك وجود الله بفطرتها وترجع اليه في الشدائد تستمد منه العون وتطلب منه النجدة .

٢ رواه مسلم

١ نقلا عن دائرة معارف وجدي (مادة اله)

بما تقدم يتبين لنا أن الدراسات الدينية الحديثة أثبتت ما قوره القرآن من أن وجود الله فطرة في النفس الانسانية ، واذا نظرنا الى الزمن الذي نزل فيه القرآن وأينا الناس في ذلك الوقت لا يعرفون من أسرار الفطرة الدينية شيئاً ، الا يدل ذلك على أن القرآن من عند الله وعلى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

بعض صفات الله في القرآن

ليس كمثله شيء

مخالفة الذات الالهية لغيرها من المحدثات ظاهرة ، والبداهة تقضي بأن مرتبة المخلوق بينها وبين مرتبة الخالق بون بعيد ، وان الخالق كذلك لا يشبه شيئاً من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ، إذا قيل إن الله يسمع فليس ذاك بأذن كأذاننا ، أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا فهو سبحانه غير مخلوقاته ، وشأن الألوهية أسمى مما تتصوره العقول القاصرة . والعلوم الطبيعية نفسها ليس من شأنها أن تحول أصحابها حق القول الفصل في المباحث الالهية والمسائل الأبدية ، لأنها من جهة مقصورة على ما يقبل المشاهدة والتجربة والتسجيل وهي بعد هذا تتناول عوارض الموجودات ولا تتناول جوهر الوجود .

يقول الشيخ محمد عبده : « فالفكر في ذات الخالق هو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت عن انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعي الى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدي الى الخط في الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره »^١

وهذا ما ذهب اليه الفيلسوف الالماني عمانويل كانت : « بأن لا سبيل للعقل في معرفة حقيقة الله وحقيقة الروح لأنه لا تتوفر فيه القدرة على ذلك .

١ رسالة التوحيد : ص ٦١ ط ١٠

ولأنه يعجز عن ان يصل الى شيء اضعف واعظم منه ، ولأن مجاله لا يتأني الا في الاشياء المادية الملموسة المحسوسة والله منزّه عن المادة وعن ان يكون شيئاً ملموساً محسوساً .

ولكن بعض الناس ضلّوا واختلفوا في ذات الله ، فبعض الوثنيين يرى ان الله ارواح تمثلها الاصنام والاولثان بينما البعض الآخر يرى ان الله حلّ في بعض اجساد اهل الارض .

اما الاسلام فرد الامر الى نصايه واتى بالقول الفصل في حقيقة الله ودحض كل الشبهات والباطيل التي رانت على العقول حول الاعتقاد في الله . ونظرية الاسلام ترى ان للكون خالقاً واحداً متصفاً بجميع صفات الكمال وتدعو بان نخله عن التشبيه والتجسيد وعن كل صفات المخلوقين ، وهذا ما نراه في هذه الآيات القرآنية التي وصفت الله بهذه الاوصاف (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) الانعام : ١٠٣ . (ليس كمثله شيء) الشورى : ١١ . (يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً) طه : ١١٠ . (سبحان رب السماوات والارض رب العرش عما يصفون) الزخرف : ٨٢ . والرسول محمد ﷺ امر بالتفكير في مخلوقات الله ونهى عن التفكير في ذات الاله فقال : (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله) ^١ وقال ايضا : (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله) ^٢ .

وهذا الذي قوره الاسلام تنزيهه ظالقي الكون ليس بعده مذهب ولم تصل اليه ارقى الفلسفات الى عهد الاسلام ولم تبلغه العقول بعده الا بقرون كثيرة ، فنشوؤه في جزيرة العرب في ذلك العهد دليل على ان القرآن وحي الهي .

حياة الله تعالى

إن الله حي واتصافه بالحياة معناه ان وجوده بلغ الغاية في عظمته واثاره . قال الله تعالى : (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا

١ رواه الطبراني ٢ رواه البيهقي

نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه
يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسِعَ
كرسيه السموات والارض ولا يؤوده حفظها وهو العلي العظيم)
البقرة : ٢٥٥ .

علم الله

ان الله عليم لم يسبق معرفته جهل ولا يعدو عليه نسيان ، وعلمه محيط
بالأمس واليوم والغد والظاهر والباطن بالسما والارض ، بالدنيا والآخرة .
وما هذا الكون وما فيه من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء في موضعه
وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه في وجوده وبقائه الا برهات على شمول علم
الله وحكمته .

فالله يعلم ما يعمل وما يتكلم كل فرد من افراد الناس (ألم تر أن الله يعلم
ما في السموات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا
خمس الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم اين ما كانوا
ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم) المجادلة : ٧ . ويعلم
الله ما في الصدور وما في السموات والارض . قال سبحانه : (قل ان تحقروا
ما في صدوركم او تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الارض
والله على كل شيء قدير) آل عمران : ٢٩ .

ويعلم الله دقائق هذا الكون وخفاياه جاء في القرآن في وصف علم الله
(وعنده مقادير الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من
ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب
مبين) الانعام : ٥٩ .

يتبين لنا من هذه النصوص القرآنية أن نظرية الاسلام في الله ليست مجرد
نظرية فلسفية ميتافيزيقية كما يعتقد كثير من الغربيين إذ يعتقدون ان الله
خلق العالم ثم عرج الى السماء ولا شأن له به ، بل يعتقد المسلمون
ان الله يعمل في العالم دائماً فكل ما يصير وكل ما يتجدد من عمله المستمر .

سمع الله

إن الله سميع مجيب فما من كلام يدور بين الناس الا سمعه الله ، ولا تحسبن الله حين يسمع كلام جماعة يشغله عن سماع قوم آخرين ، كلا ! فما يشغله شأن عن شأن وما تغيب عنه وسط الضجيج ولا تشبه عليه لغة على اختلاف اللسنة . جاءت « خولة » الى رسول الله تشتكي له زوجها فأنزل الله عليه هذه الآية (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) المجادلة : ١ .

بصر الله

ان الله بصير ورؤيته شاملة لما في الكون وتنوع جميع المدركات ورؤية الانسان لا تذكر امام الرؤية الالهية المحيطة الشاملة قال الله تعالى : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً) الاسراء : ٩٦ .

كلام الله

إن الله متكلم فقد ورد في القرآن أن الله كلم بعض انبيائه (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) البقرة : ٢٥٣ وكلام الله ليس له نهاية ولا عد (ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر ينده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) لقمان : ٢٧ .

قدم الله تعالى وبقاؤه

قال الله تعالى : (هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) الحديد : ٣ .

فالله هو الاول أي قبل كل شيء بلا بداية والآخر أي بعد كل شيء بلا نهاية ، والظاهر أي بالادلة عليه ، والباطن أي عن ادراك الحواس . وقال الله تعالى : (ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو ، كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون) القصص : ٨٨ . وقال

الله تعالى في وصف الدنيا (كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .
هذه هي بعض صفات الله في القرآن التي لا تدرك كنهها العقول ولا يحيط بها الوصف .

دَجُضٌ شَبَهَةٌ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ

جاء وصف الله في القرآن بصفات كثيرة هي صفات الكمال لله ، وقد أثار بعض الباحثين الشبهات على هذه الصفات منهم الدكتور (فيليب حتي) في كتابه تاريخ العرب إذ قال في معرض الحديث عن العقيدة الإسلامية (. . . وصفات الحب في الله تتضاءل أمام صفات القوة والجلال فهو الإله المهيمن العزيز الجبار)^١ .

ولرد على هذا القول نقول : ان صفات القوة والجلال في القرآن قليلة جداً بالنسبة لصفات الرحمة والمودة التي هي الأكثر عدداً ، وصفات القوة والجلال لله هي من فضائل القرآن لأنها تحذر الظالم من التمادي في غيه ، وليس من الضروري ان نتصور الله رفيقاً عطوفاً في جميع الاحيان فمن الجهل أن تنسى غضب الله على الأشقياء والظالمين .

صفات القوة والقهر

وإذا استعرضنا صفات القهر والقوة لله في القرآن نجد أنها هي صفات الكمال لله وهي لا تحمل معنى الظلم في أي وجه كما سيتبين لنا ، فمن صفات الله (الجبار) ومعناه مقدر الصلاح من قولهم : جبرت العظم الكسير فانجبر . وقيل معناه حامل العباد على ما يريد ، وقيل الجبار معناه الذي لا يؤثر فيه قصد القاصدين ولا يناله كيد الكائدين ، والنخلة إذا أسرع في النمو وفانت الايدي قيل نخلة جبارة فيقرب معنى الجبار من معنى المتعال ومن صفات الله (المهيمن) ومعناه المطمع والمسيطر على مخلوقاته ، وصفة (العزيز) أي القوي الذي لا ينال ولا يغالب ولا يعجزه شيء ولا

١ تاريخ العرب ج ١ ص ١٧٧ ط ٢

مثل له . وصفة (المتكبر) أي العظيم ذو الكبرياء والعظمة . وصفة (القهار) أي صاحب السلطان المسيطر على كل موجود . وصفة (العظيم) أي الذي لا حدود لعظمته . وصفة (المنتقم) أي المعاقب لمن عصى وكفر . وصفة (مالك الملك) أي الذي له التصرف المطلق في ملكه .

صفات الود والرحمة

وأما صفات الود والرحمة لله فهي كثيرة في القرآن منها صفته (الرحمن) أي المنعم بجلال النعم . وصفة (الرحيم) أي الرفيق بخلقه . وصفة (السلام) أي واهب السلام . وصفة (الغفار) أي كثير المغفرة والمريد إزالة العقوبة عن مستحقها . وصفة (الرزاق) أي المتكفل بأرزاق العباد . وصفة (اللطيف) أي الذي اجتمع رفقه ولطفه في فعله وتدبيره . وصفة (الشكور) أي الذي يشي على من اطاعة . وصفة (الكريم) أي الذي لا يبخل ولا يبالي كم أعطى . وصفة (المجيب) أي الذي يقدر على تلبية كل من دعاه ولا يسأم من إلحاح الطالبين . وصفة (التواب) أي الذي يهب أسباب التوبة ويقبلها . وصفة (الودود) أي كثير الود لعباده ويدني من تقرب اليه .

وبعض الآيات القرآنية التي يوصف الله فيها بالقوة يليها مباشرة أوصاف الرحمة أو بالعكس قال الله تعالى (نبيء عبادي اني انا الغفور الرحيم . وان عذابي هو العذاب الاليم) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

اختصاص الله بالرحمة

ونجد في القرآن ان الله وصف نفسه بصفة الرحمة كما سنرى في هذه الآيات والتي تدحض كل شبهة في هذا المجال من أن صفات القوة والقهر تغلب على صفات الحب ، قال الله تعالى : (ربكم ذو رحمة واسعة) الانعام : ١٤٧ . (كتب ربكم على نفسه الرحمة) الانعام : ٥٤ . والمسلم عندما يقرأ آية سورة من القرآن يبدأ بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم) .

انتفاء الظلم عن الله

وإذا انتفت عن صفات الله صفة الظلم نبين بطلان شبهة الذين وصفوا

صفات الله في القرآن بالقوة والقهر والجبروت وظهر لك انها ما هي الا صفات الكمال لله . قال الله تعالى : (ولا يظلم ربك أحداً) الكهف : ٤٩ (وما الله يريد ظلماً للعالمين) آل عمران : ١٠٨ . (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) النساء : ١٤٠ .

هذه هي صفات الله في القرآن التي تغلب عليها صفات الود والرحمة والتي تدحض كل شبهة في هذا المجال .

الْعِلْمُ أَشَدُّ النَّاسِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ

يظن بعض الناس الذين لم يدركوا من العلم الا قليلا ان الكفر من ضروريات العلم وان اكثر الناس علماً هم أشد الناس إلحاداً . والحقيقة أن العلم لا يؤدي بصاحبه الى الإلحاد في أي عهد من العهود فان العالم المنقب عن الحقائق يجد نفسه من الوجود في عالم لا حد له يسود بمجموعه نظام محكم لا تشوبه شائبة من الفوضى لا يلبث بعد تأمله أن يخرج ساجداً للقدرة الالهية التي أوجدت هذا الكون العظيم .

فقد نشر الدكتور « دننرت » Dennert الألماني بحثاً حلل فيه الآراء الفلسفية لا كابر العلماء الذين اناروا العقول في الاربعة القرون الاخيرة وتوخى أن يدقق في تعرف عقائدهم فتبين له من دراسة ٢٩٠ منهم أن : ٢٨ منهم لم يصلوا الى عقيدة ما .

و ٢٤٢ اعلنوا على رؤوس الاشهاد ايمانهم بالله .

و ٢٠ فقط تبين أنهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة .

فاذا اعتبرنا غير المبالين كلهم من الملاحدة ، وجدنا أن ٩٢ في المئة من كبار العلماء يعتقدون بوجود الله تعالى . فهذه النسبة الكبيرة تدل دلالة صريحة على أن التناقض بين الايمان والعلم الذي يزعم الماديون أنه وصف مميز للعلماء ليس له أصل ، وتشير الى أن الايمان والعلم يتكاملان ولا يتنافيان .

قال الدكتور (ليون ووتي) الذي اخذنا عنه هذا الاحصاء : ان العلامة الكبير باستور وهو اكبر عقل ظهر في القرن الماضي كتب

يقول : « الايمان لا يمنع اي ارتقاء كان ، لان كل ترقى يبين ويسجل الاتساق البادي في مخلوقات الله ، ولو كنت علمت اكثر مما اعلم اليوم ، لكان ايماني بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن » ثم عقب على هذا بقوله : « ان العلم الصحيح لا يمكن ان يكون مادياً ، ولكنه على خلاف ذلك يؤدي الى زيادة العلم بالله ، لأنه يدل بواسطة تحليل الكون على مهارة وتبصر ، وكال عقل الحكمة التي خلقت النواميس المدبرة للوجود ، كلاً لا حدث له » .

أما الدكتور « ووتر » Wutz الكيميائي وعضو أكاديمية العلوم وعميد كلية الطب الباريزية فقد كتب يقول : « إذا احسست في حين من الأحيان أن عقيدتي بالله قد ترعزت وجهت وجهي الى أكاديمية العلوم لتثبيتها » . وقال الفلكي الكبير « فاي » Faye العضو باكاديمية العلوم في مؤلفه (اصل العوالم) « من الخطأ القول بأن العلم يفضي بصاحبه الى نكران وجود الله » وقال الجيولوجي الذائع الصيت « ادموند هربرت » المدرس بجامعة السوربون : « العلم لا يمكن ان يؤدي الى الكفر ، ولا الى المادية ، ولا يفضي الى التشكيك » وقال الاستاذ الرياضي المشهور (كوشي) Cauchy : « ليست عقائدي ثمرة أوهامي الوراثة ، ولكنها نتيجة تحقيقاتي العميقة » وقال العلامة المؤرخ الطبيعي فابر Fabre : « كل عهد له أهوا جنونية . فاني اعتبر الكفر بالله من الأهواء الجنونية وهو مرض العهد الحالي وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني العقيدة بالله » .

هذه آراء بعض أقطاب العلم الطبيعي اخترناها من كثير مما ذكره (ليون ووتي)^١ ونزيد على ذلك قول الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر : « من درس الطبيعة دراسة مستعجلة سطحية اغوته وقادته الى الشيطان ، ومن درسها بتعمق وروية سميت به وأوصلته الى الخالق » .

وننقل عن العلامة هرشل الانكليزي وهو من أكبر علماء الفلك في العالم قوله : « كلما اتسع نطاق العمل ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود

١ ترجم هذه النصوص الاستاذ محمد فريد وجدي ونشرها في مجلة الازهر مجلد ١٩ .

خالق اذلي لا حد لقدرته ولا نهاية . فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو في الواقع صرح عظمة الله وحده ١٤ .

فترى من أقوال هؤلاء أن سبب ايمانهم بالخالق هو العلم الطبيعي نفسه . وبما يسجل للقرآن كونه سبق أن قرر هذه الحقيقة منذ ثلاثة عشر قرناً فقد حصر خشية الله على وجهها الاكمل في العلماء فقال الله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر : ٢٨ . لأن العلماء بما اوتوا من صفات النظر العميق والتحقيق الدقيق يتفنون من أسرار الابداع الالهي في الوجود ونواحي الاعجاز فيه ما لا يظهر لغيرهم .

كما ان القرآن اعتد بشهادة العلماء فقال : (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) آل عمران : ١٨ . فجعل الله شهادة العلماء بوجوده ووحدانيته في درجة شهادة الملائكة وهم من لا يتطرق اليهم الشك وفي هذا ما فيه من الاعتداد بآراء أهل العلم .

واذن فالعلم كشف في كتاب الكون البرهان على وجود الله والقرآن سبق الى الادلة التي جاء بها العلم ، فاتخذ البرهانان على وجود الله : برهان القرآن ، وبرهان كتاب الكون .

١ . نقل عن دائرة معارف وجدي (مادة اله)

توحيد الله

عقائد العرب قبل الاسلام - الاسلام دعا الى توحيد الله -
معنى لا اله الا الله - روح التوحيد في الاسلام - مهاجمة
الاسلام للاشراك والوثنية .

عقائد العرب قبل الاسلام

كان العرب قبل الاسلام مختلفين في الدين والعقيدة ، فطائفة منهم انكروا الخالق وهم الدهريون وطائفة ثانية قالوا بوجود الخالق وانكروا البعث والنشور ، وطائفة ثالثة قالوا بالخالق وبالدار الآخرة وانكروا الرسل وبعث الاجسام وهذه الطائفة تنقسم الى قسمين : قسم منهم يعتقدون بوجود الملائكة ، وقسم آخر لا يعتقدون بوجود الملائكة بل يعتقدون بالاصنام يعبدونها على انها وسائل وشفعاء عند الله وهم دهماء العرب . قال ابن الكابي : « كان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، واذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً »^١ .

هذا وقد كان من أهل مكة في الجاهلية من يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر أن يبعث الله رسولاً للناس ، وكانوا افراداً يعدّون على الاصابع . ثم ان من العرب من كان يهودياً ومنهم من كان نصرانياً ومنهم من كان يصبو الى الصابئين^٢ ويعتقد في الانواء .

١ كتاب الاصنام ص ٣٣ ط ٢

٢ الصابئين: قوم كانوا يعبدون النجوم وقيل قوم يزعمون انهم على دين نوح وقيل غير ذلك.

الاسلام دعا الى توحيد الله

جاء الاسلام فابطل ما كان عليه العرب من عبادة الاصنام وقرر التوحيد المطلق لله في الذات والصفات والتوجه له بالعبادة وحده ، والايمان بالرسول والملائكة والبعث . جاء في القرآن (والمحكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) البقرة : : ١٦٣ . كما أن القرآن يقرر أن توحيد الله هو ما جاء به الرسل من أولهم الى آخرهم . قال الله تعالى : مخاطباً رسوله محمداً ﷺ (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون) الانبياء : ٢٥ .

معنى لا اله الا الله

فالتوحيد هو القاعدة الاولى في الاسلام التي يجب ان يعتقد بها قلب المسلم وينطق بها لسانه بقوله - اشهد أن لا اله الا الله - فكلية - الله - هو العلم الذي يطلق على الخالق ، وكلية - الاله - استعملت للدلالة على المعبود أياً كان ، فكلية - لا اله - نفي لكل معبود في الوجود وابطال لعبادته ، وكلية - الا الله - اثبات لعبادة المعبود بحق وهو الله سبحانه .
فشهادة المؤمن - لا اله الا الله - هي اعترافه بلسانه عن اعتقاده بقلبه عن علم ويقين أن لا معبود الا الله ، والشهادة بهذا هي الشهادة بوجود الله وبوحدانيته .

روح التوحيد في الاسلام

قضت سنة الله في خلقه أن يكون للعقائد سلطان على الاعمال البدنية فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها .
فالتوحيد في الاسلام الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب تتبعه حتماً جميع الفضائل المتعارف عليها ، فكلية التوحيد ترسخ في قائلها بأن لا معبود ، ولا يحى ، ولا يميت ، ولا رازق ولا نافع الا الله .
هذا ويستفيد المؤمن من كلمة التوحيد عاطفة الاستقلال والحرية ، فليس لاحد عليه سلطان . ويرى أن ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع

للملوك والزعماء المطلقين ورجال الدين هو جهلهم بالمؤثر الاعلى وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تزيهم ان قادتهم من طينة ارقى من طينتهم ؛ ولهذا جاء في القرآن النهي عن دعاء غير الله (إن الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) الاعراف : ١٩٤ .

ويأمر الله رسوله محمداً بأن يخاطب قومه بقوله : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني برحمة هل هن مكسكات رحمته قل حسبي الله) الزمر : ٣٨ .

ويستفيد المؤمن أيضاً من كلمة التوحيد عاطفة الانفة والعفة التي تنتج من اعتقاده ان لا رازق الا الله ، جاء في القرآن (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) العنكبوت : ٦٢ .

كذلك يستفيد المؤمن صفة الشجاعة وعدم هيبة الموت لان الذي يملكه هو الله وحده ، وبذلك ترتفع نفسه الى العزة والاباء والاستشهاد في سبيل الحق ولهذا يقول الله تعالى : (وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتاباً مؤجلاً) آل عمران : ١٤٥ .

فالتوحيد كما يتبين لنا من اجل الصفات المكتسبة للسعادة . وقد نبه القرآن على عظم امره وفساد الشرك (إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً) النساء : ١١٦ .

وتوحيد الله فضلاً عن انه يحقق سعادة الافراد ، يمتاز عما سواه في نقطة من أهم النقاط الاجتماعية . جاء في القرآن (أرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار) يوسف : ٣٩ . ففي هذه الآية اشارة واضحة الى أن تفرق الالهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم الى اعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، واما اعتقادهم جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام

١ معنى الآية : أي ليس من شأن النفوس ولا من سنة الله فيها ان تموت بغير اذنه تعالى ومشيبته . ومعنى (كتاباً مؤجلاً) اي اثبته باجل معين لا يتغير .

اخوتهم وهي قاعدة سعادتهم^١»

والقرآن يدعو الى توحيد الله ونفي الشريك عنه بأسلوب منطقي
بديع كما يتبين لنا في هذه الآية (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من الـ
إذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون)
المؤمنون : ٩١ .

ويبين القرآن ان تعدد الالهة سبب افساد السماوات والارض (لو كان
فيها آلهة الا الله لفسدتا) الانبياء : ٢٢ .

مهاجمة الاسلام للاشراك والوثنية

لم يقف الاسلام عند هذا الحد بإقراره عقيدة التوحيد ، بل تجاوز ذلك
لمحاربة كل ما سواه من اشراك ووثنية ، والوثنية هي عبادة المحسوس الشخص
» صنع الاسلام ذلك لأنه اراد للانسان هدفاً أسمى مما في عالمه ، اراد ان
يكون خضوعه وان تكون طاعته لغير من يجوز عليه التغير والفناء ؛ والمتغير
الفاني ليس الا اشخاص هذا العالم الذي نعيش فيه . اراد له هذا لأن
خضوع الانسان للمتغير الذي يعتمده الفناء معناه التقلب في الانقياد على نحو
يجعل الانسان مضطرباً في التوجيه في حياته ، ومضطرباً في الغاية ، وأخيراً
مضطرباً في دوافع العمل والسلوك ...

فمهاجمة الاسلام للوثنية ، ومهاجمته للشرك ... مهاجمة هذه كانت لأجل
أن يرفع الانسان من عبادة الشخص المحدد المتغير الفاني الى ما وراء ذلك بما
له الدوام والاستقرار ، واذا كان له الدوام والاستقرار كان حتماً
له الكمال ... وإذا كان دائم الكمال ، شرف الانسان بالخضوع له لأنه أعلى
قيمة منه وبقيت كذلك وجهته في الحياة ثابتة لا تبدل فيها وهي وجهة
الكمال المطلق ...^٢ ولهذا جاء في القرآن (والله المثل الأعلى وهو العزيز
الحكيم) النحل : ٦٠

وما كانت مهاجمة الاسلام للاشراك والوثنية لتتم بإقامة برهان عقلي على
توحيد الله بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية

١ رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٩٥ ط ١٠

٢ نقلاً عن بحث نشرة الدكتور محمد البهي في مجلة الرسالة .

بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال . جاء في القرآن (قل هو الله احد . الله الصمد^١ . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً احد) الاخلاص .

وجاء في القرآن أيضاً (لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح : يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم . أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت^٢ من قبله الرسل وانه صدّيقه^٣ كانا يا كلان الطعنام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون)^٤ المائدة : ٧٢ - ٧٥ .

وفي طي مكافحة الاسلام للاشراك مكافحته انقياد الفرد لفرد آخر لذاته وعبادته قال الله تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) آل عمران : ٧٩ .

والمعنى : لا ينبغي لأحد من البشر أن ينزل عليه كتابه ويعطيه النبوة ثم يدعو الناس الى عبادة نفسه دون الله ، ولكن النبي يأمر قومه بأن يكونوا منسوبين الى الرب مباشرة والوسيلة الى ذلك تكون بتعليم النبي قومه الكتاب ودراسته والعمل به والتوجه الى الله وحده .

فنظرية الاسلام تقرر توحيد الله توكيداً مطلقاً في ذاته وصفاته والتوجه اليه توجهاً كلياً يحوره من عبودية الافراد وبهبه العكرامة الانسانية الخفة ويقوى نفسه على مجابهة احداث الحياة ويجعله فرداً صالحاً في المجتمع الانساني .

١ الصمد : هو الذي لا يأكل ولا يشرب والفني عن كل شيء ٢ خلت : مضت
٣ صدّيقه : خلقها الصديق ٤ يؤفكون : يصرفون عن التأمل فيها .

الايمان باليوم الآخر

الادلة العقلية والعقلية على وجود اليوم الآخر - مذهب
المسادين في اليوم الآخر - اثر المذهب المسادي - مناقشة
المسادين - ثبوت الروح علمياً - حقيقة الروح في القرآن -
البعث - احوال يوم القيامة - الحساب - النعيم الحسي -
النعيم الروحي - الجزاء على العمل السبيء .

الادلة العقلية والعقلية على وجود اليوم الآخر

تنقسم الادلة على ثبوت اليوم الآخر الى قسمين : نقلي وعقلي ، فالنقلي هو
ما اتفقت عليه الاديان السماوية من وجود حياة بعد الموت بحاسب فيها
الانسان على ما عمله في الحياة الدنيا .

والادلة العقلية اليك بيانها : في الناس قديماً وحديثاً ، في البدو والحضر ،
وفي الأصقاع المختلفة ، وفي الانسان الجاهل والعالم شعور خفي يشبه الالهام
بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى تتحقق فيها العدالة التي فقدت في الدنيا وينال
فيها الانسان جزاء اعماله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

هذا الايمان والشعور العام بحياة بعد هذه الحياة لا يمكن أن يعد ضلة
عقلية او نزعة وهمية وانما هو من الالهامات الصادقة التي اختص بها النوع
الانساني .

وليس من المعقول أن يغرس في النفس هذا الشعور ثم يشقى من يدين
به ، ويسعد من ينبذه ويخرج عليه ، فالحكمة التي غرست هذا الشعور في

النفس خليفة أن ترد الامر الى نصابه في حياة بعد هذه الحياة لأن الجزء العدل لا يتم كله في حظوظ هذه الحياة .

والذي يخلق الانسان مستعداً لما لا يتناهى من الكمال بنا وهبه من العقل الذي لا يقف عند حد في العلم ، وكشف أسرار الكائنات لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته غاية سائر الحيوان مما لم يعط استعداداً ، بل تقضي حكمة الله في الانسان أن يجعل له حياة بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعماله وبوافي فيها كماله .

ولو أن الله أسدى الى الانسان من المواهب ما أسدى ثم تركه بعد ذلك سدى لكان ذلك من العمل الجزاف ، الخالي من البصر والحكمة البعيد عن العدل والانصاف .

مذهب الماديين في اليوم الآخر

الماديون لا يعتقدون بأن للوجود صانعاً قادراً ، بل يقولون بأن كل ما في الوجود صادر عن المادة ؛ والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدق والاتفاق ، وبلغت ما بلغت من الكمال والاتقان عن طريق التطورات المتعاقبة . وعلى هذا فلا حياة بعد هذه الحياة ، كما أنهم ادعوا ان الفكر والشعور والعواطف نتيجة المادة وحدها وافرازها كما تفرز الكبد الصفراء وكما تفرز الكلية البول ؛ والفكر والارادة والعواطف من افراز المخ ، ويتوقف مقدارها ونوعها على مقدار المخ وحمله وتركيبه ، وكل شيء في الحياة مادة أو مظهر من مظاهرها ولا شيء يسمى الروح فلا معنى لخلودها وانما هو من نسج الخيال .

اثر المذهب المادي

اشتد دعاء الماديين في القرن الماضي في نشر مذهبهم معتمدين على ما كسفته العلوم الطبيعية من خفايا القوى الكونية ذهاباً منهم الى أن تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضي الى نضج القوى العقلية ، ويكون اثر ذلك على الاخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقيقاً لا

تشوبه سائبة ، وكلاً علمياً وعملياً يؤدي بالانسانية الى عهدها الذهبي المنتظر دون أن ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .
وقد بذل دعاة المادية جهد الجبارة في نشر مبادئهم فاكثروا من المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم وعمدوا الى طبع المؤلفات - التي تؤيد مزاعمهم - طبعات رخيصة لتنتشر بين طبقات الشعب ، حتى تم لهم ما أرادوا من زعزعة عقائد المتدينين في شؤون ما فوق الطبيعة فكانت ثمرات هذه الجهود التي بذلت من دعاة الماديين : تدهور الآداب العامة التي ندع وصفها للدكتور (ليون ووتي) الفرنسي ، في كتابه المسمى (الى الذين يألمون الى الارواح المعطلة) : « والمذهب المادي بنفسه في صدر الانسان نظرياته التي تقرر له انه سيفنى بعد الموت ، يطلق فيه شهواته من قيودها ، ويوجد فيه نها حيوانياً لتوفيتها .

هذا المرض الاجتماعي الخطير المؤلف من المستريا وعدم الشعور بعمل على ابقاع الانسانية في انحلال لا علاج له .

والانسان في هذا الخضم من الانحلال ، يشعر بكدر عظيم ويتألم متمنياً أن تكون له حياة أفضل مما هو عليه ولكنه لا يجد العون الضروري لانقاذه مما وقع فيه ... فالعقلية التي تساورنا اليوم سم نافع تجتاح انسانيتنا وان تسرب هذا السم القاتل بلوث كل ما بقي في نفوسنا من جليل ونيل وعظيم ، والقوانين البشرية تعجز عن كبح اي جماح انساني ما دامت الاخلاق قد فقدت سلطانها على القلوب ، فنحن إذن نغرق في الانحطاط ، فإذا لم نعمل على استرداد وجودنا فسنسير قدماً الى هلاكنا لأن الشر يستدعي العقاب » .

ويصف الاديب الفرنسي (فيكتور هوجو) تأثير المذهب المادي في النفسية الانسانية بقوله : « توجد كارثة في زماننا هذا ، وكنت اريد ان اقول (سبه كارثة) الا وهي الميل الى حصر كل اعتبار في هذه الحياة وحدها والحقيقة أنه باقناع الانسان بأن هذه الحياة الأرضية المادية هي الغرض الأسمى من الوجود ، والنهاية التي ليس بعدها مرمى ، تتضخم جميع متاعب

العيش وتعظم سائر تكاليفه ، وتصبح فكرة العدم غير ممكنة الاحتمال ، وينقلب الألم وهو ناموس الهي موصل الى الكمال ، ناموساً من اليأس موصلاً الى النار ، وقس على ذلك جميع الشؤون الاجتماعية ... فالذي يخفف الجهاد ، ويشرف العمل ، والذي يجعل الشخص قوياً متساحاً عاقلاً صبوراً شجاعاً جريئاً ، وفي الوقت نفسه متواضعاً وعظيماً جديراً بالحرية هو ما يتراءى له على الدوام من حياة ابدية اكمل ، يتألق نورها خلال غياهب هذه الحياة ... فواجبنا جميعاً ان نوجه الرؤوس نحو السماء ، وان نلفت جميع الارواح الى حياة بعد هذه الحياة ليتقرر فيها العدل ويجازى كل على ما كسبت يده ' ١

مناقشة الماديين

اما ان العلم مادة فقط فنقول لا يستسيغه العقل فكيف تكون الافكار والارادة والعواطف نتيجة للمادة الكثيفة الجامدة ؟ ! وكيف يكون الفكر الذي يشعر بشخصيته نتيجة لمادة لا تشعر بشخصيتها ؟ بل كيف تكون المادة علة للفكر والعقل غير الماديين ؟ إن لم يكن ذاك فلا بد ان يكون هناك شيء وراء المادة ووراء الجسم وهو الروح .

وقد أثبت العلم الحديث ان المادة لا تتعدم فكل ذرة في هذا العالم لا تفتى ولكن تتحول ، فالشمعة تحترق ولكن الكيماوي يستطيع ان يثبت أن عناصرها لم تفتى وإنما تفرقت في الجو وهي موجودة في الهواء ولكن في وضع آخر . تغير شكلها ولكن لم يتغير جوهرها .

هذا ما قرره العلم الحديث وعلى ذلك فموت الاجسام ليس الا تغيراً لحالات الجسم وسبق الجسم في هذا العالم في أشكال أخرى .

وإذا كان العالم مادة وروحاً معاً وكانت المادة لا تفتى فكيف تفتى الروح وهي اصلح من المادة للبقاء ؟ وتكوينها وصفاتها انسب للدوام .

١ هذه الكلمة القاها فيكتور هوجو في الجمعية التشريعية التي عقدت في ١٥ يناير من سنة ١٨٥٠ في باريس وقد نقلها الدكتور (ووتي) في كتابه (هل الاتحاد ممكن) L'athéisme est-il possible وترجمها الاستاذ محمد فريد وجدي في مجلة الازهر

إن الروح هي التي تمس المادة فتدب فيها الحياة . انها تحل في الجسم فيعقل ويفكر ، وتفارقه فيكون مادة جامدة كسائر المواد . لا ليس الهام الانسان بالحياة الاخرى وهم انما هو وحي صادق من طبيعته وشعوره حي يتغلغل في غريزته ،^١

ثبوت الروح علمياً

(اجتروا العلم على الروح حتى انكروها فعاقبه الله بأن جعله هو الذي يقيم على وجودها الدليل القاطع) الاستاذ الالماني (كارل دوبريل) .

عندما اشتدت حملة الماديين على الروح والخلود منذ ثلاثة قرون وفق الله بعض العلماء الى نواح من البحث في الشخصية الانسانية فاهتدوا الى حقائق مادية عيانية لم يكونوا يحلمون بها اترتهم رأي العين ان ما كانوا يعتبرونه شبهات علمية ما هي الا جهالات بالحقائق الكونية .

فقد حدث في القرن الثامن عشر حين اخذت الشكوك في الدين تراود بعض الباحثين وتوات البحوث العلمية لاثبات آلية الطبيعة وتجردها من كل ما يمت الى الروح بسبب ، حدث ان اكتشف عالم الماني هو الدكتور (مسمر) في سنة ١٧٧٠ التنويم المغناطيسي فاثبت بالعمل ان الانسان ليس مجرد أداة مادية ، ولكنه مستودع لروح تخالف المادة من جميع الوجوه وتتسلط عليها بعد ان تبطل عمل التواميس الطبيعية عنها ، ودلل على وجود عقل باطن للانسان ارفع من عقله العادي ، متصل بعالم روحاني أسمي بما لا يقدر من العالم المادي .

هال العلماء هذا الاكتشاف وثاروا عليه مجاهدين ، وظلوا يحاربونه قرناً كاملاً ولكنه تغلب بحقايقه الثابتة على خصومه ، وحصل على اعتراف العلم به فكان هذا الاكتشاف بمثابة كوة فتحتها العلم الى عالم الروح مكنته من دراسة الشخصية الانسانية الباطنية دراسة معمقة ، كانت تتيجنها الاثبات بالدليل المحسوس ان الانسان الحقيقي ليس محصوراً في هذا الجسد الحيواني ، وأن له روحاً مستقلة عن الجسد كل الاستقلال وأنها لا تتحلل بانحلاله ،

١ اثبتنا هذه الفكرة من بحث عن اليوم الاخر كتبه الدكتور احمد امين في كتبه فيض الخاطر

وتتصل وهي متجردة عن المادة بالأرواح التي سبقتها الى ذلك العالم .
وكان هذا الكشف العلمي داعياً الى تأسيس « جمعية المباحث النفسية »
في انجلترا فنأسست بلندن سنة ١٨٨٢ من اقطاب العلم في انجلترا ولا تزال
باقية الى الآن . يقول العلامة وايم جيمس في كتابه (ارادة الاعتقاد) :
« ان جمعية المباحث النفسية التي يمد عملها في انجلترا واميركا سمحت بأن
يتلاقى العالمان العلمي والروحي في مجال واحد واني اعتبر ان هذه الجمعية
مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير في ترتيب المعارف
الانسانية » .

حقيقة الروح في القرآن

مسألة الروح اعقد مسائل العلم والفلسفة منذ فكر الانسان في حقائق
الاشياء ، ومن معجزات القرآن أنه وضعها هذا الموضع الصحيح من الفلسفة
والعلم . جاء في القرآن (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي^٢
وما اوتيتم من العلم الا قليلا) الاسراء : ٨٥ .

وفي قوله تعالى : « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » يذكّرنا قول العالم
(شارل ريشيه) عضو المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيا في جامعة الطب
الفرنسية حين قال في مقدمة كتبها كتاب (الظواهر النفسية)^٣ : « لماذا
لا نصرح بصوت جهوري بأن هذا العلم الذي نفخر به الى هذا الحد ليس في
حقيقته الا إدراكا لظواهر الاشياء وأما حقائقها فتغلت منا ولا تقع تحت
حواسنا ، وان الطبيعة الحقيقية للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة
تعالى عن ان تلم بها عقولنا الى أن قال : « فالأولى بالعالم الصحيح ان يكون
متواضعاً وجريئاً في آن واحد ، متواضعاً لأن علومنا ضئيلة ، وجريئاً لأن
مجال العوالم مفتوح أمامه » .

١ La volonté de Croire ص ٣١٣

٢ من أمر ربي : اي من فعل ربي .

٣ هذا الكتاب تأليف الدكتور (ماك دويل) النائب العام في بوردو بفرنسا .

الْبَعْثُ

اقتضت حكمة الله أن يجعل وراء هذه الدار داراً يرى فيها المرء جزاء أعماله ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وجاء القرآن الكريم باقناع الناس بأن تلك الدار هي حق لينظروا اليها ويقصدوا بما يأتون أو يتركون من عمل وجه الله وثوابه فيها .

وقد اهتم القرآن بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيماً فقلما نجد سورة من سوره الا وتذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ما بين تذكير وبيان وضرب الامثال ونفي للشبه وغير ذلك .

وانما عني القرآن بهذه العقيدة لانها اصل عظيم من أصول الصلاح والاصلاح في العالم ، فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة ، وآمنوا بها ايماناً لا يخامرهم شك لاستقامت أمورهم ، وكثر فيهم الخير والاحسان ، وقل بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتغلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريهم الشك في البعث ودار الجزاء فلا يصدق أنه سيبعث بعد الموت وإنه سيعرض للحساب . وانكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك الى احد هذه الامور التالية أو جميعها :

- أولاً : كونه امراً لا تدعو اليه حاجة الناس وليس وراء مصلحة ترجى .
- ثانياً : استبعاده واستعظام أمره ، فان الاحياء قد الفوا ان يروا اجساد الاموات تتفرق وتحلل وتفسد وتقنى في الارض ، فلا تكاد عقولهم تسلم في سهولة أمر عودتها وصيورتها جسماً حياً يسعى ويدرك .
- ثالثاً : مخالفته لما ألف من السنن الطبيعية حيث لم يعهد الاحياء أن ميتاً بعث من رمسه وعادت اليه الحياة كرة أخرى .

وقد عالج القرآن ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم فقال الله تعالى للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو اليه حاجة ولا تقضي به حكمة (ليجزي الذين اساءوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى) النجم : ٣١ وقال أيضاً : (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم اليانا لا ترجعون) المؤمنون : ١١٥

وقال للذين يستبعدون البعث ويستعظمون أمره : ان الله لا يعجزه شيء وليس عليه شيء يستبعد ، فهو القوي القادر الذي خلق الخلق وأنشأه من العدم (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الروم : ٢٧ .

وقال أيضاً (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) يس : ٧٨ - ٨١ .

أما الذين حسبوا البعث مخالفاً للسنن المألوفة فالحق سبحانه وجه الخطاب اليهم بقوله (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب^١ ثم من نطفة^٢ ثم من علقه^٣ . ثم من مضغة^٤ مخلقة وغير مخلقة^٥ لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى^٥ ثم نخرجكم طفلاً

١ اما ان الله خلق الانسان من تراب فذاك ما يؤيده الواقع ويقره العلم فلو انك اخذت قبضة من تراب الارض الخصبه واجريت عليها عمليات التحاليل الكيماوية لوجدتها تتركب من (ستة عشر عنصراً) كالسيوم والفسفور وغير ذلك ، ولو اخذت قطعة من جسم الانسان واجريت عليها عمليات هذا التحليل لوجدتها كذلك تتركب من (ستة عشر عنصراً) وهي نفس العناصر التي تتركب منها تربة الارض . وتنقل هذه العناصر من تربة الارض الى جسم الانسان بما يتناوله المرء من المأكولات

٢ علقه : قيل في تفسير العلقه بانها الدم المتجمد الغليظ وقيل بانها مجموعة من الخلايا الحية تنقسم اليها البويضات بعد تلقيحها وانما سميت في هذا التطور بالعلقه للشبه الكبير بينها وبين علق الماء وقيل في تفسيرها بانها سميت علقه لانها تعلق بجدار الرحم وفي المنجد (العلق كل ما يعلق) بضم الياء وفتح العين وتشديد اللام .

٣ مضغة : طور العلقه في حياة الجنين يبلغ اربعة اسابيع ثم تتطور العلقه الى مضغة ، وسمي الجنين في هذا الطور مضغة للشبه الكبير بينه وبين قطعة اللحم المضغوطة

٤ مخلقة وغير مخلقة : اي قد تكون المضغة منتظمة الشكل وقد تكون غير منتظمة الشكل وقد اثبت الطب هذا الواقع فعلاً .

٥ نقر في الارحام ما نشاء الى أجل مسمى : المراد بهذا من يبلغه الله الى حد الولادة .

ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بان الله هو الحق وأنه مجي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور (الحج : ٥ - ٧ .

ففي هذه الآيات دليلان ، على ثبوت البعث : الاول في خلق الانسان وكيف كان مصدره تراباً ومراحل تطوره في الجنين الى أن يصبح انساناً كاملاً ثم يصير الى الموت .

والدليل الثاني في الارض الهامدة الميتة حتى اذا انزل عليها الماء دبّت فيها الحياة وأنبت نباتاً حسناً ، وهكذا يكون البعث يوم القيامة .

ومثل هذا جاء في القرآن (ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج) ق : ٩ - ١١ .

استدل الله بهذه الآيات على امكان البعث بالنبات والاشجار التي تنمو وتزيد حين ينزل المطر فيبلى الارض فتتغذى بما يذيه من جسم الارض كذلك يكون البعث وخرج الناس احياء بعد موتهم حيث ترجع اليهم قوة النماء كما يحصل في النبات والاشجار .

أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

عني القرآن بتصوير الهول في يوم القيامة^٢ ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة كلها ويغشى النفس الانسانية ويمزها من الفرع .

بعض هذه المشاهد في الطبيعة الصامتة ، وفي الحيوانات الاعجم وفي

١ وان الساعة آتية لا ريب فيها : اي ان الساعة التي وعد الله بها ان يبعث فيها الموتى آتية لا محالة ولا شك في حدوثها .

٢ رجعت في كتابة هذا الفصل الى كتاب مشاهد القيامة في القرآن للاستاذ سيد قطب وكذلك فصل « الحساب » .

الانسان سواء . قال الله تعالى (اذا الشمس كورت . واذا النجوم انكدرت
واذا الجبال سيرت . واذا العشار عطلت . واذا الوحوش حشرت . واذا
البحار سجرت . واذا النفوس زوجت . واذا الموردة سالت . باي ذنب قتلت
واذا الصحف نشرت . واذا السماء كشتت . واذا الجحيم سعرت . واذا الجنة
ازلفت . علمت نفس ما أحضرت) التكوير .

ففي هذه الآيات مشهد انقلاب تام لكل معهود موجود ، فالشمس قد
انحسر ضوءها وطويت اشعتها ، فلا ضوء ولا شعاع ، والنجوم المتماسكة المنيرة
قد تناثرت وخبا نورها فأظلمت ، والجبال الثابتة الجامدة قلعت عن الارض
وسيرت في الهواء ، والنوق العشار^١ الساكنة المربوطة قد ارسلت واهملت ولم
يعن بشأنها لاستدأد الخطب . والوحوش قد هالما الرعب فحشرت وانزوت
تتجمع من الهول ، والبحار فاضت مياهها وانصلت ببعضها ، والارواح
المنفصلة عن اجسادها تعود اليها والبنات التي دفنت بلا محاكمة ولا جريمة بعثت
لتسأل وتناقش في ذنبها الذي وئدت له ، والصحف المطوية التي فيها اعمال
الانسان قد نشرت فهي مكشوفة مقروءة والسماء قد ازيلت فلم يبق لا أعلى
ولا اسفل ، والجحيم قد أمدت بالوقود وتأججت بالنيران ، والجنة قد هيئت
وقربت للموعودين وفي هذا اليوم الذي ينقلب فيه كل شيء تعلم كل نفس ما
أحضرت من اعمال .

ومرة تبرز مشاهد الطبيعة وحدها بحركها الهول ويرجها كما في قوله تعالى
(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الارض
رجاً . وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً) الواقعة .

فالواقعة هي القيامة لا مجال لتكذيبها فهي ترفع بعض اقدار الناس
وتخفض البعض فهي ترج الارض وتهزها وتجعل الجبال فتية ينطير
في الهواء كالهباء .

ونلمح الهول يغشى النفس الانسانية كما في قوله تعالى (يا ايها الناس اتقوا
ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما

١ العشار : جمع عشراء وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة اشهر وهي اكرم الاموال التي
كانت عند العرب .

أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى
ولكن عذاب الله شديد (الحج . ٢ ، ١ . فكل مرضعة يوم القيامة تذهل عما
أرضعت تنظر ولا ترى ، وكل حامل تسقط حملها للهول المروع الذي ينتابها
والناس سكارى وما هم بسكارى يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي
خطواتهم المترنحة .

ثم نلمح الهول متجسماً في صورة أخرى (فإذا جاءت الصاخة ^١ يوم يفر
المرء من أخيه . واه واهيه . وصاحبه وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ
شأن يغنيه) عبس .

فالهول في هذه الآيات نفسي بحت فالمرء يفر من ألصق الناس به فلكل
نفسه وشأنه ، واديه الكفاية من الهم الخاص به .

الحِساب

ينظر الانسان الى ما حوله فيرى الخير والشر يصطرعان ، ويشهد معركة
الرزيلة والفضيلة وكثيراً ما ينتصر الشر على الخير ، وتعلو الرذيلة على الفضيلة
- والفرد في عمره المحدود - لا يرى عواقب الخير والشر .

والانسان يعز عليه ان لا تكون للخير كرة وأن لا يلحق الشر جزاءه ،
والاعتقاد بوجود ألوهية عادلة يستتبع حتماً جزاء على الخير والشر ، إن لم يتم في
عالم الارض فلا بد ان يتم هناك في عالم آخر .

والقرآن كثرت فيه الآيات التي تقرر أن الانسان محاسب على اعماله ونياته
بألوان شتى من طرق العرض الكثيرة .

فبعض هذه الآيات عنيت بتصوير مواقف الحساب مع احوال يوم القيامة
يتبين لنا ذلك في هذه الآيات (فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس
والقمر يقول الانسان يومئذ اين المفر ؟ كلاً لا وزر ^٢ . الى
ربك يومئذ المستقر . ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الانسان على

١ الصاخة : يوم القيامة .

٢ الوزر : الملبأ .

نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره (القيامة : ٧ - ١٥ .

ففي هذه الآيات مشهد لهول القيامة مع موقف الحساب ، فالبصر يخطف ، والقمر يخسف ، والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ، وقد انقرط نظام الكون وفي وسط الذعر والانقلاب يتساءل الانسان المذعور المرعوب : أين المفر ؟ ولا ملجأ هناك ، فالمرجع الى الله حيث ينبأ الانسان يومئذ بما قدّم وأخر . فلا تقبل منه المعاذير فهو على نفسه بصير .

ونرى القرآن يعرض موقف الحساب في صورة أخرى (إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الانسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الزلزلة .

فالأرض تزلزل زلزالها والأرض تخرج أثقالها من جثث مدفونة وكنوز مكنونة ويبيت الانسان هذا المشهد الذي لم يألفه فيسأل ما لها تزلزل وتضطرب وتخرج ما فيها من دفائن فيأتيه الجواب من الأرض وقد انقلبت شخصية حية تسأل فتجيب . ثم قال تعالى بعد ذلك : (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) أي ينبعثون أفراداً ، يبعثهم الهول الهائل ، انهم صدروا (ليروا أعمالهم) . ثم تبدأ عملية الوزن في الميزان الدقيق الذي ترجعه الذرة إن خيراً فخير وإن شراً فشر (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وفي بعض الآيات نرى القرآن يقتصر في عرض مواقف الحساب بدون أن يقرنها بأهوال يوم القيامة ، كما في هذه الآيات ، (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب أرجعوني . لعلني أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنما كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون) المؤمنون : ٩٩ - ١٠٣ .

برزخ : أي حاجر بينهم وبين الرجعة .

تبدأ هذه الآيات بمشهد الاحتضار وعلان التوبة لدى قدوم الموت وطلب الرجعة الى الدنيا لتدارك ما فات ، فاذا الرد على هذا التحني لا يوجه الى صاحبه بل يوجه الى العموم عامة (كلا ! انها كلمة هو قائلها) فهي كلمة لا معنى لها ولا تجوز العناية بقائلها وهو هناك حيث فارقه الروح ثم ينفخ في الصور فيستيقظ الاموات وقد تقطعت بينهم الروابط (فلا أنساب بينهم يومئذ) بل الهول يشملهم فهم ساكنون لا يتحدثون (ولا يتساءلون) ثم يعرض ميزان الحسنات والسيئات فان ثقلت كفة الخير نجا ، وان ثقلت كفة الشر هلك . والله يحاسب الانسان حتى على نياته (لله ما في السماوات وما في الارض وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) البقرة : ٢٨٤ .

هذا بعض ما ورد في القرآن من الآيات التي يبين الله فيها أن الانسان لم يترك سدى بل سيحاسب على كل ما يقترفه من السيئات . (افحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم اليها لا ترجعون ؟) الانبياء .

النَّعِيمُ الْحَسَنِيُّ

أطلق الله على مكان النعيم الذي يقيم فيه المتقون أسماء شتى أكثرها وروداً في القرآن لفظ (الجنة) ومعناها في اللغة : البساتن من النخل والشجر المتكاثف الظل بالتفاف اغصانه كأما بتكاثف أشجارها والتفاف أغصانها تستر ما فيها لأن الجنة مشتقة من جن أي ستر الشيء عن الحاسة .

والاسماء الاخرى التي أطلقها القرآن هي : دار السلام ، دار الخلود ، دار المقامة ، جنة المأوى ، جنات عدن^١ ، الحيوان^٢ ، الفردوس^٣ ، جنات النعيم ، المقام الامين .

فالجنة هي دار الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ودار الذين اتقوا ربهم ، ودار عباد الله المخلصين ، ودار الذين يخافون ربهم ، ودار الموفين بعهده الله

١ جنات عدن : اي جنات الإقامة الدائمة ٢ الحيوان : اي دار الحياة

٣ الفردوس اي البستان الذي حوى من الوان الثمار والبهجة اباها واجلها .

إذا عاهدوا ، ودار المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ودار التائبين العابدين الحامدين السائحين الراكعين الساجدين لله ، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . وقد وصف الله الجنة لأصحاب هذه الصفات وغيرها من الصفات التي يحبها حتى تطمئن قلوبهم وتقوى عزائمهم في فعل الطاعات .

وقد اختلف الباحثون في فهم النعيم الاخروي وادراك لذائذه ففريق ذهب في كل هذه الملذات وأسباب النعيم مذهب الحقيقة وانها مادية جسمانية وهناك فريق وقف في الطرف الثاني فتغلبت عليه الرمزية والاشارات الباطنية وهم طائفة من الصوفية والباطنية . واننا نذهب الى ان نعيم الجنة منه ما هو مادي حسي ومنه ما هو روحي معنوي ، هذا مفهوم القرآن الكريم وها نحن نعرض بعضاً من آي القرآن في وصف النعيم المادي ونتبعه بالنعيم الروحي .

أنهار الجنة

قال الله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ^١ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) محمد : ١٥ . ففي هذه الآية وصف لأنهار الجنة . أنهار من ماء ، وأنهار من لبن ، وأنهار من خمر ، وأنهار من عسل ... كل شيء في الجنة بلا حساب لا ينضب له معين ، فهي أنهار تجري بأطياب الحياة التي يشتهيها الانسان ولا يجد منها الا القدر اليسير . وهذه الانهار من نوع أجود ، ومن طعم ألد ، ومعها كل أنواع الفواكه وفوق هذا كله مغفرة من ربهم .

ويقول الله سبحانه : (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) المائدة : ١١٩ .

والمراد بأن الجنة تجري من تحتها الانهار أي أن نخيلها وأشجارها تتخللها أنهار تجري فيها المياه ، وأروع البساتين منظراً ما كانت أشجارها مظلة والانهار

١ اسن : متغير الطعم والريح لطول مكثه .

في خلالها جارية .

أشجار الجنة وثمارها

قال الله تعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأنوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) البقرة : ٢٥

أمر الله رسوله أن يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم في الحياة الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا من الجنات من أي ثمرة كانت من تفاحها أو رمانها أو عنبها ، قالوا : هذا الرزق هو مثل الرزق الذي رزقناه من قبل في الدنيا . وهذا الرزق أنعم الله به عليهم متشابهاً متماثلاً في جمال منظره وحسن غذائه ولذته طعمه ولهم فوق ذلك أزواج مطهرة أي منقاة ومبرأة مما يشين زوجات الدنيا من نقائص بدنية أو خلقية التي تنقص الحياة الزوجية .

ويقول الله تعالى : في وصف الجنة (ودانيه عليهم ظلها وذللت قطوفها تذليلاً) الانسان : ١٤ .

والمعنى : أن ظلال الجنة قريبة من الأبرار مظلة عليهم زيادة في نعيمهم ، أما ثمارها فقد سخرت لمتناولها وسهل أخذها .

أكل الجنة وشربها

قال الله تعالى في وصف النعيم الذي يخص به عباده المؤمنين (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) الزخرف : ٦٨ - ٧٣ .

فهؤلاء عباد الله الصالحين يناديهم الله يوم القيامة بأن لا يخافوا من

١ تحبرون : أي تسرون سروراً يظهر أثره من النظرة والحسن على وجوههم

العذاب ولا يحزنوا على فراق الدنيا فقد هيا لهم جنات النعيم هم وزوجاتهم جزاء اعمالهم، ثم وصف الله ما يتمتعون به من النعيم فيها هي صحاف الذهب فيها اطيب انواع الطعام وها هي الاكواب تحتوي على الذآ اصناف الشراب . وفي الجنة ايضاً ما تشتهي نفوسهم وتلذ اعينهم وهذا النعيم دائم لا يزول كما هو نعيم الدنيا ، وبعد هذا أخبر الله ان لهم سائر اصناف الفاكهة التي يشتهونها .

ويقول الله تعالى في موضع آخر (إلا عباد الله المخلصين . اولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس^١ من معين^٢ . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون^٣) الصافات : ٤٠ - ٤٧ .

فعباد الله المخلصين يوم القيامة لهم جنات يتمتعون فيها بكل ما لذ وطاب فيتمتعون بلذيد الفواكه وهي تقدم لهم وهم مكرمون كما تقدم للملوك وذوي اليسار في الدنيا وهم جالسون على سرر متقابلين ، وكما يتمتعون بطيب المأككل يتمتعون بلذيد الشراب فيؤتى لهم بصنوف الخمر التي تتميز بلونها الابيض ولذة طعمها وهذه الخمر لا تؤثر في الجسم كما تؤثر خمر الدنيا فلا تصدع الرأس ولا تفسد العقل بالسكر .

ثيابها وحللها .

قال الله تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من احسن عملا . اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً) الكهف : ٣٠ - ٣١ .

فهؤلاء المؤمنون في جنات الآخرة تجري امامهم الانهار وهم على ارجى زينة فهم متحلون بالذهب لابسون اجمل انواع الديباج وهم متكئون على

١ بكأس : اي بخمر ٢ من معين : اي ظاهر للعيون جار على وجه الارض .
٣ يتساءل البعض لماذا حرم الاسلام الخمر في الدنيا ثم اباحها في الآخرة والجواب على ذلك ان القران وصف خمر الجنة بهذا الوصف (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) لاغول : اي لا صداع فيها ، ولا هم عنها ينزفون : اي لا تذهب عقولهم بالسكر .

سرر مزدانة بالستائر .

مسكن وغرف الجنة .

قال الله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم) التوبة : ٧٢ .

والمراد (بالمساكن الطيبة) اي التي يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها على ما يطلبون من الاثاث والرياش والزينة .

وقال الله تعالى في غرف الجنة (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد) الزمر : ٢٠ .

نساء الجنة .

ذكر الله النساء في القرآن لبيان ان النساء والرجال سواء ، وان النساء ينعمن بما ينعم به الرجال في الآخرة قال الله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) النساء : ١٢٤ .

والله سبحانه يخبر ان الرجال يصاحبون ازواجهم في الجنة . قال الله تعالى : (هم وأزواجهم في ظلال على الارائك متكثوث) يس : ٥٦ . ويخاطب الله المتقين يوم القيامة (ادخلوا الجنة انتم وأزواجكم تحبرون) الزخرف : ٧٠ .

حور الجنة .

كلمة حور جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء الشديدة سواد العين وقد جاء ذكر كلمة الحور في قوله تعالى عما يخص به عباده المتقين (كذلك أزواجهم بحور عين) الدخان : ٥٤ . ومعنى زوجناهم : اي جعلناهم أزواجاً ، اي اثنين اثنين ، وقيل قرانهم بهن .

وجاء في القرآن (حور مقصورات في الحيام) الرحمن : ٧٢ . ومعنى مقصورات : اي محبوسات والمراد بذلك انهن محبوسات على أزواجهن فلا يرون غيرهم ولا يطعنن الى سوام .

ولنعرض للحدود العينية لنرى اذا كان المراد بهن نساء هذه الدنيا ام غيرهن
فقد جاء في القرآن في وصفهن (إنا انشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكاراً . عُرباً
اترباً) الواقعة : ٣٥ - ٣٧

يروي انه انت عجوز النبي عليه السلام فقالت : يا رسول الله : ادع الله
ان يدخلني الجنة فقال : يا ام فلان : ان الجنة لا تدخلها عجوز ، فقلت
تبكي . قال : اخبروها انها لا تدخلها وهي عجوز^١ ان الله يقول (انا
انشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً) .

وعلى ذلك يكون المقصود من الآية ان النساء العجائز في هذه الدنيا ينشأن
نشأة اخرى يوم القيامة ويصرن شابات .

* * *

هذا هو النعيم الحسي الذي ذكره القرآن وقد اتخذ بعض دعاة المسيحية من
ذلك باباً للطعن في الدين الاسلامي بانه دين مادي بل شهواني وانه لم يتعرض
للهنم الروحي .

والحقيقة ان المسيحية اشارت الى النعيم الحسي فالانبياء والقديسون
تمثلوا النعيم المحسوس في رضوان الله ووصفوه على هذه الصفة (راجع العهد
القديم ما قاله اشعيا يوم الرضوان في الاصحاح الخامس والعشرين من سفره)
(وراجع العهد الجديد ما قاله يوحنا الالهي في الاصحاح الرابع من رؤياه) .
على ان بعض الباحثين المسلمين يذهب الى ان النعيم الحسي المذكور في القرآن
مقصود به التوصل الى النعيم الروحي وذلك لانه من المتعذر ان ينقل الى غالبية
البشر لذة روحية دون ان يلبسها تعابير حسية لعجز افكارهم وضعف استعدادهم
عن فهم تلك الملذات الاخرية وادراكها بالكنه والحقيقة .

ثم ان محمد ﷺ كان ينقل الدين ، لا للعقول الراجعة الممتازة من
المفكرين المثاليين الذين تصادف وجودهم فحسب ، وانما للعالم المتسع
حواله ، المؤثر بالماضية بكافة انواعها ، وكانت عليه ان يخاطب الناس على قدر
عقولهم . فالعربي الجائع ماذا عنده اجمل واحلى واكثر توافقاً مع
تفكيره من الجنة ، اكثر من انهار تجري فيها المياه واللبن والعسل ،

١ رواه البيهقي وغيره

هل يود أن يرى الا الفاكهة والخضرة الدائمة والحصب المثر ؟ انه لا يستطيع
ان يتصور نعمة لا تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحواس ،^١

النَّعِيمُ الرُّوحِيّ

والنعيم في القرآن لا يقتصر على النعيم المادي بل ان هناك نعيماً روحياً
صرح به ، وسنعرض لهذا النعيم من هذه الوجوه . اولاً : الجنة ليس نعيمها
كنعيم الدنيا . ثانياً : لقاء الله هو الغاية التي يجب ان يسعى اليها المؤمن . ثالثاً :
النظر الى وجه الله هو النعيم الذي ليس بعده نعيم . رابعاً : رضوان الله
هو غاية الغايات . خامساً : الجنة هي دار السلام واليك تفصيل هذه الوجوه
نعيم الجنة لا يشبه نعيم الدنيا

يقول الشيخ محمد عبده في تفسير سورة الغاشية : « ان عالم الآخرة ليس فيه
نمو ابدان ، ولا تحلل مواد ، على نحو ما يكون للاحياء في هذه الحياة الدنيا
بل ذلك عالم خلود وبقاء ، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام فيه آلام شقاء
فكل ما يقع في ذلك العالم قائماً بينه وبين ما يقع في عالمنا وجوه مشابهة ،
لا وحدة مجانسة ؛ فما جاء في هذه السورة وغيرها من الاكواب الموضوعة ،
والوسائد المصفوفة ، والبسط المبتوثة وغير ذلك مما نراه في بيوت اهل النعمة
فانما جاء القرآن لتصوير النعمة والرفاهة واللذة ، والا فتعيم تلك الدار الآخرة
بما لا يشبهه في هذه الدار نعيم » .

وما ذهب اليه الشيخ محمد عبده فهو انما استمده من قول النبي ﷺ
فيما يرويه عن ربه (قال الله عز وجل اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين
رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)^٢ قال ابو هريرة الراوي لهذا
الحديث إقرأوا ان شئتم قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين
جزاء بما كانوا يعملون) السجدة : ١٧ .

١ عن كتاب روح الاسلام لسيد امير علي

٢ رواه البخاري ومسلم

لقاء الله

ومن الدلائل على ان النعيم الاخروي ليس مادياً فحسب هو ما بينه الله من ان الغرض الاسمي من حياة الانسان هو لقاءه (يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقية) الانشقاق : ٦ . اي : ايها الانسان انك عامل في هذه الحياة ومجد في عملك الى أن تنتهي حياتك وهناك لقاء الله .

ولقد استنكر الله الركون الى هذه الحياة والاطمئنان بها وعدم توقع حياة أرقى من هذه الحياة . قال سبحانه (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) يونس : ٧ ، ٨ .

وبيّن الله جزاء من لا يرجو لقاءه (فتذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون) يونس : ١١ .

ويرشد الله المؤمنين الى أن الطريق الى لقاءه والقربى منه هو العمل الصالح وعدم الاشراك به سبحانه (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) الكهف : ١١٠ .

هذه النصوص القرآنية التي ذكرناها تدل على أن لقاء الله هو الغاية التي يجب ان يسعى اليها الانسان ، ولقاء الله نعيم ورحمة لا يدانيه نعيم .

رؤية الله

والقرآن ينص على أن هناك لذة روحية معنوية وراء الوصف الحسي الذي وصفه للجنة وهذه اللذة هي النظر الى وجه الله الكريم .

قال الله تعالى (والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم . للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهب وجوههم قتر ولا ذلة اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون) يونس : ٢٥ ، ٢٦ .

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر الى وجه الله الكريم ، فقد جاء عن صهيب الصحابي قال : قرأ رسول الله قوله تعالى (للذين احسنوا الحسنى

١ دار السلام : الجنة

(زيادة) قال : « اذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار ، نادى مناد : يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه فيقولون : وما هو؟ الم تثقل موازيننا ، وتبيض وجوهنا ، وتدخلنا الجنة ، وترحزننا عن النار ؟ قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما اعطاهم الله شيئاً احب اليهم من النظر اليه ، ولا اقر لآعينهم »^١ ورؤية الله اثبتتها القرآن في هذه الآيات (كلا بل تحبون العاجلة^٢ . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) القيامة : ٢٠ - ٢٣ . فوالله سبحانه يوم القيامة يرفع الحجاب بينه وبين عباده الصالحين فيرونه ، وهذه الرؤية هي لذة روحية لا تعدلها أية لذة من اللذات الحسية .

رضوان الله

ودليل آخر على أن نعم الآخرة منه ما هو روحاني هو ما نص القرآن بان رضوان الله هو من النعيم الذي يخص به عباده المخلصين وانه يمتاز عن النعيم الحسي . قال الله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم) التوبة : ٧٢ . ففي هذه الآية نرى القرآن بعد أن قرر ان رضوان الله اكبر من النعيم الحسي وصفه بعد ذلك بأنه فوز عظيم وهذه العبارة تشعرنا بأن الغاية من النعيم ، واسمى شيء فيه هو نعيم روحي .

وأبلغ ما نرى في القرآن من لذة روحية هو ما ينادي الله به عباده المخلصين يوم الحساب بقوله (يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي) الفجر : ٢٧ - ٣٠ . فهذه الآية تدل على عمق الروحية الاسلامية وعلى سمو الانجهاات التي يسعى اليها الاسلام .

وبما يندرج في هذا المعنى قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) مريم : ٩٦ . ففي هذه الآية صورة لنعيم روحي

قوامه الود السامي بين الرحمن وفريق من عباده المخلصين وهو في ذاته نعيم لا
يمائله نعيم مادي .

الجنة دار السلام .

والدليل الاخير الذي سنذكره على وجود النعيم الروحي هو ما وصفه الله
للجنة بأنها - دار السلام - وأن أهلها في طمأنينة وسلام ونحيتهم فيها سلام
والملائكة يخاطبونهم فيها بالسلام . قال الله تعالى في وصف الجنة التي وعد بها
المتقين (لهم دار السلام عند ربهم) الانعام : ١٢٧ . ويصف الله حياة السلام
التي يعيشها المؤمنون في الجنة . (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم
بإيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبعاثك اللهم
ونحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) يونس :
٩ - ١٠ . فكل ما في الجنة أمن واطمئنان وسلام . ويذكر الله في موضع
آخر تحية الملائكة للمؤمنين في الجنة بقوله : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح
من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام
عليكم بما صبرتم فنعيم عقبى الدار) الرعد : ٢٣ ، ٢٤ .

فتبين لنا من مدلول هذه الآيات القرآنية ان الحياة في الآخرة حياة أمن
واستقرار روحي ونعيم تحسه النفس غير اللذة المادية .

هذا هو النعيم الروحي في القرآن وهو كاف لدحض كل المزاعم والانتهاكات
التي اتهموا بها الاسلام بأن نعيمه الأخروي جسماني شهواني وانه خال من
النعيم الروحي .

الجزء الثاني الحكيم السني

يقرر القرآن أن عقاب المرء على ما يقتوفه من آثام هو النار ، وقد اطلق
القرآن على النار سبعة أسماء وهي جهنم ، الهاوية ، الجحيم ، سقر ،
لظى ، الحطمة ، وأكثر الاسماء شيوعاً للنار في القرآن هي جهنم .

صورة من الجحيم واحوال الكفار فيها

وصف الله جهنم في القرآن في عشرات من الآيات ، وصف وقودها ونيرانها المتأججة ، ووصف طعامها وشرابها ، ووصف عذابها بما يدخل الرعب في قلوب المجرمين ، وبما يخوف الله بها كل متكبر جبار أثيم ليتردد عما هو فيه .

وصف الله وقودها فقال : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد) التحريم : ٦ . ففي هذه الآية يعطينا الله صورة عن جهنم التي تتغذى بالناس كما تتغذى بالحجارة ولكنها لا تقف عند هذا الحد بل فيها ملائكة يحرسون جهنم ويزيدون في عذاب الكافرين .

وهذه نيرانها المتأججة التي لا تشبع بأحد (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) ق : ٣٠ . وهذه جهنم التي ترى المجرمين من بعيد فتتغيظ وتثور (اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) الفرقان : ١٢ . وهذه ثياب الكفار التي يمثلها لنا القرآن في هذه الصورة (... فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الجحيم . يصير به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) الحج : ١٩ - ٢٣ . فهذه ثياب من النار تقطع وتفصل للكفار ، وهذا الماء الحار يصب من فوق الرؤوس يصير به ما في البطون والجلود ولتعذيبهم ايضاً سياط من حديد يضربون بها ، فيهم الكفار بالخروج من هذا العذاب فيردون اليه بعنف .

وهذا هو طعام جهنم (ان شجرة الزقوم . طعام الاثيم . كالمهل يغلي في البطون . كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق انك انت العزيز الكريم) الدخان : ٤٣ - ٤٩ . فشجرة الزقوم المشهور بمرارته هو طعام الاثيم في جهنم ، وهذا الطعام - الذي يشبه عكر الزيت - يغلي في بطون الكفار ويكون كالماء الحار اذا اشتد غليانه ، وبعدها يقال لزبانية جهنم ادفعوا هذا المجرم

الى وسط جهنم لينال قسطه من عذابها ، ثم صبوا فوق رأسه من الماء الساخن زيادة في العذاب ، وبعد ذلك يقال له (ذق انك انت العزيز الكريم) زيادة في النكابة والاستهزاء به .

ويقول سبحانه في وصف العذاب يوم القيامة (... وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) ابراهيم: ١٥-١٧ . والمعنى اي هلك كل متكبر بجانب للحق فعاقبته جهنم التي ليس له فيها شراب الا القيق يتحساه جرعة بعد جرعة ولا يستطيع ان يزدرده من شدة كراهته وتحيط به اسباب الموت من شدة هذا العذاب لكنه بالرغم من هذا لا يموت ليستريح من عذابه وله مع هذا العذاب عذاب آخر غليظ ولكن من نوع آخر .

شدة عذاب النار

يصور الله شدة عذاب الآخرة بصورة تقشعر منها الابدان فهو عذاب لا لا تتحملة النفس ولا تطيقه فاحرى بالمؤمن ان يسعى الى اجتنابه باطاعة اوامر الله ، واجتناب سخطه ، هذا العذاب الذي يصوره الله في هذه الآية والذي كشف العلم عن سر من اسرارها وهي قوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزاً حكيماً) النساء : ٥٦ . ه هذه الآية تقول : ان النار كلما اكلت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ، والسبب في ذلك ان اعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية ، واما الانسجة والعضلات والاعضاء الداخلية فالاحساس فيها ضعيف ولذلك يعلم الطبيب ان الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث الماء شديداً بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد الى الانسجة ، لانه مع شدته وخطره لا يحدث الماء كثيراً . فالله تعالى يقول لنا : ان النار كلما اكلت الجلد الذي فيه الاعصاب نجده كمي يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الاليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل ان يعرفها الانسان وكان الله عزيزاً حكيماً .

١ عن كتاب الاسلام والطب الحديث تأليف الدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ٥٨ - ٥٩

هذا هو العذاب الذي يقاسيه الكافرون والذي يطلبون منه التخرج باي ثمن وهذا ما وصفته به هذه الآية (ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الارض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب اليم) المائدة : ٣٦ . يصرح لنا القرآن بان الكافرين لو ان لهم ملك ما في الارض كلها وضعفه معه ليفتدوا به من عقاب الله ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضاً من عذابهم وعقابهم .

هل هناك خلود في النار

الخلود في النار موقوف على مشيئة الله وليس ضرورياً ان كل من يدخل النار يخلد فيها قال الله تعالى (النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله) الانعام : ١٢٨ . ويقول سبحانه (فاما السذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد) هود : ١٠٦ - ١٠٧ .

* * *

الناظر في وصف اليوم الآخر وما اكتنفه من الاسوار بما وراء الطبيعة لا يظن ان يكون من عقل بشوي ولا من عند محمد لانه عليه السلام مها كان واسع الخيال لا يمكنه ان ياتي بهذه الاشياء المدعومة بالبراهين العقلية المقتنة والتي تستشعر منها بانها ليست من كلام بشو بل هي وحي انزله الله على محمد ﷺ ليظهر للناس بعض الاسوار لعالم آخر للاستعداد له بالعمل الصالح .

الايمانُ بالملائكة

الغاية من الايمان بالملائكة - حقيقة الملائكة - طبيعة الملائكة -
اعمال الملائكة - الملائكة تشفع وتستغفر للمؤمنين - الملائكة تكتب
اعمال الانسان .

الغاية من الايمان بالملائكة

الايان بالملائكة^١ يوجب الاعتقاد بأن للانسان حياة روحية وأنه يجب عليه تنشيط هذه الحياة والاستجابة لعوامل الخير التي أودعها الله فيه ، والفرص من ذلك التسامي بالانسان والترقي به الى اعلى درجات الكمال ، ولهذا جعل الاسلام الايمان بالملائكة أصلاً من أصول الدين قال الله تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) البقرة : ٢٨٥ .

حقيقة الملائكة

تعرض القرآن لخلق الانسان فقال : انه من تراب ، والى خلق الجن فذكر أنه من نار ، ولم يتعرض لخلق الملائكة غير أنه ورد عن الرسول انه قال : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من ملج من نار)^٢ . وهذا يبين لنا أن الملائكة من عالم لطيف غيبي غير محسوس . والملائكة وإن كانوا غير مرئيين لنا لا ينفي العقل وجودهم ، فالعلماء اليوم

١ من مراجع هذا الفصل كتاب الدين الاسلامي تأليف مولاي محمد علي .

٢ رواه مسلم

لا يدعون ان الانسان قد احاط بكل شيء علماً ، ففي كل يوم يكشف لنا العلم عن كائنات حية لم نكن نعلمها من قبل ، فهل كانت قبل اكتشافها عدماً ثم وجدت يوم اكتشفها الانسان ؟

طبيعة الملائكة

تختلف الملائكة عن البشر في انها كائنات ليس لها قوة الاختيار وانها موكلة بصفة خاصة بالقوى الطبيعية ، وفي طبيعتهم الطاعة وعدم العصيان . قال الله تعالى في وصفهم : (والله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) النحل : ٤٩ ، ٥٠ .

اعمال الملائكة

واهم أعمال الملائكة وأبرزها هي النزول بالوحي الالهي وتبليغ رسالات الله الى الرسل . جاء في القرآن : (الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير) فاطر : ١ . ففي هذه الآية يخبر الله أنه جعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغونهم رسالاته ، والاجنحة في العالم المادي تساعد على الطيران وكتبتهم توميء الى السرعة وهي في عالم الارواح ترشد الى القدرة على السرعة في تنفيذ اوامر الله .

وجاء في القرآن (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا انه لا اله الا انا فاتقون) النحل : ٢ . فالروح في هذه الآية هو الوحي الذي ينزله الله بواسطة ملائكته الى من يريد من عباده المصطفين ليحذر الناس من عصيانه ، وقد شبهه الله بالروح لانه يجيئ النفوس وينهض بالأمم كما تحيي الروح الجسد .

وورد في القرآن ان الملك الذي أتى الرسول محمد ﷺ بالقرآن اسمه جبريل . قال الله تعالى : (قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بإذن الله) البقرة : ٩٧ . وسمي جبريل في القرآن أيضاً بالروح الأمين ، وروح القدس . قال تعالى : مخاطباً رسوله محمد ﷺ (وانه لتنزيل رب

العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين (الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤ . وقال الله سبحانه (قل نزله روح القدس ^١ من ربك بالحق) النحل : ١٠٢ .

ومن وظيفة الملائكة تثبيت رسل الله وتأييدهم والتهوين عليهم من شدة همهم فقد أيد الله عيسى بروح القدس وهو جبريل . قال الله تعالى : (وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) البقرة : ٨٧ .

والملائكة تنزل على المؤمنين لتواسيهم وتبشرهم . (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فصلت : ٣٠ ، ٣١ . فالملائكة تبشر المؤمنين بأنهم أعوانهم في امور دنياهم يلهمونهم الحق ويرشدونهم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وتطمئنهم بأن لا يخافوا بما يقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا يحزنوا على ما فاتهم من امور الدنيا من أهل ومال . كما ان الله يد المؤمنين بالملائكة عند قتالهم اعداءهم لينصرهم عليهم (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الا بشري وتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله) الانفال : ٩ ، ١٠ .

والملائكة يتوفون المؤمنين ويقبضون ارواحهم عند الموت . (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) النحل : ٣٢ . ويتوفون كذلك غير المؤمنين (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) النحل : ٢٨ .

الملائكة تشفع وتستغفر للمؤمنين

ورد في القرآن ان الملائكة يشفعون للناس وأن شفاعتهم متوقفة على ارادة الله ، (وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) النجم : ٢٦ . وتستغفر الملائكة للمؤمنين وتدعو الله لهم ليهديهم الى طريق النجاة جاء في القرآن (الذين يحملون العرش ومن

١ روح القدس : اي الروح المقدسة الطاهرة

حواله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم .
ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم أنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (غافر : ٧ - ٩)

وفي شفاعة الملائكة واستغفارهم للمؤمنين مع الدعاء لهم اجمعاء لهم للسير بهم في الطريق المؤدي الى رقيهم الروحي وهديمهم الى الصراط المستقيم الذي يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والهدى .

الملائكة تكتب اعمال الانسان

والقرآن يخبرنا ان الانسان وكل به الله ملائكته يكتبون اعماله ليحاسب عليها (وان عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون) الانقطار : ١٠ - ١٢ . والمعنى : أي ان اعمالكم محصاة عليكم فقد وكل بكم ملائكة حفظة كراماً كاتبين يحصون كل ما تعملون من خير وشر .

ويقول سبحانه (واقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) ق : ١٦ - ١٨ .

فالمتلقيان في هذا النص القرآني هما الملكان اللذان يتلقيان عمل الانسان قاعدين عن يمين وعن شمال الشخص فما يلفظ من قول الا وكل منها يرقب عمله وفي نفس الوقت كل منها (عتيد) أي مهياً لكتابة الخير والشر .

واذا علم الانسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان ذلك رادعاً له عن اقتراف السيئات .

هذا بعض ماورد في القرآن من عالم الملائكة وطبيعتهم ووظيفتهم والذي يعطينا صورة صادقة عن غاية الاسلام الرئيسية التي تنشأ الانسان من ادران المادة الى السمو الروحي ، هذا السمو الذي يشهد بمصدره الالهي وبصدق ما جاء به محمد ﷺ عن ربه .

الايمان بكتب الله

وجوب الايمان بالكتب الالهية - القرآن مصدق لما سبقه من الكتب - القرآن هو الحقيقة التي ضل عنها الناس - نظرة القرآن للتوراة - نظرة القرآن للإنجيل.

وجوب الايمان بالكتب الالهية

الاعتقاد بالكتب الالهية ركن من اركان الايمان ، وهي تحتوي على ما بلغه الانبياء من الاوامر الى امهم عن الله ، ولهذا يجب على المسلم أن يؤمن بالقرآن وبما سبقه من الكتب التي أنزلت على الامم الخالية ، وقد ورد بعض الآيات القرآنية التي توجب الايمان بالكتب المنزلة على الانبياء ، منها قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) البقرة : ٢٨٥ .

وذكر القرآن من هذه الكتب التوراة وهو كتاب موسى ، والإنجيل وهو كتاب عيسى ، والزبور كتاب داود ، وصحف ابراهيم .

القرآن مصدق لما سبقه من الكتب

والقرآن يقر بأنه مصدق للكتب الالهية السابقة ومهيئاً عليها . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع اهواءهم مما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) المائدة : ٤٨ ومعنى الآية : أنزلنا اليك ايها الرسول الكتاب وهو القرآن مصدقاً لما تقدمه من الكتب الالهية كالتوراة والإنجيل ، ومهيئاً اي رقيباً عليها

وشهيداً بما بينته من حقيقة امرها فاحكم بين اليهود والنصارى بما انزل اليك من الاحكام ولا تتبع اهواءهم فقد جعلنا لكل أمة شريعة وواجبنا عليهم اقامة احكامها .

وانما اختلف شرائع الرسل في بعض الاحكام العملية والتفصيلات الجزئية التي يقتضيها صلاح نفوس الناس ، لان الشرائع العملية وطرق تركية النفس تختلف باختلاف احوال المجتمع واستعداد النفوس ، فبعض الشرائع خالف بعضها في بعض عقود المعاملات وفي بعض المحرم زواجهن وفي طرق التوبة من الذنب الخ ... ولكن التي اتفقت فيه الاديان هو توحيد الله والاخلاص له وأمهاث الاخلاق ، فهذه الاسس لا تختلف باختلاف الرسل والامم .

القوآن هو الحقيقة التي ضل عنها الناس

طال الزمن على الكتب الالهية السابقة وتناولتها الايدي بالتبديل والتأويل وبلغت الاختلافات الدينية مبلغاً كبيراً ، وكانت البشرية في خطر المروق من دين الله والاستسلام للوثنية والاحاد واصبح العالم في حاجة الى وحي من الله يحنبه مواطن الضلال ويهديه الى سواء السبيل ، وكان اهل كل كتاب يكفرون من عدام ، واختلفوا في معرفة الحقيقة الالهية وكنه الدين فجاء القرآن بين الحق من الباطل وبين للناس ما أشكل عليهم . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام (تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) النحل : ٦٣ ، ٦٤ .

نظرة القوآن للتوراة

تصدى القرآن لنقد التوراة واثبت ان اتباعها قد غيروا وبدلوا في تعاليمها . جاء في القرآن حكاية عن اليهود (من الذين هادوا ١ يحرّفون الكلم عن مواضعه) النساء : ٤٦ . وجاء ايضاً في القرآن (إذ قالوا ما

١ الذين هادوا : اليهود

أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً
وهدى للناس فجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيراً) الانعام : ٩١ .
وجاء في موضع آخر (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون
الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) المائدة : ١٣ . أي نسوا طائفة
من اصل كتاب الله الذي أنزل على موسى .

نظرة القرآن للانجيل

كثرت الانجيل كثره عظيمة بعد المسيح وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية
ثم أرادت الكنيسة في أوائل القرن الرابع الميلادي أن تختار الانجيل المعتمدة
فاختارت الانجيل الاربعة وهي : انجيل متى ، وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا ،
وانجيل يوحنا .

والقرآن لا يقر بعض ما في هذه الانجيل ولا يعترف بانها من عند الله
وذلك بما صرح به من أن الله نزل على رسوله عيسى عليه السلام انجيلاً بصيغة
المفرد وهو غير الانجيل الاربعة التي كتبت بعده . قال الله تعالى في معرض
كلامه عن اليهود (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من
التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور) المائدة ٤٦ .

ومن جهة أخرى اعلن القرآن ان النصارى نسوا طائفة من اصل كتاب
الله . قال الله تعالى (ومن الذين قالوا إنا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً
 مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبتهم
الله بما كانوا يصنعون) المائدة : ١٤ .

ويؤيد ما ذهبنا اليه ذلك النقد الشديد الذي وجهه القرآن الى العقيدة
المسيحية الحاضرة . راجع الآيات ٧٢ - ٧٥ من سورة المائدة .

١ كان البحث العلمي يقتضي تفصيل بعض النواحي ومناقشتها في هذا البحث وغيره على ضوء
شهادة التاريخ مما يؤيد ما ذهب اليه القرآن . ولكن بما ان صدر في لبنان قانون يمنع من التعرض
لعمائد الغير - حذقنا الكثير مما قد يثير لنا مشاكلاً نحن بغنى عنها ، واقتصرنا على عرض نظرة
القرآن عرضاً مجرداً ، ولعل لنا في ذلك عذراً لما طرأ من نقص على بعض الابحاث وخصوصاً ان
البحث العلمي لا يخلو من مجافاة لبعض المعتقدات ، وكلمة الحق لا يقبلها دائماً جميع الناس .

الايمان بالرسول

الغرض من بعثة الرسل - وجوب الايمان بالرسول -
عصمة الرسل - لكل أمة رسول - محمد رسول الى الناس
كافة - محمد خاتم الرسل .

الغرض من بعثة الرسل

الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد أن الله ارسل رسلاً من البشر مبشرين بشوابه ، ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ امهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته ، وتبيين سلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لاحكامه ، في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها . وان يعتقد وجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم ، والاثبات بما امروا به والكف عما نهوا عنه ... وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الامر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه ١

وقد بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين كما جاء في قوله تعالى (كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق) البقرة : ٢١٣ .

فهؤلاء النبيون يبشرون الناس بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة إذا

١ رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٩٧ ، ٩٨ ط ١٠

اتبعوا هدى الله وينذروهم بالخسران في الدنيا والعذاب في الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم واعرضوا عن أوامر الله .

وجوب الايمان بالرسول

والقرآن يدعو الى الايمان بالرسول جميعاً . قال الله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) البقرة : ١٣٦ .

وشرح القرآن بان من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض لا يقبل منه دين (ان الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون : نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً اولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ . فالاسلام بنصوص هذه الآيات وضع أساساً للتعارف والاخاء والوحدة بين شعوب الارض لأن الناس متى آمنوا بجميع المرسلين سهل تفاهمهم على ما عسى ان يبقى بينهم من الخلاف .

ان هذه ميزة للاسلام اختص بها وجعلت التوفيق بينه وبين غيره من الاديان سهلاً ممكناً عندما اوجب على متبعيه الايمان بانبيائهم جميعاً واحترامهم . ان اهل كل دين يجدون احترام رسلهم في القرآن ، ويجد كل منهم نقيضة رسوله في الديانات الاخرى ، هذا بينما بعض الاديان لا تؤمن بانبياء الأديان الأخرى .

وقد حاول الكثيرون منذ زمن ليس بالبعيد التوفيق بين الاسلام والمسيحية واليهودية فباءوا بالفشل ، وعلة فشلهم في محاولاتهم انهم فسروا بعض العبارات الواردة في الأديان تفسيراً ظنوه يزيل النواتيء المانعة للانحداد بينما تعتبر هذه العبارات في نظر اصحاب الاديان جوهرية واسباباً للدين عندهم ، فعوضاً عن أن يوحدوا بين الاديان اقاموا بتفسيرهم ديناً آخر وصاروا خصوماً للاديان .

فالناقد البصير يرى ان مذهب الاسلام في توحيد الأديان حول رسالة

محمد هو خير المذاهب لانه بعد ان قرر ان الاديان كلها وحي الهي عاد فقرر ان طول الزمن ادى الى انحراف الناس عن حقيقة تلك الاديان ، وبعد هذا اخذ الاسلام يدعو الناس كافة الى العمل بالقرآن الذي يجمع جميع فضائل الكتب الالهية السابقة ويزيد عليها ما اقتضاه تطور الامم وحاجتها

عصمة الرسل

وبما لا شك فيه ان الرسل الذين أرسلهم الله ليحرروا الناس من استرقاق هوى النفس وبنهزم عن ارتكاب المعاصي يجب ان يكونوا متحلين باخلاق عظيمة ولو كانوا مخالفين قومهم بسيىء الافعال لكانوا قدوة سوء ولكانت تعاليم الله عبثاً وضللاً ، ولهذا نوه القرآن بفضل الرسل ونعتهم بانهم أهل للكرامة . قال الله تعالى في سورة الانبياء بعد ان عدد قسماً منهم : (وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وابتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) ٧٣ . ووصفهم الله بقوله (اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فبان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الانعام : ٨٩ ، ٩٠ .

لكل امة رسول

اقتضت سنة الله في البشرية ان يرسل الى كل امة رسولاً من انفسهم يسلك بهم الطريق الذي يؤدي بهم الى ما فيه اسعادهم وخيرهم . قال الله تعالى : (ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل : ٣٦ . وقال سبحانه (وإن من امة الا خلا فيها نذير) فاطر : ٢٤ . وقد ذكر القرآن من الرسل خمسة وعشرين رسولاً ، الا انه صرح بان هناك انبياء غيرهم قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) النساء : ١٦٤ .

محمد رسول الى الناس كافة

اما رسالة محمد عليه السلام ، فهي كما صرح القرآن ، الى الناس كافة بخلاف من سبقه من الرسل الذين أرسلوا الى امهم خاصة .

قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمدآ عليه السلام (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون) سبأ : ٢٨ . ويقول الله تعالى آمراً رسوله محمدآ باعلان هذه الحقيقة الى الناس كافة (قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو) الاعراف : ١٥٨ . ويقول سبحانه في موضع آخر (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) الانبياء : ١٠٧

محمد خاتم الرسل

ورسالة محمد جعلت خاتمة لجميع الرسالات وناسخة ما تقدم منها - قال الله تعالى (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) الاحزاب : ٤٠

وختمت هذه الآية عهد النبوة وحكمت بان لا نبي بعد محمد مع انه قد مضى على الخليفة قبل محمد الآف كثيرة من السنين والانبياء يتعاقبون فيها نبياً بعد نبي وكانت في كتب هؤلاء الانبياء بشارات بانه سيأتي انبياء من بعدهم وكل هذا كان يدعو محمدآ عليه السلام ان يحجم عن قطع عهد النبوة لو كان القرآن من عند نفسه لأنه يخالف سنة الخليفة وما جرى عليه الانبياء فلو كان القرآن من عند نفسه لاتي ببشارة من البشارات كما فعل الانبياء من قبله ترويحاً لأمره بين الناس لا سيما وان للناس شغفاً بالبشارات والتنبؤات وميلاً الى تصديق من يذهب هذا المذهب . وقد مضى على هذه الآية اربعة عشر قرناً تقريباً وهذه المدة الطويلة تكفي لظهور كثير من الانبياء بعد محمد يتوالى ظهورهم ويعاصر الكثير منهم البعض فما بالهم انقطعوا في هذه المدة الطويلة .

وإذا كانت هناك طوائف من اتباع الاديان الأخرى لا تعترف بأن

محمداً هو النبي الذي بشر به الانبياء السابقون ولا تزال تنتظر نبياً فان فيما مضى من هذه المدة الطويلة ما يكفي لقطع املها في ذلك ويدعوها الى الصواب لتؤمن برسالة محمد .

ولا شك ان مثل هذا الحكم لا يمكن ان يحكم به بشر وانما هو حكم الله ومعجزة من معجزات القرآن التي تدل على انه وحي الهى^١ .

١ نقلاً باختصار عن مقالة عنوانها (معجزة مجهولة من معجزات النبي عليه السلام) نشرها الشيخ عبد المتعال الصمدي في مجلة الازهر م ١٩ ص ١٣٥ .

القدر

القدر في القرآن - اختبار العباد - الهداية والاضلال - مشيئة
الانسان ضمن مشيئة الله - اجل الانسان ورزقه عددان -
روح الايمان بالقدر.

من المطاعن التي وجهها اعداء الاسلام اليه ان عقيدة القدر التي تعد من
أصول العقائد في الاسلام هي التي كانت من اهم الاسباب لضعف المسلمين
وتخلفهم عن الغربيين في العلوم والفنون والملك ، لأن عقيدة القدر تعطل
المدارك والقوى وتميل بمتعقديها الى الكسل انتظاراً لما يأتيه به الغيب .
والحق أن الرسول محمد ﷺ عندما سُئِلَ عن الايمان ذكر من جملة
أركانه : وان تؤمن بالقدر خيره وشره من الله . والمعنى : ان كلاً من الخير
والشر يجري في الكون بمقادير وموازين وسنن واسباب اقتضتها حكمة الله ،
وان الله لم يخلق شيئاً الا بإرادته ، وان جميع ما وجد في الكون موافق لما
سبق في علمه وإرادته .

واذا رجعنا الى القرآن نراه لم يذكر القدر على انه من أسس الدين مثل
الاعتقاد بالله والملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر ، وانما جاء الكلام عن
القدر على انه نظام سماوي كسائر القوانين السماوية الاخرى ، ولم يتعرض
القرآن لوجوب الايمان به .

القدر في القرآن

واذا نظرنا الى معنى لفظة القدر^١ التي جاءت في القرآن في مواضع متعددة رأينا : القدر (بفتح الدال وسكونها) والمقدار والتقدير وردت بمعنى جعل الشيء بقياس مخصوص او وزن محدود او وجه معين يجري على سنة معلومة . قال الله تعالى (وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكنناه في الارض) المؤمنون : ١٨ . اي بمقدار معين . وقال الله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تفيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) الرعد : ٨ . اي ان لكل شيء من مخلوقات الله سنناً ونواميس ومقادير منتظمة كسننه في حمل الاناث وعقمها وزيادة الذرية ونقصها . والانسان جزء من الوجود وينطبق عليه النظام الذي اقتضته حكمة الله وتقديره ، قال الله تعالى (من اي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره) عبس : ١٨ ، ١٩ - وجاء في الزم من قوله تعالى (والله يقدر الليل والنهار) المزمل : ٢٠ وجاء في التعميم قوله تعالى (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) الفرقان : ٢ .

فيتبين لنا من هذه الشواهد كلها ان عقيدة القدر في القرآن هي التي تعلم المؤمنين ان لهذا الكون نظاماً محكماً ، وسنناً مطردة ارتبطت فيها الاسباب بالمسببات وان ليس في خلق الله خلل ولا مصادفات ، ومن فائده هذا الاعتقاد ان أهله يكونون اجدر الناس بالبحث في نظام الكائنات وتعرف سنن الله في المخلوقات ، وطلب الاشياء من اسبابها والجري اليها في سننها .

اختيار العباد

بعد ذلك نلقي نظرة الى القرآن في مسألة اختيار العبد لنرى مبلغ ضعف التهمة التي يرمون بها الاسلام وهو بريء منها ويتجلى لنا ذلك في كلام الله سبحانه عن المشركين فقد احتجوا بأن اعمالهم السيئة انما كانت بارادة الله ومشيئته وكيف رد الله سبحانه عليهم (سيقول الذين اشركوا

١ من مراجع هذا الفصل مقالة للسيد رشيد رضا في مجلة المنار ومقالة للشيخ محمد عبده في مجلة العروة الوثقى.

لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تدبكون الا الظن وان انتم الا تخرصون . قل قلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين) الانعام : ١٤٨ - ١٤٩ .

والمعنى : سيقول المشركون انه لو شاء الله ما أشركوا ، أي انه تعالى شاء أن يشركوا ، وقد رد الله تعالى شبهتهم بحجتين : الاولى - ان الله عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم ولو أن أعمالهم السيئة كانت بمشيئة الله لما عاقبهم عليها وان الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على الله : والثانية - ان الله تعالى لم يقل مثل هذا القول على لسان واحد من رسله وطالب المشركين بدليل علمي على زعمهم (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) ثم اثبت الله دحض زعمهم بقوله (فلو شاء لهداكم اجمعين) ووضح من هذا انه لو شاء ان يكون الناس على طريق واحد لكان هذا الطريق هو طريق الهداية ؛ ولكن الناس غير مجبرين على سلوك طريق بعينه ، فقد توضحت مشيئة الله في ارسال رسله ليبينوا للناس الحق من الباطل ، وترك للانسان تفضيل احد الطريقين على الآخر ، وسلوك السبيل الذي يختاره كما جاء في قوله تعالى (انا هديناه السبيل اما شاكرآ واما كفورآ) الانسان : ٣ .

وقوله تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) الكهف : ٢٩ . وعلى ذلك فمشيئة الله تتجلى في ارسال الرسل لهداية الناس وتعليمهم سبيل الرشاد والتحذير من سبيل الضلال ، ومشيئة الانسان تتوضع في اختياره لاحد السبيلين .

والقرآن في كثير من آياته يثبت الاختيار للانسان وانه مسؤول عن اعماله وان الفساد الذي يشكو منه في نظمه الاجتماعية ، وضروب الشر السائدة في شؤونه المعيشية كل ذلك نتائج لمقدمات وضعها بنفسه . قال الله تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) الروم : ٤١ .

ويقول سبحانه (وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) الشورى : ٣٠ . ويقول أيضاً (من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء

فعلينا وما ربك بظلام للعبيد (فصلت : ٤٦ .

والقرآن يدعو الى التعويل على الذات في احداث الانقلابات الاصلاحية التي ترفع بالجماعة الى حياة طيبة وأمن واستقرار . قال سبحانه (وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد : ١١ . هذا ما ذكره القرآن وهو صريح على أن ارادة الانسان وعمله هما مصدر مثوبته وعقابه وهذا لا يتفق مع ما يقوله أعداؤه من أن الاسلام دين تواكل يمنع اهله من الترقى في حياتهم الدنيوية .

الهداية والاضلال

أما الهداية والاضلال اللذان بيد الله الامر الذي اتخذهُ البعض حجة على ان الانسان مجبر مثل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام (أمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار) الزمر : ١٩ . وقوله تعالى (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) القصص : ٥٦ . فالهداية والاضلال اللذان بيد الله عليهما القرآن بأنها على سابقة استحقاق للعباد وبين أسبابها مثل قوله تعالى (أن الله لا يهدي القوم الظالمين) المائدة : ٥١ . (ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) الزمر : ٣ . (فلما زاغوا ازاع الله قلوبهم) الصف : ٥ . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) غافر : ٣٥ . (وما يضل به الا الفاسقين) البقرة : ٢٦ . (ويضل الله الظالمين) ابراهيم : ٢٧ .

فأصحاب هذه الصفات الذميمة لا يستحقون الهداية وهم بعيدون عن رحمة الله . اما الذين يستحقون الهداية فأمثال اصحاب هذه الصفات (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغان : ١١ . (قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب) الرعد : ٢٧ . (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) المائدة : ١٦ .

مشيئة الانسان ضمن مشيئة الله

فالاسلام يثبت الاختيار والكسب للعباد ولكن العباد يفعلون بإرادتهم واختيارهم ما يريد الله ان يفعلوه . قال الله تعالى (ان هو الا ذكر للعالمين .

لمن شاء منكم ان يستقيم . وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين (التكويد : ٢٧ - ٢٩ . فالفه سبحانه يحبر أن العباد يفعلون بارادتهم واختيارهم (لمن شاء منكم ان يستقيم) ولكن يفعلون ما يشاء الله (وما تشاؤون الا ان يشاء الله) .

وعلى هذا المعنى وردت بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الحيرة) القصص : ٦٨ . (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) التوبة : ٥١ . (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ، آل عمران : ٢٦ . وان « يسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده) الانعام : ١٧ - ١٨ .

« والواقع ان هذه الآيات وما جرى مجراها تصور حقيقة علمية قررتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائه واطلقوا عليها مذهب الجبرية ، ونسبوا الجبر فيها الى سنة الكون ومجموع الحياة فيه بدل ان ينسبوها الى الله وعلمه وقدرته . . . وهذه الجبرية العلمية تذهب الى ان ما لنا من اختيار في الحياة انما هو اختيار نسبي ضئيل القدر ، وأن القول بهذا الاختيار النسبي يرجع الى ضرورات الحياة الاجتماعية من ناحية عملية اكثر مما يرجع الى حقيقة علمية او فلسفية ، فلو لم يتقرر مذهب الاختيار لتعذر على الجماعة أن تجد اساساً تقيم عليه تشريعها وحدودها وتنظم بذلك حياتها . . . »^١

اجل الانسان ووزنه محددان

وما جاء في القرآن من ناحية أجل الانسان فيتين لنا من ذلك قوله تعالى : (وما كان لنفس ان تموت الا بأذن الله كتاباً مؤجلاً) آل عمران : ١٤٥ . « اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، النساء : ٧٨ . (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب) فاطر : ١١ .

فهذه الآيات أجدر وصف لواقع هذه الحياة، فإن أمامنا كل يوم دليلاً على أن الأجل قدر لا مفر منه فمن الناس من يأنس الموت فجأة ولا يعرف أحد له مرضاً ، حتى أن طائفة من الأطباء اليوم يقولون : إن الإنسان يولد وفي تكوينه جرثومة انتهاء حياته .

وإذا كان أجل الإنسان مقدراً فكذلك رزقه مقدر أيضاً (إن الله يوزق من يشاء بغير حساب) آل عمران : ٣٧ .

هذا الذي تعرض له القرآن في مسألة القدر والاختيار والرزق والاجل . أما من يحاول « البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وأرادته وبين ما تشهد به البداة من عمل المختار ، فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سرّ القدر الذي نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه »

روح الايمان بالقدر

الايمان بالقدر يسوق معتقده دائماً الى السعي والعمل ، فيرى منفعته في السعي قائلاً : إن لم يثمر احدهما فيثمر الآخر ، ومؤملاً خيراً من اسرار القدر ، لأن المقدر غير معلوم ولا أماره له غير أفعاله وأعماله .

ومن حكمه السامية أن الله دعا الانفس البشرية للايمان بالقدر ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت بها النوائب ، مثبتاً لها عند ملاقات المصائب ونجشم المصاعب ، فإذا هاجم اليأس قلب امرئ من مطلب يطلبه ، او قامت العقبات دون رغبة يريها ، قام الايمان بالقدر والاعتماد على الله لنجدته فهو يفتح له الابواب المغلقة ويذل المصاعب الشديدة فيأخذ العدة من حيث أمره الله باتخاذها .

كما أنه عند التوفيق في أعماله ، وما يطرأ عليه من مفاجآت سارة لا ينسى ان يزينها بالتواضع ، ولا يفقد رشده من شدة الفرح ، ولهذا المعنى الرائع يشير القرآن (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في

١ رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده . ص ٧٢ . ط ١٠ .

كتاب^١ من قبل ان نبرأها^٢ إن ذلك على الله يسير . لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم (الحديد : ٢٢ ، ٢٣ . فإله يخبر في هذه الآية بأن ما يصيب الأرض والانفس ثابت في كتاب ، ثم طلب من الانسان ألا يهلكه الحزن والا تذهب نفسه حسرات إذا أصابه شر لأن هذا مقدر له في كتاب ولم يكن هناك بد من أن يختاره ، وإذا قدر له خير عليه أن يذكر أن هذه النعمة ثابتة في كتاب لم يكن هناك بد من حصولها ولم يكن هناك بد من اختيارها فيجب ان لا يطفئ الفرحة وأن لا تطفئ النعمة .

والاعتقاد بالقدر يتبعه خلق الشجاعة والبسالة وبحليها بحلي الجود والسخاء فالذي يعتقد بان الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته بما فرض الله عليه من ذلك ، وكيف يخشى الفقر بما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشيد المجد على حسب الاوامر الالهية .

١ الكتاب : فسر الكتاب هنا بعلم الله اي ان كل شيء من الخير والشر في الارض والانفس ثابت في علم الله قبل ان يخلق العالم .

٢ نبرأها : أي نخلقها .

الحياة الروحية في الإسلام

تمهيد

الانسان يتكون من روح ومادة - عالماً بحاجة الى ثقافة الروح - نظام الروحية عند اكثر الاديان

* * *

صلة الانسان بالدنيا في نظر القرآن

التوسط بين مطالب الروح والجسد - تفضيل الآخرة على الدنيا - التحذير من الاغترار في منع الحياة - الدنيا امتحان للبشر - ذم الترف - المال في نظر الاسلام وسيلة لا غاية .

* * *

صلة الانسان بالله في نظر القرآن

الغاية من صلة الانسان بالله - الايمان بالله - الحب بين العباد والرب - خشية الله - ذكر الله - الاستغفار - التوبة - ابتغاء رحمة الله - العبادة - الشكر لله - التوكل على الله - الاخلاص لله - الدعاء .

* * *

هناك شبهات وجهها خصوم الاسلام اليه وهي ما زعمه بعضهم : من « أن الاسلام تنقصه الناحية الروحية » ، وأنه دين مادي ^١ ، وزعم الآخرون : « أن الاسلام نظام شرعي اكثر منه نظاماً اخلاقياً روحياً » ^٢ ، والحق انه ليس هناك شبهة أبعد في الخطأ من هذين الزعمين ، فالاسلام قد اشتمل على مبادئ روحية لا يوجد لها نظير في سموها وسرعة استجابة النفس لها في أي دين من الاديان الحاضرة ، وهذا ما سنعالجه في هذا البحث من وجوه عديدة .

1 - The prospect of Islam , by Laurence E. Browne , « London 1944 » , page , 111 , 113 , 116 .

2 - Islam and Christianity , by Lutfy Levonidn , « London 1940 » , page . 71 , 73 .

نقلا عن كتاب التبشير والاستثمار تأليف الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى خالدي

صفحة ٣٨ من الكتاب المذكور .

الانسان يتكون من روح ومادة

يتكون الانسان من عنصرين : عنصر مادي ينمو ويتحرك ، ثم جوهر بريء من المادة له تلك المظاهر الخاصة من تفكير وعلم وارادة ، وحب وبغض وخلق كريم أو ذميم .

لكل من هذين العنصرين رغائب يتوق صاحبها الى تحصيلها في اقصى حدودها ، فالبغيم رغائب من الطعام والشراب الى غيرهما من سائر الشهوات واللذائذ الجسمية ، وللاروح مدارج في الترقى يمكن ان تنال منها حظوظاً متفاوتة حسب سعيها ومجاهدتها .

اتصلت الروح بالبدن ، وفي هذا الاتصال الوان من البلاء ، فصار كثير من الناس عبيداً لشهواتهم وملذاتهم ، وانحطت بشريتهم الى درجة الحيوانية المحضة ، لا يرغبون من الحياة الا الوان الطعام والشراب وسائر انواع الشهوات ، بل ربما انحدروا الى ما وراء الحيوانية المعتادة بما وهبوا من التفكير فيكشفون انواعاً من الشهوات لا يصل اليها الهام الحيوان .

لهذا جاء القرآن بتشريع روحي قوامه الايمان بالله والتحقيق بمعرفته معرفة يقينية لا يأتيها الشك تسمو بالمرء وتجعله فرداً صالحاً في المجتمع الانساني وتنقذه من الازمات النفسية التي تجتاحه من جراء جهله سر هذا الكون ، ثم دعا القرآن الانسان ان يجاهد نفسه ويروضها على فعل الخير ، وان يصفى قلبه وينقيه من ادران الشهوة والهوى ، والبغض والحسد وسائر امراضه لتجتمع النفوس على المحبة والاخاء والسلام .

العالم بحاجة الى ثقافة الروح

والعالم اليوم بحاجة الى ثقافة روحية ، هذا العالم المادي الذي كان تحت تأثير اعتقاد جازم باذنه بتقدمه المادي المطرد قد بلغ مرتبة الكمال ولكن احداث الثلاثين عاماً الاخيرة قد بدلت هذا الاعتقاد .

فالرقي المادي الذي وصلنا اليه في هذا القرن لم يؤت ثمرته الفعلية من اسعاد الناس بل على العكس جلب التعاسة والحراب الناجمين عن الحروب

المتلاحقة ، فلا يزال القوي يفترس الضعيف ولا زالت شريعة الغاب هي الحكم الفصل ، ولا زال الاستعمار ينشب محالبه في صدور الدول الضعيفة ، ولا زالت الاجناس يكره بعضها البعض ، وهذا كله يدلنا على افلاس الحضارة المادية الحالية من القيم الروحية .

لهذا نرى طاغور الشاعر الهندي ينتقد هذه المدينة الحاضرة التي قامت على العلم والمادة دون ان تهتم بالقيم الروحية فيقول هذه الكلمات التي املاها على احد تلامذته قبل وفاته بساعات : ... فالاصلاح العلمي والاجتماعي والاقتصادي قد يهذب من احكام الطبيعة وقد يطفئها ويصقلها ولكنه لن يجعل من الانسان الا حيواناً ممتازاً ولن يرسم للفرد كوحدة مستقلة سبيلاً واضحاً الى الكمال الروحي المنشود . إذ الكمال الروحي لا يتقيد في عرفي بالتقدم المادي وانما هو جوهر ابدى كامن في نفوسنا سواء اكننا متأخرين في الرقي المادي ام متقدمين . والواجب ان نبحث في ارواحنا ما استطعنا عن هذا الجوهر الابدى ، أن نبحث عن مظاهره فينا ، وعن قواه المشتركة بيننا وبين الآخرين .

وعلى قدر احساسنا بهذه القوى يكون اتجاهنا نحو الكمال . ولقد ادرك الكثيرون من قبلنا هذه الحقيقة فكانوا امثلة حية من الكمال الروحي دون ان تكون لهم حضارة كحضارتنا وعلوم كعلومنا ورقى مادي كرقينا . لقد تعهدوا بالملاحظة والتربية قواهم الابدية فازدهرت وآتت ابرك الثمرات . ولكن ما تلك القوى الابدية ؟ ... هي الطيبة والرحمة والمحبة والايثار والتضحية ، وكل ما يجعلنا نحس أننا في غير حاجة الى الانظمة والقوانين كي نقر السلام في قلوبنا والعدل والاخاء بيننا وبين الناس .

واعجب ما اعجب له ان حضارتنا تعتمد على اصلاح الانظمة والقوانين لتوقيتنا ثم لا تقرن هذا الاصلاح بالدعوة الحارة ، البعيدة عن التعصب لمذهب او عقيدة ، الى تلك القوى الروحية ك مجموعة عناصر مشتركة ابدية يجب ان نستفيع بها كما نستفيع بالفحم والحديد والبخار والكهرباء .

ولعمري ان كتباً سهلاً بسيطاً في هذا الموضوع يضعه اديب عبقرى

ونجمع عليه الحكومات وتقرره وتطبع منه ملايين النسخ ويلقن للصبيان والبنات في مختلف مدارس العالم لما يساعد على تحقيق ذلك الكمال الفردي وتلك الرابطة الانسانية باكثر الف مرة ، ما تساعد عليها هيئة سياسية مؤلفة من رجال ما يزال العقل في نظرهم أصل كل شيء والمصلحة الخاصة غاية كل شيء .

وعندي انه يجب ان تدرس للصبيان فوائد المحبة بجانب فوائد الكهرباء ومنافع الطيبة والرحمة بجانب منافع الفهم والحديد . أي يجب ان نقرن في نفوسهم العواطف الأبدية بالمعارف وتطبيقاتها العملية ، والا جاءت هذه المعارف وتطبيقاتها بعكس الغرض المنشود منها فاكتمست العواطف وردت الانسان الى وحشته الاولى .

والحق ان العالم اليوم احوج ما يكون الى الأبديات تقرر ويعترف بها وتنظم في شكل دين مشترك انساني يفهمه الجميع ويشعر به الجميع . فبالعقل والروح ، أي بالعلم واصلاحياته المبتكرة ، وبالنفس وفضائلها الأبدية يستطيع الانسان الجديد ان يبني في فرح واطمئنان حضارة المستقبل .

هذه هي وصيتي اعلنها في العالم وانا على ابواب الموت ، كما تلقيتها من الله الذي حاولت ان اندمج فيه بشعري فعلمني ان الاندماج الاعظم يجب ان يتم قبل كل شيء بين الانسان واخيه في ظل الحق والرحمة والمحبة ...^١

وقد قامت اليوم بعض الجمعيات في اميركا وغيرها لهذا الغرض . منها جمعية التسليح الخلفي التي انشأها الدكتور فرانك بكمان وقد قصد بها الى تغيير المجتمع بتغيير افراده ، ووسيلته ان يتسلح كل فرد بمبادئ يأخذ نفسه بها في غير تساهل ، ومن هذه المبادئ الانجاء الى الله والاصغاء الى اوامره وطاعته ، وان يحاسب المرء نفسه كلما أذنب مصمما على ان يتجنب الرذائل ، وان يتعاون الافراد على تحقيق هذه المبادئ كي تسود في المجتمع ، فالانقسام من علامات عصرنا ... والاتحاد مطلبنا العاجل ، والانقسام نتيجة التكبر والحقده والشهوة والطمع ، وهو من صنع المادية وهو العلامة التي تميز بضاعتها .

١ نقلا عن كتاب (على ابواب الابدية) تأليف الباحث الفرنسي (جورج مجلوار) وقد ترجم هذا الفصل الاديب ابراهيم المصري في جريدة (اخبار اليوم) المصرية في العدد الذي صدر في ٢٧ يونيه ١٩٥٣

والقرآن اتى باسـ روية تكفل الاستقرار والسلام والاخاء لسكان الارض وهي ويا للأسف لا تزال مجهولة لكثير من الشعوب ، ومفكوري الانسانية امثال طاغور وفراذك بكهان وغيرها الذين يبحثون عن خير الوسائل لنشر السلام والمحبة في عالمنا المضطرب ، وهذا ما دعانا الى كتابة هذا البحث ولنبرهن على ان الاسلام هو دين الانسانية في المستقبل العاجل .

* * *

نظام الروحية عند اكثر الاديان

ما هو نظام الروحية في الاسلام ؟ هذه مسألة لا بد لفهمها وادراك معناها من ان نكون على خبرة تامة بين مفهومها في الاسلام ومفهومها في الاديان والنظم الفلسفية الاخرى .

فالفكرة التي ما زالت مهيمنة في ميدان الديانات والفلسفة ان الروح والجسد يتعارضان في مصالحهما فمن المتعذر إذن رقيها وازدهارهما جنباً الى جنب ، فالجسد والعالم المادي سجن للروح ، والعلائق الدنيوية والانغماس في لذائذها ورغباتها هي الاصفاد والاعلال التي تقيد بها الروح البشرية وهي الحواجز والعقبات التي تقوم في وجهها وتعوقها عن التحليق في جو الرقي والتقدم الروحي .

كانت نتيجة هذه الفكرة : التفريق بين طرق الروحية والمادية ، فالذين آثروا المادة بسوا من اول خطواتهم في مسامرة الروحانية فانغمسوا في عبودية المادة كل الانغماس وابتعدوا عن الروحانية كل الابتعاد ، والذين آثروا الروحانية نشدوا لرقى ارواحهم طرقاً ومناهج تبعدهم عن الشؤون الدنيوية وذلك انه كان من المستحيل في نظرهم ان يوجد لارتقاء الروح طريق يمر بين الحياة الدنيا وشؤونها . ولهذا نراه في سبيل ترقية الروح قد اهلوا امر الجسد وتماونوا في العناية به ، ومن اجل ذلك ايضاً تراهم قد اخترعوا رياضات بدنية شاقة قضت على رغبات النفس مثل البراهمة والبوذيين في الهند وغيرهم فمنهم من يقللون طعامهم وشرايهم الى حد ان يصيروا كالهياكل العظمية هزالاً ونحولاً ومنهم من يضيفون الى هذا اثقال اجسادهم بالسلاسل

الحديدية ، بل منهم فئة يجلسون وينامون على اسنة مشرعة من المسامير
ينفذونها متقاربة من اسفل اسرتهم لتباشر اطرافها المحددة ابدانهم .

واذا نظرنا الى المسيحية رأيناها ديانة زهد وتكشف وتخلص من علاقات الدنيا
واعتماد بالروح دون الجسد . جاء في الاصحاح السادس من انجيل متى (٢٤)
لا يستطيع احد ان يعبد ريين لانه اما ان ييغض الواحد ويحب الآخر او
يلزم الواحد ويرذل الآخر لا تقدر ان تعبدوا الله والمال (٢٥) فلهذا اقول
لكم لا تهتموا لانفسكم بما تأكلون ولا لاجسادكم بما تلبسون ، اليست النفس
افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس ... الى ان يقول : (٣٣) فاطلبوا
اولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يزداد لكم (٣٤) فلانهتموا بشأن الغد فالغد
يهتم بشأنه . يكفي كل يوم شره . وجاء في التاسع عشر (٢٣) فقال يسوع
لتلاميذه الحق اقول لكم انه يعسر على الغني دخول ملكوت السموات (٢٤)
وايضاً اقول لكم انه الأسهل ان يدخل الجمل في ثقب الابرة من ان يدخل
غني ملكوت السموات .

صلة الانسان بالذنياني نظر القرآن

التوسط بين مطالب الروح والجسد

يمتاز الاسلام عن غيره من الاديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح
ومطالب الجسد فهو لا يأمر الآخذ به ان يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة
جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع وفي حدها المعتدل ، حتى اننا نلاحظ

ان اكثر الآيات القرآنية التي نحض على منزلة روحية مقرونة بالحض على نيل مكانة مادية . جاء في القرآن (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك) القصص : ٧٧ .

واباح الاسلام لمتبعيه النجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتريات والذات المشروعة على شرط الاعتدال . قال الله تعالى (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد واكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) الاعراف : ٣١ - ٣٢ .

ودل الله المؤمنين على ما يجب ان يكون عليه دعاؤهم من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق^١ . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢ .

ويأمر الله المؤمنين باختيار الطيبات من الرزق لطعامهم (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون) البقرة : ١٧٢ . ويقول سبحانه (يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون) المائدة : ٨٧ ، ٨٨ . وبما يلفت النظر

١ الخلاق : الحظ والنصيب

في هذه الآية ان الله سمي حرمان النفس بما احله الله اعتداء ، اي خروجا عن طريق العدل بين الطبيعتين الروحية والمادية .

وغاية ما نراه في الاعتناء بالناحية الجسدية تصريح القرآن بان الله خلق الارض ليسخرها للانسان في منفعه . قال الله تعالى ممتناً على عباده (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً) البقرة : ٢٩ . وقال سبحانه (وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الجاثية : ١٣ . هذه الآية تشير الى بعد مدى سلطان الانسان على العوالم المادية ، ومثل هذا القول من المعجزات الفلسفية للقرآن لم يقل به احد قبل القرن التاسع عشر من الناحية العلمية فقد اعتبر الكون دائماً مجهولاً مزعجاً ، واليوم بعد ان سخر الانسان العالم لمنفعه نستطيع ان نقول : ان الاسلام كشف عنه قبل ان تظهر بواذره ، وقبل ان يطمئن الانسان على وجوده في الارض .

وعلى هذا البيان فلا رهبانية في الاسلام ، وان الرهبانية الموجودة عند المسيحيين قد شابهها غلو ينهى عنه الاسلام ، ولهذا جاء في القرآن عن النصارى (ورهبانيه ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) الحديد : ٢٧ ، ويقول الرسول محمد عليه السلام « لا رهبانية في الاسلام ، لأن الرهبانية تجعل الصالحين من عباد الله لا يهتمون الا بنجاتهم فينزوون الى كهوف وصوامع وينتقل زمام امر العالم الى من لا هم لهم الا

الافساد في الارض .

والحق ان ما ذهب اليه الاسلام من الجمع بين الروح والمادة هو ما تقبله الفطرة الانسانية فانه لم يخلق للانسان شهواته وقواه الطبيعية عبثاً او لاختادها بالرياضة النفسية ولكنه خلق الانسان على هذه الصورة من تنوع الغرائز وتحالف الميول ليصل الانسان بالسيطرة عليها وتوجيهها الى المثل العليا .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية امر تستدعيه حياة المجتمع ولا يوجد فيها بين أبدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة غير الاسلام .

تفضيل الآخرة على الدنيا

والاسلام لم يقم على هذا الطريق العادل بين الروح والجسد ذهاباً منه الى انها سواء في الدرجة ، لا ولكن الحكمة الالهية اقتضت ان يكون الاسلام مبنياً على قواعد العلم ونواميس الطبيعة ، وقد قرر العلم ان العقل السليم لا يكون الا في الجسم السليم وأن السمو الروحي لا يحصل من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات في دائرة الاعتدال ، ولكن بالرغم من هذا يقرر أن الحياة الاخرى خير من الحياة الدنيا ، وان الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتجه اليها كل مسلم ، ولهذا يحذر الله من يركن الى الحياة الدنيا بدون أن يستعد بالعمل الصالح للآخرة (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) هود : ١٥ ، ١٦ .

ويصف الله قول عباده المقربين بقوله : (وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا : خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) النحل : ٣٠ . وورد في القرآن تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا في مواضع متفرقة كقوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة هي الحيوان^١

١ الحيوان : اي الحياة التي لا فناء بعدها .

لو كانوا يعلمون) العنكبوت : ٦٤ . ويقول الله تعالى (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) الانفال : ٦٧ ويقول سبحانه (من يؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) الاعلى : ١٦ ، ١٧ .

فالاعتقاد بحياة اخرى افضل من الحياة الدنيا هو الذي يدخل العزاء والسلوى للنفوس المعذبة التي اصابها مصائب هذه الحياة كما ان هذا الاعتقاد يمد المؤمنين بقوة روحية تجعلهم لا يبالون بما يصادفون من خيبة أمل او اخفاق ذريع .

التحذير من الاغترار في متع الحياة

وصف القرآن الدنيا وذهمها ونهى عن الاغترار بها فهي لعب ولهو ، وانما في نضارتها ليست الا متاع الغرور . قال الله تعالى (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) الحديد : ٢٠ .

وصف الله هذه الحياة بانها لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الاموال والاولاد ليقول : إن كل الذي تعجبون به انما هو في حقيقته قصير زائل كذلك المطر الذي يعجب الزراع نباته ثم لا يلبث أن يتكون نهايته الحراب والهلاك .

ويصف القرآن الحياة الدنيا على هذه الصورة (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرآ . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا) الكهف : ٤٥ ، ٤٦ . شبه الله الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها الى الزوال بحال نبات نما واخضر ثم صار هشيا متفتتاً تنثره الرياح ، ومن ثم لا يجوز ان يغتر اهلها بالاموال والبنين اللذين هما زينة الحياة الدنيا الفانية فاعمال الخير خير عند الله وينال صاحبها ما كان يؤمله في الدنيا .

ويقول الله تعالى ايضاً في وصف هذه الحياة (وما الحياة الدنيا الا لعب وهو ولدار الآخرة خير للذين يتقون) الانعام : ٣٢ . ويخاطب الله الناس كافة (يا ايها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) فاطر : ٥ . والمعنى : ان وعد الله حق من الحساب يوم القيامة والجزاء على العمل الصالح والسيئ ، فلا تغتروا بزخارف الدنيا وتتركوا اوامر الله .

الدنيا امتحان للبشر .

والقرآن اعتبر الحياة الدنيا موضعاً لامتحان المرء وانها وسيلة للفوز بالسعادة في الحياة الآخرة ، فكل شعبة من شعب الحياة من البيت والسوق والمعمل والحانات ومجلس النواب كل ذلك تجارب مختلفة لامتحان المرء ، قال الله تعالى (احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) العنكبوت ٢ ، ٣ . والمعنى : هل توهم الناس انه يكفيهم أن يقولوا آمناً فيعتبروا من شيعة الحق من قبل أن يمتحنوا فيظهر انهم صادقون او كاذبون فليس مناط النجاة في الاسلام مجرد الانتساب اليه بل ان تظهر آثار تعاليم الاسلام على المنتسب اليه في اخرج ساعات الضيق ، وفي أوقات رفاهية النفس ولا تبعده تقلبات العيش عن ربه ، فالمصائب والشر والخير هي اختبار وامتحانات لجوهره ولهذا يقول الله تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم) محمد : ٣١ ويقول الله تعالى ايضاً (ولنبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) الانبياء : ٣٥ ويقول سبحانه في موضع آخر (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملاً) الملاء : ١ ، ٢ .

هذه النظرة للحياة هي اكبر حافز للأفراد للرقى الادبي واكبر حافز للجهد النفسي لمغالبة الشرور التي تميل اليها النفس وهي تغاير بعض نظريات الادبيات التي تعتبر اتباعها ان الله يحاييهم فيعفيهم من جهاد النفس .

ذم الترف

المبادئ، الروحية تستلزم النضحية بكثير من رغبات الجسد وملذاته وهذا لا يصدر من نفس مترفة مدللة ، لأن الترف أضعف ارادتها وجعلها شديدة الحرص على استمرار ما هي فيه ثم البحث عن كل ما يزيده ويزكيه فلا تتطلع الى آفاق جديدة من التعامل الصالحة والى ما يرقى الامة ويدفعها نحو التقدم والازدهار ، ولهذا وصف الله المترفين في القرآن بانهم اعداء كل اصلاح وانهم خصوم الحق يقفون ضده في كل زمان فلا يستجيبون لرسول الله الذين يرسلهم للاصلاح ، قال الله تعالى (وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا بما ارسلتم به كافرون . وقالوا : نحن اكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ . ووصفهم الله بالجحود وتقليد الآباء فلا يلتفتون الى أي دعوة جديدة اصلاحية لأن في ذلك استمرار للحياة التي يحبوها . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة^١ وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئناكم باهدى بما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما ارسلتم به كافرون) الزخرف : ٢٣ ، ٢٤ .

والمترفون هم أشد الناس استعداداً للانزلاق في هاوية المنكرات والفسق لأن اشباع بطونهم وارضائهم وملء جيوبهم هو الهدف الذي لأجله يحبون .

ويرى « مونتسكيو » الكاتب الفرنسي الشهير أن الترف مجلبة لفساد الجمهورية بنوعها فهو في الديمقراطية يصرف الناس عن حب الوطن وفي الارستقراطية يجعل النبلاء يحرون وراء اطباعهم الشخصية فيعم البلاء .
والقرآن الكريم يرى أن الترف مهلك للامة جميعاً فيجب محاربة طبقة المترفين الفاسدين والزامهم بالوقوف على الحدود المشروعة ، لان الهلاك لا يصيب المترف وحده بل يصيب الجماعة التي تسمح بقيام طبقة المترفين فيها ، قال الله تعالى (وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق

١ الامة : الطريقة .

عليها القول فدمرناها تدميرا) الاسراء : ١٦ . والمعنى : أي اذا قرب تعاقب
ارادتنا باهلاك أي قرية استئصالا لما ظهر فيها من المعاصي والآثام لم نعالجها
بالعقوبة بل نأمر متوفيها ، بالطاعة ، فإذا تمردوا وجب عليهم العذاب
لارتكابهم الآثام والفواحش .

كما أن الترف في كل امة يسبب الفقر والحرمان لعدد كبير من أبنائها فالتقص
الذي تشعر به الامة من الطعام والحاجات الضرورية هو بسبب ترف المترفين
وهذا مما يثير الحقد ويوغر الصدور ويفقد السلام والمحبة بين أفراد الأمة ولهذا
وصف الله المترفين بصفتي الظلم والاجرام (واتبع الذين ظلموا ما اتفوا فيه
وكانوا مجرمين) هود : ١١٦ .

تعاليم القرآن الروحية تتحقق من شُرور المال

ان الصراع في سبيل المال بلغ أشده في هذا العصر فقد صرف الناس عن
ربهم وعن الاخذ بالقيم الاخلاقية ، الامر الذي أدى الى اثاره أغلب المشاكل
الخطيرة التي يعانيها العالم اليوم ولهذا توجهت تعاليم القرآن الى التخفيف من
شُرور المال وبيان اضراره ليجتنبها الافراد ، وحذّر الناس من الانقياد
الكلي للمال الذي يفتنهم عن دينهم ويلبسهم عن ذكر الله فقال سبحانه
في وصف المؤمنين الصادقين (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
واقام الصلاة وابتاء الزكاة مخافون يوماً تنقلب فيه القلوب والابصار)
النور : ٣٧ .

وينبه الله المؤمنين بأن لا يشغل جمع المال قلوبهم بل يجب أن تكون
القلوب معدة لله وحده (ورحمة ربك خير مما يجمعون) الزخرف : ٣٢ .
ثم عالج القرآن المال معالجة تنفي ما ينتج عنه من شرور وذلك من
عدة وجوه :

فتنة المال

فالمال هو اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية اذ هو الوسيلة الى
الخير والشر فعلى البشر أن يسلكوا طريق الخير للفوز برضاة الله . قال الله تعالى

(واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم) الانفال : ٢٨
الغنى ليس من مظاهر رضوان الله

نقى القرآن أن تكون كثرة المال دليلاً لرضوان الله . قال الله تعالى
(وقالوا : نحن أكثر اموالا واولاداً وما نحن بمعدين . قل ان ربي يبسط
الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون . وما اموالكم ولا
اولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء
الضعف بما عملوا) سبأ : ٣٥ - ٣٧ .

المال متاع زائل

يبين القرآن أن المال بعض متاع الدنيا الذي ينتهي معها الى فناء على حين
يخلد الحق والخير ويجزي الله بحسن المثوبة المستمسكين بها في الآخرة . قال الله
تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من
الذهب والفضة والحلل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله
عنده حسن المآب . قل أؤنبشكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات
تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله
بصير بالعباد) آل عمران : ١٤ ، ١٥

ذم طغيان المال

ويصور القرآن النفس الانسانية بصفة الطغيان والخروج عن الحد متى
أحست من نفسها القدرة وقبضت على ناصية الثروة . قال الله تعالى (كلا ان
الانسان ليطغى . ان رآه استغنى . إن الى ربك الرجعى) العلق : ٦ - ٨
أي حقاً ان الانسان ليتجاوز حدود العقل والعدل فيطغي إذا رأى نفسه قد
استغنى بماله . ثم أراد الله أن يرد تلك النفوس عن طغيانها ويخفف من جبروتها
فأخذ يرجع الانسان الى حقيقة خلقه ويذكره بضعفه وحاجته ليعلم أنه واهم في
طغيانه (إن الى ربك الرجعى) أي أن المرجع الى الله وحده دون غيره فهو
مالك ما تملكه .

وبيّن الله ان كثرة الرزق تحمل الناس على البغي والطغيان ولكن الله
يرزقهم حسب مشيئته وهو أعلم بحالهم (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا
في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) الشورى : ٢٧

النهى عن الفرح

والقرآن نهى الانسان عن الفرح الذي يؤدي الى البطر ، وذلك بما يصيبه من نعم وخيرات ، والاستعاضة عن ذلك بشكر الله لأن الفرح على هذا الوصف يؤدي الفقراء الذين يعانون مصيبة ما ، كما أن الفرح يؤدي بالانسان الى الاستهتار في النعمة وعدم اخذ الحيلة من صروف الزمان كما أنه يؤدي أيضاً الى الحيلة والعجب ولهذا كان الفرح مكروهاً من الله (ان الله لا يحب الفرحين) القصص : ٧٦ .

فالانسان لا يجدر به ان يفرح بالمال ومتع هذه الدنيا الزائلة ولكن يجب ان يكون له هدف اسمى من ذلك وهو الفرح بفضل الله وبرحمته ، هذا ما دعا اليه القرآن (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) يونس : ٥٨ .

النهى عن البخل

نهى القرآن عن البخل لأنه يقضي على المودة بين الناس فالبخل يبغض التعاون ولا تسمح نفسه ببذل شيء من ماله ولو يسيراً لمساعدة الضعفاء والفقراء فتمتلىء قلوب هؤلاء حقداً عليه ، فالبخل اذا فشا في أمة كانت نتيجة انهيار الروح التعاون بين أفراد المجتمع . ولهذا وعد الله بالفلاح الذين يتخلصون من هذه الرذيلة . قال سبحانه (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) الحشر : ٩ .

والبخل على شدة تعلقه بالمال يبقى معوزاً ، لأن جمع المال مع عدم الانتفاع به ضرب من الفقر أشد وقعاً من فقر المعدمين ويؤتي صاحبه الذل والنفور العام من قومه . ولهذا يقول تعالى (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء) محمد : ٣٨ . فيا من نطلبون سكينه النفس حذار من هذه الرذيلة الممقوتة ولكن لا تنهروا في الرذيلة المعاكسة وهي الاسراف والتبذير ، قال تعالى في وصف المؤمنين الكاملين (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) الفرقان : ٦٧ .

صلة الانسان بالله في نظر القرآن

الغاية من صلة الانسان بالله

ان الصلة الرئيسية بين الانسان وخالقه في نظر القرآن تقوم على الايمان به ومحبه وشكره على ما انعم عليه .

ولكن بجانب هذا ، يهدف القرآن من الصلة بين الانسان وخالقه الى غايتين اثنتين ايضاً هما تربية الضمير الانساني والحصول على السعادة النفسية . فالضمير هو الوازع النفسي القوي الذي يكون للانسان بمثابة مرشد لسلوكه في الحياة ويبصره دائماً بعواقب فعله .

وإذا كان هذا الضمير يضعف احياناً ، فإنه كذلك ينمو ويشهد بالتربية الفردية والاجتماعية ويختلف باختلاف الافراد والشعوب قوة وضعفاً ، وان اكبر مقومات الضمير هو الاعتقاد باله قادر يحاسب على الكبائر والصغائر ويطلع على ما تكنه السرائر . وقد صدق احد الفلاسفة في وصف الضمير : « ان ضميراً بلا عقيدة بالله كمحكمة بغير قاض » .

اما السعادة النفسية فهي ايضاً الثمرة من الاتصال بين الانسان وخالقه في نظر القرآن . والانسان اليوم تعمى عليه الطريق التي توصله الى هذه السعادة فيظن أنها في ارضاء جميع شهواته بما يسعه امكانه من متاع مادي وعقلي .

ولكن السعادة الحقيقية ليست في اشباع هذه الشهوات لانها جميعها فانية . فالثروة
تضيع ، والشهرة العلمية والكتابية والفنية تتلاشى مع الزمن متى صادفت
حمداً منافسين ، والصحة تضمحل ، والمتاع البتي والزوجي والأبوي لا بقاء
له . ان هذه الكوارث المادية قد تقع فتكدر صفو حياتنا ولكن يجب ان لا
تهدم الكوارث سعادتنا النفسية .

وان العامل الاول لسعادتنا النفسية هو ذلك الاتصال بالله وانه معنا على
الدوام واننا لسنا وحيدين امام كوارث هذه الحياة وانه يؤيدنا بمعونته
وبرحمته . واليك ما جاء في القرآن في تقرير هذه الصلة .

الايمان بالله وأشهره في سلوك الإنسان

الايمان بالله هو عماد الحياة الروحية ومنبع كل طمأنينة نفسية ومصدر كل
سعادة ، ولا يتأتى هذا الايمان من الاعتقاد بان هنالك الهاً يسيطر على العالم
فقط ولكن بمعرفة قدسية الله وعظمته في نفسه وظهور آثار هذا الايمان
بالاعمال التي تصدر عنه .

فالايمان بالله يطلق النفس من قيودها المادية ، فتستكبر على الشهوات ولا
تبالى بالمنافع والمضار الخاصة ، فيسعى الانسان لنفسه ولأتمته وللناس جميعاً على
قوانين الحق العامة وسنن الخير الشاملة .

فكل ما في الانسان من خير ونبل وتضحية وإيثار وانكار الذات مستمد
من ايمانه بالله وهذه حقيقة ثابتة مستمد تأييدها من التجربة الانسانية العمامة ،
ففي كل دولة ، وفي كل عصر اناس تفجرت مشاعرهم النبيلة من الايمان بالله
فاوقفوا حياتهم لصالح الانسانية وسعادتها هذه هي حقيقة الايمان التي اعترف بها
القرآن فلذلك نرى انه ما من آية في القرآن ذكر الله فيها (الذين آمنوا) الا
اضاف اليهم (وعملوا الصالحات) اشارة منه سبحانه وتعالى الى ان الايمان يجب
ان يكون مقروناً بالعمل الصالح ، فهو مظهره وثمرته .

وان الايمان بالله والعمل الصالح يترب عليها مرضاة الله ومكافأته في الدار
الآخرة والامثلة على ذلك ما جاء في القرآن في مواضع متعددة

كقوله تعالى :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) البقرة : ٧

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات) البقرة : ٢٥

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننزع أجر من أحسن عملاً)

الكهف : ٣٠ .

ولهذا كان الايمان حائلاً بين المرء واقتراف المعاصي لأن الانسان فيما يفعل وفيما يصدر عنه خاضع لسلطان عقيدته ، ومسير بامرها ، ولهذا يقول الرسول عليه السلام (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)^١ لأن الايمان الكامل يأبى على المؤمن ان يفعل ما ينافيه او يترك ما يقتضيه .

والايمان بالله ينير لنا ظلمات هذه الحياة ففي ساعة الفشل يتذكر المؤمن ان هناك ملاذاً يلوذ به وملجأً يلجأ اليه ، وان ربه قادر على معونته فليس هنالك ما يدعو الى اليأس والجزع ، فتطمئن نفسه ، وتصر امامها الاهوال وتهون المصائب . والله يخبر المؤمنين في القرآن بان يد المعونة والتأييد ممدودة لهم ، قال سبحانه (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) التغابن ١١ . ويقول ايضاً (وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) الحج : ٥٤ . ويقول في موضع آخر (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) البقرة : ٢٥٧ . كما ان الايمان المصحوب بالعمل الصالح وسبلة الى النعيم الدنيوي ينحس الله المتصف بها (من عمل صالحاً من ذكر او اناشى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل ٩٧ .

فالانسان في هذه الحياة وسط تيار جارف من الآلام والمصائب فمن لم يؤمن بالله ويتخذ ملجأً ومعزياً في المصائب ومساعداً في المتاعب كان اشقى الناس في حياته بخلاف المؤمن الذي يحيا بهذا الايمان الحياة الطيبة كما صرح بذلك القرآن .

١ رواه البخاري ومسلم

الحُبَّ بَيْنَ الْعِبَادِ وَالرَّبِّ

من المطاعن التي وجهت الى الاسلام انه دين جاف يخلو من الحب بين الله والعباد . جاء في كتاب « فلسفة الدين » الذي الفه بالانجليزية ادوار روس : « ان كلمة الاسلام معناها الاذعان لارادة الله ، واخلق بذلك ان يفضي الى اعتبار الله قضاء متحكماً غير مفهوم ، من العبث التمرد عليه ، وليس من صفاته القداسة ولا الحب ، ومع ذلك فقد ظهر مسلمون لا يرتاحون الى هذا الدين الجاف ، وان في ظهور الفرق الصوفية التي انتشرت في الاسلام لشهادة بوجود الشوق الى اتصال يكون اوثق بالله حي يفيض بالحب »^(١)

والغريب ان سوء النية والجهل هما شعار هذا الكاتب وليس اسهل من الرد عليه في جهة هو اجهل الناس فيها لأن لفظ الحب بين العباد والرب كثير التكرار في القرآن فقد جاء على اساليب شتى اثباتاً ونفيّاً وهو يقسم الى قسمين حب العبد لله ، وحب الله للعبد^(٢) .

حب العبد لله

المؤمن الحق هو الذي ادرك جمال الله وجلاله ، واستشعر لطفه واحسانه وعلم علم اليقين انه هو المنعم عليه ، ثم تأثر بهذا الادراك فاحبه ، فاصبح قلبه مشغولاً به وعمله موجهاً اليه ، ولذته وارتياحه في طاعته وعدم المخالفة لأمره ، يتحمل في ذلك ما يتحمل راضياً مغتبطاً ، قرير العين مطمئن القلب .

فحب العبد لله هو الايمان الحق ، وليس الايمان الحق هو مجرد المعرفة واذعان النفس . بل الايمان الحق هو ايمان المحب لله الذي يؤثره على النفس ، وتبدو

١ صفحة ١٢٤ من الكتاب المذكور

٢ ملاحظة : رجئنا في كتابة هذا الفصل الى بحث كتبه العلامة الشيخ محمد محمد المدني وعنوانه (الحب بين العباد والرب) في المجلد التاسع من مجلة الازهر ابتداء من صفحة ٤٠٨

آثار حبه إياه في جميع أقواله وأفعاله وتصرفاته . أما الإيمان الجاف الذي لا يعدو الإذعان النفسي والإقرار القلبي ، ولا تظهر آثاره في مظهر من المظاهر العملية الإيجابية ، فليس هو الإيمان الذي يريده الله من عباده (قل إن كانت آباؤكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) التوبة : ٢٤ . جمع الله في هذه الآية جميع اللذائد والرغائب ونواحي الضعف في الإنسان وضعها في كفة ووضع في الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله ، فالنفس التي تتحرر من تلك اللذائد جميعها وتؤثر الله ورسوله هي النفس التي يتطلبها الإسلام .

ويصف الله صفات المؤمنين الصادقين الذين أحبهم كما أحبوه فيقول مخاطباً المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) المائدة : ٥٤ . وحب الله هو علامة المؤمنين الحقيقية الذين تذوقوا حلاوتها فما رغبوا عنها بديلاً ولهذا يقول الرسول عليه السلام : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)^١ « فحب الله من أهم القواعد في بناء الأخلاق وهو يحولنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شر ولا عدوان وقد يصل بنا إلى حب كل شيء في الوجود حين تمثل العالم كله من صنع المحبوب ، وهذا بالطبع لا يقيس إلا حين يغلب علينا الصفاء فننسى البغض والحقد والانتقام والحسد وسائر الدمارات الصغيرة التي تفسد جمال الحياة وتصير الأحياء أشقياء »^٢

حب الله للعبد

وأما حب الله للعبد فلم يثبتته القرآن إلا لذوي الأعمال العظيمة التي تشمل الخير للإنسان وللجموع الإنساني ولم ينفه الله إلا عن ذوي الصفات السيئة الموغلة في السوء التي من شأنها أن تشيع الضرر والفساد .

١ رواء البخاري ٢ التصوف الإسلامي للدكتور زكي مبارك ص ١٦١ ج ٢ ط ١

والآيات القرآنية التي اثبتت حب الله للعباد تصف هؤلاء العباد المحبوبين باوصاف هي امهات الاخلاق ومنابع الفضائل النفسية .

(وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين) المائدة : ٤٢

(بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين) آل عمران : ٧٦

(فاذا عزمتم قتواكل على الله ان الله يحب المتوكلين) آل عمران : ١٥٩

(فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) المائدة : ١٣ .

(وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) آل عمران : ١٤٦ .

(ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) البقرة : ٢٢٢

ونفى الله حبه عن الذين يتصفون بصفات هي مصدر شقاء للجنس البشري كقوله تعالى في الآيات التالية :

(ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين) القصص : ٧٧

(واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم اجرهم والله لا يحب

الظالمين) آل عمران : ٥٧ .

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) الاعراف : ٣١

(ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله انه لا يحب الكافرين)

الروم : ٤٥

(لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب

المستكبرين) النحل : ٢٣

(ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) النساء : ٣٦ .

(واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب

الخائنين) الانفال : ٥٨

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب

المعتدين) البقرة : ١٩٠ .

فمحنة الله للانسان هي مصدر سعادته لانها تتبعها ولاية الله له ونصرته

ودفاعه عنه وبالعكس فان بغض الله للانسان سبب في شقائه ، هذا ما بينه

الرسول عليه السلام بقوله : (اذا احب الله عبداً نادى جبريل فيقول اني

احب فلاناً فاحبه ، فيحبه جبريل فينادي جبريل في اهل السماء : ان الله يحب فلاناً

فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا ابغض عبداً دعا جبريل فيقول : اني ابغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء ان الله يبغض فلانا فأبغضوه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض) ١ .

خَشْيَةُ اللَّهِ

ان ما يعانيه العالم اليوم من تدهور في الاخلاق وانكباب على الرذائل وانتشار الاجرام هو بسبب غفلة الشعوب عن خالقها وعن استحضار عظمتها التي تجعل في القلب رهبة تحول بين الانسان وبين الميل الى الشر .
فخشية الله من الدعائم التي قامت عليها الحياة الروحية التي تسو بالانسان الى كل خير ، لذلك جاءت الاديان تسمى لغرس هذه النزعة في نفوس الافراد مينة ما يؤدي اليه غضب الله من العقاب الدنيوي والاخروي .
ولولا خشية الله لاسترسل الانسان في شروره ، وانكب على لذائذه ، غير مقيم لمصلحة الغير اي اعتبار ، ولا تنفع في ذلك كل القوانين التي شرعت للمحافظة على الانسان من عدوان الغير ، وهذا ما يعاني منه عالمنا الحاضر .

والاسلام بجانب ما شرعه من العقوبات والزواجر التي تردع الانسان عن اقتراف الشر لم يهمل تذكير الانسان بخشية الله والخوف من عقابه لأن ذلك ادعى لطاعة الله وسلوك الطريق المؤدي الى رضائه والفوز بنعيمه ، والآيات القرآنية التي سنستشهد بها شاهدة على ذلك .

(ومن يطع الله ورسوله يخش الله ويقتله فأولئك هم الفائزون) (النور: ٥٢)

(ان الذين يخشون ربهم بالغيب هم مغفرة واجر كبير) (الملك : ١٢ .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) (البينة : ٨ .

وخشية الله تهب الشجاعة الادبية للانسان وهي من محاسن الصفات التي

يتحلى بها وقوامها :

ان يبدي الانسان رأيه وما يعتقد انه الحق مهما ظن الناس به او تقولوا عليه ومهما جر عليه من غضب الحاكم ، ويرفض العمل بما لا يراه صواباً ولو لم يقع رفضه موقعاً حسناً عند الناس ؛ والقرآن يرشد المؤمنين الى التحلى بهذه الصفة . قال الله تعالى (فلا تخافوهم وتخافون ان كنتم مؤمنين) آل عمران : ١٧٥ . وقال سبحانه (اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين) التوبة : ١٣ . وبذكر الله صفات المؤمنين بقوله (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) المائدة : ٥٤ .

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا باموالهم في سبيل قول الحق ونصرتة وصبروا على الآلام حباً للحق لانهم احبوه اكثر مما يحبون انفسهم ومنهم الانبياء ونوابغ العلماء ؛ ولهذا نرى القرآن يتحدث عن الانبياء : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احداً الا الله) الاحزاب : ٣٩ .

الرجاء مع الخشية

والقرآن يقرن خشية الله بالرجاء ، لأن المذنب الذي لا يرجو ربه في قبول المتاب ينقلب الى قوة يائسة خطيرة لا يرجى لها صلاح ولا ينتظر منها نفع ، وانقطاع الصلة بين المرء وربّه هو أقصى غايات الفساد . وتخويف المرء من ربه له حدود ولا ينبغي أن يصل الخوف الى اليأس : فان التربية التي تقوم على الخوف المطلق تربية فاسدة لانها تطمس اصول النور في القلب وتمنع عناصر الخير من النهوض ...^١ ففي كل انسان عواطف وميول للعمل الصالح تشجعها المكافأة الحسنة والوعد الصادق بنيل فضل الله . وبما جاء في القرآن في هذا الصدد قوله تعالى (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين) الاعراف : ٥٦ . ورصف الله المؤمنين الصادقين (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم

١ - التصوف الاسلامي للدكتور زكي مبارك ص ١٥٣ ج ٢ ط ١

خوفاً وطعماً (السجدة : ١٦ . ووصف الله بعض انبيائه (انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين) الانبياء : ٩٠ .
ان خشية الله المقرونة بالرجاء هي اقوى المؤثرات في اعمال الانسان فهي التي تربي الضمير الانساني وتجعله فرداً صالحاً في المجموعة الانسانية .

ذكر الله

من اهداف الحياة الروحية بث الطمأنينة في النفس الانسانية ونبذ الهم والقلق اللذين هما اعدى اعدائها، وذكر الله هو وسيلة فعالة للوصول الى هذا الهدف . واليك البيات :

ان انشغال الفكر بالهموم المادية او المعنوية ، وتوزع خصائص العقل تحت تأثير القلق على المستقبل وتجاه مختلف أحداث الحياة ، كل هذه الوسواس والافكار تعصف بالناس من غير رحمة وتجعل الانسان عاجزاً عن القيام بواجبات هذه الحياة .

وقد يخيل الى البعض ان الاسترسال في الهم والقلق حالة نفسية لا علاقتها بالبدن ، ولكن التجارب العلمية اثبتت ان الاستغراق في الهم والتماهي في القلق حالات فزيولوجية سرعان ما تضعف وظائف الجسم ، وتبلي الانسان بشتى الامراض .

ومصدر الهم والقلق هو استشعار الانسان بضعفه امام أحداث هذه الحياة ولكن الايمان القوي بالله الذي له التصرف في هذا الكون والاعتماد عليه يلقي في نفس الانسان طمأنينة وقوة تنضال امامها هموم الحياة ويراهم شيئاً تافهاً لا يستحق الالتفات .

وذكر الله هو اثر من آثار الايمان بالله ، وهو الغذاء الروحي الذي يمد النفس الانسانية بالعلاج لادوائها ، والسكينة التي تحتاجها وهذا ما اعترف به القرآن (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب) الرعد : ٢٨ .

وذكر الله هو مظهر لمعرفة الانسان ربه والثناء عليه ولهذا يصرح القرآن

بان ذكر الله وسيلة للتقرب منه سبحانه وتعالى ، وان الذاكرين مجزيون بحبته ورحمته ، وحسبنا هذه الآيات القرآنية في فضائل الذكر (فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) البقرة : ١٥٢ . (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً . هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً) الاحزاب : ٤١ - ٤٣ . (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً) الاحزاب : ٣٥ .

وإذا بين القرآن فضائل ذكر الله نراه في موضع آخر يعلن بان الاعراض عنه يضل الانسان ويؤدي الى شقائه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ومحبسون انهم مهتدون) الزخرف : ٣٦ ، ٣٧ . والمعنى : ان من يتعامى عن ذكر الله وينهمك في لذات الدنيا يعاقبه الله بشيطان يسلطه عليه حتى يضلّه . وجاء في القرآن في التحذير من الاعراض عن ذكر الله (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون) الحشر : ١٩ .

وذكر الله له اثر كبير في تربية النفس فالذي يذكر ربه ويتصور عظّمته يخشع قلبه ويبلين فلا يصدر عنه من الافعال الا كل خير لأنه يعلم أن الله مطلع عليه بينما الذين يعرضون عن تذكر خالقهم وينزلقون في غمرة هذه الحياة يكون ذلك داعياً لفسوة قلوبهم التي ينتج عنها الشر ، ولذلك حذر الله من الوصول الى هذه الحالة المقيتة (ألم بأن الذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) الحديد : ١٦ .

ولشدة عناية الاسلام بذكر الله جعل الصلاة التي يتقرب بها الانسان الى ربه مشتملة على انواع كثيرة من الاذكار وجعلها خمساً في اليوم والليلة وطالب الزيادة على ذلك في الليل وهو ما يطلق عليه التهجد لأن في الليل تصفو النفوس وتكون اقدر على المناجاة بروحية لا يعكر صفوها اي معكر وهذا ما امر به الله تعالى بقوله (اقم الصلاة لادائك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فتهجد به نافلة لك

عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً . وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لذنك سلطاناً نصيراً (الاسراء : ٧٨ - ٨٠)
اي طمأنينة تشعر بها عند قراءتك هذه الآيات واي فيض من احساس سام يغمر نفسك فينشلك من وهدة هذه الحياة المادية الى حياة اخرى تستشعر حلاوتها ، انه هو القرآن ذلك الكتاب الروحي الذي يسح ما في نفسك من الغم والحزن .

الاستغفار

المؤمن المراقب لله في كافة أعماله نقل خطيئته لا محالة ، وقد تزل قدمه فيأتي بعمل لا ينبغي صدورده عنه فيذكر الله فيرى مبلغ خطيئته فيقلع عنها وهو بادي الالم عميق الحسرة .

فالمؤمن قد يخطئ ، وان الله لم يكلف أحداً بالعصمة انما كلف المؤمن اذا أخطأ أن يشوب الى رشده ، واذا زلقت قدمه فكبها ان ينهض من كبوته ، وان يزيج ما علق به من إثم ، ثم يستأنف طريقه الى غايته المنشودة لهذا يلتمس الله للمخطئ عذراً على خطيئته ويحرضه على طاب المغفرة المؤدي الى لوث من محاسبة النفس ومراقبة الله التي تحيي موات الضمير في الانسان .

وكفارة الخطيئة في الاسلام لا تحتاج الى اعتراف لرجال الدين ولا تبقى معلقة على رأس الفرد لا يخلص منها ولا فرار .

فباستطاعته اي انسان في نظر الاسلام ان يتوجه الى ربه مباشرة نادماً طالباً المغفرة ليفتح الله بابه ويمنحه رحمته وعفوه . قال الله تعالى (واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً) النساء : ١٠٦ . ويقول سبحانه (ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) النساء : ١١٠ . ويذكر الله صفات المؤمنين الذين يستحقون مغفرته بقوله (والذين إذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم) آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦ .

ويعمم الله المغفرة والقبول في رحمته لكل من تاب وأتاب إليه مهاسلف منه من الآثام بقوله (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) الزمر : ٥٣

والاسلام يجعل فرصة التطهر والتخلص من الآثام بمزوجة بالتزود من الخير فيجعل عمل الخير تكفيراً للأثم وفي ذلك ما فيه من التحريض على الدنو من عمل الخير قال الله تعالى (ان الحسنات يذهبن السيئات) هود : ١١٤ . ويقول الله تعالى عن فريق من عباده الناجين بمشيئته (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم) التوبة : ١٠٢ . ويقول الرسول ﷺ بهذا المعنى (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)^١

والقرآن يجعل الاستغفار من الذنب والاقلاع عنه وسيلة لنيل رحمة الله ونيل الخيرات والعطايا في الحياة الدنيا . قال الله تعالى (وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) هود : ٣ . ويقول سبحانه فيما جاء على لسان نبيه هود (وباقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم) هود : ٥٢ . ويقول سبحانه فيما جاء على لسان نبيه نوح (استغفروا ربكم انه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً) نوح : ١٠ - ١٢ . ويخاطب الله نبيه محمداً عليه السلام بقوله (وما كانت الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) الانفال : ٣٣ . كان احد صحابة الرسول عليه السلام يقول بعد وفاته ﷺ : كان لنا امانان ذهب احدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا .

التوبة

قد بضل ضال في فهم النصوص السالفة في الاستغفار فيخيل اليه أن المغفرة متيسرة له بلا نظام مها فسق واقترف من الآثام ، كلا ليس الامر

١ رواء احمد والترمذي

كما حسب ، وليست المسألة كلمات ترددها الشفاه بلا ندم على ما سبق وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم اكيد على الاستقامة . فانه يشترط لنيل مغفرة الله التوبة من المعاصي ، والتوبة في حقيقه اللغة الرجوع ، واذا اضيفت التوبة الى الانسان اريد بها رجوعه من الزلات الى الندم عليها .

يقول صاحب قوت القلوب : ومن شرط التوبة انه ينبغي للنايب المنيب أن يبدأ بمباعدة اهل المعاصي ثم بنفسه التي كان يعصي الله تعالى لها فلا ينيلها الا ما لا بد منه ، ثم الاعتزام على ان لا يعود في معصية أبداً ، ويلقي عن الناس مؤونته ، ويدع كل ما يضطره الى جريرة ^(١) .

والتوبة اولها القرآن عناية فائقة ورددها في كثير من الآيات من مثل قوله تعالى (فمن تاب من بعد ظلمه واصلاح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم) المائدة : ٣٩

وقال سبحانه (كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلاح فانه غفور رحيم) الانعام : ٥٤ . ويبين الله الحالة التي يقبل بها التوبة عن عباده المسيئين (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال : اني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار اولئك اعتدنا لهم عذاباً اليماً) النساء ١٧ ، ١٨ .

والقرآن يقرن العمل الصالح مع التوبة لنيل مغفرة الله ورضوانه قال الله تعالى (واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) طه : ٨٢ . فالتوبة هي من اهم الدعائم الخلقية فكل تأخير فيها هو انحلال في الشخصية الانسانية وكل اسراع وصدق فيها اعظم اصلاح للنفس وسبب قوي للقضاء على الشر .

وقد عقد احد الكتاب وهو (فرانز ستال) الهولاندي مقارنة بين مبادئ الاسلام الخلقية وبين ما تدعو اليه حركة التسليح الخلقية في المجلة

١ القوت ج ٢ ص ٦٩ .

الاسلامية ، التي تصدرها بالانجليزية الجمعية الاسلامية في ووكنج بالانجلترا ، وبما قاله هذا الكاتب : « ان التوبة في الاسلام هي وسيلة تغيير الافراد انفسهم وهي سلاح خلقي عظيم ، ففيها الندم والتغيير والتحول » . واستعرض هذا الكاتب معنى التوبة واهميتها عند نفر من المسلمين مثل الحسن البصري والمحاسبي والحلاج والغزالي ، وقارن بينهما وبين ما يقوله الدكتور فرانك بكمان مؤسس جمعية التسليح الخلقي مبيناً اسبقية الاسلام في هذا المضمار .

ابتغاء رحمة الله وأثرها في النفس الانسانية

لا شيء يضر بالشخصية الانسانية مثل التشاؤم فهو أخطر الامراض التي تصيب النفس وتعصف بها وتقعدّها عن العمل ، وكثيراً ما يجرها الى الهلاك ويجعلها ترتقي في الاخطار لأن الحياة اصبحت في نظرها جحيماً لا يطاق .
لنفترض ان هناك رجلاً متشائماً نظر الى هذا الكون فوجده مليئاً بالنعاسة والشقاء ، وبالضعف والمرض ، وبالخطايا والآثام ، وبالأحزان والآلام ، وليس فيه امن وسلام ولم يكن عنده أمل في المستقبل ولا ثقة به واستسلم لهذه الاتجاهات التشاؤمية وترك السعي في الحياة واخيراً اعتزم الخلاص منها فقتل نفسه هل يعني من ذلك الا الحسran ؟ .

ان هناك مصائب وكوارث قد تنصب على النفس فتجعلها تنظر الى الحياة نظرة شؤم ولكن النفس المؤمنة بالله المترقبة رحمته لا يغادرها الامل من تلك الرحمة الالهية ، وبهذا الايمان والامل تعالج مشاكلكها بالحكمة والصبر مترقبة انفراج الازمة التي تتخبط فيها ولهذا دعا القرآن الناس جميعاً الى طلب رحمة الله وأن تكون مقصدهم في هذه الحياة قال الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) يونس : ٥٨ . وقال سبحانه (ورحمة ربك خير مما يجمعون) الزخرف : ٣٢ .

هذا المقصد الذي دعا اليه القرآن من شأنه ان يكون شفاء لقلوب الملايين المحرومين من متع هذه الحياة ، فان هذه الفكرة - ابتغاء رحمة

الله - إذا سيطرت على تفكيرهم تراهم لا ينظرون نظرة رغبة واشتهاء الى من يفوقونهم ثراء وجاهاً لان مقصدهم في الحياة يعلو على هذه المظاهر الخلابية الزائلة الى حقيقة تعلو عليها جميعاً وهي الله سبحانه ونيل رحمته .

والقرآن يسمو بهذا المقصد للانسان فيعلق نيل رحمة الله الى اصحاب الصفات العظيمة الذين أدوا واجبههم نحو الله ونحو بني جنسهم في هذه الأرض قال تعالى (ان رحمة الله قريب من المحسنين) الاعراف : ٥٦ . وقال سبحانه (ولئن قتلتم في سبيل الله او ممت لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) آل عمران : ١٥٧ . وقال في موضع آخر (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الاعراف : ١٥٦ . وقال سبحانه عن فريق من أنبيائه (وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين) الانبياء : ٨٦ .

ان الذين يكون سعيهم على الدوام ومقصدهم نيل رحمة الله لا توهم نفوسهم أية خيبة أمل ، أو أية مصيبة تدهامهم ، فهناك قوة روحية تدخل الى نفوسهم العزاء بما يقاسونه من آلام ومتاعب ، وبعكس اولئك الذين يغفلون عن هذا المقصد ، او يقنطون من رحمة الله فانهم أحرى ان تلبس عليهم سبل النجاة فيقعوا في مواطن الخطر وما اصدق ما وصف به القرآن هذه الحالة (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) الحجر : ٥٦ .

فيا ايها النفوس المعذبة المتشائمة التي تتلاطم بك امواج هذه الحياة يمي وجهك نحو الله واطلي رحمته ليوصلك الى شاطئ الأمان فان رحمة الله لا يعجزها شيء في الوجود وهي قريبة منكم اذا سألتهم الله ان يمنحكم اياها وفعلتم ما تستحقون عليه نيلها .

العبادة

هناك سؤال يتبادر الى الانسان في ساعة صفاء ذهنه وفي حال التفكير في نفسه : لماذا خلقت ؟ وما هي الغاية من خلقي ؟
هذا السؤال الذي كان مدار البحث والتفكير عند الفلاسفة والذي لم يبتدوا الى رأي ثابت في حل اسراره .

وقد كان الفيلسوف الألماني « كانت » يرى أن اعظم مسائل الفلسفة وأجملها
شأننا ثلاث مسائل وهي : أولاً ، ما الذي نستطيع معرفته ؟ ثانياً ، ما الذي
يجب أن نعمله ؟ ثالثاً ، ما الذي نرتجيه ونعلق آمالنا عليه .

والقرآن يجيب عن بعض هذه المسائل ويكشف سرّاً من اسرار الحياة
والغاية من خلق الله الانسان وهي : عبادة الله ، قال تعالى : (وما خلقت
الجن والانس الا ليعبدون) الذاريات : ٥٦ .

فعبادة الله هي أقصى غاية الخضوع والتذلل له مع طاعته ، وهذا يقتضي
عدم الخضوع لأي كائن على هذه الارض لانهم كلهم مربوبون لله وهذا ما صرح
به القرآن (ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الاياه) يوسف : ٤٠ .
(ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه) الانعام : ١٠٢ .

وعلى هذا فلا يجوز لكائن أن يعلو في الارض ويتكبر ويقهر الناس حتى
يخضعوا له ويدعنوا لأمره وينقادوا لجبروته بأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد
كما فعل الملوك والكهنة قديماً والذين يخضعون لأمثال هؤلاء انما يشركونهم
بالله ، الامر الذي يبعث على الفساد في الارض ومنه تتفجر ينابيع الشر
والطغيان .

فالاسلام اذ امر بعبادة الله كان يرمي من ذلك أن يحرر الانسان
من العبودية التي لازمته السنين الطوال من ملوك الارض وزعمائها الطاغين
ورؤساء الدين المتألهين وأن ينزع من ذهنه ذلك الوهم بأنهم من طينة أفضل

من طينته ، وانهم من عنصر أفضل ، وان بيدهم النفع والضرر ولهذا يقول الله تعالى (قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً) المائدة : ٧٦ ويقول سبحانه (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق) العنكبوت : ١٧ .

ولهذا ارسل الله الرسل - في كافة العصور - للناس ليدعوهم الى عبادة الله وحده وعدم خضوع بعضهم لبعض . قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) النحل : ٣٦ والطاغوت هو كل معبود دون الله .

وان الشقاء الذي ينتاب الجنس البشري مرده عدم فهم هذه الحقيقة فأنهوا بعضاً من افراد جنسهم ، علوا في الارض ، واستذلوا البشر وساقوهم الى التناحر ، وجعلوا الانسانية شيعاً يحارب بعضها بعضاً ، ولهذا يدعو الله الناس جميعاً - بقطع النظر عن الوانهم واجناسهم - بالتوجه الى عبادة الله وحده ، انظر الى هاتين الآيتين اللتين تفيض عبارتهما بالشعور الحي فتستجيب لها النفس اذا كانت ذات عقل ووجدان (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله انداداً وانتم تعلمون) البقرة : ٢١ ، ٢٢

والمعنى : ان الله هو الذي خصكم بهذه الآيات الكونية العظيمة والدلائل النيرة من خلق السماء والارض الشاهدة بوحدانيته فاخضعوا له ولا تتخذوا له شركاء في العبادة .

مستلزمات العبادة

ولكن هل العبادة مقتصرة معناها على الخضوع لله وحده ؟ كلا ! فقد ذكر القرآن ان لها مستلزمات اخرى بجانب معنى الخضوع لله وهي : الشكر لله ، التوكل على الله ، الاخلاص لله ، دعاء الله ، وقد بين القرآن ان هذه الفروض التي يجب ان يقوم بها الانسان هي من العبادة التي خلق الله الناس لأجلها ، واليك عرض وتحليل كل قسم منها على ضوء ما جاء في القرآن من الدعوة اليها .

الشكر لله

عرف العلماء الشكر بأنه : ظهور اثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة .

فالشكر من يكون لسانه مشغولاً بالثناء على ربه معترفاً له بنعمته ، ويكون قلبه مملوئاً بحبة لله على هذه النعم ، وشهوداً بانها منه فضل واحسان وتكون جوارحه مشغولة بطاعة الله استسلاماً له وانقياداً .

لهذا كان الشكر من مظاهر العبادة التي دعا اليها القرآن لانه يجعل العبد ذاكراً لله عابداً متعلقاً بخالقه قال الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون) البقرة: ١٧٢ « وكلمة الشكر من الكلم الجوامع التي تنظم كل خير وتشمل كل ما يصلح به قلب الانسان ولسانه وجوارحه . فالذي لا يحب الله ولا يشهد قلبه بان ما فيه من النعم انما هو من الله فضلاً واحساناً ليس بشاكر ، والذي لا يثني على ربه ولا بحمده بلسانه ويجوز في الباطل ويشغل لسانه بلفو القول وهو الحديث ليس بشاكر ، والذي يعطيه الله من العلم شيئاً ولا يعمل به ولا يعلمه الناس ليس بشاكر ، والذي يعطيه من المال ما يستعين به على طاعته بصرفه في وجوه الخير والبر ويبخل به او بصرفه في معاصي الله ليس بشاكر »^١

لهذا دعا الله الى التخلق بالشكر في كثير من الآيات (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) الزمر : ٦٦ . ومدح نبيه ابراهيم لقيامه بواجب الشكر (ان ابراهيم كان امة^٢ قائماً لله خنيئاً ولم يك من المشركين . شاكراً لانعمه ، اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا

١ نقلاً عن تفسير لبعض الآيات القرآنية للشيخ محمد مصطفى المراغي في مجلة الازهر ١٣ ص ٥٣

٢ امة : اماماً يقتدى به

حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين) النحل : ١٢٠ - ١٢٢ . كما تفضل
الله بعدم عذابهم (ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم) النساء : ١٤٧
ووعده الله الشاكرين بان يزيد لهم النعم في الدنيا ويحفظها لهم فقال سبحانه
(وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)
ابراهيم : ٧ .

والانسان عليه واجب الشكر نحو خالقه فان لم يفعل كان بذلك
مقتوفاً اشنع انواع الجعود والنكران . الا ترى اننا ننكر على الشخص الذي
لا يسدي الشكر لمن احسن اليه من البشر فما بالك بمن لا يسدي الشكر
لله خالقه مصدر كل النعم ، ولا يمكن أن نكون مقربين الى الله من غير
شكره وهذا ما أمر به الله في آيات متعددة بعد أن ذكر فيها بعض النعم
التي انعمها على الانسان (والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً
وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلمكم تشكرون) النحل : ٧٨ .
ويقول سبحانه (وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه
ياكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون .
ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) يس : ٣٣ - ٣٥
ويقول سبحانه ايضاً (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره
ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما
في الارض جميعاً منه) الجاثية : ١٢ ، ١٣ . ويقول سبحانه في موضع آخر
(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من الة غير الله
يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى
يوم القيامة من الة غير الله يأتیکم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن
رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون) القصص : ٧١ - ٧٣ .

ولكن الناس أمام هذه النعم وغيرها قليلا ما يشكرون قال سبحانه
(ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون) يونس : ٦٠ .
ومنفعة الشكر لا تعود على الله فإنه لا ينتفع بشكر الشاكرين ولا
يتضرر بكفر الكافرين وانما منفعة الشكر عائدة على الشاكر فهو يظهر

النفوس ويقربها من الله ويوجه ارادتها الى الوجهة الصالحة في انفساق النعم في وجوهها المشروعة ولهذا يقول سبحانه (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد) لقمان : ١٢ .

اما كفران النعم فيعرضها للزوال لانها تجعل المرء غير مبال بما يعمل ويبدد الثروة بدون منفعة ويتلف ما انعم الله عليه من نعم الصحة والعافية ويسير على غير المنهج الذي رسمه له الخالق فيؤدي به الى غضب الله والبعد عن رحمته .

والقرآن يخبر بان خراب الامم كان سببه كفران النعم وعدم الشكر لله . قال سبحانه (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) النحل : ١١٢ .

وذكر القرآن قصة قوم سبا (لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل حط وائل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور) سبا : ١٥ - ١٧ .

فالشكر من الدعائم لسعادة الامم والتكبر عنه لا يجلب غير الدمار والخراب ، حبذا لو فهمته الشعوب وعلمت به لتحصل على السعادة التي تنشدها وهي عنه غافلة .

التوكل على الله

أفلحت المدنية في تيسير العيش والترفيه عن الناس ولكنها فشلت في بث السكينة في النفس فلا يزال القلق واخوف يشتى صورته ، اخوف على مستقبلها الاقتصادي والاجتماعي واخوف من الفشل ، واخوف على الصحة وغير ذلك تفعل فعلها السيء في النفس الانسانية .

وقد اظهر علم الطب النفسي ان سلسلة طويلة من الامراض من

البرد العادي الى النقرس يمكن في كثير من الاحوال ردها الى متاعب عقلية لا بدنية وليس سوء الصحة الذي يعتري كثيراً من الناس الا ستاراً للخواف عميقة القرار .

وان في الاسلام عاملاً نفسانياً للقضاء على الخوف وهو ما امر به من التوكل على الله وتفويض الامر اليه وقرنه بالعبادة التي خلق الله الناس لاجلها ، قال الله تعالى (واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه) هود : ١٢٣ .

والتوكل اثر من آثار الايمان فالذي يؤمن بأن الله بيده تصارييف الحياة وبيده النفع والضرر يترك الامر اليه ويرضى بمشيئة الله فلا يفزعاه المستقبل وما يخبئه له من مفاجآت ويستعيض عن الخوف بسكينة واطمئنان الى عدل الله ورحمته ، ولهذا يقرر الاسلام بان الايمان يجب أن يصاحبه التوكل (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) المائدة : ٢٣ . (الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) التغابن : ١٣ .

والاسلام يحمل البشرى للمتوكلين ويعدم الفضل من الله ونيل بركاته . انظر الى هذه الآية الكريمة التي تمسح ما في نفوس المؤمنين من الخوف وتقدم بقوة روحية يستطيعون بها التغلب على خوفهم وقلقهم (فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) الشورى : ٣٦ . وورد في القرآن ايضاً آية اخرى تحمل الوعد الصادق بالمعونة والتأييد من الله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) الطلاق : ٣ . أي كافي به بما اهمه وبما أحزنه .

وهناك فئات من الناس في حاجة الى التوكل اكثر من حاجة غيرهم وهم المصلحون الذين يجتازون دائماً الطريق المملوء بالأشواك ، ويكونون عرضة للاذى والتعب المضني هؤلاء يعلمهم الله ان يفوضوا امرهم اليه حتى لا يشبط الفشل همهم ويأمرهم ان يقتدوا بنبيه شعيب الذي قال (إن أريد الا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب) هود : ٨٨ .

ولكن هناك شبهة يمكن أن تتبادر الى الاذهان بأن التوكل يضعف الهمة للعمل ويؤدي الى الكسل هذه الشبهة عاجلها القرآن ودحضها في هذه الآية

(وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين)
آل عمران : ١٥٩ . هذه الآية تدل على أن التوكل على الله يجب أن يسبقه
المشاورة من أهل الرأي في الطريق الذي يجب سلوكه ، ثم العزم الصادق
في السير على الطريق الذي استقرت المشاورة عليه وبعد ، ذلك يأتي التوكل على
الله لنيل النجاح .

فالتوكل في الاسلام هو زاد روعي للتغلب على الخوف والقلق وهو
الذي يعطي المؤمن بسمه امام احلك الساعات التي تمر به ويهبه سكينه
النفس المحروم منها كثير من سكان هذه الأرض .

الاخلاص لله

الاخلاص هو أن يأتي الانسان باعمال نقيه لا يشوبها أقل رياء قياماً
بالواجب سواء في العبادات أو في سائر الاعمال قاصداً بذلك وجه الله ورضاه .
فالاخلاص من الصفات الروحية التي تسمو بالمرء الى منزلة رفيعة من
الحلق الانساني فأهواء النفس والرياء والغايات الشخصية هي التي يجارها
الاسلام ويحل محلها الاخلاص لله .

ولهذا أولاه الاسلام اهتماماً خاصاً وقرنه بالعبادة . قال الله تعالى (وما
أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) البينة : ٥ . وقال سبحانه :
(فاعبد الله مخلصاً له الدين) الزمر : ٢ . ويقول الرسول محمد ﷺ
(أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله له :
ما صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يا رب كنت أقوم به آتاه الليل واطراف
النهار فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل اردت أن
يقال فلان عالم ، الا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالاً ، فيقول الله له :
لقد انعمت عليك فماذا صنعت ؟ فيقول : يا رب كنت أتصدق به آتاه
الليل واطراف النهار فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ،
بل اردت ان يقال فلان جواد ، الا فقد قيل ذلك . والثالث رجل جاهد
في سبيل الله فقتل ، فيقول الله له : لقد جاهدت لي قال فلان شجاع ، الا

فقد قيل ذلك ، ثم قال الرسول لابي هريرة : يا ابا هريرة اولئك اول خلق
تسعر بهم جهنم يوم القيامة » ١

ولما كانت الاعمال الخالصة لله وحده لا بد لها من سابق نية وعزم نجد
الاسلام يهتم بالنية هذه ويجعلها محوراً تدور عليه اعمال العبد . قال الرسول
ﷺ (انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله
ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة
يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه) ٢

فالنية الطيبة هي عنصر من عناصر التربية الخلقية التي تجعل الانسان عضواً
ممتازاً في المجموعة الانسانية وقد جعلها الاسلام الاصل في قبول الاعمال عند
الله خالصة له ، وله بذلك السبق بان اعلنها قبل ان يعلنها عما نويـل كانت
فيلسوف الاخلاق الالماني إذ قال : ان حسن النية هو الكل في الكل في
الاخلاق .

فالخير في الاسلام ليس خيراً الا اذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله
والعنصر الطيب ليس طيباً الا اذا استنار باوامره ، ولا شك ان هذا مذهب
جليل في تقدير الرجال والاعمال يصحح الاوضاع ويسمو بالمجتمع الى مستوى
رفيع من الكمال إذ يجعل الاقوال والاعمال منوطة بغاية واحدة ومثل اعلى
هو الله ، لا يحب ولا يبغض ولا يفعل ولا يترك الا الله ، والله لا يأمر الا
ما كان خيراً للشخص والمجموعة الانسانية .

الدعاء

الدعاء من مستلزمات العبادة اذ هو الصلة التي تربط بين الانسان وخالقه .
والدعاء فطري في الانسان فهو يشعر بحنين الى الله يفزع اليه عند الشدائد
ويتضرع اليه في كشف السوء عنه فهو ضعيف امام احداث الحياة لا يجد
سنداً لضعفه غير الدعاء ولذلك اعتنى القرآن بالدعاء وحث عليه ، جاء في
القرآن (وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي
سيدخلون جهنم داخرين) غافر : ٦٠ . ففي هذه الآية وصف الله الدعاء بانه من

١ رواه اهل السنن ٢ رواه البخاري ومسلم .

العبادة التي يستحق من يستكبر عنها غضب الله .

الدعاء علاج نفسي

والدعاء علاج نفسي لكثير من امراض النفس فالانسان بطبيعته محتاج في حل مشكلاته لأن يقضي بدخيلة نفسه الى صديق حميم يخفف عنه بعض ما يشعر به من الهم والحزن ، وقد اجمع الاطباء النفسيون على ان علاج التوتر العصبي والآلام النفسية انما يتوقف الى حد كبير على الافضاء بسبب التوتر ومنشأ القلق الى صديق مخلص فان كتمان ما يزيد المرض .

فاذا افضى الانسان المحزون الى ربه ما يعانيه ، وطلب منه ما يبتغيه فانه يشعر بطمأنينة ونفحة روحية تنشله عما هو فيه من الهم والضيق ، وذلك مع الايمان والاعتقاد التام بان الله قريب منه مجيب دعوته كما اخبر بذلك القرآن (واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) البقرة : ١٨٦ .

قيل في سبب نزول هذه الآية ان اعرابياً جاء الى رسول الله فقال : اقريب ربنا فنناجيه ام بعيد فنناديه فسكت عنه الرسول فأنزل الله هذه الآية.

الدعاء في السراء والضراء

والدعاء الذي يطلبه الاسلام هو ان يكون في السراء كما يكون في الضراء لأنه بذلك ادعى لئن يكون على الدوام متذكراً ربه مستجيباً لاوامره محققاً معنى العبودية له ، فان الانسان بطبيعته يلجأ الى ربه عند الشدة ولكن ما ان يكشف الله عنه ما به من ضر حتى ينسى الله ويغتر بقوته فيؤدي به الى الاعراض عن اوامر الله والافساد في الارض ، وقد وصف الله هذه الحالات التي تفتاب كثيراً من الناس ليحذر المؤمنين من الوقوع في الجحود والنكران له . قال سبحانه (واذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) فصلت : ٥١ . وقال ايضاً (واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) يونس : ١٢ . وقال سبحانه ممتناً على بعض خلقه الذين يتعرضون لخطر الفرق ثم ينجيهم من فضله (هو

الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن اُنْجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما انجاهم اذا هم يبغون في الارض بغير الحق يألبها الناس اننا بغيركم على انفسكم)
يونس : ٢٢ ، ٢٣ .

فلا يجعل بالانسان ان يعصي الله بعد ان انقذه من الهلاك ، بل ينبغي أن يجعل من ذلك الخطر الذي وقع فيه حافزاً له لطاعة الله والسير على الطريق الذي رسمه .

الدعاء للسمو الروحي

وقد شرع الاسلام الدعاء ايضاً للسمو الروحي والترفع عن شهوات الجسد الضارة والعروج به في معارج الكمالات ، بجانب ما يطلبه الداعي من فضل الله وتيسير أموره وكشف الضر عنه ، ولهذا يعلم الله المؤمنين كيف يدعونه بما ذكره على لسان أنبيائه والصالحين بما سئذ ذكر بعضاً منها :

(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء) ابراهيم : ٤٠ .
(رب اوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن اعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي) الاحقاف : ١٥ .
(ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب) آل عمران : ٨ .

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) البقرة : ٢٨٦ .
(ربنا ظلمنا انفسنا وانت لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) الاعراف : ٢٣ .

(رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) المؤمنون : ٩٤ .
(ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) يونس : ٨٥ .
(ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً) الكهف : ١٠ .
(رب اشرح لي صدري . ويسر لي امري) طه : ٢٥ ، ٢٦ .

(ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) البقرة : ٢٠١ .
من هذه الادعية يتبين لك مصدرها السماوي قصها الله علينا لندعو بها في
فترات الزمن القاسية وللتروقي الروحي .

فضل الدعاء

تضافرت الأدلة على فضل الدعاء وتأيداً لذلك ننقل ما جاء في مجلة المختار
من ريدرز دايجست تحت عنوان (ألا تؤمن بالصلاة والدعاء) :
« ... وكان أحد العلماء النفسانيين يتكلم في « معجزات » الحرب التي كثرت
الكتابة عنها ، فصور الأمر على النحو الآتي ، قال : « يمكن ان نشبه رحمة
الله بمولد كهربائي ، وفي وسعنا ان نستمد قوة هذا المولد إذا وصلنا انفسنا به
بدعاء الله ، او نستطيع ان نثبت انه لا أثر له في حياتنا بان نرفض ان نصل
انفسنا به بالدعاء فنحن وما نختار .

« ... واليوم تندفق الأدلة ، التي لاتنقض من كل ناحية ، على فضل الدعاء
وقوته . وليس بما يدهش ان يتوجه الناس في ساعة الشدة والحاجة الى قوة
خارجية ، والشيء الوحيد المدهش في هذا هو ان نراه مدهشاً . وما يضع
هؤلاء المصلون من الجنود والبحارة والطيارين الا كما صنع لنكولان الذي قال
في احلك ايام الحرب الاهلية : « بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع
ان انجح وبهذه المعونة لا يمكن ان أخفق » . ولا يكاد يوجد فوق الارض
مخلوق لا ينطوي على شيء من الشوق الروحاني ، او هو شعور باطن مبهم بان
هناك قوة يتجه اليها بفطرته .

وحدث لما اخطر الماجور الن لندبرج — من وستفيلد بولاية نيوجرسي —
وهو يقود احدى القلاع الطائرة ، النزول في البحر في طريقه الى استراليا ، ان
ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه فقدوا .

وفي هذا يقول الماجور لندبرج : « تمكنا من الخروج على طوفين من
المطاط ، وكدنا لا نفعل ولم تكن معنا كسرة من خبز او قطرة من ماء ،
وكان رجال الطائرة كلهم قلقين الا الشاويش البوت هرنارندز المدفعي الخلفي
وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال ، وسرعان ما واعنا بقوله انه
يعرف ان الله قد استمع اليه وانه سيساعدنا .

« وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشقت شفاهم وورمت السنتهم فعبجروا عن مجارة هرناندز في التهليل والتسبيح ، ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك وبعد ثلاثة ايام ، وقبل دخول الليل لحوا معالم جزيرة صغيرة ، وما لبثوا ان شاهدوا مالم يكن يجري لهم في خلد ، فاقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الاجساد ، واتضح ان منقذهم من اهل استراليا الاصليين وهم صيادون سود الاجسام منقوشو الرؤوس ، وقد جاءوا من داخل البلاد على مسافات مئات الاميال ، وقالوا للتدريج انهم كانوا يهيمون في اليوم السابق بالرجوع بصيدهم الى محلتهم ، ولكنهم احسوا بدافع غريب الى تغيير اتجاههم فجاءوا بزوارقهم الى هذا الشاطئ المرجاني المهجور الذي لا قيمة له ، وهناك لحوا للتدريج وزملاءه .. »^١ .

هذا هو فائدة الدعاء الذي فيه الفرج للنفوس التي اشرفت على الهلاك والذي يمحو الخوف ويب الطمأنينة للنفس ، وما اصدق ما قاله كاريل « ان الصلاة والدعاء ، وهما اعرق موارد قوتنا وكما لنا ، قد اهل اصلاحها اهمالا شائناً ،

* * *

هذه بعض تعاليم الاسلام الروحية اقتصرنا عليها في هذا البحث وسنعرض لنواح اخرى توبنا اهتمام الاسلام بالناحية الروحية في الأبحاث الآتية : الأخلاق في القرآن - الصلاة - الصوم - الحج .

الأخلاق في القرآن

الغاية من الاخلاق - تهجم على الاسلام مردود -
الفضائل : وتشمل ... الاستقامة واصلاح النفس وتركيتها
الاحسان - التقوى - الصبر - العفو - الصدق وصوره -
الاصلاح بين الناس - التعاون - الابتناء - الكلام الحسن -
معاشرة الاخيار - الاستئذان والتحية
الرذائل : وتشمل ... الانقياد لهوى النفس - الكبرياء -
الخمر والفجاء - الزنا - الكذب وصوره - السخرية - اللز -
التنازع بالالقاب - الظن السيء - التجسس - الغيبة - الغضب -
الحسد - اللغو - الشراة .

الغاية من الاخلاق ؟

يبحث علم الاخلاق^١ عن معنى الخير والشر ، ويبين ما ينبغي ان تكون عليه معاملة الناس مع بعضهم بعضاً ، ويشرح الغاية التي ينبغي ان يقصدها الناس في اعمالهم وينير السبيل لعمل ما ينبغي .

ولا شك ان الاخلاق هي الدعامة الاولى لحفظ كيان الامم ، ولهذا نرى ان الباحثين والفلاسفة قد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد لصالح نفسه وللمجتمع في جملة ، فكما ان الفرد يضره ويفسد من اعماله ان يكون كاذباً مرئياً حسوداً شريراً مأكراً ، كذلك تفسد المجتمعات بشيوع هذه الصفات في آحادها .

لهذا اول ما توجهت اليه عناية الفلاسفة والمشرعين - العاملين على انهاء

١ من مراجع هذا البحث كتاب الاخلاق للدكتور احمد امين وكتاب الحياة الروحية لعبد الله اباحي .

الجماعات البشرية - الدعوة الى الاخلاق الفاضلة لأنها الدعامة الاولى في بناء كل مجتمع سليم ولم . يبالغ شاتويريان حين قال : « الاخلاق اساس كل مجتمع . من اجل ذلك كانت رسالة الانبياء تحت على الاخلاق الفاضلة ، وجاء القرآن مشدداً على الاستمسك بها ، لأنها هي التي نحقق الفوز بالنعيم الاخروي تهجم على الاسلام مردود .

والغريب ان بعض اعداء الاسلام ارادوا ان يطعنوه في الصميم فشوهوا الحقائق تشويهاً مريعاً كما جاء في كتاب « البحث عن الدين الحقيقي » وهو محاضرات في التعليم الديني تأليف المنسنيور كولي اذ نعت الاسلام باقبح الصفات وبخلوه من الاخلاق .

ان بشاعة هذا الطعن وسخافته لتظهر واضحة جلية بعد الاطلاع على الاخلاق في القرآن . ان كل آية من آياته في الاخلاق لرد قاطع على هذا الافتراء .

ولكن قبل ان نستعرض مبادئ القرآن الاخلاقية نقدم لامثال هؤلاء المعتدين على الحق ما قاله الدكتور جوستاف لوبون الفرنسي في كتابه (حضارة العرب) : « ان اصول الاخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الاخرى جميعها »^١

ان شهادة الدكتور جوستاف لوبون في اخلاق القرآن لها قيمتها العلمية لم يُلها عليه حب لمبدأ او كره لآخر في ذلك ، بل شهادة للحق واداء للرسالة العلمية التي يخدمها ، ان قوله صدر بعد ان اطلع على القرآن الاطلاع الوافي وخبر ما فيه من الاخلاق . ولا يخفى ان الدكتور جوستاف لوبون درس الاديان وانه حجة في علم الاجتماع فشهادته لها قيمتها في هذا المجال .

وها نحن نقدم للقراء مبادئ القرآن الاخلاقية نبداً فيها بعرض الفضائل التي حث عليها القرآن ثم نستعرض الرذائل التي نهى عنها وليست غابتنا الا خدمة الحقيقة خدمة مجردة عن العاطفة ، وارشاد اخواننا في الانسانية الى التعاليم الصالحة التي تسعدهم في حياتهم .

١ نقلا عن الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعير من ٥٤ : .

الفضائل

الاستقامة وأصلاح النفس وتزكيتها

يتنازع الانسان في هذه الحياة عاملاً الخير والشر ، و كثيراً ما ينساق الى احدهما بدافع داخلي او مؤثر خارجي .

والدين من أهم أهدافه وقاية الانسان من نزعات الشر ببيان ضرره والتعذير منه ودعوة الذين تورطوا فيه الى الاستقامة تبعاً لما رسمه الله لعباده .

فالاستقامة هي اقوى سبب للرقى الادبي ، وما سيطرت هذه الرغبة في قوم الا صلح حالهم واستقر السلام فيما بينهم .

والانسان اذا لم تصاحبه الرغبة في الاستقامة ضعف اقباله على الخير ، واصبح هدفاً سهلاً للتورط في الآثام ، لهذا نرى الاسلام اولاً اهتماماً خاصاً ودعاً اليها بأسلوب شائق يستهوي الانفس ويؤثر في اعماقها بما وعد المستقيمين من الاجر العظيم وحسن المثوبة في الدنيا والآخرة . قال سبحانه (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم) فصلت : ٣٠-٣٢ ويطمئنهم الله بقوله (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الاحقاف : ١٣ . اي فلا خوف عليهم من عذاب يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم .

وجاء رجل الى الرسول ﷺ فقال اوصني يا رسول الله فاجابه الرسول

بهذه الجملة الموجزة الرائعة (قل آمنت بالله ثم استقم) ١ .

اصلاح النفس

وبما يتوافق مع معنى الاستقامة ما عبر عنه القرآن باصلاح النفس ، لان التادي في الظلم والفسق يجرّ الى اوخم العواقب على النفس الانسانية وعلى المجتمع ، لهذا وعد الله الذين يصلحون انفسهم وجميعهم بالغفران والرضى قال سبحانه : (فمن تاب من بعد ظلمه واصبح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم) المائدة : ٣٩ . ويخاطب الله الانسانية جمعاء (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى واصلح فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) الاعراف : ٣٥ .

تزكية النفس

وبما ينسجم مع الاستقامة ما عبر عنه القرآن أيضاً بتزكية النفس ومعناها الطهر من الادناس ، والسمو عن النقائص ، ووضع النفس حيث يطيب موضعها ، ويرتفع قدرها ، لتأخذ عند الله حظها من الرضوات ، وبين الناس نصيبها من الكرامة ، ولقد حث القرآن على تزكية النفس هذه ووعد بالفلاح من اخذ بها . فقال سبحانه (قد افلح من تزكى) الاعلى : ١٤ وقال سبحانه في النفس الانسانية (قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها) ٢ الشمس : ٩ ، ١٠ وبين سبحانه ان تزكية النفس لا يعود نفعها الا على صاحبها فلماذا يجب الحرص عليها (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير) فاطر : ١٨ .

إن الاستقامة واصلاح النفس وتزكيته امور تقفح باب الامل للذين تورطوا في الائم لتغيير حياتهم الى حياة افضل ، وتنفي عنهم اليأس من اصلاح انفسهم ، هذه الفكرة إذا تمكنت في نفوسهم جعلتهم عنصر شر لا يمكن اصلاحه .

والقرآن كما رأينا دعا الانسان الى الاستقامة والتخلي عن مساوئه وظلمه بأسلوب من الكلام الرائع والتغيب القوي مما يعطينا دليلا على انه كتاب روحي من عند الله .

١ رواه البخاري ٢ دساها : أي دنسها وهبط بها الى الحيوانية .

الأحسان

نعرف الاحسان بمعنى الانعام والتفضل ، الا ان معناه يتسع لاكثر من ذلك فاذا رجعنا الى معاجم اللغة رأينا معنى أحسن : فعل الحسن ضد اساء والحسنة هي الفعل الحسن .

والافعال الحسنة تشمل كل خير وكل معاملة ترقى وترفع من شأن الانسانية ، وتهذب نفسية المرء وتقربه من خالقه ، وعلى هذا المعنى جاءت وصايا القرآن في الدعوة الى الاحسان والترغيب في اتيانه .

وان تعاليم القرآن في الاحسان تشهد بانه كتاب روعي يرتقي به الى اعظم مراقي السمو ويعلو به عن أي مذهب اخلاقي اوديني ، فقد عالج الاحسان بما يؤثر في الشخصية الانسانية من ناحية دوافع العمل ، ومن وصف صفات المحسنين ، وعين فئات من الناس احق بالاحسان من غيرهم ، ودعا الى الاحسان بما يحقق في الانسانية المثل العليا التي لا يزال يدعو اليها الفلاسفة ودعاة الاصلاح في العالم .

منزلة الاحسان في الاسلام

بين القرآن ان الاحسان يجب ان يكون الواجب الطبيعي للانسان وان الله كما احسن اليه بنعمه ، عليه أن يحسن بهذه النعم الى الخلق . قال الله تعالى (واحسن كما احسن الله اليك) القصص : ٧٧ .

وبين القرآن ان الاحسان تعود منفعته الى المحسن . قال الله تعالى (ان احسنتم احسنتم لانفسكم وإن أسأتم فلها) الاسراء : ٧ . وهذا حق فان المحسنين يشعرون بطمأنينة لا يشعر بها غيرهم ، ويكفي ما يقابلون به من الذين يحسنون اليهم من الود والمحبة والتقدير بما يدخل السعادة الى نفوس المحسنين بينما الاساءة تجعل صاحبها منبوذاً محترقاً لا ينأى له عيش ولا يقر له قرار ، لهذا أمر الله بالاحسان والحق عليه بقوله (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي

القريب وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى (النحل : ٩٠ . كما أن القرآن رفع منزلة الاحسان وقرنه بالاخلاص لله ووصفها بانها ارفع صفة يتحلى بها الانسان المتدين . قال الله تعالى (ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن) النساء : ١٢٥ . والمعنى : انه لا أحد احسن ديناً (ممن اسلم وجهه) أي اخلص نفسه لله وجعلها سائلة له لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه (وهو محسن) أي عامل للحسنات تارك للسيئات .

ويقول سبحانه (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) لقمان : ٢٢ . أي فقد تعلق بأوثق الاسباب التي توصل الى رضوان الله .

ورغب الله في الاتيان بالحسنات بقوله (من جاء بالحسنة فله عشر امثالها) الانعام : ١٦٠ . ووعد الله المحسن بحسن المتوبة والامان يوم القيامة (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) النمل : ٨٩ .

من صفات المحسنين

فمن صفات المحسنين في القرآن قيامهم اكثر الليل للصلاة وانهم في اواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم وكذلك يجعلون في مالهم نصيباً للسائل والمحروم بما يسد رمقه ويرقي حاله . قال الله تعالى (ان المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالا سحرهم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) الذاريات : ١٥ - ١٩ .

والجهاد في سبيل الله سواء بالنفس أو بالمال هو من الاحسان . قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) العنكبوت : ٦٩ . واتباع ما جاء به الرسول محمد عليه السلام من الدين هو من الاحسان قال الله تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون . لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) الزمر : ٣٣ ، ٣٤ . ومعنى (والذي جاء بالصدق) وهو الرسول عليه السلام (وصدق به) هم اتباعه الذين صدقوا برسالاته وساروا على طريقه .

والعفو من الاحسان . قال الله تعالى (فاعف عنهم واصفح إن الله يحب
المحسنين) المائدة : ١٣ .

والصبر هو أيضاً من الاحسان قال الله تعالى (واصبر فإن الله لا يضيع
اجر المحسنين) هود : ١١٥ .

انظر كيف رغب القرآن بالاحسان في تذييل الآيات التي ذكرناها
ووعد المحسنين بأرفع ما تصبو اليه النفس وذلك لان المحسنين ذوو احساس
موهف وضمير حي فربما يصيبهم الجحود من قومهم او يحور عليهم الزمان
هنا تسرع وصايا القرآن لمواساتهم وتخفيف ما بهم وتبشرهم برضوان الله ،
فتمد المحسنين بقوة وروحية تثبت اقدامهم وتطمئن قلوبهم .

كما أن الاحسان يحتاج الى تضحية وبجاهلته للنفس من المحسن وعدم
الانقياد للنفس الامارة بالسوء ، والخلولة بينها وبين الانقياد لأهوائها
ورغباتها الضارة ، لهذا رغب الله في الاحسان بآيات فضله وثوابه للتأثير
على النفس الانسانية ، والتسلط عليها لاستئصال الاحسان وجعله من
طبيعتها .

الذين آثرهم القرآن بالاحسان

جعل القرآن فئات من الناس احق بالاحسان من غيرهم وأولهم الوالدان
لما لهم من الفضل العظيم على الانسان ، ولم يكتف القرآن بالدعوة الى
الاحسان اليها فقد حدد كيفية معاملتها بما يكشف لنا اروع مثل من السوء
الخلقي قال الله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ،
اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل
لهما قولا كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما
ربياني صغيراً) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

اول ما يطالعنا من هذا النص القرآني ان الله قرن الاحسان لهما بعبادته ،
ثم فصل ما يجب من الاحسان اليها وخصوصاً عندما يصل الوالدان أو احدهما
الى حال الضعف او العجز في آخر العمر وأمر بان يتبع معها اموراً خمسة هي
غاية ما يصدر عن الانسان من المعاملة الحسنة .

أولاً : ألا يتأفف من شيء يراه من احدهما أو منها .

ثانياً : الا ينقص عليها بكلام يزجرهما به
 ثالثاً : ان يقول لهما قولاً حسناً طيباً مقروناً بالاحترام والتعظيم
 رابعاً : ان يتواضع لهما تواضعاً مقروناً بالرحمة ، وقد مثل كيفية هذا
 التواضع بحال الطائر اذا اراد ضم فرخه اليه اترييته فانه يخفض له جناحيه بخنوء .
 خامساً : ان يدعو الله ان يرحمهما برحمته الباقية والدعاء يدل على اخلاص
 وعرفان بالجميل للمدعو له .

وفي موضع آخر يخصص القرآن البعض بالاحسان لما بينهم وبين المحسن من
 رابطة القربى والجوار ، او لفئات من الناس فقدوا المعين والنصير فكان
 الواجب المبادرة الى الاحسان لهم من ذلك قوله تعالى (واعبدوا الله ولا
 تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار
 ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم)
 النساء : ٣٦ .

جمعت هذه الآية من انواع الخير ما لو عمل به الناس لساد الخير فيهم ، من
 ذلك : عبادة الله وحده والاحسان الى (الوالدين) و (ذي القربى) من
 اخ وعم وخال واولاد هؤلاء وسائر الاقربين وبذلك تصالح الامة لانها تتكون
 من مجموعة امر . ثم امر الله بالاحسان الى (اليتامى) فهم قد فقدوا المعين
 وهو الاب وقلما تستطيع الام ان تقوم بتربيتهم واعالتهم واذا اهل اليتيم كان
 وجوده جناية على الامة لجهله وفساد اخلاقه . وكذلك امر الله بالاحسان
 الى (الجار ذي القربى) اي القريب الجوار وكذلك (الجار الجنب) اي
 البعيد الجوار وبذلك تتوثق المحبة بين اهل الحي الواحد فيتعاونون على الخير .
 ثم اوصى الله بالاحسان الى (الصاحب بالجنب) وهو الرفيق في سفر او
 مدرسة او صناعة او عمل ، والاحسان اليه يؤدي الى صداقة متينة تنتج ابرك
 الثمرات . ثم اوصى الله بالاحسان الى (ابن السبيل) وهو المسافر الذي فقد
 ماله في الطريق قبل ان يبلغ بلده وكذلك (وما ملكت ايمانكم) اي الى
 ما في ملك الانسان من الرقيق ويشمل هذا تحررهم وعتقهم وحسن معاملتهم
 في الخدمة بالا يكفوا مالا يطيقون ولا يؤذون بقول ولا فعل .
 كل هذا يوضح لنا ان الاحسان الذي دعا اليه القرآن هو غاية ما

نصبر اليه الانسانية لاقرار السلام فيها ، ولنشر المحبة بين الافراد .
اي خير عميم يغير الناس اذا سيطرت فيهم هذه الصفة ، انهم احرى بان
يحققوا المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة والتي طبقها الاسلام في اول عهده .

التقوى

التقوى ^١ هي فضيلة اراد بها القرآن احكام ما بين الانسان والخلق واحكام
ما بين الانسان وخالقه ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها في اكثر آيات القرآن
الاخلاقية والاجتماعية والمراد بها ان يتقي الانسان ما يغضب ربه وما فيه ضرر
لنفسه او ضرار لغيره .

فالتقوى في اصل معناها جعل النفس في وقاية ، ولا تجعل النفس في وقاية
الا بالنسبة لما يخاف ، فخوف الله اصلها ، والخوف يستدعي العلم بالخوف ، ومن
هنا كان الذي يعلم الله هو الذي يخشاه وكان الذي يخشاه هو الذي يتقيه .
فالمتقون هم الذين يقون انفسهم عذاب الله وسيخطه في الدنيا والآخرة ،
وذلك بالوقوف عند حدوده وامتنال اوامره واجتناب نواهيه وهو لا يأمر
الا بما فيه خير للانسانية ولا ينهى الا عما يضرها .
عني القرآن بالتقوى عناية كبرى ، واكثر من الامر وتوجيه النفوس اليه
وكانت له في ذلك اساليب مختلفة .

امر بتقوى الله (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم
مسلمون) آل عمران : ١٠٢ . وذلك يكون بالتوجه الى الله وحده في العبادة
واجتناب ما ياباه من الشرك ودعوى النبوة له والخروج عن شرائعه واحكامه
العادلة .

ووصف القرآن التقوى بانها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤدي سوء
اكان متصلا بها ام بجميع الخلق ، والابتعاد عن كل ما يحول بين الانسان
والغايات النبيلة التي بها كماله في جسمه وروحه ، ولهذا وصف الله المتقين بانهم
من تحلوا بالفضائل الانسانية الحقة . قال الله تعالى (ليس البر ان تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب

١ من مراجع هذه الفصل بحث كتبه الشيخ محمود شانتوت في مجلة الازهر

والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا
والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم
المتقون (. البقرة : ١٧٧ .

فالمتصفون بهذه الصفات السامية هم الذين وصفهم الله بصفة التقوى .
ولا تقتصر التقوى في القرآن على هذه الصفات بل يضاف إليها الصفات التالية
فالعديل من التقوى قال الله تعالى (اعدلوا هو اقرب للتقوى) المائدة : ٨
والعفو من التقوى أيضاً قال الله تعالى (وان تعفوا اقرب للتقوى) البقرة : ٢٣٧
والاستقامة مع الاعداء هي من التقوى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
ان الله يحب المتقين) التوبة : ٧

ثمرات التقوى

ذكر القرآن ان التقوى تجعل الانسان في امن من الخوف والحزن يوم
القيامة والنصر والتوفيق في هذه الحياة (الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا
هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشري في الحياة الدنيا وفي
الآخرة) يونس : ٦٢ - ٦٤ .

ومن ثمراتها الثواب العظيم والنعيم في الآخرة (للذين اتقوا عند ربهم جنات
تجري من تحتها الانهار) آل عمران : ١٥ .

ومن ثمراتها ايضاً نيل رحمة الله قال تعالى (ورحمني وسعت كل شيء
فسأكتبها للذين يتقون ويؤنون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الاعراف : ١٥٦
ويذكرها القرآن في معرض تفريج الازمات وحل المشكلات (ومن يتق
الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) الطلاق : ٢ ، ٣ . ويقول
سبحانه (ومن يتق الله يجعل له من امره يسراً) الطلاق : ٤ .
وفي معرض النصر والتأييد (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده
والعاقبة للمتقين) الاعراف : ١٢٨ .

وفي معرض تنوير البصيرة (يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم
فرقاناً) الانفال : ٢٩ . فالفرقان ما يفرق به بين شيئين ملتبسين او اشياء
مشتبهة ، فثمرة التقوى هي نور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل واختيار

طريق النجاة .

هذه هي التقوى ، وصفات المتقين وثمرتها في الافراد والجماعات ، ولهذا ليس يستغرب ان يوليها القرآن عناية فائقة ويدعو اليها كما جاء في هذه الآية البليغة والتي تدل على عمق الروحية الاسلامية (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) البقرة : ١٩٧ .

ولو ان العالم عرف التقوى وقام بواجبها لانطفأت ثورة الشر وساد السلام في ربوعه .

الصَّبر

الصبر من الفضائل الخلقية ، وهو النفحة الروحية التي يعتصم بها المؤمن فتخفف من بأسه وتدخل الى قلبه السكينة والاطمئنان الى الغد ، وتكون بلسماً لجراحاته التي يتألم منها . ، فالصابر يتلقى المكاره بالقبول ويراها من عند الله وعند التأمل نرى العناية الالهية تسوق اليها الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذي يضجر ويجزن ويكتئب ، اما العاقل فيلتمس وجوه الخير فيما يبتيه الله به من الشدائد « ١ » .

ولولا الصبر لانهارت نفس الانسان من البلايا التي تنزل عليه ، ولأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة واصبح في حالة يكفر فيها بالقيم الاخلاقية فضلاً عن انه يصبح عنصر شر لا نفع منه وعضواً فاسداً يجب بتره .

ونستطيع ان نصف الصبر بحق الفاصل بين الحياة الروحية والمادية . اعتنى القرآن بالصبر ومدحه ورفع منزلته واثنى على المتحلين به ثناء لا مزيد عليه وذكره حوالي سبعين مرة ولم تذكر فضيلة اخرى بهذا المقدار وهذا يدل على عظم امره لانه اساس كثير من الفضائل بل هو امها لانه يربي ملكات الخير في النفس فما من فضيلة الا وهي محتاجة اليه .

فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد

والعفاف هو الصبر على الشهوات

والحلم هو الصبر على المثيرات

والكتمان هو الصبر على اذاعة الاسرار .

لهذا كله أحب الله الصابرين واعلن في القرآن انهم ينالون مزيداً من الفضل والرحمة في الدنيا والآخرة فقال سبحانه (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) الزمر : ١٠ . ويقول سبحانه ايضاً (ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل : ٦٩ . ويقول سبحانه في موضع آخر (وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) الانسان : ١٢ . والصابرون زيادة على هذا مؤيدون بنعونة الله . قال الله تعالى (واصبروا ان الله مع الصابرين) ويخولهم الله امامة الناس الى ما يحبه ويرضاه وهذا ما حكاه الله عن بني اسرائيل (وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) السجدة : ٢٤ . ويخبر الله بان الصبر من الحصال العظيمة التي يجب أن يتصف بها المؤمنون (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور) آل عمران : ١٨٦ . اي أن الصبر والتقوى من صواب التدبير الذي ينبغي أن يعزمه كل احد . ومدح الله نبيه أيوب لاتصافه بالصبر بقوله (انا وجدناه صابراً نعم العبد) ص : ٤٤ .

والصبر الذي دعا اليه القرآن هو ملكة الثبات والاحتمال التي تهون على صاحبها ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق ، وازالة الباطل ، او احتمال اذى الناس وما يلاقيه من مصائب كالفقر والمرض وفقد عزيز .

دعا القرآن الى الصبر في موطن الجهاد في سبيل الله فقال سبحانه (قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) البقرة : ٢٤٩ .

ودعا اليه في موطن تحمل اذى الناس (وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) النحل : ١٢٦ .

ودعا اليه في موطن المثابرة على العبادة (فاعبدوه واصطبروا لعبادته) مريم : ٦٥ (وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها) طه : ١٣٢ .

ودعا اليه في موطن البلاء الذي يتمتعن الله به عباده (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم) محمد : ٣١ .

وعدد الله أنواع البلاء في الآية التالية : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والشمرات وبشر الصابرين .

الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) فهنا يذكر الله بأن الصابرين يفوزون بثلاث خصال لا تتوفر لغيرهم وهي (اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، واولئك هم المهتدون) فصلوات الله عليهم : ان يثني عليهم ويزيدهم تشريفاً وتكريماً (ورحمة) هي : ما يكون لهم في نفس المصيبة من لطف الله واحسانه ، فيكون لهم منه حسن العزاء والرضا والتسليم بقضاء الله (واولئك هم المهتدون) اي المهتدون إلى الحق والصواب فيما ينبغي عمله في أوقات الشدائد والمصائب فلا يستجود الجزع على نفوسهم ولا يذهب البلاء بالامل من قلوبهم .

هذا هو الصبر الذي ذكره القرآن ، فيه العزاء للقلوب المكلومة ، وفيه الشفاء للنفس الحزينة ، والنجاح في هذه الحياة ، انه من الصفات الروحية التي تجلب كثيراً من الخير للمعدين الذين يلتزمون الاخلاص بما هم فيه ولا يجدون العلاج .

العَفْوُ

العفو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الانسان لانها لا تصدر الا من نفس كبيرة راجعة العقل صبرت على اعتداء الغير واذاه .

ان اعتداء الغير علينا لا يكون الا من نفس مريضة حجب الشر صوابها فما احرى بنا أن نغفر لها .

اننا كثيراً ما نزل فنفتر الى العفو والغفران وان لم نغفر لمن اساء الينا فلا يغفر لنا وان اردنا الانتقام من المعتدي فلننتقم بالاحسان اليه لان مقابلة الاساءة بالاحسان تنزع من المعتدي البغضاء وتتركه مندهشاً فيرتد - في الكثير - عن غيه وتقلب بغضاؤه الى مودة .

ولهذا مدح الله العفو في كثير من المواضع في القرآن (وان تغفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم) التغابن : ١٤ . ووصف المؤمنين الصادقين بقوله (ويدروون بالحسنة السيئة) الرعد : ٢٢ . ودعا الله الى مقابلة شرور الناس بالاحسان اليهم لان ذلك داعية الى نزع العداوة من صدورهم واحلال المودة مكانها (ولا نستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن

فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) فصلت : ٣٤ .

ولما كانت بعض النفوس جبلت على الاعتداء فقد وضع الاسلام علاجاً لها لمنعها من التمادي في غيها وهو مقابلتها بالمثل بدون اسراف أو ظلم ولكن بالرغم من هذا لم يغفل من ترجيح العفو . قال الله تعالى (وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خسير للصابرين) النحل : ١٢٦ . وقال سبحانه (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين . ومن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم . ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) الشورى : ٤٠ - ٤٣ .

هذا هو مذهب الاسلام بالعفو ، اما المسيحية فهي تزين العفو مطلقاً جاء في الاصحاح الخامس من متى : ٣٨ سمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن ، ٣٩ واما انا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضاً ، ٤٠ ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً . ٤٣ سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك ، ٤٤ واما انا فأقول لكم احبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم احسنوا الى مبغضيك وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم .

وقد سئل صديقنا العلامة الشيخ محمد الشال عن العفو في القرآن من قبل احد الباحثين الاميركيين : الا ترى ان المسيحية اسمع من الاسلام لانها تقول : ان من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر والاسلام يدعو الى القصاص اولا والى العفو ثانياً . فأجابه الاستاذ بقوله : « ان ما دعا اليه الاسلام هو ما تدعو اليه الفطرة السليمة بل لا اغالي اذا قلت ان الاسلام اسمع من المسيحية في هذا ، لانه اذا اعطى حق القصاص للمعتدى عليه فقد اراحه نفسياً حيث قد جعل له سلطاناً يؤيده الحق ، ثم دعاه وهو صاحب السلطان في القصاص الى العفو وهو لا يكون الا معه .

ولا شك أن الانسان اذا عفا وهو متمكن من القصاص كان عفوه فيه رحمة وعزة اما اذا دعونه الى العفو من أول الامر ، ولم نجعل له حقاً في القصاص كما دعت اليه المسيحية ، فان استجاب - وقل ما يستجيب - فعل ذلك وهو

برم وساخط لانه عفو الضعف لا عفو القدرة والعزة كما دعا الاسلام .
والعفو كما دعا اليه الاسلام قد يؤدي في كثير من الاحيان الى صداقة
قوية بين المتخاصمين لان المعتدي يؤمله هذا العفو من قادر على القصاص فيعمل
على ارضائه ويحوى اثر الاعتداء من نفسه ، اما العفو كما دعت اليه المسيحية فانه
عفو العاجز عن القصاص كما ذكرنا وهذا العفو لا يشعر صاحبه بالرضا لانه
صادر عن عجز ، ولا يشعر المعفو عنه بالمنة لانه لا سلطان لمن عفا على القصاص
حتى يكون في عمله رحمة وفضل .

الصدق وصورة

ليست هناك صفة تكفل استقرار المجتمع وتضمن الثقة بين الافراد مثل
الصدق ، لذلك اعتبر اسماً من اسس الفضائل التي تبنى عليها المجتمعات وجعل
عنواناً لرقعي الامم .

وما فقدت هذه الصفة الا حل محلها عدم الثقة وفقدان التعاون ، فالصدق
من ضرورات المجتمع الذي ينبغي ان ينال حظاً عظيماً من العناية في الاسرة
والمدونة لانه يحصل منه الخير الكثير ، وبه ترد الحقوق ، وبه يحصل الناس
على الثقة فيما بينهم ، لهذا دعا الله سبحانه للتخلق به فقال مخاطباً المؤمنين :
(يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) التوبة : ١١٩ . وقال
سبحانه (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) الاحزاب : ٧٠ .
ويقول الرسول ﷺ في الدعوة الى الصدق : (عليكم بالصدق فان الصدق
يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق
حتى يكتب عند الله صديقاً . واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور
وان الفجور يهدي الى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى
يكتب عند الله كذاباً ٢) .

الامانة

ومن أنواع الصدق الامانة التي هي من أرفع الصفات في الانسان وهي

- ١ القول السديد : القول الصدق الذي يراد به الوصول الى الحق
- ٢ رواه مسلم

من اقوى الدعائم التي يقوم عليها أي مجتمع سليم وبحصل منها الخير ، لهذا نرى الاسلام يعتبرها من صفات المؤمنين ، قال الله تعالى (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راهون) المؤمنون : ٨

ومن انواع الصديق ايضاً صديق الوعد الذي هو من الصفات الحميدة التي ينهل بها الانسان وهي سبب جوهرى من اسباب النجاح في هذه الحياة وهي تعتبر اليوم من ابرز صفات القوم المتمدنين التي يحرصون عليها اسد الحرص والقرآن دعا الى هذه الصفة فقال الله تعالى يمدح نبيه اسماعيل بقوله (واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبياً) مريم : ٥٤

فالصدق من ضروريات المجتمع وهو كما نرى لم يغفله القرآن فدعا اليه كما دعا الى كل فضيلة ترقى المجموعة البشرية وتسمو بها عن كل خلل يصيب كيانها .

الأصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ

ليس الخير كله في الاسلام بان يكون المسلم مستقيماً في حياته مجتنباً الاضرار بالناس لا يمه الا صلاح نفسه ، بل الخير في الاسلام ان ينتقل سعي المرء ايضاً الى الاصلاح بين الناس .

فالاصلاح بين الناس هو الذي يجب أن يكون من أهداف المؤمن ، لأن العداوة بين شخصين ستتطور حتماً الى العداوة بين اصدقاء كل من المتعادين وكثيراً ما تقسم الامة الى جماعات لا هم لها الا النكاية بغيرها والاضرار بها ، وكثيراً ما يتطور الخصام الى المشاجرة وربما الى سفك الدماء .

فالاصلاح بين الناس صفة من ارفع الحُصَال في النفس الانسانية التي لا تصدر الا من قلوب نبيلة أحبت الغير ، وسعت الى الدفاع عنه ، وهل مثل الاصلاح بين الناس يؤتي الخير والنفع للمجتمع ، ويجعل الناس وحدة تسعى لبعضها البعض؟. لهذا أمر الله به بعد أن وصف الرباط بين المؤمنين وهو الأخوة الدينية بقوله (انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين اخويكم) الحجرات : ١٠

ودعا الى الاصلاح بين طوائف المؤمنين (وان طائفتان من المؤمنين

اقتتلوا فاصلحوا بينهما) الحجرات : ٩
ودعا الى الاصلاح بين الزوجين (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من
اهله وحكماً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما) النساء : ٣٥
وبيّن الله ثواب الاصلاح بين الناس بهذه الآية البليغة (لا خير في كثير
من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل
ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجراً عظيماً) النساء : ١١٤ . والمعنى :
ان كثيراً من التناجي بين الناس لا خير فيه لما يحصل به كثير من الاثم بما
يغتاب به الغير والطمع فيه او بما يحاك به من المؤامرات ضد افراد معينين
يسبقونهم في السلطة والنفوذ بقصد الاستعلاء عليهم ؛ ثم حدد القرآن السبيل
الذي يجب ان يسلكه الناس ، في تناجيتهم وهو تأمين حاجات الطبقة الفقيرة
والامر بالخير والاحسان والاصلاح بين الناس ، ومن يفعل هذه الاعمال لوجه
الله وطلب مرضاته فان الله سيؤتيه الثواب العظيم والاجر الجزيل .
هذا النص القرآني يحمل أروع معاني السمو الخلقي الذي تفتقر اليه الجماعة
للحصول على الاستقرار الذي تنشده .
وان الانسانية اليوم لم تكثر فيها البلبلة والتنازع الا باغفالها العمل بهذه
التعاليم السامية .

التعاون

من ابرز مميزات الحياة الروحية التعاون على الخير للنهوض بالحياة الاجتماعية
الى المستوى الراقى الرفيع الذي يؤدي الى رفاهية المجموع والتخفيف عن
آلام الغير .
وقد ادركت المدنية الحديثة ميزة التعاون فانتشرت فيها الجمعيات التعاونية
حتى لا يكاد تخلو منها مدينة ، وهي تعطينا الدليل القاطع على فوائد التعاون
وضرورته لاسعاد الفرد والمجموع .
ونقد كان لمبدأ التعاون حظه من العناية في القرآن الكريم فدعا اليه بهذه
الآية التي تشتمل على اروع المعاني الروحية (وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا
تعاونوا على الاثم والعدوان) المائدة : ٢

امر القرآن بالتعاون على البر والتقوى ، والبر في اللغة يأتي بمعنى العطية والطاعة والصلاح والصدق ، فالبر كما يتبين لنا كلمة جامعة لكثير من الفضائل والتقوى . هي مخافة الله والعمل بطاعته . فالتعاون على البر والتقوى يتناول المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير سواء ان يكون من وسائل السعادة في الآخرة او ما ينهض بحال الامة نحو بناء المدارس والمستشفيات والملاجيء وغير ذلك من اعمال الخير .

ثم يأتي الشطر الثاني من الآية وهو النهي عن الاثم والعدوان . فالاثم في اللغة هو عمل ما لا يحل وهذا يشمل كل الرذائل الروحية ، والعدوان هو الظلم الصراح . ويدخل في الاثم والعدوان كل عمل يعود على النفس او المجتمع بالفساد . فالمتعمن في الآية القرآنية يرى انها لم تكتف بالدعوة الى التعاون وتخصيصه بالبر والتقوى بل انتقلت الى التحذير من التعاون على معصية الله والاضرار بالغير . فمطلق التعاون لا يدعو اليه الاسلام الا اذا كان في حدود اسعاد النفس والغير والذي اذا اتجهت اليه الجماعات حصلت على ما تطمح اليه من استقرار وسلام .

الايثار

ان من الصفات الكريمة التي يتحلى بها الانسان : الايثار الذي قدم اعظم الخير للانسانية فهو الذي كان دائماً شعار النفوس الكبيرة الساعية لخدمة الانسانية ، وبمعكس هذا الآثرة التي قال في وصفها سننهلير في شرح مذهب افلاطون : « ان اكبر شر في الانسان هو عيب يرافقنا جميعاً منذ الولادة ، وكل الناس يسامح نفسه فيه ، ولهذا لا تجد من يبحث عن الخلاص منه ، انهم يسمونه الحب الذاتي ، ولا شك في ان لهذا الحب الذاتي بعض المحل من الحق ، بل من الضرورة ، لأن الطبيعة هي التي ركبته فينا ولكن ذلك لا يمنع انه متى افراط فيه صار العلة العادية لجميع خطايانا . قد

بتعامي الانسان بغاية السهولة عما يجب ، فقد يسيء الحكم على ما هو حق
وطيب وجميل متى ظن واجباً عليه ان يفضل دائماً منافعه على منافع الحق فاي
نسان شاء ان يكون رجلاً عظيماً لا ينبغي له ان يحب ذاته ولا ما هو له ،
ولا ينبغي ان يحب الا الخير سواء في نفسه او في غيره والا وقع من سلوكه
في الف خطيئة لا يمكن اجتنابها^١

فالايثار له اكبر الاثر في توثيق المحبة بين افراد المجتمع ، ويجعلهم متعاطفين
بذودون عن بعضهم البعض ، بعكس الاثرة التي تجعل صاحبها مذموماً
مكروهاً منبوذاً من المجتمع لأنه لا يرغب ان يؤدي حقه فيه .

هذا دعا القرآن الى الايثار ومدح قوماً تخلقوا به . قال الله تعالى
(ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك
هم المفلحون) الحشر : ٩ . جاء في اسباب نزول هذه الآية ما رواه البخاري
ومسلم عن ابي هريرة (اتى رجل رسول الله فقال : اصابني الجهد ، فارسل
الرسول الى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً فقال ﷺ : الا رجل يضيف هذا
لرجل الليلة رحمه الله ، فقال ابو طلحة : انا يا رسول الله ، فذهب الى أهله ،
فقال لامراته : اكرمي ضيف رسول الله ، قالت والله ما عندي الا قوت الصبية
قال : اذا اراد الصبية العشاء فنوميهن وتعالى فاطقأي السراج ونطوي الليلة لضيف
رسول الله ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ، فقال ﷺ : لقد عجب الله
الليلة من فلان وفلانة وانزل فيهما (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة)
هذه الحادثة تدل على عمق التربية الروحية التي غرسها الاسلام في اتباعه وفيها
قبس للذين ينشدون السمو الروحي لخير المجتمع ، ولا عجب ان مدح القرآن
الايثار ودعا اليه كما دعا الى كل الفضائل الانسانية التي تسعد الناس في دنياهم .

الكلام الحسن

اذا تتبعنا المشاكل الخطيرة والتافهة التي تنشأ في محيط الاسرة والمجتمع ،

١ مقدمة كتاب الاخلاق لارسطو ترجمة الاستاذ لطفى السيد ص ٦٦ جزء ١ .

أريت مصدرها في كثير من الأحيان الكلام السيء الذي يصدر عن المرء بدون روية ولا تفكير فيقع عند الغير موقع الاستهجان والكره لصاحبه ، وكثيراً ما يولد منازعات كان الانسان في غنى عنها .

فالكلام الحسن مصدر عظيم للنجاح وللحصول على مجتمع راق ، لهذا عني به المربون والمصلحون والفوا في ذلك كتباً عدة أرشدوا فيها كيف تكون مخاطبة الانسان مع الغير ومراعاة اللهجة اللينة ، فاختيار الكلام الحسن مع مراعاة اللهجة التي يصدر معها الكلام هو الذي يجعل الانسان محبوباً في بيئته وسبباً للتروقي في مجال عمله وللحصول على اصدقاء كثيرين يقدمون له كثيراً من المعونة في مجال هذه الحياة ، والقرآن لم يغفل هذه الناحية من العلاج فأرشد المؤمنين بأن يختاروا الكلام الحسن . قال الله تعالى (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم) الاسراء : ٥٣ . يأمر الله المؤمنين في هذه الآية بأن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الحسن فان لم يفعلوا ذلك واختاروا الكلام السيء فان الشيطان يفسد بينهم فيقع الشر والمحاربة .

ويقول الله تعالى في موضع آخر (وقولوا للناس حسناً) البقرة : ٨٣ . ويأمر الله بغض الصوت ويشبه الصوت المرتفع كنهيق الحمير للتنفير منه (واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير) لقمان : ١٩ .

ويدعو الله سبحانه الى انبشاشة في معاملة الناس وعدم الغلظة معهم فيقول في وصف رسوله محمد عليه السلام (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك) آل عمران : ١٥٩ . والمعنى : أي انه بسبب الرحمة التي انزلها الله عليك يا محمد فقد عاملت قومك بالرفق ولو كنت فظاً أي خشناً شرس الاخلاق في المعاشرة في القول والعمل لنتفروا عنك ونفروا منك . وهذا ارشاد للمؤمنين كيف ان المعاملة والقول الحسن من الضروريات لتأليف القلوب وخصوصاً عند قادة الامم لتجتمع القلوب حولهم فيكونوا مسموعي الكلمة في قومهم .

هذا هو الادب القرآني في معاشرة الناس ولاقرار المودة فيما بينهم ، وهو فيما نرى لا غنى عنه لكل جماعة تبتغي السلام والسعادة في هذه الحياة .

مُعَاشِرَةُ الْأَخْيَارِ

بما يجعل ويحسن خلق الانسان صفة الاخيار ، فالانسان مولع بالتقليد فكما يقلد الانسان من خوله في أزيائهم يقلدهم في اعمالهم ويتخلق بأخلاقهم ؛ قال حكيم : « نبثني عن تصاحب أنبئك من انت » .

إن مصاحبة الاخيار تغرس في النفس الاخلاق الطيبة وتدفعها الى معالي الأمور ، أما مصاحبة الاشرار فانها تقود الى الاستهانة بالاخلاق ، وتجري على اقتراف الآثام ، وتباعد بين الانسان وبين القيام بالاعمال العظيمة .

فالقرين الصالح يعتبر بحق أفضل نعم هذه الحياة ، فهو الملاذ في الملمات ، وهو المرشد الأمين لطريق الحق ولللنجاح في هذه الحياة ، فكثير من النابغين وعظماء الناس والمتفوقين في هذه الحياة يعززون سبب نجاحهم الى انهم وفقوا في اختيار قرين صالح ساروا على ارشاده واقتبسوا من نصحه .

والقرآن الكريم دعا الى اختيار الاصحاب الصالحين الذين من صفاتهم طاعة الله والتجرد من الآثام والمعاصي ، قال تعالى (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً) الكهف : ٢٨ .

أمر الله سبحانه رسوله وكل مؤمن في هذه الآية بمصاحبة الاخيار الذين ساروا على هدى الله ليقفدي بهم ويقتبس من فضائلهم ولا يزهد في صحبتهم فيبتلع الى من عداهم لأجل الحصول على مظاهر الحياة الكاذبة ، ثم نهى الله عن مصاحبة الاشرار الغافلين عن ذكر الله الذين اتبعوا هواهم وجاوزوا حدود الحق في اعمالهم .

ويقول تعالى ايضاً في هذا المعنى (فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا) النجم : ٢٩ . وبين الله في آية اخرى انه ليس من شأن المؤمن ان يتودد الى من يغضب ربه ولو كانت اقرب الناس اليه وكل الافعال السيئة هي التي تغضب الله (لا تجدد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر

يوادوث من حاد^١ الله ورسوله ولو كانوا اباؤهم او ابناءهم او اخوانهم او
عشيرتهم (المجادلة : ٢٢ .

وصور لنا رسول الله ﷺ المجلس الصالح والمجلس السوء خير تصوير في
قوله : (مثل المجلس الصالح ومجلس السوء كحامل المسك ونافع الكير فحامل
المسك اما ان يجذيك^٢ واما ان تبتاع منه واما ان تجد منه ربحاً طيبة . ونافع
الكير اما ان يحرق ثوبك^٣ ، واما ان تجد منه ربحاً خبيثة) ٣ .

هذه هي تعاليم الاسلام في اختيار الصالح ليقودنا دائماً نحو الخير ويجنبنا
مواطن الضلال .

الاستئذان والتحية

ان من اخص صفات القوم المتعدين ان يكون في علاقه بعضهم البعض
آداب عالية وعادات حسنة يسرون عليها .

والاسلام الذي استوفى جميع مقومات الاجساد والارواح لم يغفل الآداب
التي يجب ان يسير عليها اتباعه فوفها حقها من الرعاية ، والتي تنم عن كمال في
الذوق وسمو في الشعور .

ومن الآداب التي سنها : الاستئذان والتحية ، وهما اليوم من الحلال التي تعد من
مميزات اهل المدينة فتراهم يحرصون عليها ، ولا يتساهلون فيها ، والاسلام قد
سنها لاهله منذ اجيال كثيرة جاء في القرآن (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا
بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم لعلكم
تذكرون . فان لم تجدوا فيها احداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل
لكم ارجعوا فارجعوا هر ازكى لكم والله بما تعملون عليم) النور : ٢٨، ٢٧
امر الله المؤمنين بأن يستأنسوا اي يفكروا جيداً قبل القيام بأي
زيارة لاحد حتى تأتي تلك الزيارة بشمارها الياعة وتلقى كل ترحاب
ضمني من المزار ، من ذلك مراعاة وقت الزيارة فيما اذا كانت مناسبة
وهل من يرغبون في زيارته يستريح لتلك الزيارة ويرحب بها
ام ان هناك من الاسباب ما يجعل تلك الزيارة غير مرغوب فيها .

١ حاده : عاداه وغازبه ٢ يعطيك

٣ رواه مسلم

وبعد هذا امر الله المؤمنين بالسلام على من يدخلون عليهم وبرشد القرآن الآباء الى تعليم ابنائهم الاستئذان في الدخول عليهم في ثلاثة اوقات هي مظان الراحة وعدم التقيد بلباقة في لبس وجلس ، ومظان ان ترفع الكلفة فيها بين الرجل وزوجه حتى لا يطلع الخفل على ما ينبغي اخفاؤه عنه ، والاقوات الثلاثة هي ما نصت عليه هذه الآية (يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم ^١ والذين لم يبلغوا الحلم ^٢ منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ^٣) النور : ٥٨ .

رد التحية

واذا شرع الاسلام الاستئذان والتحية نراه من جهة اخرى يحض على رد التحية ، لانه ليس هناك صفة مستوزلة تثير العداوة بين الافراد مثل عدم رد التحية ، والتي تدل على الاحتقار والتكبر من الحيا ولا يكتفي الاسلام من اتباع برد التحية بل يأمر بردها بافضل منها ، وهذا نهاية في السمو الادبي الذي يأبه به الاسلام متبعيه قال الله تعالى (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها او ردوها النساء : ٨٦ . هذا هو ادب القرآن الذي لم يغفل اية ناحية ترقى الامة ونهذه من اخلاقها وتسمو بعاداتها الى ما فيه سعادتها .

مما يتبين لنا ان الفضائل التي امر بها القرآن هي الفضائل الانسانية الحقة التي اجمع الفلاسفة ودعاة الاصلاح في العالم على المناداة بها والتي لو عمل الناس لحصولها اعظم الخير لادامهم المضطرب .

الرَّذَائِلُ

الانقياد لهوى النفس

تحتاج الانسان في معترك هذه الحياة تيارات شتى من الرغبات والشهوات

١ ملكت ايمانكم : يشمل العبيد والاماء ٢ لم يبلغوا الحلم : اي دون سن البلوغ

٣ توضعون : تخلصون ٤ العورات : الاوقات التي يختل فيها التستر عادة .

فيها مصلحة خاصة ولو كان فيها اضرار بالغير ، ولا يهـ ان تكون اعماله سيئة ما دامت تشبع رغباته واهواءه .

وان اهم اهداف الحياة الروحية هي ان تقف عقبة امام اهواء الانسان وتحول بينه وبين الانقياد لها ، اذ أن هوى النفس يشوش نظام ميول الانسان الطبيعي ، وان للميول في الحالة الطبيعية نظاماً خاصاً ، وترتيباً متسقاً ، يقتضيان الاعتدال والتوازن ، ولكن إذا وقع الانسان في حبال الغوى تشوش عليه هذا النظام الطبيعي وفسد ، وانجحت قواه الى غاية واحدة مطلقة فيختل بذلك توازن الميول واتساقها الطبيعي وينفرد واحد من هذه الميول بالزعامة فيسخر جميع النزعات الاخرى اليه ، ولهذا ترى القرآن وصف الهوى بأنه مفسد للنظام الطبيعي لهذه الحياة الذي يجب ان يسود فيه الحق . قال الله تعالى (ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن) المؤمنون : ٧١ .

وان اعظم اضرار هوى النفس هو ما يجيء عن طريق الحُكام الذين من واجبهم اقامة العدل في الارض ، فانهم ان انتقادوا لاهوائهم فحاربوا الاقوياء وجاروا على الضعفاء يكن من اثر ذلك فساد في الارض لا يلبث أن تظهر بوادره بثورات يجيء من ورائها الخراب كما حصل في كثير من ادوار التاريخ ، ولهذا جاء في القرآن تعليماً لنا بما خاطب الله نبيه داود في زمنه (يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) ص : ٢٦ .

وان اتباع هوى النفس بصرفنا عن حقائق هذه الحياة ويرى ابو الفللفة الحديثة « فرنسيس بيكون » من فلاسفة القرن السادس عشر انه للوصول للحق يجب التخلص من أربعة اوهام تسد علينا سبيل الحقيقة ومنها - بل واهمها - اوهام الجنس ، هذه الاوهام تدخل فيها الاخطاء التي انطبع عليها العقل تقليداً لمن تقدموه حتى ليهون على المرء أن يجانف الحق ويرفضه من أن يترك عقيدة أو رأياً راسخ في ذهنه بفعل الزمن والوراثة ، وهذا ترى القرآن عندما حاجج اليهود وأمرهم باتباع رسالة محمد وما جاء بها من الحق

١ رجعنا في هذا الفصل الى كتاب (دروس في الفلسفة) للاستاذ جميل صليبا .

بين القرآن بان عدم استجابتهم لدعوة الاسلام هو بسبب اهواء نفوسهم التي تؤثر القديم والانطباع على التقليد الاعمى لمن سبقوهم . قال الله تعالى (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) القصص : ٥٠ .

والحق ان أكثر اتباع الهوى في هذه الحياة هو بسبب ضعف في النفس ونقص في المعرفة فالهوى يملك على الانسان عقله فلا يدرك ولا يتذكر ولا يفكر كغيره من الناس بل تحوم نفسه كلها حول نقطة واحدة ، وحب الانسان للشيء يقوي انتباهه اليه فلا يفكر الا فيه ولا يكشف الا عنه ولهذا كان منطق الهوى مختلفاً جداً عن منطق العقل فالمقدمات في منطق العقل تولد النتائج ولكنها في منطق العواطف تتولد منها . ولهذا وصف القرآن اثر الهوى في الانسان بانه يضل الانسان بغير علم . قال الله تعالى (وان كثيراً ليضنون باهوائهم بغير علم) الانعام : ١١٩ . ويقول سبحانه (بل اتبع الذين ظالموا أهواءهم بغير علم) الروم : ٢٩ .

والقرآن يصف العلاج للقضاء على هوى النفس وذلك بالتوجه الكلي الى الله والحشية من مخالفة أمره . قال الله تعالى (واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى) النازعات : ٤١ .

هذه المراقبة لله مع جهاد النفس كقيلة بان لا نخرجنا عن طريق الحق وارتداد سبل الضلال ، وخصوصاً اذا كان هذا الجهاد النفسي في جو ديني وطمعاً في نيل ثواب الله العظيم .

الكبرياء

الكبرياء رذيلة من الرذائل الاجتماعية ، وهي مصدر كثير من البلايا التي تحل في المجتمع الانساني ، فهي التي تغرس الفرقة والعداوة بين الافراد فتقضي على التعاون والمحبة بينهم .

والكبرياء لا تصرفنا عن محبة بعضنا البعض فقط ، بل تجعل اصلاحنا الأدبي ممتنعاً وذلك بتعامي المتكبر عن نقائصه وعيوبه ، وتقدير نفسه فوق قدرها ، وصم اذنيه عن سماع كل حديث يرفع من حاله سوى حديث المدح والتملق من مادحيه ، لأن من أعجبته نفسه أبى أن يسمع النصيحة

من غيره فيكون ذلك حائلاً بينه وبين الاستفادة من علم العلماء واقتباس
الفضيلة من الفضلاء فينزل الى هوة من الجهل والخطا ليس لها قرار .
لهذا كان من سنة الله ان صرف قلوب المتكبرين عن سماع ما أنزل على
رسله من البينات والهدى لأن هؤلاء المتكبرين كتب الله عليهم الضلالة التي
تؤديهم الى غضبه وذلك من جراء كبريائهم . قال تعالى (سأصرف عن آياتي
الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) وأن
يرواسبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يرواسبيل الغي يتخذوه سبيلاً) الاعراف : ١٤٦
والقرآن يخبرنا أن المستكبرين كانوا هم أعصى الناس على الاستجابة
لدعوة الرسل ، لهذا حكى الله عن قوم نبيه صالح (قال الملأ الذين استكبروا
من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا
إنا بما أرسل به مؤمنون . قال للذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون)
الاعراف : ٧٥ - ٧٧ .

وحكى الله عن قوم نبيه شعيب (قال الملأ الذين استكبروا من قومه
لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا)
الاعراف : ٨٨ .

وهؤلاء قوم عاد استكبروا عن سماع هداية الله فكان جزاؤهم العذاب الأليم
في الدنيا والآخرة (فاما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد
منا قوة أو لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون
فأرسلنا عليهم رجلاً صريراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الحزى في الحياة
الدنيا وللعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون) فصلت : ١٥ ، ١٦ .

لهذا نوه الله المتكبرين بالعذاب الأليم في الآخرة فقال سبحانه (اليس
في جهنم مثوى للمتكبرين) الزمر : ٦٠ . أي ليست النار كافية لهم سجنًا
وموئلاً بسبب تكبرهم .

ولنتساءل بماذا يفتخر المتكبر هل بملاحته وقوته ؟ ان الجمال يزول ،
وأقل مرض يضعضه ، وكل يوم يفعل الزمان فعله بالجسد الى أن يصبح
بعد سن الشباب موضع النفور والهرم ؛ وإن تباهى بماله وغناه فليعلم أن

الموت لا يفرق بين الغني والفقير ، وان الانسان سيترك كل ما يملك الى غيره لهذا جاءت وصايا القرآن تنهي عن الافتخار . قال تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً انك ان تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) الاسراء : ٣٧ . أي ولا تمش متبختراً كمشي الجبارين فانك لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطئك ومهما شئخت بأنفك فلن تبلغ الجبال في الطول .

ويقول تعالى في النهي عن التكبر (ولا تصغر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور) لقمان : ١٨ . أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً لهم واستكباراً .

هذا هو التكبر الذي كرهه الله لأنه من الصفات الذميمة التي تفسد المجتمع الانساني وتورث البغضاء ، فما أحرى بالمريين والمصلحين بمحاربتة وبيان ضروره ليحصل مجتمعنا على المحبة المفقودة بين كثير من الناس .

الخمر والقمار

قال الله في تحريم الخمر والقمار :
(يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر^١ والانصاب^٢ والازلام^٣ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

١ الميسر : القمار

٢ الانصاب : حجارة او اصنام كان العرب يذبحون قرابينهم عندها وروي انهم كانوا يعبدونها

٣ الازلام : قطع رفيقة من الخشب هيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لاجل التفاؤل او التشاؤم .

٤ تجري على السنة بعض كلمات تشكك في تحريم الخمر فيزعمون ان الله سبحانه لم يقل : الخمر حرام ، بل قال : اجتنبوه ، واجتنبوا كما يقولون لا تدل على التحريم كدلالة كلمة (حرمت) والجواب على ذلك : ان كلمة (اجتنبوه) ادل على التحريم من (حرمت) لان اجتنبوه اي اطرحوه جانباً اي انه حرام فيجب اجتنابه ، ومن جهة اخرى ان القرآن قرن تحريم الخمر بتحريم الاوثان في قوله تعالى (انما الخمر والميسر والانصاب) والانصاب هي الاوثان فجعل حرمة الخمر كحرمة الاوثان لانه قرنهما في تعبير واحد . ومعلوم ان حرمة الاوثان هي اكبر حرمة حرمة الاسلام ويؤيد هذا ان كلمة اجتنبوه جاءت في موضع آخر في تحريم الاوثان (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور) .

اشتملت هاتان الآيتان على مواعظ جليلة :

فقد سمى الله الخمر والقمار رجساً من عمل الشيطان والرجس يدل على منتهى ما يكون من القبح والحُبث ، وذلك لما ينشأ عنها من الشرور والطفيان .

وجعل الله اجتناها سبباً للفلاح في هذه الدنيا فدل بطريق المقابلة على أن ارتكابها أساس الحسran في الدنيا والآخرة .

وجعلها سبباً لعداوة والبغضاء وهما شر المفاصد الدنيوية .

وأخيراً جعلها صاعداً عن ذكر الله وعن الصلاة وهما روح الدين . وفيما يلي بيان ذلك من عرض أضرار كل من الخمر والقمار على حدة :

مضار الخمر

مضار الخمر على الانسان وعلى المجتمع كثيرة لا تحصى فهي تؤدي بالشارب الى اضعاف صوت ضميره وذهاب حياته ، ولا شيء يضر بالمجتمع الانساني اكثر من اضعاف صوت الضمير أو ذهاب الحياة من الانسان وذلك بما يدفع بالشارب الى نبذ الاخلاق وفعل كل منكر قبيح ، وان كثيراً من حوادث الزنا والحياة الزوجية تقع تحت سلطان الخمر بما يؤدي الى خراب البيوت والندم الطويل ، كما أن الواقع الملموس أثبت أن كثيراً من حوادث الشغب وما يؤدي اليه من ارتكاب الجرائم يحدث في موطن شرب الخمر من الحانات وغيرها . وقد يدافع البعض عن الخمر فيقول : ان الآلام النفسية قد اشتدت والحن قد كثرت ولا دواء لهذا الداء الا الخمر .

والجواب على ذلك : ان الحن النفسية لا يقضى عليها بالخمر بل بتقوية الوجدان الخلقي وتربية الناس على ضبط النفس والصبر الجميل والعزاء الروحي اما إذا تألمت النفس فأخذ المتألم الكأس ليخفف الألم ويضعف صوت الضمير فانه يستبدل بألمه داء أشد شراً ، وأن ألمه لا يلبث أن يعاوده بعد ذهاب اثر الخمر فيجعل الانسان ضعيفاً لا يملك زمام نفسه بما يؤدي به الى الانهيار العصبي أو ادمان المسكرات فيسير في الحياة سير من ينتحر بعض الانتحار فيقضي على نشاطه ومواهبه العقلية ، هذا فضلاً عما ينشأ عنه أيضاً من الضرر

الصحي وقد فصلنا ذلك في بحث (صحة الابدان) .
وأما الضرر الاجتماعي فالخمر سبب لوقوع العداوة والبغضاء بين الاصدقاء
وغيرهم ، وذلك أن شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذي كان يمنعه من الأقوال
والأعمال القبيحة فيسيء الى الناس ويسرع اليه الغضب بالباطل فيكون سبباً
للمشاجرة والحصام .

كما أن الخمر يصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن السكران لا عقل له ولا
وعي يذكر به ربه ويثني على نعمه ويعبده ، والعبادة لا تقوم الا على
العقل ، من هنا كان الاسلام الذي حرم الخمر وشرع العقوبة للسكران أسمى
من غيره من الأديان التي لم تحرم الخمر أو التي لم تشرع العقوبة لمن يتناول
الخمر ، فالدين من أول واجباته دعوة الانسان لعبادة خالقه وليس هناك
عبادة لله إذا سكر الانسان ، فتحريم الخمر في الاسلام مع بيان ضرره هي
مفخرة له ودليل على أنه دين روعي يقوم تشريعه على ما يهذب النفس ويسمو
بها عن شرور المادة .

مضار القمار

أول ما يظالمن من مضار القمار هو ما يحصل منه من الضرر المالي للمقامر
وقد فصلنا ذلك في بحث (الاقتصاد) . وهنا نثبت ما ينشأ عنه من الضرر
بين أفراد الأمة فهو مجلبة للعداوة فإن ربح المقامر لا يقوم الا على خسران
الغير ، فهو مغتصب مال أخيه على مرأى منه ، وكلما أوغل الانسان في
الحسارة اشتد حنقه على الرابع الذي يسلبه ماله في لحظات قليلة هذا المال
الذي بذل في جمعه عسارة جهده وعقله . وكثيراً ما يتبادى لاعب القمار في
الخسران حتى يفقد كل ماله فيؤدي به ذلك الى عدم السيطرة على نفسه فيتعرض
للرابع بالشتم ويضمر له كل شر ، وربما انتهى ذلك بالشجار كما هو مشاهد عند
بعض المقامرين أو الانتحار .

والقمار يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فالقمار تنوجه جميع قواه
العقاية الى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة ويستغرق في ذلك
زماً طويلاً ينسيه خالقه ويلهبه عن عبادته ويشغله عن الصلاة التي تسمو

بروحه وليس هناك عمل من الاعمال يشغل الفكر ويصرفه عن كل ما سواه
مثل القمار لذلك كان هذا الاستنتاج الذي تطرق اليه القرآن آية في دقة الوصف
وصدق الواقع .

فتحريم القمار يعطينا برهاناً على ان الاسلام دينٌ رُوحى يحرم كل ما يضر
الانسان ويلهيه عن عبادة خالقه مع بيان الضرر الذي ينشأ عنه .

الزَّنا

رذيلة الزنا تحرم الانسان من السلام الباطني المتمتعة به النفوس الطاهرة
المستقيمة ، فالعفة وحدها تجلب لنا السلام وطمأنينة النفس بينما الزنا يدخل القلق
الى نفوسنا ويولد في مخيلتنا تصورات واخيلة سمجة تطاردنا حتى النوم وقد
وصف لي احد الذين تورطوا في هذه الرذيلة نفسية الزاني بقوله « يحسبون كل
صيعة عليهم » وكل نظرة تانيباً لهم .

والزاني لا يسلك الطريق المشروع وهو الزواج ، لانه يريد ان يستمتع على
حساب غيره استمتاعاً لا يكلفه شيئاً من التضحية والاخلاص للغير ، بينما
الزواج ناموس طبيعي يفرض على المرء ان يبذل حياته لغيره ويخلف بنين يحسن
تربيتهم فيصبحوا افراداً صالحين غيورين على الخير العام ، هذه هي المتعة
الروحية التي يشعر بها المتزوج ، بينما الزنا كالسيل يفرق صفاتنا الادبية
ويطفئ ما بنا من نور وخلق كريم ويخلف لقطاء يكونون عالة على المجتمع
يحملون شعوراً لا يحى من الالم ونظرة حنق على هذه الحياة التي حرمتهم لذة
العيش في كنف والدين بخنواف عليهم ويهيئان لهم مستقبلاً زاهراً .

والزواج هو الرابطة الروحية التي تصل ما بين الجنسين بالود والرحمة والتضحية
بينما الزنا يجعل علاقة الجنسين مع بعضها علاقة حيوانية قائمة على اللذة العابرة
والمنفعة الشخصية مما يجر الى كثير من العداوات .

ولهذا حرم الاسلام الزنا ووصفه بأنه فاحشة وانه هو الطريق السوء الذي
يجب على الامة ان تجتنبه قال تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء
سبيلاً) الاسراء : ٣٢

وكان من سمو الاسلام ان شرع العقوبة الزاجرة لهذه الرذيلة (مائة جلدة

او الرجم للمحصن) راجع (بحث العقوبات) .
 وذلك لان الاخلاق ليس لها من الاحترام ولا يمكن تطبيقها اذا لم يكن
 لها من قوة العقوبة ما يكفي ان تجر النفوس المريضة الشريرة
 بخلاف ما اذا كانت تعاليم الاخلاق في دائرة نظرية بحتة فانها لا تؤدي
 الغرض المطلوب .

الكذب وصوره

الكذب أس الرذائل به يتصدع بنيان المجتمع ويختل سير الامور
 ويسقط صاحبه من عيون الناس لا يصدقونه في قول ، ولا يتبعونه في عمل
 واكثر الناس في الحياة اصحاب حرف وصاحب الحرفة محتاج في بيعه وشراؤه
 وعمله الى ثقة الناس به ، والكذب يهدم هذه الثقة ، لهذا كتب الله على الكاذبين
 الضلالة فقال سبحانه (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) غافر : ٢٨
 وقال ايضاً (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) الزمر : ٣ . وتوعد الله
 الكاذبين بالعذاب الاليم يوم القيامة (ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب
 هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله
 الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب اليم) النحل : ١١٦ ، ١١٧
 والكذب ليس بغيضاً في جميع الظروف على الاطلاق فهناك ظروف قد
 يكون فيها الكذب اجدي من الصدق وانفع للانسانية للاصلاح بين الناس ،
 يقول الرسول ﷺ (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيراً او
 يقول خيراً)^١

الحيانة

والحيانة هي شر انواع الكذب التي يتصف بها المرء وينتقل ضررها
 مباشرة الى سائر افراد الامة وما انتشرت هذه الصفة في قوم الا كانت
 نذير الحراب والفوضى ، لهذا نهى الله المؤمنين عن الحيانة فقال سبحانه
 (يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا ايمانكم وانتم تعلمون)

١ رواه البخاري

الانفال : ٢٧ . واخبر الله انه يبطل عمل الحائنين (وان الله لا يهدي كيد الحائنين) يوسف : ٥٢ . كما ان الله يبغضهم (إن الله لا يحب من كان خواناً اثماً) النساء : ١٠٧

فعلى الذين ينشدون بناء مجتمع سليم ان يتوجه الكبر سعيهم الى محاربة هذه الرذيلة ليحصلوا على السلام في حياتهم .

خلف الوعد

ومن ضروب الكذب المكروهة خاف الوعد التي تدل على ان صاحبها ذو شخصية ضعيفة لا يرجى منها خير ولا تكون موضع ثقة ، وهي تنزع المودة بين الافراد ويحصل منها كثير من الاضرار من تضييع وقت الغير سدى : او ايجاد امل كاذب عنده ، او نحو ذلك . هذا وصف الرسول ﷺ صفة خلف الوعد بانها من صفات المنافقين فقال (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا اؤتمن خان)^١

شهادة الزور

ومن انواع الكذب شهادة الزور التي يترتب عليها اقبح الشرور الاجتماعية واطهر المشاكل التي تودي بالارواح وتؤدي الى ضياع الحقوق ونشر الفوضى لهذا قارن الاسلام اثمها باثم الاشراك بالله الذي هو شر الآثام في الاسلام قال الله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور) الحج ٣٠ ووصف عباده المقربين بقوله (والذين لا يشهدون الزور) الفرقان : ٧٢

البهتان

ومن ضروب الكذب الذي حرمه الاسلام البهتان ويقصد به في الغالب الانتقام من انسان في شرفه وعمله اذا تعذر الانتقام منه في ذاته وكثيراً ما يوجه لمحاربة ذوي الشرف والاستقامة وهو يسبب كثيراً من الاضرار والبلايا ولهذا حذر الاسلام منه بقوله (يا ايها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق

١ رواء البخاري ومسلم

بنذا قبيينوا ان نصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (الحجرات : ٦ . ففي هذه الآية يرشد الله المؤمنين ويحذرهم ان يعملوا بالاخبار قبل الكشف عنها وقبل التثبت منها ومن سيرة حاملها لئلا يصيبوا اقواماً بسبب الجهل ، وبسبب الاخبار الكاذبة ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين يلزمهم الحزن على ما فرط منهم .

النميمة

والنميمة من خروب الكذب وهي من اشد الشرور التي تصيب الفرد والتي تدل على ان صاحبها ذو نفسية مريضة لا هم له الا رؤية الناس متعادين متخاصمين وان اكبر سلاح يحارب به هؤلاء هو عدم الاستماع لهم وهذا ما يأمرنا به الله سبحانه (ولا تقطع كل حلاف مهيئ . همار مشاء بنميم) القلم : ١٠ ، ١١ . فالمشاء بنميم هو النقال للحديث من قوم الى آخري لان يفسد بينهم ، ومثل هذا نهى الله عن تصديقه وطاعته .

السَّخَرِيَّة - اللَّمَز - التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَابِ

من اهداف القرآن احترام الغير لحفظ وحدة الجماعة ونشر المودة بينها والقضاء على اسباب الفرقة والعداوة ولهذا يخاطب الله المؤمنين بقوله (يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلهزوا انفسكم ولا تتابزوا بالالقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون) الحجرات : ١١ .

اشتملت هذه الآية على هذه المواظ :

يا امر الله المؤمنين بان يحترموا غيرهم ويحافظوا على سمعتهم وكرامتهم وشعورهم فلا يستهزئون باي فرد من الناس ولا يحقرونه بالقول او الاشارة باليد او اللسان او نحوهما لمجرد رؤيته رث الهيئة فقيراً او ذا عاهة ، سواء اكان المستهزأ به من الرجال ام النساء اذ ربما كانت المذموم خيراً عند الله فيكون الساخر قد ظلم نفسه بتحقيق من وقره الله ، فضلاً

عن ان المستهزأ به لن يسكت راضياً بل سوف يحمله ذلك على ان يفتش عن عيوب المستهزئ ويذيعها وان لم يجد فيه ما يعيبه اختلق له معائب ونسبها اليه والبسها ثوب الصدق فيتناقلها الناس وفي ذلك ما فيه من الضرر بالمستهزئ نفسه .

فاذا علمنا ذلك ادركنا ان السخرية تورث البغضاء في القلوب وتقطع روابط المودة بين الافراد .

ثم نهى الله ان يذكر احد معائب غيره في حضرته والطمع في شخصه لان ذلك داعية لاثارة العداوة ايضاً بين افراد المجتمع ، ويذكر الله في هذه الآية ايضاً ان المؤمنين كنفس واحدة لا يليق ان يطعن بعضهم بعضاً فنهى عاب الانسان اخاه فكأنما عاب نفسه وهذا معنى قوله تعالى (ولا تلمزوا انفسكم) .

واخيراً نهى الله ان يدعو احد اخاه بلقب يكرهه ولا فرق بين ان يكون اللقب المكروه صفة له او لايه او لامه او غيرها ممن له به حلة لان ذلك يورث الحقد في الصدور . ثم بيّن الله ان السخرية واللمز والتنازع بالالفاظ موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله فلا يليق بالمؤمن ان يطلق عليه كلمة فاسق بعد ان عرف بالايمان ، ثم بين الله ان من لم يرجع عن اقتراف هذه الحصال الذميمة فاولئك هم الذين ظلموا انفسهم لانهم عرضوها لسيخط الله وعذابه .

الظن السيئ - التجسس - الغيبة

وجاء في القرآن في الدعوة الى احترام الناس قوله تعالى :

(يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً احبب احداكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم) الحجرات : ١٢ . اشتملت هذه الآية على جملة مواعظ وهي :

نهى الله عن ظن السوء بالمؤمنين لأنه مدعاة الى التحقير والى ايقاع الضرر بالمظنون به ، وخدش اعرضه ولهذا حذر الله منه بقوله

(ان بعض الظن اثم) ويشترط في حرمة الظن أن يكون المظنون بهم من شهود منهم الصلاح والأمانة اما من يتعاطى الحباث والمنكرات فلا يحرم الظن به .

ثم نهى الله عن التجسس على المؤمنين والبحث عما ستروه من امورهم رغبة من التجسس في معرفتها او اذاعتها لان ذلك تعرض منه لما لا يعنيه وما لا يفيد وهذا لا ينشر الا الضغينة .

اما ما تفعله الحكومة من بث العيون لتتبع خطوات المفسدين الداعين الى فتنة او ثورة فهو ليس من النهي المنصوص عليه في الآية القرآنية السابقة ، لان النهي غايته كل ما يثير العداوة بين الافراد .

اما تجسس الحكومات فهو من باب سد ذرائع الفساد المطلوب في كثير من آيات القرآن الكريم .

واخيراً نهى الله عن الغيبة وهي أن يذكر الانسان اخاه المسلم في غيبته بما يكرهه سواء اكان الذكر صراحة ام كناية ام اشارة ام رمزاً ، سواء اكان ما يذكره بدينه ام دنياه وبخلقه ام خلقه لان في ذلك اثاره للعداوة بين الافراد وتفریق شملهم .

وقد نفر الاسلام من الغيبة هذه حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم اخيه المؤمن ميتاً فقال سبحانه (أنجب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه) أي أنجب احدكم ان يأكل لحم اخيه بعد مماته ؟ فاذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لان النفس تعافه فكذلك فاكروهوا ان تغتابوه في حياته . اما المجاهر بالفسق والداخل في مواطن الريب فلا تحرم غيبته بقصد التنفير من عمله والتحذير من مثل سلوكه .

ثم ختم الله الآية بالدعوة الى تقواه فانه يتوب عن يمتنع عن هذه الصفات الذميمة .

الغضب

الغضب من الرذائل الخلقية التي اذا تحكمت في نفوس الناس وتمكنت من مجتمعاتهم كان لها اسوأ الاثر في حياتهم ، ونتائج بشعة في تزيق روابط

المودة بينهم .

فالانسان في احتدام غيظة يفقد الرشد والصواب ويصبح وحشاً ضارياً لا يدري ما يفعل ويظن انه بذلك يظهر بظهور المحترم لنفسه المحافظ على كرامتها وهو انما يظهر بظهور الطائش الاحق ، وهو لا شك خاسر لان الغضب يعتبر شروعاً في الاعتداء بينما يعتبر الحلم دليل فطنة ورجاحة عقل كما ان الانفعال الذي يشهده الغضب ضار بصحة الانسان من وجوه كثيرة كما اثبت الطب . لذلك جعل الاسلام من صفات المتقين الذين يستحقون رضوان الله من لا يستسلمون للغضب فقال الله تعالى في وصفهم (والسكاطين الغيظ) آل عمران : ١٣٤ . فالغيظ هو اشد الغضب وكظم الغيظ هو الامساك على ما في النفس من الغضب بالصبر حتى لا يظهر له اثر .

والرسول محمد ﷺ عد مجاهدة النفس وامتلاكها عند الغضب من امارات البطولة (ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند الغضب) ١ فالرسول يقول ان القوة الجسمية ليست بشيء في جانب قوة النفس التي تسيطر على الغضب وتقره .

وجاء رجل الى النبي فقال : اوصني ، قال لا تغضب . فردد مراراً ، قال لا تغضب .

والانسان في غضبه حاكم غير منصف وهو لا يرى في وقت غضبه صواباً لذلك تأتي احكامه بعيدة عن الحق وقد جعل الاسلام من صفات المؤمنين العفو عند الغضب ، قال الله تعالى (واذا ما غضبوا هم يغفرون) الشورى : ٣٧ فعلى الذين ينشدون الرقي الادبي ان يتعودوا امتلاك نفوسهم ويضبطوا كل نزوة يبعثها الانفعال الطارىء فينطلق بها الفم قبل ان يحصها العقل فأنهم احرى بذلك ان يجتنبوا مشاكل لا حصر لها .

الحسد

الحسد من الرذائل الخلقية وهو من اقبح الخصال التي تصيب الانسان وتكده عيشه ، فان الحسد الذي يتمنى الشقاء والنحس لغيره يشقى نفسه

١ رواه مسلم .

ايضاً بهذا الحسد فهو بدلا من ان يستمد السرور بما اوتي من خير نراه يستمد العذاب من الخير الذي اوتيه سواه .

وعصرنا الحاضر يقوم فيه الحسد بدور كبير ذي اهمية بالغة ، فالفقير يحسد الغني والنساء يحسدن الرجال والقيبيحات يحسدن الجميلات وهكذا بما يجعل بعض طبقات الامة يكره بعضها الاخر ويتمنون لغيرهم الشقاء ، فالحاسد خلقه اللؤم ولذته الوشاية بين الناس والوقية والدس بينهم فلا ينفك يدس الرجل الناجح حتى يشوه سمعته لاجل ان يحل محله ، او يجعل منه انساناً فاشلاً مثله ، لان الحسود انسان فقد الثقة بنفسه واستشعر العجز عن تحقيق غاياته ، لذلك نهى القرآن عن الحسد (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض الرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله) النساء : ٣٢ . نهى الله في هذه الآية عن التمني بما اوتي الغير وهو التعرض له بالقلب حسداً ثم اخبر الله المؤمنين بأن ما يكتسبه الانسان هو نتيجة عمله وسعيه ، فعلى المؤمنين ان يعتمدوا على جهدهم ، ومواهبهم لنيل ما يرغبون به ، وما يعجزون عنه فليسألوا الله ان يعطيهم من فضله وانعامه .

وامر القرآن في موضع آخر بالاستعاذة بالله من الحاسد (ومن شر حاسد اذا حسد) الفلق .

والحاسد يستحق الرثاء والشفقة بما يلاقه من الم فما احرى بنا ان نقابل حسد الحاسدين بالعفو عنهم وعدم مؤاخذتهم على حسدهم الذي لا يضر الا انفسهم وهذا ما يأمرنا به الله سبحانه ، (ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) البقرة : ١٠٩ .

علاج للحسد

وهناك وسائل شتى للتخلص من الحسد منها : ان يستمتع الانسان بما يصادفه في حياته من مسرات واداء العمل الذي يجب عليه اداؤه مع محاسبة المقارنة بين حاله ومن هو أسعد منه حظاً بل ينظر الى من هو دونه

ليدرك فضل الله عليه وهذا ما يقوله الرسول ﷺ (اذا نظر احدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو اسفل منه بمن فضل عليه)

اللغو

وفي الاسلام عامل قوي للسمو الروحي والنجاح في هذه الحياة هو ما دعا اليه القرآن من الاعراض عن الثثرة والهزل والباطل من القول والفعل وكل ما توجب المروءة الغاءه وهو ما سماه لغواً جاء في القرآن (قد افلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون) المؤمنون : ١ - ٣ . جاء في قاموس لسان العرب في مادة « اللغو » قوله : « اللغو واللغا : السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع » .

وقد تكرر في القرآن النهي عن اللغو بصور شتى قال الله تعالى في وصف عباده المقربين (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ٢ لا نبتغي الجاهلين ٣) القصص : ٥٥ . ويقول سبحانه في وصفهم (واذا مروا باللغو مروا كراما) الفرقان : ٧٢ . اي مروا معرضين عنه مترفعين بانفسهم عن مشاركة اهل اللغو . ويدخل في معنى اللغو ما استحدثه الناس من صنوف اللهو الفاجر الذي لا يهذب النفس ولا يربي الشعور وذلك لاشتماله على كل ما يثير الشهوات ويفسد الخلق الانساني .

وان من اسباب رقي بعض الشعوب هو اعراضهم عن اللغو وانهم ما كهم في العمل المفيد المستمر بعكس بعض الشعوب الشرقية التي كثرت فيها الثثرة والكلام الفاحش في مخاطبتهم وتضييع الساعات الطوال بدون فائدة مجدية .

الشراهة

كلما ضعفت رغبات الفرد الروحية اشتدت بطبيعة الحال رغباته المادية

١ رواه البخاري

٢ سلام عليكم : اي توديع لكم ومشاركة

٣ لا نبتغي الجاهلين : اي لا نريد غاظتهم وصحبهم

وتركزت غالباً في شهوة الطعام .

ومن الملاحظ ان الاسراف في شهوة الطعام يذكي الشهوة الجنسية ويؤدي بالانسان الى ان يعتبر الحياة مجرد متعة مادية فتضعف فيه الصفات الروحية من الاحسان والتضحية وانكار الذات ومجمل محلها الانانية وقسوة القلب والاستكانة الى الترف وذلك يؤدي به الى ان يصبح عضواً فاسداً في المجتمع الانساني لا يستفيد منه الافادة التي ترفع من شأنه وترقي حاله . ومن اجل هذا توجهت وصايا القرآن الى التحذير من الانقياد لرذيلة الشراهة ووصف صاحبها بأنه يكون مكروهاً من الله . قال الله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) الاعراف : ٣١ .

كما ان الشراهة تؤدي الى تبدل الذهن والانصراف عن تغذية العقل والروح بالمعارف التي يحتاجها ولا يكون همه الا التفكير في اصناف الطعام والانهماك في منع الحياة الرخيصة فيصرفه ذلك عن تركيبة نفسه والسمو بها عن النقائص فينخلع عن انسانيته ويصبح كالحيوان ، وهذه الصفة التي ينحدر اليها الانسان وصفها القرآن بأنها من صفات الكافرين الذين قال الله تعالى في وصفهم (والذين كفروا يتمتعون وبأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم) محمد : ١٢ . هذه وصايا القرآن في الاعتدال في المأكل والمشرب كخدمة الناحية الروحية التي هي اهم اهداف الاسلام .

هذه بعض مبادئ القرآن الروحية التي تمس اعماق النفس الانسانية وتسيطر عليها وتقوم اعوجاجها وتخلصها من ادراك المادة ، والتي يشهد كل منصف بمصدرها الالهي .

وقبل ان نختم هذا البحث نخطب الذين وصروا الاسلام بأنه شريعة مدنية لا يتم بالنواحي الروحية فנסألهم : ماذا يقصدون بهذه التسمية هل هي للتمويه على الذين يجهلون الاسلام والتفسير منه ؟

ان التشريع المدني في القرآن يأمن تتجنبون على الحقيقة - هو لخدمة الناحية الروحية ، هذا ما سيأتي تفصيله فيما بعد .

التسامح الديني في الإسلام

الصراع بين الأديان - اختلاف الناس سنة الله في خلقه - لا إكراه في الدين - أسباب منع المصلحة من الزواج بغير المسلم - دحض بعض المعتقدات التي تؤدي للعصب - صور من معاملة المسلمين لاتباع الأديان الأخرى - شهادة بعض علماء الغرب في التسامح الإسلامي .

الصراع بين الأديان

إذا تتبعنا أدوار التاريخ رأينا أن المجتمع الإنساني لم يعرف السلام بسبب اختلافه في الدين ، فكانت كل جماعة لا تفنأ تشور على مخالفتها في العقيدة ، وكثيراً ما نشأ من جراء ذلك مذابح وحشية سودت وجه التاريخ . وهذا يرجع - ولا ريب - إلى نوع التعاليم ونزعة الحقد التي يبثها زعماء الأديان في روع العامة ضد الآخذين بالأديان الأخرى . وقد ذهب الباحث جون سيمون في كتابه (حرية الاعتقاد) بأن الحقد الديني لم يتوصل إلى تخفيفه إلا منذ قرن ونصف ، فقال : « إن حرية الأديان ليست ببعيدة العهد فان تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الديني ، وهذا الحقد الديني الذي هو أقدم من الحرية يتصاعد إلى أبعد عصر في التاريخ » وبعد أن عدد آثار التعصب المذموم في العالم كله من القرون الأولى إلى العصور الوسطى ، قال : « وأخيراً توصلت الروح الفلسفية إلى تقرير حرية الأديان في ٤ آب سنة ١٧٨٩م ، ولكن هذه الأمانة العادلة لم تتحقق إلا في سنة ١٧٩١م وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هذا كله فان الثورة الفرنسية

على ما كانت عليه من خلوها من حسن الادارة في الأعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية .

ان قول جون سيون بأن الحرية الدينية لم تقرر الا منذ قرن ونصف تقريباً ليس صحيحاً بل ان اقرارها كان منذ اربعة عشر قرناً وذلك على يد الاسلام ؛ ولا يسعنا الا ان نستدل على ذلك من نصوص القرآن وشواهد من سيرة المسلمين الأولين وشهادة بعض المؤرخين الغربيين .

اختلاف الناس سنة الله في خلقه

وكيف توصل الاسلام الى نزع الاحتاد الدينية من عقول متبعيه ؟ انه توصل لذلك بطريقة لم نسمع بها الا منذ أمد قريب اي بعد ان وقف علماء الانسان على اسرار النفس الانسانية وكيف انها تختلف في الحكم على الأشياء ، ولهذا صرح القرآن بأن اختلاف الناس في معتقداتهم من سنة الله في خلقه . قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين . الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) هود : ١١٨ ، ١١٩ . ويقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ (وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) يوسف : ١٠٣ . وعلى هذا علم المسلمون انه لا يتوجب عليهم ان يحقدوا ويضطهدوا من يخالفهم في الدين لأن هذه ارادة الله التي خلقت الناس على هذا الاختلاف .

لا اكراه في الدين

ثم نرى انه بينما كان رؤساء اكثر الأديان يأمرون اتباعهم باستعمال اشد الطرق الاكراهية لحل الناس على الدخول في دينهم ولو أدى ذلك الى قتل عشرات الآلاف ، نوى الاسلام مخاطب متبعيه بأن لا يرغموا احداً على ترك دينه واعتناق الاسلام وفي هذا يقول تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) البقرة : ٢٥٦ . ويقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ (ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) بونس : ٩٩ . أي ان هذا ليس بمستطاع لك ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها ان تكره الناس على الايمان .

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في حروبهم وعلاقاتهم مع اهل الادب
الآخري فكانوا يبيعون لاهل البلد الذي يفتحونه ان يبقوا على دينهم مع
اداء الجزية ، وكانوا في مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء ويحترمون
عقائدهم وشعائره ومعاييدهم . وخير مثال على ذلك هو العهد الذي قطعه عمر
ابن الخطاب على نفسه لاهل القدس واعطاهم الامسان لانفسهم واموالهم
ولكنائسهم ، وصلبانهم ومقبراتها وبريحتها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم
ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ، ولا من شيء
من اموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار احد منهم ، ولا يسكن
بالبياء معهم احد من اليهود ...^١

وهذه الحرية تبيح لغير المسلمين تحت ظل الاسلام ما لا يبيحه الاسلام
لأهله فالاسلام حرم الخمر وأقام الحد على شاربيها من المسلمين ، ومع ذلك
ايح لغيرهم ان يشربوها وكذلك حرم الخنزير ولكن أباح لغير المسلمين ان
يأكلوه ما دام دينهم لا يحرم الخمر والخنزير ، ولقد بالغ الاسلام في حماية حرية
المخالفين الى حد ان المسلم اذا اراق خمرأ لذي يبعث تحت الراية الاسلامية
او قتل خنزيراً له وجب عليه ان يدفع قيمة ما اتلف^٢ .

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الاسلام من أدب المناقشة الدينية
ومجادلة أهل الكتاب^٣ بمجادلة اساسها العقل والمنطق وعمادها الاقناع ولكن
بالطريقة التي هي احسن ، قال تعالى (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي
احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم
والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) العنكبوت : ٤٦ . ويقول الله تعالى
(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن)
النحل : ١٢٥ .

ويرسم الله كيفية معاملة المسلمين للذين يخالفونهم في دينهم فيقول سبحانه
(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان
تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم

١ الطبري تاريخ الامم والملوك ج ١ ص ٢٤٠٥ ٢ هذا ما ذهب اليه الامام ابو
حنيفة في فقهه ٣ اهل الكتاب هم اليهود والنصارى

في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولوهم
فاولئك هم الظالمون (المتنحة : ٨ ، ٩ .

ففي هاتين الآيتين يأمر الله المسلمين معاملة من يخالفونهم في دينهم بالعدل،
ولم يكتف به بل تجاوز الى التوصية بالبر بهم ، والبر فوق العدل فهو لا يأتي
الا من العطف والحنو وارادة الخير ، واستثنى الله الذين اضطهدوا المسلمين
وقاتلوهم ، وهذا عدل لا شائبة فيه .

والاسلام يرجع كفة الصلح والمودة على العداوة والبغضاء . قال الله تعالى
(عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله
غفور رحيم) المتنحة : ٧ .

وبما ينتظم في حسن معاملة المسلمين لمن يخالفهم في دينهم هو ما سوى
به القرآن بين الوالدين المؤمنين والوالدين المشركين في وجوب الاحسان
اليهما قال الله تعالى (ووصينا الانس ان بوالديه حملته امه وهناً على وهن
وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير . وان جاهداك على
ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً)
لقمان : ١٤ ، ١٥ .

ومن التسامح في الاسلام اباحته طعام اهل الكتاب وتحليل ذبائحهم
وجوازه للمسلم ان يتزوج من نسائهم قال الله تعالى (وطعام الذين اتوا
الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من
الذين اتوا الكتاب من قبلكم) المائدة : ٥ . والمؤاكلة والمصاهرة داعية
للمحبة وحسن المعاشرة والاخلاص في المعاملة .

اسباب منع المسلمة من الزواج بغير المسلم

سأل احد الباحثين الاميركان صديقنا العلامة الشيخ محمد الشال قائلاً :
اذا كان الاسلام يشتمل على غاية التسامح فلماذا منع المسلمة من الزواج بغير
المسلم ؟ فكان جوابه : « ان الحياة الزوجية شركة وتعاون ومساواة
بين الزوجين في جميع الحقوق العامة وهي شركة لا تنتظم الا اذا بنيت
على المحبة الخالصة واحترام كل من الشريكين للآخر احتراماً يتناول جميع

اموره ، ومن اهم الامور التي يحرص عليها الانسان الجانب الديني فيه .
وعندما اباح الاسلام للرجل المسلم ان يتزوج امرأة مسيحية او يهودية
جعل لها كافة الحقوق الزوجية التي للمرأة المسلمة ما عدا امرأ واحداً وهو
التوارث فلا ترثه ولا يرثها . وحتى في هذا الحق كان الاسلام منصفاً كعادته
لأنه سوى في منع الميراث بالنسبة لكل منها ، بخلاف ما يقرره تشريع
اليهود فيما اذا تزوج رجل يهودي امرأة غير يهودية ثم ماتت فانه يرثها
واذا مات هو قبلها لا ترثه . كما دعا الاسلام الزوج المسلم الى احترام الزوجة
غير المسلمة واحترام دينها وتركها تؤدي شعائرها في كنيسها او بيعتها ،
وهذا ليس بغريب على الاسلام لان من يؤمن به ، يؤمن بصدق عيسى عليه
السلام ورسالته كما يؤمن بصدق موسى عليه السلام ورسالته ، وهنا لا نجد
ضرواً على الحياة الزوجية ...

اما اذا تزوجت المسلمة بالمسيحي او اليهودي فان الحياة الزوجية - التي
لا تقوم الا على الاحترام المتبادل كما ذكرنا - لا تستقيم لانها تتزوج من
رجل يعاديه - لانه يكذب وسولها ولا يؤمن به وليس عنده من التسامح
في العقيدة مثل ما عند المسلم وهو ينظر اليها على انها تؤمن بدين لا اساس
له من الصحة ولا شك ان هذا يؤدي الى احتقارها ومنعها من الاستمرار
في اعتناقها لدينها او قيامها بشعائره وكيف تنتظم الحياة الزوجية مع هذا
العداء والاحتقار ... »

دحض بعض المعتقدات التي تؤدي للتعصب

وبعد ان وضع الاسلام الأسس التي يسير عليها المسلمون نحو مخالفهم
في دينهم بدأ يدحض بعض الظنون والأوهام التي رانت على عقول اهل
الاديان الاخرى ونشأ عنها التعصب الجنسي المقيت حين ادعوا انهم ابناء
الله وشعبه المختار ، وان الجنة خاصة بهم دون غيرهم (وقالت اليهود
والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل انتم بشر من
خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السماوات والارض وما بينهما
واليه المصير) المائدة : ١٨ . ويقول الله تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة

الا من كان هوداً او نصارى تلك امانتهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .
بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم
يجزنون (البقرة : ١١١ ، ١١٢ .

ويعلم القرآن ان الانسانية جمعاء تشترك في التكريم من غير اختصاص
بلون او جنس او امة قال الله تعالى (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في
البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)
الاسراء : ٧٠

فليس ثمة شعب الله المختار في الاسلام بل الانسانية كلها الخليفة المختارة في
هذه الارض بمقتضى الارادة الالهية .

صور من معاملة المسلمين لاتباع الاديان الاخرى

اعطى النبي ﷺ مثلاً أعلى لمعاملة اهل الكتاب فقد روي انه كان يحضر
ولائمهم ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويؤورهم ويكرمهم حتى روي
انه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباة وامرهم بالجلوس عليها .
وروي انه كان يقترض من اهل الكتاب نقوداً ويرهنهم امتعته حتى انه توفي
ودرعه مرهونة عند بعض يهود المدينة في دين عليه ولم يخلص درعه الا خلفاؤه
بعد وفاته ، كان يفعل ذلك لا عجزاً من اصحابه عن اقراضه فكان منهم
المثرون وهم المستعدون لان يضحوا بانفسهم واموالهم في مرضاة نبيهم ، بل
كان النبي يفعل ذلك تعليماً وارشاداً لأمة .

وقد سار المسلمون على سيرة نبيهم فعاشروا غيرهم من اهل الملل والنحل
الاخرى بصفاء ووثام فكان يسكن المسيحي واليهودي بجوار المسلم
فيتزاوون ويتهادون لا يفصلهم الا المسجد والكنيسة والبيعة ، روي ابن
غلاماً لابن عباس الصحابي الشهير ذبيح شاة فقال له ابن عباس : لا تنس
جارنا اليهودي ثم كررها حتى قال له الغلام : كم تقول هذا . فقال : ان
النبي ﷺ قد اوصانا بالجوار حتى خشينا انه سيورثه . فابن عباس بنص هذا
الحبر كان مجاوراً لليهودي وكان يهتم بالاهداء اليه كما يهتم بسواه مراعاة
لحرمة الجوار ، ومعنى هذا ان الاسلام لا يفرق في مكارم الاخلاق وحقوق

الاجتماع بين مسلم وأي مخالف آخر فالكمل في نظره سواء ، ولهذا يقول الرسول ﷺ (تصدقوا على اهل الاديان كلها .)

وبما يدلنا على مبلغ ادراك الخلفاء المسلمين لمعنى الحرية الدينية ما نراه في الفاروق حين حضرته الصلاة في كنيسة فلم يصل فيها حتى لا يتخذها الناس مسجداً من بعده فيظلموا اهلها ، كما روي انه عند دخوله بيت المقدس وعقد المعاهدة مع اهلها رأى رأس هيكل قد دفن في التراب ، ثم علم انه هيكل لليهود طمره الرومان ، فأخذ عمر يزيل عنه التراب بفضل ثوبه فاتبعه كل جيشه فيما صنع فلم يمض وقت حتى زال التراب عن الهيكل .

وقد دل تاريخ المسلمين على ان نظام دينهم يسمح للمخالف في دينهم ان يقاضي أرفع رأس في المسلمين وينتصف منه ، فقد روي ان يهودياً اشتكى علياً للخليفة عمر بن الخطاب وعلي رضي الله عنه كما لا يخفى ابن عم النبي وزوج ابنته واحد المرشحين للخلافة فلما بين يدي عمر نظر عمر الى علي وقال له : قم يا ابا الحسن واجلس امام خصمك او قال له : ساور خصمك يا ابا الحسن فساوى علي خصمه وجلس امامه وقد بدا التأثر على وجهه ، فلما انتهت الخصومة قال عمر اكرهت يا علي أن تجلس امام خصمك ؟ فأجابه علي : كلا ! ولكنني كرهت انك لم تسو بيننا حين قلت : يا ابا الحسن ، يريد ان الكنية تشير الى التعظيم .

وحدث مرة ان ولدآ لعمر بن العاص ضرب فتى قبطياً فأقسم المجني عليه ليشكونه لامير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقال له ما معناه : اذهب فلن ينالني ضرر من شكواك فأنا ابن الاكرمين فبينما كانت الخليفة مع خاصته وعمر بن العاص وابنه معهم في موسم الحج قدم هذا الرجل عليهم وقال مخاطباً عمر : يا أمير المؤمنين إن هذا ، وأشار الى ابن عمرو ضربني ظلماً وقال : اذهب فأنا ابن الاكرمين . فنظر عمر الى عمرو وقال له : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً » ثم توجه الى الشاكي وناولوه درته وقال له : « اضرب بها ابن الاكرمين كما ضربك » .

هكذا نشأ المسلمون نشأتهم الاولى والدين أقوى حاكم على شعورهم فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفينهم ثم لما انتشر

العلم فيهم ونبتغ منهم المؤلفون والباحثون لم تكابد هذه الفزة فيهم أدنى انحراف بل زادوها رونقاً بما قاموا به من حماية علماء الملل الاخرى ومكافأتهم . ومن افاض بذكر ذلك كتاب الاغاني الذي سرد كثيراً من اخبارهم .

شهادة بعض علماء الغرب في التسامح الاسلامي

جاء في الاخبار النصرانية شهادة تؤيد مدى التسامح الاسلامي وهي شهادة « عبشوبابه » الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ - ٦٥٧ هـ اذ كتب يقول : « ان العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون . انهم ليسوا باعداء للنصرانية بل يتمدحون ملتنا ويقرّون قديسينا وقديسينا ويمدون يد المعونة الى كنائسنا وأديرتنا »^١

وقد استطاع ميخائيل الاكبر Michael the Elder بطريق انطاكية اليعقوبي ان يجذف بما كتب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ما قرره اخوانه في الدين وان يرى اصبع الله في الفتوح العربية حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الاسلامي خمسة قرون وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : « وهذا هو السبب في أن الله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضع - لما رأى شرور الروم الذين لجأوا الى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارتنا في كافة ممتلكاتهم وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء اسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفي الحق اننا اذا كنا قد تحملنا شيئاً من الحسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا واعطائنا لاهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم .

ولما اسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) .

ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم واذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد انفسنا في أمن وسلام »^٢

١ Thomas of Marga : Books of Governors , vo.2 p 156

٢ الدعوة الى الاسلام لسيرت . و . ارنولد ص ٥٣

ويقول « سيرت . و . أرنولد » في كتابة الدعوة الى الاسلام ^١
ومن هذه الامثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون
الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الاول من الهجرة ، واستمر في
الاجيال المتعاقبة ، نستطيع ان نستخلص بحق ان هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت
الاسلام ، انما فعلت ذلك عن اختيار و ارادة حرة ، وان العرب المسيحيين الذين
يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح .

ويقول ايضاً قبل ذلك في ص ٤٨ « ويمكننا ان نحكم من الصلات الودية
التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في
تحويل الناس الى الاسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية
وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح
لرجال الكنيسة ان ينعموا بحقوقهم ونفوذهم . »

وهذه شهادة اخرى على تسامح الاسلام من الاستاذ « متر » اذ يقول :
« ان ما يميز المملكة الاسلامية عن اوربا النصرانية في القرون الوسطى ان
الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الاديان الاخرى غير الاسلام
وليس كذلك الثانية ، وان الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلامية
كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكون جزءاً من المملكة
معتمدة في ذلك على العهود وما اكتسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة ان
يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا
تعرفه اوربا في القرون الوسطى ، كان اليهودي او النصراني حراً ان يدين
بدينه ولكنه ان اسلم ثم ارتد عوقب بالقتل » ^٢

وهذه شهادة اخيرة على تسامح الاسلام من عالم كبير وهو الاستاذ شكري
قرداحي فقد نشر كتاباً بالفرنسية سماه « ايجاد وممارسة القانون الدولي الخاص في
بلاد الاسلام » تكلم فيه عن حالة الاجانب في بلاد المسلمين متتبِعاً في بحثه
ادوار التاريخ . فافاض بفصل الاطوار التي دخلت فيها حالة الاجانب على عهد
الدولة العربية اولاً ثم على عهد الدولة التركية فلم يجد بداً من الاعتراف بأن

١ ترجمة حسن ابراهيم وزميله ص ٥١

٢ لخص هذا القول الدكتور احمد امين في كتابه ضحى الاسلام عن كتاب متر « نهضة الاسلام
الذي ترجمه خدايخش عن الالمانية .

معاملة الاجانب في بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد مايقابله في معاملة الدول الغربية ، ثم لما تقرر نظام الامتيازات في بلاد المسلمين بالحاح الدول الغربية ، وهو النظام الذي جعلوه مشابهاً لنظام الاقليات العنصرية في العهد الراهن ظهر جلياً امر لم يكن منتظراً ، ذلك انه قد ثبت ان حالة الاجانب تحت ظل الامتيازات اصبحت اقل ملاءمة لهم من كل وجه من حالتهم على عهد الدولة الاسلامية فانضح ان عاطفة التسامح الاسلامي كانت اجدى عليهم من نظام الحماية التي يتمتعون بها الآن .

هذه شهادة بعض العلماء في التسامح الاسلامي وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في الامم قديماً وحديثاً .

فالتسامح الاسلامي الديني الذي شرعه الاسلام يعتبر من اقوى الادلة على انه وحي الهي لاعمل انساني والافانى للامم في عهد اعتزازها بقومياتها وأديانها ان تغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام من المعاملات يقصر عن مثله ما اوجدته المدنية بعد مجالدة للحوادث دامت قروناً طويلة وبعد ان بلغت العلوم شأواً لم يكن يتخيله الاقدمون في ايامهم الاولى .

العلم في الإسلام

الصراع بين العلم والدين في أوروبا - العلم في الإسلام - الإسلام -
دين الحجة والبرهان - الإسلام دين اليقين لا الظن - الإسلام عدو
التقليد - الإسلام يدعو للأخذ بالآحين - العقل في الإسلام -
الإسلام يقرر أن للكون نواميس ثابتة - مقومات النظر والعقل
في الإسلام - التجارب والمشاهدات - العلم الذي يدعو إليه الإسلام
- شهادة بعض علماء الغرب في مدنية الإسلام .

ذاعت بين الأوروبيين في القرن الماضي فكرة خاطئة مؤداها أن الإسلام كان
حرباً على حرية الفكر وأنه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم
والفلسفة ، وكان العالم الفرنسي « إرنست رينان » أبرز دعاة هذه الفكرة بما
أعلنه في كتابه « الإسلام والعلم » .

ونحن في هذا البحث سنعالج هذه الناحية على ضوء تعاليم القرآن وعلى شهادة
التاريخ ليتبين بطلان هذه التهمة الخاطئة التي فيها عداو للحق وافتئات على
التاريخ .

الصراع بين العلم والدين في أوروبا

والحق أن الذين حاربوا العلم هم بعض القائلين على الأديان الأخرى ، فقد
أجمع المؤرخون على أن العلماء الكونيين لقوا من رجال الدين في أوروبا
طوال عهد القرون الوسطى ما يلقاه الخصوم من الخصوم ، فقد استست محاكم
خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه بما يعده رجال الدين

ملاحظة : من مراجع هذا البحث كتاب (في سنن الله الكونية) للإستاذ محمد احمد النمراوي
وبعض البحوث للعلامة محمد فريد وجدي نشرها في مجلة الأزهر .

مخالفاً لآراء الكنيسة ، وكان اذا ثبت على احدهم شيء من ذلك امتتيع
واخذت عليه المواثيق بأن لا يعود اليه ، فإن عباد قبضوا عليه وألقوه حياً في
النار ، او رموا به من عال الى مكان سحيق فأهلك على هذه الصورة في مدى
القرون الوسطى كثير من العلماء من ذوي المكانة العالية ومن العباقرة المجددين
استمرت الحال على ذلك حتى ضعف سلطان رجال الدين لنشوء الشقاق
العظيم بينهم بظهور البروتستانتية واعتناق ملك برمتها هذا المذهب والبروتستانتية
اضطرت لاجتذاب النفوس اليها ان تطلق الحرية للعقول ، فخرج العلم منتصراً
ولكنه من فداحة ما لحقه من اضطهاد رجال الدين جعل بعض انصاره اكبر
همهم ليس الانتقام من رجال الدين فحسب ، ولكن من الدين نفسه ايضاً ،
فوضعوا بعض المؤلفات للتدليل على سذاجة اصوله ، وبينوا للناس اصوله من
أوهام الجماعات الاولى ، وأكثروا من الخط من كرامة الدين في كل فرصة
سنحت لهم ، حتى افضت هذه الحال الى نفور مستعص من الاديان ، والى
انتشار الاحاد بين كثير من الطبقات وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين
دليلاً على الجهل .

ولنعطي الفاري . مثلاً بما كان يهاجم به رجال الدين في ظلال حرية الفكر ننقل
ما جاء في دائرة معارف لاروس القرن التاسع عشر تحت كلمة (دين) في كلامه
عن رجال الدين : ان قلنا : إن الذوق الانساني يقتضي اعتقاد الاشياء التي يمكن
تعقلها يقولون : لا ، لا ، ثم يحاولون إذلال هذا العقل الانساني الذي يدعي
لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم حتى اذا تم تعبئة عين
العقل وتغشية باصرة البصيرة ، الى حد أن تعتبر المعجزات اموراً عادية ، وأن
تتوهم الابيض اسود ، وأن تعد الرذيلة فضيلة ، يعود الدين فيهيئ بالناس الى
الطاعة فإن سألتهم نطيع من ؟ أنطيع عقولنا ، ام واجباتنا الطبيعية أم
احساساتنا القلبية أنطيع القوانين المفيدة للانسانية ، والتي تنتج من تلك الاصول
المتقدمة نفسها ؟ اجابوك لا ، ولكن اطع وانت أعمى...

العلم في الاسلام

اما الاسلام فقد فرض التطور على اهله فرضاً وذلك بالحض على العلم وتوجيه عنايته اليه توجيهاً خاصاً لان الشخصية الانسانية لا يقومها ولا يرقىها شيء غير العلم . قال تعالى في الحض على العلم (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب) الزمر : ٩ . ففي هذه الآية من تشريف العلم ما فيه اذ حكم الله بان اهله يتسازون عن سواهم ثم حصر التذكر في اولي الالباب (أي العقول) ولا مقوم للالباب غير العلم .

ثم نرى القرآن في آية أخرى يصرح بأن العلماء لهم درجات عند ربهم وميزات يخصصهم بها (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) المجادلة : ١١ . كما أن الله اعتمد بشهادة اهل العلم في وحدانيته فقال (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط) ال عمران : ١٨ . فقد ساوى الله شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة وفي هذا من رفع قدر اهل العلم ما فيه .

ومن ناحية أخرى نرى القرآن يسجل على الذين لا يعلمون حكماً لا يرضاه ذو ادراك لنفسه (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) الروم : ٥٩ . كما انه تعالى يقول رادعاً المستبدين (وفوق كل ذي علم عليم) يوسف : ٧٦ . وذلك ليخففوا من كبرياتهم ويعبدوا انفسهم لتلقي نقد الناقدين .

ويطالب القرآن المسلمين بان يطلبوا العلم ليهديهم الى القول الفصل في كل ما يرجون معرفته من حقائق علوية وكونية (وقل رب زدني علماً) طه : ١١٤ . لم يكتف الاسلام بهذا في الدعوة الى العلم بل قرر اصولاً تمنع من الجمود العقلي وتحمي من التعجر الفكري ، كما احاط العقل بحوافظ تحميه شر الجمود والرجعية وهذا يتبين لنا من الاصول التي قررها وهي :

الاسلام دين الحجة والبرهان

العلم لا يقول عن شيء انه حق الا اذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع والقرآن يأمر كذلك بان لا يقبل الانسان شيئاً على انه حق الا اذا قام عليه البرهان (وقالوا ان يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى تلك امانتهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) البقرة : ١١١

ولا يجوز الايمان بشيء الا ببرهان فاذا سئل المؤمنون عن معتقداتهم يوم القيامة لم يتلعثموا في الجواب شأن المقلدين الذين لا ينظرون فيما يلقى اليهم نظر نقد وتمحيص ، والذين سيحاسبهم الله على ذلك (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون) المؤمنون : ١١٧ .

ونرى في آية أخرى ان الله يطالب المشركين بالبرهان على ما اتخذوا من الالهة من دونه مطالبة تعجيز (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) النمل : ٦٤ .

فهذه الآيات القرآنية التي ذكرناها إعلان صريح بان كل قول يجب أن يكون لصاحبه على صوابه دليل وأن كل من يلقى اليه هذا القول يجب أن يطالب بهذا الدليل والا رد عليه مايقول .

الاسلام دين اليقين لا الظن

العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقيناً ما ليس بيقين ، وأن ينزل الظن منزلة اليقين ، فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التي تشهد للقضية ، فإن كانت الحجة قاطعة فالقضية حق ، وإن كانت غير قاطعة فالقضية ظن .

وهذا التفريق العلمي في المنزلة بين ما هو حق وما هو ظن يتفق مع تعاليم القرآن الذي يأمر بالحذر من الظنوت والالوهام ، ويعلل ذلك بانها كانت السبب في تضليل الناس وإفساد نفوسهم (وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم الا بخرصون) الانعام : ١١٦ .

ويقول الله تعالى في هذا المعنى (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، ان
الظن لا يغني من الحق شيئاً) يونس : ٣٦ . مؤدى هذه الآية ان الناس
لا يتبعون فيما يعتقدون الا الظن والظن تصور لا يستند الى دليل ، ويؤدي
بصاحبه الى وهم باطل وهو لا يفيد ما يفيدده الحق الذي عليه مدار
الايان الصحيح .

والقرآن يأمر بالاعتماد على العلم اليقيني وينعى على الذين يجرون وراء الوهم
والظن . قال الله تعالى (بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم) الروم : ٢٩
وقوله سبحانه (وان كثيراً ليضلون باهوائهم بغير علم) الانعام : ١١٩ .

ونرى القرآن من جهة أخرى ينعى على الدهريين الاعتماد على الظن (وقالوا
ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم
بذلك من علم ان هم الا يظنون) الجاثية : ٢٤ . ويأمر الله تعالى المسلمين بأن
يتقيدوا بهذا الاساس العلمي بقوله (ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع
والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً) الاسراء : ٣٦ . ومعنى الآية :
لا تتبع كل ما يقال لك بما ليس لديك عنه علم يقيني ، لأن الانسان يسأل يوم
الحساب عما تلقاه سمعه وادركه بصره ووعاه قلبه من المدركات غير المحققة التي
قد تجر الى معتقدات ضالة او جهالات ضارة .

فالحكمة القرآنية بنص الآيات التي أوردناها أساساً العلم الثابت المحقق
لا الظن والفكر المجرد كما هو شأن الفلسفات التي كانت قبل الاسلام كاليونانية
وغيرها ، وهذا طراز جديد من الحكمة لم يتطور الى شكل فلسفة الا في
القرن التاسع عشر تحت اسم الفلسفة الوضعية Positivisme وهي أحدث
الفلسفات نشوءاً ، وأعمها سلطاناً على العقول ، فقد تعبت الانسانية من
الفلسفات الظنية وانفتحت ان تنفض في كل جبل ما ابرمته ودانت له في الجبل
الذي قبله ، فضلاً عن أنه كثيراً ما أدت الظنيات الى بناء أحكام خيالية
وطوحت بأهلها الى مناح شتى من الخلافات .

هذا رأي الفلسفة الوضعية التي أساسها الدليل المحسوس الذي لا ينقضي في
عهد من العهود المستقبلية وهو بعينه أساس الحكمة القرآنية .

الاسلام عدو التقليد

العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم قديماً في هذا لأن العلم قديماً والآخذين به خصوصاً في القرون الوسطى من الاوروبيين كانوا كثيراً ما يقتنعون في الاستدلال على الصحة أو للبطلان باثبات أن القضية توافق أو تخالف رأي فلان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلاً يتخذ حجة قاطعة في موضوعه من غير أن ينظر في رأي أرسطو هذا في ذاته ، ومن غير أن يسأل ما دليل أرسطو .

والعلم في منعه التقليد الاعمى ينفق تماماً مع القرآن الذي شدد التذكير على أناس كانوا يتمسكون بالرأي ، لا لأنهم عقلوه ، ولكن لأن آباءهم فعلوه قال الله تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) المائدة : ١٠٤ وقال الله تعالى أيضاً بهذا المعنى (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق^١ بما لا يسمع^٢ الا دعاء^٣ ونداء^٤ صم بكم عمي فهم لا يعقلون) البقرة : ١٧٠ ، ١٧١ . فهذا النص القرآني صريح في أن التقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين ، وإن المرء لا يكون مؤمناً الا إذا علم الاسلام وآمن به عن اقتناع لا عن تقليد . ثم صور الله حالة الكفار ومن يدعونهم الى التوحيد بحال البهائم والراعي حين يصبح بها لتقبل أو تدبر فلا تسمع الا صوتاً أو الفاظاً لا تعقل لها معنى (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) صم عن سماع دعوة الحق ، بكم عن اجابة الداعي اليه ، عمي عن آيات صدقه .

والقرآن ينفر الشعوب من التقليد الاعمى للقادة والرؤساء الروحانيين فيصرح بأن القادة ومن اقتدى بهم يتساوون في العذاب في الآخرة اذا كانوا على باطل (اذ تبرأ الذين اتبعوا^٥ من الذين اتبعوا^٥ ورأوا العذاب

١ ينطق : يصيح ٢ الدعاء : الصياح بالبهائم لتأتي

٣ النداء : الصياح بها لتذهب

٤ اتبعوا : ائمة الكفر الذين يجرمون ويحللون غير ما امر الله .

٥ اتبعوا : اشياعهم الذين يتلقون افعالهم بالتقليد .

وتقطعت بهم الأسباب (البقرة : ١٦٦ . مؤدى هذه الآية : ان المتبوعين في الحياة الدنيا يتبرأون من تابعيهم يوم القيامة ، ويرى كلاهما العذاب الذي ينتظره وتقطع بينهم العلاقات .

هذه هي تعاليم الاسلام التي تقضي على التقليد الأعمى الا ما كان بدليل قاطع وحجة مقنعة .

الاسلام يدعو للاخذ بالاحسن

والقرآن بعد ان نهى وزجر عن التقليد للآباء والانقياد الا على للقادة والزعماء نهى ايضاً عن التقليد بوجهة نظر واحدة وذلك بدعوته للاخذ بالاحسن لأن أكثر الناس يتخذ مما سمعه في اول عهده بالنظر وما قرأه في بعض ما كتب ممن يحسن الظن بهم ، سدوداً امام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب الصحيحة فلهمذا يظل على ضلاله ولا يجيد عنه .

فالأخذ بالاحسن نزعة جديدة في الاخلاص للحقائق لم تتجمل على اكمل حالاتها الا لدى مفكري القرن التاسع عشر الذين ادركوا ان الحقائق المطلقة لا يمكن ان تكون وقفاً على فلسفة مقررة محدودة بل يجب عليهم ان يأخذوا باحسن ما يجدونه في جميع الفلسفات ، وان اسلوباً واحداً من البحث لا يصح أن يحتكر أحسن طرق الوصول اليها وهذا المبدأ هو الذي دعت اليه الحكمة القرآنية منذ نحو اربعة عشر قرناً في قوله تعالى (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب) الزمر : ١٨ ففي هذه الآية امر الله المسلمين ان يسمعوا كل قول ، ويستعرضوا كل مذهب وان لا يحملهم التعصب للرأي أن يرفضوا كل رأي دون تفهم وتمحيص وان يأخذوا من بينها ما يجدونه أحسن ، وقد وصف الله الذين يفعلون ذلك بانهم المهديون هداة الهية وبانهم أهل العقول الراجحة والبصائر النيرة .

وهكذا نرى ان الاسلام قرر لاهله من الاصول ما توصلت اليه ارقى الفلسفات بعد تطور دام قروناً كثيرة .

العقل في الاسلام

والاصل لذلك كله في العلم هو تحكيم العقل في كل ما يعرض للانسان من امر ، والمراد بالعقل : العقل الذي استوفى شروط الفهم التي تؤهله لفهم ما يلقى اليه .

فالقرآن يحتمل الى العقل وينعى على من لا يستعمله فيذكر القرآن العقل باسمه وافعاله ما يبلغ زهاء خمسين مرة ، ويذكر كلمة (اولو الالباب) اي العقول في بضع عشرة مرة وكذلك جاءت كلمة (اولي النهى) في موضع واحد .

والقرآن يبين ان العقل نعمة كبرى وانه لا بد من استخدامه واللبوء الى حكمه في كل شيء . فيقول تعالى في تذييل كثير من الآيات القرآنية (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (ولقد بينا الآيات لقوم يعقلون) (أفلا تعقلون) (أفلا تتفكرون) (لعلمهم يتفكرون) .

ثم نرى القرآن ينعى على الذين يهلون موهبة العقل بأسلوب مؤثر تفعل في قارئها ما لا تفعله أفسى الزواجر (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) الانفال : ٢٢ .

ويقول الله تعالى ايضاً في هذا المعنى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلاً) الفرقان : ٤٤ .

كما ان الله جعل اهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة كقوله عن الكفار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) الملك : ١٠ هذه اشادة كبيرة بالعقل اختص بها الاسلام ، لا يوجد لها نظير فيما بين ادينا من الاديان الاخرى .

الاسلام يقرر ان للكون نوااميس ثابتة

من أصول العلم اطراد الحقائق الطبيعية فما ثبت بالدليل القطعي انه حق في وقت ما سيكون دائماً حقاً .

هذا الأصل الذي يستمسك به العلم هو اصل قرآني قال الله تعالى (فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، وإن تجد لسنة الله

تحويلاً (فاطر : ٤٣ . وقوله تعالى (لا تبديل لحلق الله) الروم : ٣٠ .
وقوله أيضاً (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد : ١١ .
تلك آيات صريحة في اطراد الطبيعة وبقاء سنن الله فيها من غير تحويل ولا
تبديل حتى ينتهي الأجل المقدر لها .

مقومات النظر والعقل في الاسلام

وعلم الانسان ليس مصدره العقل فقط بل المشاهدة الصحيحة . وهي
الطريق الذي سلكه العلم حديثاً وصار ميزته التي امتاز بها . هذه المشاهدة
العلمية تستعمل فيها الحواس خصوصاً السمع والبصر لكن بشرط اعانتها على
دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة مثلاً كالمكروسكوبات التي يستطيع بها المشاهد
أن يرى من الاجسام ما صغر حتى دق عن أن تبصره العين المجردة كالجراثيم ،
أو بالتلسكوب التي تقرب للانسان الاجسام البعيدة فيرى ما لم يكن يراه
من قبل .

هذه المشاهدة هي الطريق الذي سلكه العلم الطبيعي للوصول الى مقدمات
صحيحة ولولاها ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع ولا كشفت من
أسرار الخلق .

فالمشاهدة أصل علمي وهي أيضاً أصل قرآني أيضاً ، وان الآيات
القرآنية التي تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر مع العقل كثيرة نذكر
منها ما يأتي :

أولاً : استعمال البصر مع العقل . قال الله تعالى (قل سيروا في الأرض
فانظروا كيف بدأ الخلق) العنكبوت : ٢٠ .

ثانياً : استعمال السمع مع العقل قال الله تعالى (أفلم يسيروا في
الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعي
الابصار ولكن تعي القلوب التي في الصدور) الحج : ٤٦ . المراد
بالقوب في هذه الآية العقول لانها موطن الادراك يدل على ذلك قوله تعالى
(قلوب يعقلون بها) والمعنى المراد من هذه الآية هو أن القلب يصدأ فلا
يعي ولا يعقل شيئاً على الرغم من كونه لم يصب من الناحية المادية بمرض .
وهذا سر من أسرار البسكولوجيا وهو ان للقلوب عي تصاب به لا يعتبر

بجانبه على الابصار شيئاً لأنه يحجب عن الانسان النور العلمي الذي يقوم به حياته الصحيحة . ولهذا نفى الله الفهم عن قلوب الكافرين في آية اخرى وهي (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل) الاعراف : ١٧٩ .

التجارب والملاحظات

على أن علم الانسان ليس مصدره العقل فقط ، بل ان العقل لا ينمو ولا يقوى الا عن طريق التجارب والملاحظات ، فلو أخذ طفل وحبس عن العالم الا فيما يكفي لحياته من طعام وشراب فانه وان نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال لا ينمو عقله عن عقل الطفولة ، بهذا يقول علماء التربية والى هذا تشير الآية القرآنية التالية (والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) النحل : ٧٨ . فهذه الآية صريحة في أن ما يحصله الانسان من علم بعد أن يولد انما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل .

العلم الذي يدعوا اليه الاسلام

وما المراد بالعلم الذي يدعوا اليه الاسلام ؟ أهو العلم الديني فقط كما يظن البعض ؟ لا ، بل المراد كل علم يدفع الجهل سواء أكان في العقائد الدينية أم في الشؤون المادية ؛ فالعلوم الطبيعية وعلم النفس وعلم التاريخ والجغرافيا والاجتماع وغيرها هي التي قصدها القرآن بجانب العلوم الدينية .

حض الله المسلمين على تعلم هذه العلوم ليكونوا أبصر بعظمة الله وقدرته المتجلية في آيات صنعه كما قال الله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر : ٢٨ . كما ان هناك الى هذه الحكمة حكما اخرى هي ما يتبع هذه العلوم من منافع مادية دنيوية آتية من استخدام حقائق العلم في شؤون الانسان .

الدعوة الى تعلم العلوم الطبيعية

اما الآيات التي وردت في القرآن بمعنى الحض على تعلم العلم الطبيعي

فهي كثيرة نذكر منها قوله تعالى (ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم واللوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) الروم : ٢٢ . وقوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ . وواضح من السياق في الآيتين أن المراد بالعلماء هنا العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله فيما أشارت هاتان الآيتان وموضوعهما هو نفس موضوع العلم الطبيعي . فالعلم الطبيعي يبحث عن الاشياء الكونية : طبائعها ، وخواصها والعلاقات بينها ثم عن حقيقتها إن أمكن ، أي عن آيات الله المودعة في هذه الأشياء .

ففي آية فاطر مثلاً لا يعرف سر نزول الماء من السماء الا بعلم الطبيعة ولا يعرف تركيبه وخواصه الا بعلم الكيمياء . ولا يعرف الانبات والاثار فيها الا بعلم النبات ولا يعرف ما الجبال ولا ما طرائفها البيض والحمر والسود الا بعلم طبقات الارض ، ولا يعرف اختلاف اجناس البشر والدواب والانعام الا بعلمي أصل الشعوب والحيوان . ثم أنظر الى تذييل الآية (انما يخشى الله من عباده العلماء) فقد حصر الله الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية لأن العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الطبيعة على خشية الله خالقها .

علم الحياة (البيولوجيا)

ونرى القرآن يوجه نظر الانسان الى نفسه وكيفية تكوينه في الرحم وأطواره (فلينظر الانسان بما خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) الطارق : ٥ - ٧ . فمن النظر في أصل التكوين يتوصل الانسان الى علم الحياة وفيه من عجائب نمو الجرثومة الانسانية ونقلها في أدوار الحلقة وتطورها ما أصبح مادة (البيولوجيا) .

علم النفس

أما ما جاء في القرآن عن التفكير في النفس فيتجلى لنا في مثل قوله

تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) الذاريات : ٢١ . اليس النظر في النفس يستنبط منه علم النفس بكل ما فيه من الغرائز والميول والبواعث الانسانية .

علم التاريخ والاجتماع

ولم يكتف الاسلام بتكليف المسلم النظر فيما هو أمامه من الكائنات بل دفعه الى البحث فيما كانت عليه الامم السالفة من قوة السلطان واتساع العمران ثم ما آلوا اليه باتباع الشهوات ونجاهل البيئات من هلاك ودمار قال الله تعالى (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) الروم : ٩ ويقول سبحانه في هذا المعنى أيضاً (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) النمل : ٦٩ .

أترى ان قوماً أنت اليهم هذه التعاليم يحملون السياحات العلمية للتعرف في أسباب تكون الامم وانحلالها وورقيها وانحطاطها وعمرانها وخرابها ؟ أفلى يؤدي هذا التعرف كله الى علمي التاريخ والاجتماع بكل ما يشتملان عليه من بحوث .

شهادة بعض علماء الغرب في مدنية الاسلام

ثبت تاريخياً وبشهادة المؤرخين الغربيين أن المسلمين الاولين انتشروا في الأرض يبلغون الامم دعوة الاسلام ، فاندفعوا يقتبسون ما صادفوه من العلوم والصناعات لدى تلك الأمم وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها ، ودفعهم حب التكميل الى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة فلم يجرؤوا ما صادفوه في البلاد التي افتتحوها من الكتب العلمية كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين ، ولكنهم كانوا يستولون فيها على امهات المصادر العلمية ويستأجرون العارفين بلغتها لكي يترجموها لهم ترجمة حرفية ، ويغدقون على اولئك التراجمة من المال ما يغريهم على الاجتهاد . ثم أكبوا على دراستها

وتطبيقها على العمل وساعدهم على ذلك ملوكهم وامراؤهم واثريائهم حتى انتقلت اليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين واصبحت جامعاتهم محط رحال مريدي الاستفادة من جميع الامم وزادوا في مواد العلوم بما اكتشفوه في الطب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات الخ ..

والى القارىء رأي بعض مؤرخي اوروبا في ذلك .

قال العلامة (دريبر) المدرس بجامعة نيويورك في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل باول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ م أي بعد موت محمد بست سنين . ولم يمتض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية ، وقدروها قدرها الصحيح ولما آلت الخلافة الى المأمون سنة ٨١٣ م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الارض ، وجع الخليفة اليها كتباً لا تحصى وقرب اليه العلماء وبالع في الحفاوة بهم ، »

وبعد ان عدد مآثرهم في العلوم الطبيعية قال : « ولو اردنا ان نستقصي كل آثار هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رفقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً وارجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم ، » ويقول في مواطن اخرى : « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوروبيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك اوروبا وامراؤها يقدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها ، »

وقال العلامة « سديلو » Sédillot في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت اقدامهم ونسربت عنهم الى اوروبا ، فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقاؤها ، »

ويقول العلامة الاجتماعي الدكتور جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) :

« خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والاعريق والرومان الخ ..

ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي ، اذا كان عظيماً فيه ، فان تأثيرها المدني فيه كان ضعيفاً للغاية وما عجز الاغريق والفرس والرومان عنه في الشرق قدر عليه العرب بسرعة ومن غير اكراه وما وفق العرب له في مصر اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كالفريقية وسورية وفارس الخ ... وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يدخلوها الا عبري سبيل . وقد كان لهم تأثير واضح في بلاد الصين التي لم يزوروها الا تجاراً .

ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن .

« ولم يجعل تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ؛ بل كان لهم الاثر البالغ في ثقافته العلمية ايضاً . وقد نقل العرب الى الهند والصين اثناء صلاتهم بها قسماً كبيراً من معارفهم العلمية التي عدها الاوروبيون على غير حق من اصل هندي او صيني . » تثبت الآن ان تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق ، وان أوروبا مدينة للعرب بحضارتها .

ولا يمكن ادراك اهمية شأن العرب في الغرب الا بتصور حال أوروبا حينما ادخل العرب الحضارة اليها . فاذا رجعنا الى القرن التاسع من الميلاد ، حين كانت حضارة العرب الاندلسية في اوج نضارتها ، رأينا ان مراكز الثقافة في الغرب كانت ابراجاً يسكنها امراء اقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ، وان أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون اوقاتهم في ادبارهم ليكشفوا بخشوع كتب الاقدمين النفيسة وليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة . مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجيتها ولم يبد ميلها الى العلم الا في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد . فلما ظهر فيها اناس رأوا ان يرفدوا اكفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب . ونقل عن الاستاذ ليبري قوله : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون . »

« وقد كانت ترجمات العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات
اوروبا نحو ستة قرون ، ويمكننا ان نقول ان تأثير العرب في بعض العلوم
كعلم الطب مثلاً دام الى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا في موبدليه
في اواخر القرن الماضي ١ . »

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الاوروبيون الذين لا يصح اتهامهم
بالمبالغة والاغراق في امر لا تعود منه عليهم ولا على اقوامهم اية مفخرة .
ونحن اذ ننشر هذه الاقوال لنذكر على ان في الاسلام روحاً تبعث الآحاد
والجماعات الى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها في التعاليم البشرية وهي من
ادل الادلة على ان الاسلام وحي الهى لا من صنع البشر .

نظام الحكم في الاسلام

واضع الاحكام هو الله — الحكومة الاسلامية ليست نيوقراطية —
الشورى — المساواة — العدالة — الامر بالمعروف والنهي عن المنكر —
النشريع الاسلامي — بعض الاسس التي قام عليها التشريع الاسلامي —
كفاية التشريع الاسلامي وصلاحه لاي مجتمع — الخلافة .

سيرى القارىء عندما يتأمل التشريع الذي اتى به القرآن في نظام الحكم والقانون الجنائي ، والمعاملات والنظام المالي ، والسياسة الخارجية ، انه لم يتعرض فيه للتفصيلات واحكام الجزئيات التي تختلف فيها الامم باختلاف احوالها وازمانها ، وانما اتى باسس مجملة وقواعد كلية قلما تختلف فيها امة عن امة اذا احبت ان تراعي مصلحتها والعدالة الاجتماعية في الارض ، وتحقيق المثل العليا .

ففي نظام الحكم لم يقرر القرآن شكلاً معيناً يجب ان تكون عليه الحكومة الاسلامية ، ولم ينص على كيفية تنظيم سلطاتها ، وانما قرر الاسس الثابتة التي يجب ان يقوم عليها نظام الحكم تحقيقاً لمصالح الناس والعدل بينهم ، وتأمينهم على حقوقهم .

والسبب في ذلك : ان مصالح الناس تختلف باختلاف البيئات والازمان والاحوال فرب قانون يحقق مصلحة في زمن ما ، يثير مفسد في زمن آخر او لامة اخرى . فلو شرع الله في القرآن احكاماً مفصلة محددة لوقع المسلمون في الحرج لا سيما إذا وجدوا ان مصلحتهم تتناقض مع

تعاليمه ، لهذا كان من حكمة الله ان شرع في القرآن الاحكام الاساسية والمبادئ العامة التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان وترك الفروع والتفاصيل تتصرف فيها كل امة وفق ما تراه بما يحقق صلاحيتها على أن لا تشذ هذه الفروع عن الاحكام الاساسية التي قررها القرآن .

واضع الاحكام هو الله

إن أول أساس ارتكز عليه نظام الحكم هو ان واضع الاحكام هو الله وحده ، فليس لبشر ان يشرع اصولاً قانونية غير التي سنّها الله ، اما في القضايا التي لم يرد فيها نص فقد فوضت الشريعة مهمة سن قوانينها الى اولي الامر من العلماء الذين هم اهل للاجتهد .

والدليل على اختصاص الله بالتشريع قوله سبحانه : (إن الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه) يوسف : ٤٠ . ويخاطب الله نبيه بقوله (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله) النساء : ١٠٥ . ويأمر الله تعالى المؤمنين باتباع الشريعة وينهى عن اتباع ما يخالفها بقوله (اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلاً ما تذكرون) الاعراف : ٢ . ويجرم الله تحريماً قاطعاً الخروج عن نصوص الشريعة ويعتبر العامل بغير الشريعة كافراً وظالماً وفاسقاً (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون) المائدة : ٤٤ . (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون) المائدة : ٤٥ . (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون) المائدة : ٤٧ .

وينفي الله الايمان عن المؤمنين ويقسم بنفسه على ذلك حتى يحكموا الرسول فيما شجر بينهم ولا يكتفي بهذا بل يشترط لاعتبارهم مؤمنين ان ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق من قضاء الرسول ويسلموا تسليماً . والرسول لا يحكم الا بما اتزل الله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً بما قضيت ويسلموا تسليماً) النساء : ٦٥ . والمؤمن الذي يختار من الحكم غير ما اختاره الله ورسوله فهو ضال (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم

الحيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً (الاحزاب : ٣٦)
ويترتب على كون الحكم لله نتيجتان هامتان :

النتيجة الاولى : ثبات القوانين الشرعية واستمرارها ولو تغيرت الاحكام وليس الامر كذلك في القوانين الوضعية التي يضعها الاحكام لحماية المبادئ التي يعتقدونها وخدمة الانظمة التي يقيمونها ، وهي حين تضع القوانين تراعي مصلحتها دون غيرها من الفئات ، فاذا ما ذهب الفئة الحاكمة وجاء غيرها تغيرت القوانين لتحمي الفئة الجديدة ، وهكذا تتغير القوانين بين حين وآخر مما يؤدي الى عدم احترام القانون والثقة به .

النتيجة الثانية : احترام القوانين الشرعية والثقة بها لأنها من عند الله وهذا الاعتقاد بالذات يحمل على طاعة القوانين الشرعية لان الطاعة تقربهم من الله ولان العصيان يؤدي الى عقوبة الله الدنيوية والاخرية - كما قرر بذلك القرآن في مواضع كثيرة فيه - وكل شريعة في العالم تقدر قيمتها بقدر ما لها في نفوس الافراد من طاعة واحترام وثقة ^١ .

الحكومة الاسلامية ليست تيوقراطية

واذا كانت الحكومة الاسلامية هي حكومة الهية تدير حسب ما شرعه الله فلا يفهم من هذا انها حكومة (تيوقراطية) وهي التي تترجم عادة بالدولة الدينية ويقصد بها الدولة التي يستمد بها الحاكم سلطته من عند الله سواء اكان فرداً ام جماعة ، هذه الفكرة التي تقوم عليها الحكومة الدينية فكرة بعيدة كل البعد عن مبادئ الاسلام وتشريعها ، فهي تستمد جذورها من الافكار الدينية القديمة التي كان رجال الدين والملوك يدعون لانفسهم بان سيادتهم مستمدة من الله ، فيشرعون للناس قانوناً من انفسهم حسب ما شاءت أهواؤهم لأنه لم يكن في تعاليم دينهم شيء من التشريع الا مواضع خلقية مأثورة عن المسيح . اما الدولة الالهية الاسلامية فتشتمل على التشريع الذي جاء به القرآن والذي لا يستبد بالحكم به طبقة من رجال الدين بل يقوم على تنفيذ الشعب لانه في نظر القرآن هو خليفة الله ونائبه في عمارة ارضه (واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة)

١ افنسنا هذا المعنى عن كتاب (الاسلام واوضاعنا القانونية) للاستاذ عبد القادر عوده

البقرة : ٣٠ . كما أن الشعب مصدر السلطات ، ولهذا كان الله تعالى يخاطب المؤمنين كافة عندما يأمرهم بتنفيذ أحكامه بقوله (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القتلى) البقرة : ١٧٨ . ويقول سبحانه (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) المائدة : ٣٨ . وهكذا نرى في أغلب آيات القرآن أن الله يوجه فيها الخطاب الى المؤمنين كافة .

ثم لما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه أن يقوم بالتكاليف المنوطة به فقد أوجب الله عليه أن يختار من يحمل عنه النبعة والمسؤولية في القيام بالتكاليف وهذا الاختيار من الأمة يقوم على الرضا وتوخي المصلحة العامة ، لا بقهر ولا جبروت ، ولا خديعة ؛ ومن تختارهم الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها ويجب عليها طاعتهم وهم الذين سماهم الله (أولي الامر) قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) النساء : ٥٩ .

أمر الله في هذه الآية بطاعته وهي تتحقق بالعمل بالقرآن لانه هو الذي يحوي أوامر الله ونواهيه ، فالقرآن هو المصدر الاسمي من مصادر التشريع وهو في المقام الأول لا يعدل عنه متى وجد نص للعاد في .

ثم أمر الله بإقامة الرسل لانه هو الذي يبين لنا أحكام الشرح ومقاصده التي وردت مجملة في القرآن . فالسنة الصحيحة المنقولة نقلاً ثابتاً عن النبي هي في المكان الثاني بعد القرآن . ثم ارشد الله سبحانه الى مصدر ثالث من التشريع الزم اتباعه وطاعته كما ألزم اتباع القرآن والسنة وهذا المصدر المشار اليه في الآية (وأولي الامر منكم) وهم اهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم أفراد الأمة ويعتبر رأيهم رأي الأمة ، يقول الشيخ محمد عبده في تفسير (أولي الامر) : « المراد بأولي الامر جماعة اهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع اليهم في الحاجات والمصالح العامة ؛ فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر واحد أو حكم وجب أن يطاعوا فيه ، بشرط أن يكونوا منا وإن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التي عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا

مختارين في بحسبهم في الامر واتفاقهم عليه ، وأن يكون ما اتفقوا عليه من المصالح العامة التي لهم سلطان النظر والبحث فيها ، فلا هو من العقائد ولا من العبادات .

وهؤلاء يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للامة) يسهر على مصالحها ويوجه سياستها في السلم والحرب ، فمضى اتفق هؤلاء على أمر وجب على الامة الطاعة وعلى الحاكم التنفيذ فان أبى أسقطوه .

واتفاق اولي الامر هو الذي يسمى « اجماع المسلمين » وهو الركن الثالث من اركان التشريع في الاسلام يصار اليه حيث لا يوجد نص في القرآن والسنة الصحيحة في حادثة ما .

وعند التنازع بين اولي الامر سن الله طريقاً لحسم النزاع وهو الرجوع الى قواعد الدين العامة وتلمس الاسباب والعلل ، وقياس الحوادث على نظائرها وأشباهها وهذا ما أمر به الله بقوله (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول^١) النساء : ٥٩ . وعرض الخلاف على قواعد الدين وقياس الامور بأشباهها يقوم به اولو الامر باختيار طائفة من أهل البصر والفقهاء تبحث الامور ، وهذا ما سمي عند الفقهاء (بالقياس) الذي جعلوه المصدر الرابع من مصادر التشريع ، وهذا كله انما يكون في قوانين التعامل ، أما العبادات فكل مجتهد عليه العمل برأيه ، وكل مسلم له أن يقلد من يختار من المجتهدين الموثوق بعلمهم .

وطاعة اولي الامر لا تجب الا في حدود ما أمر به الله ورسوله ، فمن أمر بما يوافق القرآن والسنة الصحيحة فطاعته واجبة ، ومن أمر بخلاف ما جاء به القرآن والسنة فلا سمع له ولا طاعة وهذا ما يقوله الرسول عليه السلام (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) ويقول (السمع والطاعة على المرء فيما أحب او كره الا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) .

١ ان ما درجت عليه الشريعة الاسلامية من رد الامر عند التنازع الى الله ورسوله اجدر بتحقيق المصلحة مما تفعل كثير من الامم التي تنقاد الى الاكثرية . فالاكثرية قد تكون من حزب واحد ينصر بعض افراده بعضاً في الحق والباطل او يباغت المصلحة الشخصية فتضيع المصلحة العامة . اما في الرد الى تعاليم الله التي ما امرت الا بالمعادلة المجردة والمصلحة العامة فهو ضمان لوحدة الامة وسيرها على صراط مستقيم .

وفيما يلي تقدم للقارىء بعضاً من الدعائم التي تقوم عليها الدولة الاسلامية .

الشورى

ذكرنا فيما سبق ان الله اوجب على الامة اطاعة اولى الامر فيها يرتضونه لمصالح الامة ، وهؤلاء سن الله لهم قانوناً يسرون عليه ليقيمهم من الوقوع في اخطاء قد تجر الدولة الى الملكة وهذا القانون هو الشورى وهو الآن الدعامة التي يقوم عليها النظام الديمقراطي .

فالشورى قاعدة من قواعد الشريعة ولهذا نرى في القرآن سورة سميت باسم (سورة الشورى) وفيها يمدح الله المؤمنين الذين اتخذوا المشورة قانوناً لهم في اعمالهم فقال الله سبحانه (والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون) الشورى : ٣٨ . قرن الله في هذه الآية نظام الشورى بالصلاة والصدقة ليدل على ان الشورى بين ولاة الامر من اسس الاسلام وان الاستبداد ليس من شأن المؤمنين .

ويقول الله مخاطباً رسوله (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر) آل عمران : ١٥٩ . امر الله رسوله ان يشاور امته في الامر العام من شؤونها وقد ثبت ان رسول الله قد استشار المسلمين قبل ان يخرج لغزوة احد ، وانهم اشاروا عليه بان يخرج لقتال اعدائهم ، وكان من رآيه ان يبقى بالمدينة مدافعاً ولكنه نفذ ما اشاروا به وخرج وانتهى الامر بهزيمة المسلمين . فانه سبحانه قال لرسوله : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر) اي لا يحمانك ما كان من نتائج المشاورة على ان تتركها بل شاورهم في الامر . وهذا يدل على ان الله سبحانه يريد ان تكون سياسة المسلمين قائمة على مبدأ الشورى ، وان لا يستبد بها فرد مهما كانت نتيجة المشاورة .

فاذا كانت الشورى واجبة على رسول الله وهو الذي يمتاز بكماله العقلي والروحي واتصاله بالوحي الالهي فهي على غيره اوجب ، وقد ذهب بعض علماء المسلمين الى ان النبي كان غنياً عن المشاورة ولولا ارادة الله جعلها

قاعدة شرعية لما امره بها ، وقد ثبت ان النبي شاور اصحابه في كثير من الشؤون التي لم ينص عليها في القرآن ، وكان يعمل بما يظهر له انه الصواب .

والشورى التي اوجبها الاسلام لا يفهم منها انها لمجموع الامة او للطبقة الكثيرة من بين سائر الطبقات لان القرآن تكرر في الآيات التي تنص على ان الرأي والفضل والذمة والعلم ليست من صفات اكثر الناس على التعميم وهذه امثلة بما جاء في القرآن (وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) الانعام : ١١٦ . (ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا) الفرقان : ٤٤ .

واذا كانت طاعة اكثر الناس تضل عن سبيل الله فليس من الصواب ان تكون لهم المشاورة وانما ترجع الشورى الى اهل الرأي والحكمة بدليل قوله تعالى (واذا جاءهم امر من الامن او الخوف اذعوا به ولو ردوه الى الرسول والى اولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) النساء : ٨٣ .

والذين يعلمون الامور احق بالمشاورة من الذين لا يعلمون (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) الزمر : ٩ .

اوجب الله الشورى على المسلمين ولم يبين كيفيتها ، لان تفصيل النظم الشورية والطرق التي تكون بها لما يختلف باختلاف احوال الامة الاجتماعية فمن العدل ان تقرر الشورى وان يترك لكل امة ان تضع نظمها التفصيلية بما يلائم حالها ويتوافق مع مصلحتها .

المشاورة

كانت الامم قبل الاسلام وبعده الى اواخر القرن الثامن اي الى عهد الثورة الفرنسية تضع فروقا عظيمة بين طبقات الامة ، جاء في موسوعة لاروس : « في سنة ١٧٩٨ م . كان يوجد عدم مساواة في توزيع المناصب العمومية وعدم الرقابة عليها ، فبذل وزراء لويس السادس عشر جهدهم لاجراء الاصلاحات التي تتطلبها الامة ، فلم ينجحوا ضد المقاومة

العنيفة لرجال الدين والنبلاء ، فرأت الامة انه لا يجدي في هذا الامر غير ثورة
تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات جماعة اخرى يسودها قانون المساواة
بين الجميع .

وليس بخاف على القراء ما أحدثته الثورة الفرنسية من الاصلاحات وكانت
سبباً في ايقاظ شعوب اوروبا جميعاً من سباتهم ، فلم يلبثوا حتى ثاروا جميعاً ضد
حكوماتهم طالبين الاقتداء بحكومة الفرنسيين .

وبعض الاديان تقرر نظام الطبقات كالديانة البراهمية التي تقسم الامة الى
طوائف اربع ، وتعمل اعلى هذه الطبقات البراهمة او الكهنة ، وأدناها السفلة او
الانجاس ويكفي لتدرك ظلم هذا النظام ان نعرف انه جاء في قوانين احد
مشرعي هذه الديانة وهو (مانو Manou) ان البراهمي يجب احترامه بسبب
نسبه وحده ، واحكامه هي وحدها الحجة ، وان له - حين الحاجة - ان يمتلك
مال الواحد من السفلة ، لان العبد وما ملكت يده لسيده . وكان محرماً على
هذه الطبقة المنكودة ان يتصل احدهم بشيء من الدين او العلم والا حل به
عذاب غليظ ، مثل صب الرصاص المصهور في اذنيه ، وشق لسانه وتقطيع جسمه^١
واليهود زعموا انهم وحدهم ابناء الله واحباؤه ، وفرقوا في تشريعاتهم بين
اليهودي فحرموا الربا بشدة بين بني اسرائيل ، وجعلوا تجارتهم الراجحة الحلال
بالنسبة لمن لم يكن منهم^٢ . والامة الجرمانية النازية قبل الحرب العالمية
الاخيرة اسرفت في الدعوة الى العنصرية فقسمت الجنس البشري طبقات ، في
مقدمتها الجنس الآري المتفوق .

والامم الديمقراطية التي تدعي ان العالم الانساني مدين لها بمبادئ المساواة
لا تزال في قوانينها وسياساتها تسير بما يخالف هذا المبدأ كما في بعض الولايات
الامريكية وبعض المناطق الافريقية الخاضعة للاستعمار الاوروبي التي تجرد السود
من ابسط الحقوق الانسانية .

١ يرجع في هذا الى ما كتب عن الهند وحضارتها ومن هذه المراجع « حضارة الهند »

للدكتور جوستاف لوبون ترجمة الاستاذ محمد عادل زعيتر .

٢ يرجع في هذه التفرة الى التوراة نفسها ، سفر التثنية ١٥ : ٧ - ٨ سفر اللاويين ٢٥ : ٣٥ - ٣٩

واذا نظرنا في ما شرعه الاسلام من مبدأ المساواة ، رأينا انه لم يصل أي تشريع مماوي او وضعي في مبلغ الحرص على مبدأ المساواة الى ما وصل اليه . فقد قرر الاسلام مساواة الناس امام القانون ، ومساواتهم في الحقوق العامة السياسية وغيرها ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لابيض على اسود ، ولا لغني على فقير ، ولا لوجيه على صعلوك ، وبذلك قضى الاسلام على نظام الطوائف واساليب التفرقة بين الطبقات في الحقوق والواجبات ؛ وفي ذلك يقول الله تعالى : (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم) الحجرات : ١٣ .

ففي هذه الآية يدعو الله الناس كافة ، ولا يدعو قبيلة واحدة ولا امة بعينها ، يدعو الناس باصلهم الاول وهو آدم وحواء ، ومن كان ابوهم واحداً وامهم واحدة فلا محل لان يدعي بعضهم السمو على بعض من ناحية الجنسية . وانهم وان تفرقوا في البلاد واختلفوا في الاجناس واللغات والألوان ، فان تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفات الاخوة ، بل توجب عليهم ان يتعارفوا (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) والتعارف يدعو الى التآلف والتواد والتعاون على تذليل عقبات الحياة .

هنا تشعر النفس الانسانية بسمو هذا المبدأ ويكاد هذا الشعور يدفعها الى الأخذ به دون تردد لو لا ما يشور فيها من بقايا العصبية التقليدية من ادعاء كل شعب بانه الاولى بالزعامة والاحق بالكرامة ، هنا يتلقاه الشطر الاخير الذي تضمنته الآية هو (ان اكرمكم عند الله اتقاكم ^١) أي لا تفاضل بين الناس الا على اساس اعمالهم وكفائتهم ، وما يقدمه كل منهم لربه ووطنه والمجتمع الانساني ويقول النبي عليه السلام في الدعوة الى المساواة في آخر خطبة له « ايها الناس : ان ربكم واحد وان اباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، اكرمكم عند الله اتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ،

١ التلوي هي فضيلة اراد الله بها القران احكام ما بين الانسان والخلق واحكام ما بين الانسان وخالفه ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها في اكثر اياته الاخلاقية والاجتماعية والمراد بها ان يتقي الانسان كل ما كان فيه ضرر لنفسه او ضرار لغيره

ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل الا بالتقوى) .

هذا هو مبدأ المساواة الذي ولد قبل أربعة عشر قرناً على يد الاسلام في بلاد العرب التي كانت تعد أشد الامم تباهاً بالانساب وتسامياً بالآباء .

أنكر زعماء العرب من قريش على النبي عليه السلام هذا المبدأ ، مبدأ المساواة الذي بدأ بتطبيقه فقالوا له : كيف نجلس اليك يا محمد وانت تجلس الى مثل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعمار ، وسواهم من العبيد وعامة الناس ؟ اطردهم عنك ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك ، فأبى رسول الله ، فقالوا : فاجعل لنا يوماً ولهم يوماً ، فكاد أن يجيب رغبتهم فنزل عليه الوحي من السماء (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، اليس الله بأعلم بالشاكرين . واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) الانعام : ٥٢ - ٥٤ .

وتخاصم مرة أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي عليه السلام فاحتد أبو ذر على العبد وقال له :

« يا ابن السوداء » فغضب النبي عليه السلام وقال : « طف الصاع ، طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى او بعمل صالح » فوضع أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود : « قم فطأ على خدي » تكفيراً له على قوله .

والرسول عليه السلام كان لا يفرق في الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ولا بين حر ومولى ، فقد ولى « بلالا » على المدينة المنورة وفيها كبار الصحابة وأصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه ، كما أن النبي ولى بأذان الفارسي على اليمن ولما مات ولى ابنه مكانه .

هذا السمو الذي تحلى به الاسلام يزداد ظهوراً اذا قورن بما يجري بين أرقى الامم المتعدنة اليوم من المعاملات التي تنافي كل مبدأ عال من هذا الطراز .

فاذا كان العلم وما وصل اليه العالم من الرقي ، لم يوصل الانسانية الى ما قررته الاسلام وحمل اهله على العمل به ، في بقعة من الارض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل فيها ، افلا يكون هذا ادل دليل على انه صادر من رب العالمين ، لان عقل الحكيم مهما حلق في جو المبادئ الصالحة فلا يستطيع ان يتعدى حدوده فيفكر في وضع اصل عالمي كهذا الاصل في وقت وفي بيئة تدعو جميع الاحوال الى الصد عن التفكير فيه .

العدالة

كانت الامم قبل الاسلام تعرف معنى العدل^١ والظلم ولكنها ما كانت تعرف حدود كل منها ، فكانت تلك الحدود متداخلة ، شأنها في ذلك شأن اكثر المعاني المجردة إذ ذاك .

فاذا نظرنا الى الشعب اليوناني نراه فرق بين من ينتسب الى أصل يوناني وبين من لم يمت اليه بسبب ، فجعل الاولين جميع الحقوق الوطنية وخولهم حق السيادة على الآخرين وجاراه في ذلك الشعب الروماني مضيفاً الى ذلك شيئاً من الغلو ، فلم يفرق بين من هو من أصل روماني وبين غيره فحسب ، بل فرق بين الخاصة والعامة أيضاً ، فجعل الاولين الزعامة والقيادة والحماية ، وفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة . جاء في دائرة معارف لاروس عند ذكر نظم الرومانيين : « ماذا كانت نظم الرومان على وجه الاجمال ؟ كانت الوحشية والقسوة بعينيهما مرتبتين في صور قوانين . أما من جهة فضائل رومية مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجماعة ، فهي بعينها فضائل قطاع الطرق والصوص ، أما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية ، فقد كان لا يرى فيها الا شره مفرط للمال ، وحقد على الاجنبي ، وتجرد من عاطفة الرحمة الانسانية .

فمعنى العدالة لم يكتمل عند اليونانيين ولا اكتمل عند الرومان الذين خلفوهم ، فكان اكتماله من حظ القرن التاسع عشر ، وهو لم يتأخر الى هذا الحد الا لابتنائه على معارف اجتماعية لم يتم نضجها الا في العصور القريبة وأرفع ما وصل اليه معناها لدى الشعوب المتقدمة وما شرطه علم الاجتماع

١ من مراجع هذا الفصل اجاث منوعة للاستاذ محمد فريد وجدي في مجلة الازهر وكذلك فصل الدعوة الى احترام العمران وعدم الفساد .

في اكتمال العدالة هو : ان تراعي الامم فيما تسنه لنفسها من قوانين حقوق الانسانية برمتها وهو باعتراف علم الاجتماع لم تصل اليه امة بعد .

فلننظر الآن هل اكتمل معنى العدالة لدى الامة الاسلامية وهل في نصوص القرآن تلك التعاليم ؟ فاذا تحقق هذا في القرآن كان ذلك حجة علمية على ان مصدره وحي الهي .

العدالة في القرآن

من المثل العليا في الاسلام تكليف متبعيه بأن يكونوا قائمين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التي تحد من سلطانه قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين ^١ بالقسط ^٢ شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين إن يكن غنياً او فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ، وإن تلووا ^٣ أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) النساء : ١٣٥ .

ففي هذه الآية امر الله تعالى المؤمنين ان يكونوا مبالغين في تحري العدل وان يكونوا شهداء بالحق مطلقاً لوجه الله لا لغرض دنيوي ولو كانت هذه الشهادة على انفسهم او على والديهم واقرب الناس اليهم ، إن يكن المشهود عليه غنياً يرجى خيره ويخشى بأسه ، أو فقيراً يشفق عليه ويتوهم ، فلا تمتنعوا عن الشهادة على الغني طلباً لرضاه او على الفقير شفقة عليه ، فان الله أولى بالصفين واعلم بصالحهما ، ولو ان حق الشهادة مصلحة لها لما شرعها ، فعليكم ان تراعوا امر الله ، وتقوموا بالشهادة عليهم بما عندكم . بعد هذا أمرهم الله أن لا يتبعوا اهواءهم كراهة أن يعدلوا ، ثم حذرهم الله من ان يحرفوا ويبدلوا بالشهادة أو يتركوها رأساً فان الله مطلع على ذلك فيجازيهم عليه .

لم يكتف القرآن بهذا بل امر المسلمين ببراعة قواعد العدل حتى مع اعدائهم قال الله تعالى (ولا يجرمكم شأن ^٤ قوم على ألا تعدلوا ^٥) اعدلوا هو

١ القوامون : جمع قوام مبالغة من القيام بالامر بمعنى فعله وادائه ٢ القسط : العدل

٣ تلووا : من الالي بمعنى التحريف والتبديل ٤ الشأن : البغض والعداوة

٥ العدل بالفتح والكسر المثل وفلان يعدل فلاناً اي يساويه وعدت فلاناً بفلان اذ سويت بينها ومنه يعلم ان العدل في الحكم هو تحري المساواة والمائلة بين الخصمين .

اقرب للتقوى) المائدة : ٨ والمعنى : ولا تحملنكم كراهتكم لقوم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل اقرب الى تقوى الله . وورد في القرآن الامر بالعدل والتعظيم لشأنه في كثير من الآيات كقوله تعالى (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) النساء ٥٨ . ويأمر الله المسلمين بالعدل حتى في الاقوال (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) الانعام : ١٥٢ . ويبين الله ما تبعث الرسل لاجله (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الحديد : ٢٥ . فهذه الآية بينت ان الله اراد ببعث الرسل ان يقيم في العالم نظام العدالة الاجتماعية على اساس ما أنزله عليهم من البينات وما انعم عليهم من الميزان وهو نظام الحياة الانسانية العادل لان لها قوانين تضبطها وموازين تحكمها وباخلالها يكون فناءها .

هذه هي مبادئ القرآن لاقرار العدالة في الارض ، والتي يستبين لك من معناها وروحها بأنها ليست من كلام بشر بل كلام الله الذي سن للناس ما يسعدهم ويهديهم الى السلام والطمأنينة في حياتهم .

الدَّعْوَةُ إِلَى احْتِرَامِ الْعَمَرَانِ وَعَدَمِ الْفَسَادِ

قامت قبل الاسلام امم توافرت فيها جميع أسباب القوة ، فلم تلبث ان اضطرتها سنن الاجتماع الى التبسط في الارض ، توالي الفتوح الى كل جهة طلباً للتوسع في الملك والتضخم في الثروة ، فكانت الطريقة التي تتبعها هي ما تليه عليها القوة الفاشية لا اصول العدل ، فكانت تستولي على المدن فتدك عمرانها ، وتسلب اموالها ، وتستذل اهلها وتولي عليهم من يسومهم الذل والظلم .

هذه سنة الفاتحين وقد أحسنت ايجازها ملكة سبأ إذ قالت حين أتاها كتاب سليمان - كما جاء في القرآن : (إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) النمل ٣٤ .

واقامة الدليل على ذلك من التاريخ مبسور . فهو حافل بالفظائع التي ارتكبت في كل عصر على يد كل أمة من امم الارض .

ولا نذهب بعيداً فهذه الحرب الماضية والتي قبلها رأينا فيها الامم

المتمدنة تجاوزت بآلاتها المدمرة ضرب المحاربين ، الى تخريب دور الأهلين ودفنهم تحت انقاضها ، بتسليط اسراب كثيرة من الطائرات عليهم ، وما كان يدور بخلد احد قبل نشوب هاتين الحربين بأن المتمدنين يبلغ بهم الحقد مع وحدة مدنييتهم الى حد التفكير في اباداة بعضهم بعضا وهدم عمرانهم . اما الاسلام فنراه حذراً من الفساد في عبارات مؤثرة وألوان من البيان فاقتلع جذور هذه الرذيلة من قلوب اهله ، وأحل محلها انسانية لا تعدو عليها الاعتبار العداثية .

اعتبر القرآن الفساد من الجنايات الاجتماعية ، وحذر اهله منه في آيات كثيرة : قال الله تعالى تشريعاً على المفسد (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو لئى الحصام . واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد)^١ البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦ . وحذر الله المسلمين من معاملة الشعوب بالقسوة والجبروت وتخريب العامر من مدنييتهم لان هذا يفضي بهم الى عدم النجاح في شئونهم الخاصة ، ويعرف الذين درسوا تاريخ الامم ان الامم اكثر ما أتاها الانحلال من الشعوب التي كانت في حوزتها وسامتها سوء العذاب .

وقد اوجز الله تعالى هذا الأصل في قوله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) الانبياء : ١٠٥ ، اي الصالحون لكل خير ومنه الحكم وسياسة الشعوب . ومن العجب ان يكون الامر محلاً للشك أو يكون مما يخفى على العاقلين من الناس . قال الله تعالى (ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ام نجعل المتقين

١ والمعنى : اي ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا من انه نصير للعقوب وللإصلاح ويخلف بالله على ان ما في قلبه موافق لما يقول ، وهو قوي في الجدل لا يعجزه ان يغش الناس بما يظهر من الميل اليهم والسعي في اصلاح شئونهم . وهؤلاء اذا أعرضوا عن مخاطبتهم وذهبوا لشأنهم فان سمعهم على ضد ما قالوا فيسعون في الارض فساداً ويدأبون على ذلك ولو ادى الى اهلاك المزروعات والنسل والله لا يحب الفساد واذا أمر المفسد بالمعروف او نهى عن منكر أسرع اليه الغضب وعظم عليه الامر اذ يحيل اليه ان النصيح والارشاد ذلة له تنافي العزة التي تليق بأمثاله فهذا المفسد مصيره النار جزاء عمله .

كالنجم (ص : ٢٨ .

وبما شدد الله التحذير منه فهو افساد ما تم اصلاحه في العالم (ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين) الاعراف : ٥٦ .

وزاد تنبيهه — بعدم الفساد في الارض — قوة بأن جعل النجاة في الآخرة وفقاً على المتأدبين بهذا الادب الالهي وهو عدم الفساد . قال الله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) القصص : ٨٣ .

وقد علم الله ان المسلمين ستنزل اليهم الخلافة في الارض فقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلكم) النور : ٥٥ . فوجه الله للمسلمين هذا الخطاب خاصة بقوله (فمـلـ عـسـيـم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم) محمد : ٢٢ . اي فهل يتوقع منكم ايها المسلمون اصحاب الدين العالمي العام ان ولاكم الله خلافة الارض أن تفسدوا في الارض وتقطعوا صلات القرابة الانسانية بينكم ثم وجه الله الى الذين يجرؤون على ذلك اشد ما يوجه الى الجناة الطائنين فقال في تنمة هذه الآية (أولئك الذين لعنهم الله فاصهم واعمى ابصارهم) محمد : ٢٣ . والجدير بالذكر في هذا المقام ان من ادل الأدلة على أن هذا القرآن مصدره من الله ان كل هذه التوصيات باحترام العمران وعدم الفساد في الارض صادرة من بلاد العرب وقد كانت في عهد نزول القرآن تكاد تكون خالية من آثار العمران وكان العرب قد نسوا انه قد كان منذ اجيال من قبائلهم من لها نصيب في العمران ، فكثرة التوصية في هذا الموضوع اشارة قوية من الله الى ان المسلمين سيحتكون بالامم ذات العمران .

وقد امتد الفتح العربي الى نحو ربع الكرة الارضية في مدة لا تتجاوز القرون بعد موت نبيهم وصادفوا فيها من القصور والمؤسسات ودور العبادة ما لا سبيل الى حصره فتركوه على حاله . وفي هذا من الدلائل ايضاً على ان الاسلام هو الدين العام الذي يسع الناس جميعاً .

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

واذا كان الاسلام قرر مبدأ الشورى [REDACTED] من جهة اخرى يوجب أن يكون في الدولة الاسلامية جماعة من اولى الحل والعقد يمثلون الامة وينوبون عنها ويراقبون سياستها ونظم حكمها ، وهذه الجماعة هي التي قصدها الله سبحانه بقوله (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) آل عمران : ١٠٤ . فهؤلاء الجماعة وظيفتهم الاشراف على الحكم وليكونوا مرجعاً لهم في تشريعهم ، وليكونوا دعاة الى الخير وناهين عن المنكر وناصحين للرعية .

ولا يقتصر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في هؤلاء الجماعة فقط بل يعم القرآن هذا الواجب على المؤمنين جميعاً (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وبقيةون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله واولئك سيرحمهم الله) التوبة : ٧١ . وعهد الله المؤمنين الذين يقومون بهذا الواجب بالرحمة وهي رعايته وتوفيقه وفضله لهؤلاء . ويبين الله اهمية الامر بالمعروف بقوله (والعصر ١ . ان الانسان افى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) العصر . ففي هذه السورة جعل الله الحكم بالحسنة عامماً يشمل جميع الناس ثم استثنى المؤمنين المتواصين بالحق والصبر وأقسم على هذا الخبر بالعصر ، والتواصي بالحق هو الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والقرآن يقص علينا امر بني اسرائيل لما انعدم فيهم هذا الاصل (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا

١ العصر : يطاق ويراد به الدهر ، وهو جملة الزمان الذي تقع الحوادث فيه وقد أقسم الله به لاشتماله على الاعاجيب فيه الهناء والشقاء والغنى والفقر والعز والذل ولما كان الناس يضيفون المصائب والنوائب اليه ويشكون منه ويألمون ، اراد الله ان يبين بهذا القسم ان الخسران من عمل الانسان في الدهر لا من الدهر نفسه ، واذا كان يوجد الشر فيه فذلك من عمل الانسان لا من عمل الدهر .

يفعلون) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ . واللعن عقوبة شديدة فظيعة ، هي الطرد والابعاد عن رحمة الله والحرمان من توفيقه ورعايته ، ولا شك ان امة تصاب بذلك هي امة هالكة وقد ذكر الله سبب هذا اللعن فيين انه العصيان والاعتداء وعدم التناهي عن المنكر ، ثم ذم صنيعهم بهذه العبارة البليغة (لبس ما كانوا يفعلون) .

والنبي ﷺ وصايا في هذا المعنى (الدين النصيحة : فسأله الصحابة لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

ويقول (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان) .

بهذا الاصل سعى الاسلام الى تكوين رأي عام موحد نحو غاية سامية يستأصل شأفة الفساد أنى وجد ولا يسكت عنه . وليس اضر على شعب ما عندما يجاهر افراده بالاعتداء على حرمان الدين والدولة والحقوق العامة ثم لا يحرك احد ساكناً للانكار والاعتراض والزمامهم بالاقلاع عما هم فيه .

التشريع الاسلامي

كان رسول الله في حياته مرجع المسلمين في جميع شؤونهم الدينية ، يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل ، ويقضي بينهم في خصوماتهم . وفي زمنه أحكمت قواعد الشريعة وأقيمت أسسها .

ولما توفي الرسول لم يكن اصحابه كلهم اهلاً للفتيا ، بل كانت بعضهم الفاهمين روح التشريع بما تلقوه من رسول الله وما شاهدوه من قضاائه وفتاويه ، وكانت سلطة هؤلاء محصورة في امرين : اولاً - تفهم نص القرآن والسنة وبيان الحكم الذي يدل عليه . ثانياً استنباط الحكم بواسطة الاجتهاد وذلك في المسائل التي كانت تحدث للمسلمين بعد الرسول ولم ينص على احكامها في القرآن والسنة ، ولم يكتسب الصحابة هذا السلطان التشريعي من تعيين الخليفة ، او انتخاب من الأمة ، وانما امتازوا به من طول صحبتهم للرسول ، وحفظهم عنه القرآن والسنة ومشاهدتهم كثيراً من أفضيته ، ومن مواهبهم في العلم والفهم ، فلهذه المميزات تصدروا لتولي

السلطة التشريعية ، ودان لهم المسلمون بهذا ، وتفرقوا في البلدان الاسلامية لاداء هذا الواجب التشريعي ، فكان في كل بلد اسلامي عدد من الصحابة هم مرجع الولاية والجماعات والافراد في معرفة حكم الشريعة فيما يعرض وما يحدث من الوقائع ، وفي كل بلد اسلامي التف حول علماء الصحابة بعض المسلمين ، اخذوا عنهم القرآن ، ورووا عنهم السنة ، ومارسوا استنباط الاحكام فيما لا نص فيه ، وتصدوا لافتناء المسلمين .

تدوين التشريع

انقضى القرن الاول الهجري ولم يكن للدولة الاسلامية قانون سوى القرآن والسنة فاذا وجد أهل الفتيا من الصحابة والتابعين وغيرهم نصاً اتبعوه ، والا اجتهدوا برأيهم ، وما كانت تدون هذه الآراء الاجتهادية ولا تعتبر قانوناً ولا شرعاً الا باعتبار أن مستندها ومرجعها الى القرآن والسنة ، ولكن لما اتسعت دائرة الفتح الاسلامي ، وانتشر الاسلام في الممالك القاصية ، وتفرق حفاظ الشريعة ورواتها في مختلف الانحاء ، خيف من تشتت احكام الشريعة ودخول الفوضى في التشريع ، فكان هذا باعثاً على امرين : الاول تدوين حديث رسول الله . والثاني ، تدوين المجتهدين اجتهاداتهم واصولهم التي استندوا اليها في الاستنباط مثل الائمة المجتهدين : ابو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، واحمد بن حنبل ، وزيد بن علي ، وجعفر الصادق وغيرهم . ومن هذا الحين صار رجال التشريع يرجعون الى القرآن والسنة والاجتهادات وما كان في هذا من بأس لأن الرجوع الى مجتهديات الائمة ما كان الا للاهتداء الى فهم القرآن والسنة ، والاستعانة على الاستنباط .

بعض الاسس التي قام عليها التشريع الاسلامي

من درس الاحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن في مختلف ابوابه ، من عقائد وعبادات ومعاملات وعقوبات ظهر له ان الحكمة في تشريع القرآن والسنة هو تحقيق مصالح الناس والعدل بينهم ، ولهذا يقول الله تعالى في وصف القرآن (إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم) الاسراء : ٩ .

ويقول الله تعالى في وصف رسالة محمد المؤيدة بالقرآن (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم) الاعراف : ١٥٧ .

وقد أدرك علماء الشريعة الإسلامية هذه الحقيقة فنرى الامام الشاطبي يقول في كتابه الموافقات : « إن أحكام الشريعة ما شرعت الا لمصالح الناس وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله » ويقول الامام ابن القيم الجوزي في كتابه الطرق الحكيمة « ان الله سبحانه ارسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الارض والسموات فاذا ظهرت امارات العدل واسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه » .

وعلى ضوء ما تقدم نرى علماء الشرع الاسلامي استمدوا من القرآن والسنة مبادئ تشريعية عامة ، تعتبر الدستور التشريعي الذي يبني عليه المشرع تشريعه ، والقاضي قضاؤه ، وكل مبدأ من المبادئ التي سندكرها نراها تمت بسبب صحيح الى تحقيق مصالح الناس ، واقامة العدل بينهم ، وتصلح للتطبيق في كل زمان ومكان .

المبادئ الخاصة بدفع الضرر

من هذه المبادئ : المبادئ الخاصة بدفع الضرر التي استمدتها العلماء من قوله عليه السلام : « لا ضرر ولا ضرار » وهي :

(١) الضرر يزال شرعاً - من فروعها : ثبوت حق الشفعة للشريك والجار ووجوب الضمان على من اتلف مال غيره ، ووجوب الوقاية والتداوي من الامراض .

(٢) الضرر لا يزال بالضرر - من فروعها : لا يجوز للانسان أن يدفع الفرق عن أرضه باغراق أرض غيره . وأن يحفظ ماله باتلاف مال غيره .

(٣) يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام - من فروعها : يقتل القاتل لتأمين الناس على نفوسهم . يهدم الجدار الآيل للسقوط في الطريق العام .

(٤) يرتكب اخف الضررين لاتقاء اشدّها - من فروعها : تطلق الزوجة

من زوجها للضرر والاعسار .

هـ (دفع المضار مقدم على جاب المنافع - من فروعه : يمنع أن يتصرف المالك في ملكه إذا كان تصرفه يضر غيره .

المبادئ الخاصة بسد ذرائع الفساد

ومن هذه المبادئ أيضاً : المبادئ الخاصة بسد ذرائع الفساد ، التي استمدّها العلماء من قوله تعالى (ولا نسبووا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) الانعام : ١٠٨ . حرم الله تعالى سب آلهة المشركين مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة لآلهتهم ، لأن ذلك ذريعة الى سب المشركين لله تعالى . ويقول عليه السلام في سد ذرائع الفساد : (ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، إلا أن حمى الله محارمه) وعلى هذا استمد العلماء من ذلك هذه المبادئ التي ساروا في التشريع على ضوئها وهي : ما يفضي الى المحظور فهو محظور - ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب - ما أضر - كثيره حرم قليله .

وقد فصل وشرح مبادئ سد ذرائع الفساد العلامة ابن القيم الجوزي في كتابه (اعلام الموقعين)^١ وذكر تسعاً وتسعين مثلاً على ذلك ، مما أمرت به الشريعة ونهت عنه ، من هذه الامثلة التي ذكرها : انه ﷺ حرم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها في الزواج وقال : انكم اذا فعلتم ذلك قطعتم ارحامكم ، حتى لو رضيت المرأة بذلك لم يجوز لان ذلك ذريعة الى القطيعة المحرمة - ومن ذلك ان الشريعة منعت قبول شهادة العدو على عدوه لئلا يتخذ ذلك ذريعة الى بلوغ غرضه من عدوه بالشهادة الباطلة - ومن ذلك أن النبي نهى أن يبیت الرجل عند امرأة الا ان يكون زوجاً او ذا رحم محرم عليه زواجها ، وما ذلك الا لان المبيت عند الاجنبية ذريعة الى الزنا - ومن ذلك ان النبي نهى أن يخطب الرجل على خطبة اخيه الانسان او يبيع على بيع اخيه وما ذاك الا أنه ذريعة الى التباغض والتعادي بينه وبين اخيه الانسان .

١ راجع الجزء الثالث ابتداء من صفحة ١١٩

المبادئ الخاصة برفع الحرج .

استمدها العلماء من قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج)
الحج : ٧٨ . وقوله سبحانه (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) البقرة
١٨٥ . ويقول سبحانه ايضاً (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) البقرة : ٢٨٦ :
والمبادئ التي استمدها العلماء من هذه الآيات هي :

(١) المشقة تجلب التيسير - يتفرع عنها : ان الشريعة اباحت للصائم ان
يفطر في السفر وعند المرض ، وقصرت الصلاة في السفر ، واسقطت فريضة
الحج عن العاجز والمريض .

(٢) الحرج شرعاً مرفوع - من فروعه : قبول شهادة النساء وحدهن فيما
لا يطلع عليه الرجال من عيوب النساء وشؤونهن .

(٣) الحاجات تنزل منزلة الضرورات في اباحة المحظورات - وبما يتفرع على
هذا المبدأ كثير من عقود المعاملات وضروب الشركات التي تحدث بين الناس
ونقتضيها تجارتهم . فاذا قام البرهان الصحيح على ان نوعاً من هذه العقود او
التصرفات صار ضرورياً للناس بحيث ينالهم الحرج اذا حرم عليهم هذا النوع من
التعامل ابيع لهم قدر ما يرفع الحرج منه ولو كان محظوراً .
مبدأ الضرورات تبيح المحظورات .

استمده العلماء من قوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه)
البقرة : ١٧٣ . وذكر سبحانه الذين يتجاوز عنهم اذا تلفظوا بالكفر بقوله :
(الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) النحل : ١٠٦ . ولذا ابيع للمكره ان
يتلفظ بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان . وبيع اكل الميتة المحرمة وشرب الخمر
المحرم عند الضرورة ، واحل اكل مال الغير دفعاً للهلاك عند شدة الجوع بقدر
ما يدفع الضرر وعلى هذا المبدأ بني كثير من الاحكام .
المبادئ الخاصة بالبراءة الاصلية .

استمده العلماء من قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً)
البقرة : ٢٩ . وقوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة) والمبادئ التي

استنبطوها هي : الاصل في الاشياء الاباحة - الاصل في الانسان البراءة .
هذه بعض المبادئ التي قدم عليها التشريع الاسلامي والتي لا يرتاب منصف
في انها مبادئ عادلة لا تتنافى مع اي مبدأ تشريعي عادل .

كفاية التشريع الاسلامي وصلاجه لاي مجتمع

ما ضاقت القوانين الشرعية الاسلامية عن حاجة ولا وقفت عقبة في سبيل
مصلحة او عدالة ، بل نراها وسعت مصالح الناس على اختلافهم ، فقد كانت
الدولة الاسلامية في عصورها الذهبية بمدة رفعتها من بلاد الصين شرقاً الى جبال
اسبانيا غرباً ، وكان البحر المتوسط بحيرة اسلامية تحقق الراية الاسلامية على
بمالكه ، وكانت هذه الولايات المختلفة تضم ائمة متباينة الاجناس والعادات والاديان
والمصالح من عرب وفرس وروم وغيرهم وقد دبرت الدولة الاسلامية شؤون
هذه الامم والشعوب بقوانين من شريعتها ، وما حدثنا التاريخ ان المسلمين في
عصر من تلك العصور استمدوا قانوناً من تشريع غيرهم او استقدموا مشرعاً
اجنبياً لتشريع قوانينهم ، بل كلما فتح الله لقواد الجيوش ولايات ، فتح العلماء
للتشريع ابواباً من الاجتهاد والاستنباط حتى كانت حركتهم التشريعية مسايرة
حركة الفتح ، وما ضاقت القوانين الشرعية عن حاجة ولا قصرت عن مصلحة
ولا تنافت مع مصالح مسلم او يهودي او نصراني او وثني بل عاشوا في ظل
عدالتها وتسامحها عيشة راضية .

والتشريعات الاسلامية التي كانت تطبق آنذاك سبقت المدنية الحاضرة بكثير
من اصول العدل واشتملت على كل ما يتطلبه كل مجتمع كامل صحيح ، وقد
اعترف بهذا علماء القانون ممن لا يدينون بالاسلام وها هي بعض شهاداتهم .
يقول العلامة سائيلانا « ان في الفقه الاسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم
المدني ان لم نقل ان فيه ما يكفي للانسانية كلها »¹ .
وكتب الدكتور محمد صادق فهمي القاضي المصري الآت

1 Avant-projet du Code Civil et Commercial Tunisien.

رسالته للدكتوراه في « الاثبات » وجعل اهم جزء فيها ما قرره علماء الشريعة الاسلامية ، فلما اطلعت عليها لجنة الامتحان الفرنسية وناقشته اياها اقرتها له فتزوج استاذة في الحقوق « ليفي اولمان » كتابه بمقدمة نشرت في صدره قال فيها : « ان كتاب الدكتور جدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة بل يجب ان يكون من رؤوس القانون في عصر النهضة الحاضرة . وعلى ذلك يجب اعتبار الشريعة الاسلامية في المعاملات مصدراً حياً للقانون العصري ومناطقاً للحق في ادواره المختلفة » .

ولقد عقد البعثة الامريكي « هوكنج Hocking استاذ الفلسفة بجامعة هارفرد فصلاً مستفيضاً عن « مصير الثقافة الاسلامية » في كتابه « روح السياسة العالمية » المطبوع سنة ١٩٣٢ فبعد ان تكلم بأسهاب عن اصول الفقه الاسلامي وعن المذاهب الاربعة قال : « ان سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس في اتخاذ الاساليب الغربية التي تدعي ان الدين ليس له ان يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السهاوية ، وانما يجب ان يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم . وحياناً يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد افكار جديدة واصدار احكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية . فالجواب عن هذه المسألة هو ان في نظام الاسلام كل استعداد داخلي للنمو ، لا بل انه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة ، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الاسلامي وانما في انعدام الميل الى استخدامها . واني اشعر بكوني على حق حين اقدر ان الشريعة الاسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض » .

ويقول الدكتور انريكو أنسابا توحين « ان الاسلام يتمشى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة فهو يستطيع ان يتطور دون ان يتضاءل في خلال القرون ويبقى محتفظاً بكامل ماله من قوة الحياة والمرونة ... فهو الذي اعطى للعالم ارسخ الشرائع ثباتاً وشريعة تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الاوروبية »

وفي سنة ١٩٣٢ قرر المؤتمر الدولي المنعقد في لاهاي للقانون المقارن ان الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن ، وبهذا صارت مصادر القانون المقارن اربعة وهي : القوانين الفرنسية ، والقوانين الالمانية والقوانين الانجليزية ، والشريعة الاسلامية .

هذه بعض شهادات علماء القانون في الشريعة الاسلامية اقتصرنا عليها خوفاً من التطويل وليس يضير الامم الاسلامية ان ترجع الى الحكم باصول هذه الشريعة بعد ان جربت وبرهنت على صلاحيتها لأي مجتمع انساني فهي شريعة الله (ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون) المائدة : ٥٠ .

وعلى هذا فالواجب على كل دولة اسلامية ان تكون هيئة علمية من خيرة رجال الدين والقانون والاقتصاد تكون مهمتها وضع قانون وفق ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة ، وان ترجع الى اقوال المجتهدين فيها يوافق مصلحة الامة ، وما لا يوجد نص فيه في القرآن والسنة من معاملات الناس يوزن بميزان المصلحة وينظر فيما يجلبه من نفع للأفراد والجماعات .

الخِلافة

الخِلافة ١ في لسان المسلمين وترادفها الامامة ، وامارة المؤمنين « هي رئاسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ . »

« وسمي القائم بذلك خليفة وإماماً ، فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والافتداء به وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في امته فيقال بإطلاق وخليفة رسول الله ٢ » .

وتوضيح ذلك ما قال ابن خلدون : « والخلافة هي حمل الكفاية على مقتضى النظر الشرعي ، في مصالحهم الاخرية والدينية الراجعة اليها ، إذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ،

١ الخلافة لغة : النيابة عن الغير ، اما لنية المنوب عنه واما لموته واما لجزءه ، والخليفة السلطان الاعظم . ٢ مقدمة ابن خلدون ص : ١٨١ .

فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به^١ .
من ينصب الخليفة ويعزله .

اتفق اهل السنة على ان نصب الخليفة فرض كفاية وان المطالب به اهل
الحل والعقد في الامة وهم زعماء الامة ورؤساؤها وعلمائها العالمون بشريعة
الامة ومصالحها السياسية والاجتماعية والقضائية والادارية .

وهذه الرياسة العليا مكانتها من الحكومة الاسلامية مكانة الرياسة العليا
من أية حكومة دستورية لأن الخليفة انما يستمد سلطانه من الامة الممثلة في
اولي الحل والعقد ويعتمد في بقاء هذه الولاية على ثقتهم به ونظره في مصالح
المسلمين . ولهذا قرر علماء المسلمين ان الامة خلع الخليفة لسبب يوجبها وان
أدى الى الفتنة احتمل أدنى المضرتين ، وتختلف الخلافة عن سائر الرياسات العليا
في الحكومة الدستورية في أن الخلافة رياسة عامة في امور الدين
والدنيا .

الشروط المعتبرة في الخليفة .

اشتراط العلماء شروطاً فيمن يولى الخلافة نذكر ما قاله ابو الحسن
الماوردي في الاحكام السلطانية « واما اهل الامامة فالشروط المعتبرة فيهم
سبعة : احدها العدالة على شروطها الجامعة ، والثاني العلم المؤدي الى الاجتهاد
في النوازل والاحكام ، والثالث سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان
ليصح معها مباشرة ما يدرك بها ، والرابع سلامة الاعضاء من نقص يمنع من
استيفاء الحركة وسرعة النهوض . والخامس الرأي المفضي الى سياسة الرعية
وتدبير المصالح ، والسادس الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد
العدو ، والسابع النسب وهو ان يكون من قريش لورود النص فيه
وانعقاد الاجماع عليه » .

واما الشرط السابع الذي ذكره الماوردي فمختلف فيه . ومنشأ الخلاف

١ مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠

عدم القطع بصحة النص الوارد فيه ومعارضته للنصوص الكثيرة التي وردت بالغناء اعتبار الانساب والاعتماد على الاعمال والنعي على من دعا الى عصية . والنسب القرشي ان كان مشروطاً وخصوصاً قرب العهد بوفاة الرسول سببه لما كان لقبيلة قريش من المنعة والقوة التي يسنعين بها الخليفة على اداء واجبه وجمع الكلمة حوله ، فهو شرط زمني مآله اشتراط ان يكون الخليفة من قوم اولي عصية غالبية ولا اطراد لاشتراط القرشية .

الفرق بين الخلافة والبابوية

أثار كثير من كتاب اوروبا مسألة الخلافة وشبهوها بالبابوية والحقيقة ان الخلافة تختلف كثيراً عن البابوية الى حد انها لا يلتقيان ابدأ في نقطة . فالبابا ينتخبه الكرادلة وعددهم ثمانون والكردينالية ارفع الرتب الكهنوتية بعد رتبة البابوية . وامير المؤمنين يعتبر رجلاً عادياً ينتخبه اهل الحل والعقد ولهم ان يعزلوه وأن ينتخبوا غيره إذا فارق الكتاب والسنة في عمله لقوله عليه الصلاة (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) . والبابا بيده النقض والابرار والغفران والحرمان ، والخليفة ليس بيده شيء من ذلك . والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب ، والخليفة لا يخصه الدين في فهم القرآن والعلم بالاحكام بمزية بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم .

ما يجب على الخليفة نحو الامة

يجب على الخليفة نشر دعوة الاسلام واقامة ميزان العدل وحماية الدين من الاعتداء والبدع ، والمشاورة في كل ما ليس فيه نص ، وهو مسؤول عن عمله يراجع كل واحد من الأمة فيما يراه خطأ فيه ، ومحاسبه عليه اهل الحل والعقد . يقول ﷺ (ألامام راع وهو مسؤول عن رعيته) .

ويقول سبحانه (إن الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها وإذا حكمتم

بين الناس ان تحكموا بالعدل (النساء : ٥٨ . والأمانة كل ما يجب حفظه وتأديته الى مستحقه ، فالمناصب العامة امانة في عنق الامام يجب ان يضعها في اهلها ، واموال الدولة امانة يجب صرفها في وجوهها ، وما للأفراد والجماعات من حقوق مشروعة امانة يجب تمكينهم منها . والعدل هو الحكم بما أنزل الله وايصال الحكم الى مستحقه في أقرب وقت .

وطالب الولاية والامارة لاجل الجاه والثروة لا يولى في الاسلام ، فقد قال النبي لرجلين طلبا ان يؤمرهما : « إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه » .

كيف اختيار اول خليفة في الاسلام .

توفي محمد ﷺ تاركاً امته وشأنها تتصرف في شؤونها على ممارسة القرآن وسنته حتى انه لم يسم من يخلفه من كبار الصحابة .

كان موته مفاجأة لقومه أذهلتهم هنيئة وكادت تفتنهم عن دينهم . وفي هذه الفترة العصبية وقف أبو بكر فرقي المنبر وخطبهم قائلاً « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا قوله تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) آل عمران : ١٤٤ . فتاب صواب الصحابة بعد هذه الكلمة وتركوا رسولهم مسجى في حجرته ، واجتمعوا تحت سقفة احدثهم ، واثمروا فيما بينهم لتعيين من يخلفه ، فهاضت غير ساعة تبادلوا فيها الرأي حتى انتهوا الى رأي اجماعي بتعيين ابي بكر لخلافته ولما تمت بيعة ابي بكر قام في الناس خطيباً وقال :

« ايها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينوني ، وان صدفتم فقوموني . الصدق امانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله . لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » .
« اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم »
قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » .

المتأمل في هذه الخطبة ، وهي اول ما طرق آذان المسلمين من ذي سلطان بعد وفاة النبي ﷺ ، يرى فيها اصول الديمقراطية ماثلة لا ينقصها شيء . وأين الامم الماضية من الديمقراطية وخاصة الامة العربية ، في ذلك العهد ؟ فتولي أبي بكر رياسة الحكومة على النحو الذي حدث من الاجتماع والتشاور فيمن هو احق برياستهم ، ثم مبايعة الناس اياه بعد انتخابه هو بإذنان صريح بأن السلطان للامة ، وعدم تعيين النبي من يخلفه أيد هذا الحق للجماعة أعظم تأييد .

وقول أبي بكر في خطبته « فان احسنت فأعينوني ، وان صدفتم فقوموني » اشعار واضح بأن للأمة حق الاشراف على الحكومة ، فتعين المحسن وتؤيده وتقوم المعوج او تعزله .

وفي قوله : « اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » اعلان لا يقبل المماراة في ان الحكومة الاسلامية ذات دستور مقرر هو القرآن والسنة النبوية وقد قيد أبو بكر نفسه بالسير عليها على رؤوس الاشهاد ، حتى انه صرح بأن للأمة حق إقالة الحكومة اذا لم تقم بما يوجهه عليها الدستور . وهذه الالتزامات هي الاركان الثابتة للديمقراطية الصحيحة .

هذا مثال من ديمقراطية الخليفة الاول ولولا خوف التطويل لا ثبتنا أمثلة كثيرة من ديمقراطيته وديمقراطية الخلفاء الراشدين الذين جاءوا بعده .

الاقتصاد في الإسلام

الاقتصاد الرأسمالي - الاقتصاد الاشتراكي - اقرار الملكية الفردية في الاسلام - التخفيف من طغيان رأس المال ويشمل ما يلي : الزكاة - قانون التوريث - الوصية - نصيب الفقراء من الغنائم والفيء - تحريم كنز الاموال - حفظ اموال الامة والافراد ويشمل ما يلي : الحجر على السفهاء - اختبار اليتامى قبل تسليم اموالهم - كتابة العقود المالية والرهن - تحريم الربا - تحريم اكل اموال الناس بالباطل - تحريم القمار - تحريم التلاعب بالمكاييل والاوزان - ذم لاسراف - البر بالطبقات الفقيرة ويشمل ما يلي : الاتفاق في سبيل الله - الاتفاق على ذوي الحاجة - الاتفاق من الطيبات - المال ملك لله - الكفارات .

تنبؤ المشكلة الاقتصادية في النظام العالمي مكان الصدارة لانها المسألة الخطيرة التي تشغل العالم اليوم ، وقد حملت حضارة الغرب المادية حالة من اضطراب العلاقات الدولية في يد ، بينهما حملت في اليد الاخرى حالة من النزاع بين الطبقات المختلفة .

فالنظام الاقتصادي لدول الغرب قد انتهى الى مشاكل حمة بسبب عجزه عن سد حاجات الاوضاع الجديدة ، فهو نزاع دائم بين « رأس المال » والعمل . وعلى ذلك فلن يكون في العالم سلام ما دامت المشكلة الاقتصادية لم تحل . ولعل مقررات السلام في هذه الحالة هي في يد الاسلام لان النظام الاقتصادي الذي جاء به هو الذي يوفق بين صاحب العمل والعامل ، ويقدم

الاصلاح المنشود لبسود السلام في الارض قاطبة ، ولنظامه خصائص لا نجدها في غيره كما سيمر معنا ، ولكننا قبل ان نستعرض خصائصه . لا بد لنا من إلقاء نظرة مجملة على نظام الاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي .

الاقتصاد الرأسمالي

يقوم الاقتصاد الرأسمالي على أساس حرية الفرد ، في أن يعمل ما يروقه من الأعمال التجارية والصناعية وما يتبعها من معاملات ، وأن ينتج الأصناف التي يختارها والكمية التي في وسعه إنتاجها ، وإن يتعامل مع غيره بكل ما يستطيع من حرية ، وبعبارة أخرى ، الاقتصاد الرأسمالي يرتكز على سياسة « الباب المفتوح Laissez faire » في الداخل والخارج .

ويقول علماء الرأسمالية انه لكي تكون الحياة الاقتصادية سوية لا بد أن تكون مستندة على أسس ثلاثة :

اولاً : المصلحة الشخصية كهدف ، لأن واقع الانسان أنه لا يعمل إذا لم تكن له مصلحة شخصية تدفعه الى العمل .

ثانياً : المزاومة كوسيلة ، لأن الانسان مسير بخلفه اكثر من ذكائه وعقله ، فلا بد له لكي يفتحم مصاعب العمل من منافس .

ثالثاً : الحرية كشرط ، لأن فقدان الحرية يقتل المنافسة ويشل النشاط ولا يحقق المنفعة الشخصية ، غير ان ترك الناس في هذا الجو من الحرية الاقتصادية المطلقة -- خصوصاً بعد أن حلت الآلة محل العمل اليدوي -- قد ولد جملة مشاكل اقتصادية خطيرة منها تضخم الانتاج وتكدسه في الاسواق وانخفاض الاسعار ، ومنها : اقبال المعامل والمصانع وصرف العمال ، الذي يستتبع عادة عدم وصول العمال الى ما ينفقونه لسد احتياجاتهم كالطعام واللباس ، الأمر الذي استلزم ثورة هؤلاء العمال ، فعظموا المعامل واشعلوا النار في المصانع وانزلوا الدمار بأصحاب رؤوس المال لأنهم رأوا ان هؤلاء مصدر بؤسهم وشقايتهم .

* من مراجع هذا الفصل بحث كته الاستاذ محمود البايعدي في مجلة الكتاب .

الاقتصاد الاشتراكي

في هذا الجدل المثلث بالفواجع والكوارث قام انصار العمال فهاجموا النظام الرأسمالي واطهروا مساوئته فكان في جملة ما قالوه في هذا الصدد : إن مبدأ المصلحة الشخصية في الاقتصاد لا يمكن الا أن يؤول الى تكديس الثروة بيد الأقلية ، واخضاع الاكثوية الى مشيئة هذه الأقلية وتحكمها ، كما أن الرأسمال لا يمكن ان يشيع بين الطبقات الفقيرة الا البؤس والظلم ، يضاف الى ذلك ان المزاومة الحرة لا تؤول ايضاً الا الى تبذير القوى الانتاجية ، وافلاس المضاربين فضلاً عن أن من عيوب المزاومة عدم تكافؤ اسلحة المتزاحمين ، وكذلك الحرية الاقتصادية لا تعني سوى الفوضى ، لأنها تترك الفرد حراً في انتاج ما يشاء كيفما يشاء نوعاً وكماً ، فتنشأ الازمات الاقتصادية .

ولهذا نادى انصار العمال بالاقتصاد الاشتراكي وبنوه على ما يأتي :
اولاً : نحو الملكية الفردية الواسعة للأرض ولرأس المال وتسليمها للدولة لمصلحة الجميع ، والافراد يؤدون اعمالاً للدولة نظير اجور تعطى لهم بالتساوي على اساس قيمة العمل الذي ينتجه كل واحد منهم .
ثانياً : توزيع السلع الاستهلاكية على الافراد كل حسب حاجته .
ثالثاً : وضع مناهج للانتاج في حدود حاجة المجموع نوعاً وكماً .
قالوا ، وبذلك يزول التفاوت بين الافراد وتنمحي الطبقات الاجتماعية ويتساوى الافراد ؛ فلا ازمات اقتصادية ولا شحناء على المال ، ولا تباغض ولا تحاسد وإنما اخوة وتعاون وسلام .

الاقتصاد الاسلامي يقر الملكية الفردية

نظام الاقتصاد الاسلامي لا يشبه له بين النظم الاقتصادية الحاضرة فهو فريد في بابه ونسيج وحده ، فيه من الرأسمالية احسن ما لديها وليس فيه من عيوبها ، وفيه من الاشتراكية خيرها دون شرها .

اول ما يطالعنا من نظامه انه يحترم (الملكية الفردية) فهو رأسمالي من هذه الناحية الا انه يختلف عن الرأسمالية في انه يحارب تكديس الثروة

وجمعها في يد فئة قليلة ، بل يجنح الى جعلها رأسماليات متوسطة او صغيرة وهذا ما سنفصله تحت عنوان التخفيف من طغيان رأس المال . ثانياً : ما اتى به من تشريع يحفظ اموال الامة والافراد . ثالثاً : مادعا اليه ورغب فيه من البر بالطبقات الفقيرة وفيما يلي تفصيل ذلك :

التخفيف من طغيان رأس المال

الزكاة

فالاسلام سعى للتخفيف من طغيان رأس المال بان فرض على مالكي الثروات ان ينزلوا عن حصة من ثرواتهم لصالح الطبقة الفقيرة ، وهذه الحصة اطلق عليها اسم (الزكاة) .

وهذه الزكاة جعلها الاسلام احد اركانه الخمسة كما انه جعلها ضريبة حكومية واجبة التحصيل ولو ادى تعصيلها الى استعمال القوة الجبرية .

الزكاة يجب اخراجها عن كل ما يملكه الشخص من اموال عينية وتجارة وزراعة وما الى ذلك من اشياء ، على شرط ان تكون زائدة عن حوائجه وان يمر عليها سنة كاملة .

وقيمة الزكاة $\frac{1}{25}$ في الاموال والذهب والفضة وقد تبلغ ١٠ ٪ في منتوج الاراضي التي تسقى بدون تكاليف ، وينفق المحصول من الزكاة على الفقراء والمساكين والمثقلين بالدين ولاعتاق الارقاء ولأبناء السبيل والموظفين المكلفين بالجباية وقد فصلنا ذلك في بحث (الزكاة) الذي سيأتي تفصيله فيما بعد .

قانون التوريث

والاسلام فرض قانون التوريث لمنع تكديس الاموال في ايد قليلة ، ومنعاً لظهور نظام الطبقات . فقانون التوريث الاسلامي ساعد على توزيع الثروة على اكبر عدد ممكن من الذرية ، ووسع دائرة الانتفاع بها ، فكل ابناء المتوفي من ذكور واثاث لهم حق الميراث بعكس القانون الانجليزي مثلاً

الذي يقضي بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكبر مما يجعل الثروة مقدسة في يد فرد واحد من أفراد العائلة .

والنظام الإسلامي قسم الوارثين إلى طبقتين : الأولى طبقة الأولاد والآباء والأزواج ، والطبقة الثانية الأخوة والأخوات ، وجميع من ذكروا في الطبقة الأولى هم الوارثون المباثرون ، أما من ذكروا في الطبقة الثانية ، فلا يرثون إلا إذا انعدمت الطبقة الأولى أو معظمها ، وقد تنفرع الطبقتان إلى طبقة أخرى فيجعل الأحفاد وسلالتهم محل الأبناء ، ويجعل الجدود محل الآباء ، ويجعل الأعمام وأولاد الأخوة محل الأخوة والأخوات ، وبهذا يعمل الإسلام على الاكتثار من صغار الرأسماليين كلما مات مسلم ثري .

ويقول الدكتور جوستاف لوبون الفرنسي في كتابه (حضارة العرب) « .. ومبادئ الموارث التي نص عليها القرآن على جانب عظيم من العدل والانصاف ... والشرعية الإسلامية منحت الزوجات اللواتي يزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف حقوقاً في الموارث لا تجد مثلها في قوانيننا »^١

والآيات القرآنية التي فصلت الميراث هي قوله تعالى (بوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأُمه الثلث ، فإن كان له أخوة فلأُمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم) النساء : ١١ ، ١٢ . (يستفتونك ، قل

١ ص ١٦٦ نقلًا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعير

قل الله يفتيكم في الكلالة ، ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلها الثلثان بما ترك وان كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين بين الله لكم ان تضلوا والله بكل شيء عليم (النساء : ١٧٦ .

« وانك لو تأملت في حكمة الاسلام في احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للمواريث لعرفت ان هذا من اكبر الدوافع التي تحفز الممولين الى قوة الاستثمار والنشاط في الانتاج ، ويدعو الى السهر على المصالح وبذل الجهود القوية في تكثير الاموال ، وهو في الوقت نفسه يحمي هذه الاموال من ان تبعث بها يد السرف والتبذير . فالرجل الذي يعرف أن الاموال التي بذل في جمعها صحتة وعقله ستصير بعد ذلك الى الدولة ولا ينتفع بها بنوه بطريق مباشر ، ليس هناك ما يحفزها الى ادخارها ويدفعه الى المحافظة عليها »

ولهذا نرى ان الروس عندما الغوا الملكية الفردية وجدوا الفشل بعينه فقد ظهر لهم ان الناس اذا امنوا على حاجاتهم الضرورية فقدوا كل هممة على العمل واستناموا الى الكسل ، فما دام كل امرئ مجزياً على عمله بما يكفل التساوي فان الناس يفضلون الاعمال غير المجهدة لهذا اصدروا تعديلاً لهذا النظام فكان دستور ١٩٣٦ حيث سمح بالملكية الفردية الصغيرة وتغيرت القاعدة الشهيرة : « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » فصارت « من كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل ، ومن لا عمل له ، ليس له الحق في أن يأكل ،

الوصية وحدودها

وفي الاسلام عامل حيوي للتقليل من مساوئ رأس المال وهي الوصية . فان لكل مسلم الحق في أن يوصي بنصيب من ماله لينفق في معاونة الفقراء والمشروعات الخيرية لنفع المجتمع العام .

١ نقلاً عن كتاب الاسلام ومبادئه الخالدة للشيخ محمد مامون الشناوي ص ٣٨

والقرآن يجعل للوصية أسمى المراتب في تشريعه مقارناً إياها في وجوب الأداء بالدين ، فكما ان الدين يؤدي لصاحبه قبل تقسيم التركة على الورثة كذلك الوصية ولهذا نرى في تذييل آيات الميراث السابقة قوله تعالى (من بعد وصية يوصون بها او دين) ، وقوله تعالى (من بعد وصية يوصين بها او دين .) الا ان الاسلام لم يجعل الوصية مطلقة بل حرمها على الوارث لقوله ﷺ (لا وصية لوارث) وذلك حتى لا يظفر بنصيبين : نصيب من الارث ونصيب من الوصية ، كما منع ان تخرج هذه الوصية مما يزيد عن ثلث الثروة ، وجعل الميراث اجبارياً في الثلثين ، بخلاف بعض القوانين المدنية اليوم التي تجيز الوصية لأي كائن بجميع المال سواء أكان وارثاً ام غير وارث حتى للكلاب والقطط وسائر الحيوان ، بخلاف القانون الاسلامي الذي يأمر بتوزيع حصص الارث توزيعاً واسعاً فيعطي للقرابات حصصاً متفاوتة اجبارية ولا يسمح لصاحب الثروة ان يتصرف فيها بالوصية الا بالثلث وذلك للمحافظة على التوازن الاقتصادي .

نصيب الفقراء من الغنائم والفيء

وللتخفيف من طغيان رأس المال نرى القرآن عندما اتى على ذكر ارباب القوة ورجال الحرب والغزاة خاطبهم آمراً مبيناً حقوق المستضعفين من الامة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك معهم ليكون لهم من ذلك الجهاد نصيب . قال الله تعالى : (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه ^١ وللرسول ^٢ ولذي القربى ^٣ واليتامى والمساكين وابن السبيل) الانفال : ٤١ واليتامى والمساكين وابن السبيل الذين ذكرتهم الآية لا شك ممن

١ لله خمسه : اي يصرف فيما يرضي الله من مصالح الدين كاللجوء الى الاسلام واقامة شعائره تعالى . ٢ وللرسول بصفته نبي الامة وامامها ورئيس حكومة الاسلام يأخذ كفايته منه . ٣ ولذي القربى : اي اقارب النبي اي اقرب الناس اليه نسباً وهم الذين حرمت عليهم الصدقة كما حرمت عليه فقد قال (انا آل محمد لا نحل لنا الصدقة) وحكمة ذلك حتى لا يقول الناس انه جمع الاموال من الناس ليعطيها ذويه واقاربه وهو الحريص على ان يكون الحاكم فوق ريب المراثين ولهذا جعل الله له ولاقاربه حصة من الغنائم والفيء .

المستضعفين الذين اتوا قعدوا عن الاشتراك في الجهاد لعلل تختلف انواعها ولكن الله لم يجز حرمانهم بل جعل الله لهم نصيباً مع أولئك المجاهدين الخاضعين غمرات الموت ولهذا كان الرسول يختص بخمس الغنائم لتوزيعها على المنصوص عليهم في الآية ، والاربعة الاخماس الاخرى توزع على رجال الجيش بنسبة مجهود كل شخص ، هذا بالنسبة لما كان عن طريق الحرب ، اما اذا كان الحصول على الغنائم بطريق الفداء وهو الذي يأخذه المسلمون بلا قتال فالقرآن لا يكتفي بالخمس بل يوزع المال كله على هذه الاصناف . قال الله تعالى (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) الحشر : ٧ . علل القرآن هذا التقسيم بقوله (كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) والدولة هو المال المتداول ، والمعنى أي لئلا يكون المال محصوراً في الاغنياء منكم متداولاً بينهم وحدهم .

تحريم كنز الاموال

حرّم الاسلام كنز الأموال لان في ذلك منعاً لها من التبادل الاقتصادي بما لا بد منه حاجة المجتمع لأجل استخدامها في الانتاج الاقتصادي واستغلالها في استثمار الموارد الاقتصادية المختلفة لزيادة الدخل الوطني وتنمية الثروة القومية لكل هذا حرم الاسلام كنز الاموال وتوعد المكنزين بأن هذه الاموال المكدسة ستكون عليهم في الآخرة نارا تحرق أجسامهم وتأكل اعضاءهم . قال الله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحسب عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ . يؤخذ من هذا النص القرآني أن على الحكومة الاسلامية أن لا تتوانى لحظة واحدة في مصادرة الاموال المكدسة لاستثمارها ، وحفظ اصلها لصاحبها واعطائه حصة من ربحها ، ويتحمل الخسارة لو وقعت ، إذا دعت لذلك مصلحة الامة العليا .

وهكذا نجد ان غرض الاسلام هو ايجاد نظام « الملكيات الصغيرة »

لنقي افراد المجتمع طغيان رأس المال الكبير واسعاف الطبقة المحتاجة ،
ولكن على الرغم من ذلك نجد أن هذه « الملكيات الصغيرة ، اقامها الاسلام
على معيار وقانون اخلاقي يجعلها مقيدة بالمصلحة العامة بصورة مقصودة
وواضحة وهذا يتبين لنا فيما يلي :

حِفْظُ أَمْوَالِ الْأُمَّةِ وَالْأَفْرَادِ

الحجر على السفهاء

قال الله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً
وارزقوهم فيها) واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً (النساء : ٥ .
فالسفهاء هم المترفون المبذرون أموالهم في غير الوجه المعقولة اما لفساد
أخلاقهم وضعف عقولهم أو لسوء تدبيرهم .
فالآية نهت المسلمين أن يطلقوا أيدي السفهاء في الأموال يبعثونها ولا
يحسنون التصرف فيها ، وفيها اشارتان بليغتان الى حث المسلمين على المحافظة
على أموال السفهاء وصيانتها من اسرافهم وتبذيرهم .
الاولى : في قوله تعالى « أموالكم » فلم يقل الله تعالى « ولا تؤتوا
السفهاء أموالهم » بل قال (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) ليلفت انظار
المسلمين الى أن مال السفيه هو في الوقت نفسه مال الأمة ، فيجب المحافظة
عليه وعدم اعطائه للسفيه ، لأنه ان بدده واصبح فقيراً كان خطراً على
المجتمع وعلى أموال افراده ، فالتضامن الاجتماعي يقضي بأن مال السفيه هو
مال المسلمين .

الثانية : في قوله تعالى (التي جعل الله لكم قياماً) أي ان الاموال
جعلها الله قياماً أي تقوم بها معاشكم وتبنى عليها مصالحكم فهي قوام وعماد
الحياة الاقتصادية ، ففي تضييع السفيه لها تضييع لهذا العماد الذي هو

١ قال صاحب الكشف : وانما قال سبحانه « وارزقوهم فيها » ولم يقل وارزقوهم منها تنبيهاً
للقوام الى ان يستثمروا اموال السفهاء ويستغلوها ويجعلوها موطئاً لرزق السفهاء وكسوتهم وطريقاً
لهم لتكون النفقة على السفهاء من ربح اموالهم لا من أصلها .

قوام الحياة .

فالسفيه اذا بدد ماله وأنفق على الفساد فكأنما بدد مال الامة جميعاً ، وعرض حياته وحياة مجتمعه لخطر الفقر ، وخصوصاً اذا تسرب هذا المال الى أيد اجنبية مثل ما نشاهده من الذين يسافرون الى البلاد الاجنبية ، ويبددون أموالهم التي تقدر بعشرات الالوف من الليرات على القمار والغواني وغيرها من وسائل اللهو والعبث ، لذلك يجب رفع أمر هؤلاء الى الحكام ليحجروا عليهم ويعطوهم من أموالهم قدر حاجتهم . والغريب أن كثيراً من المسلمين يسرون على خلاف هذه التعاليم فنرى ان ثلث ثروة حكوماتهم تقريباً تنبدد في السفه بواسطة سفهائهم ولا رقيب عليهم .

اختبار اليتامى قبل تسليمهم أموالهم

وللمحافظة على الاموال من أن تنبدد في الطرق غير المشروعة امر الاسلام باختبار اليتامى قبل تسليمهم أموالهم قال الله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً ان يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً) النساء : ٦ . ومعنى الآية : اختبروا أيها الاولياء ما في كنفكم من اليتامى قبل سن البلوغ ببعض التصرفات المالية الجزئية الى أن يبلغوا سن الزواج فان آنستم منهم رشداً بعد بلوغهم فادفعوا اليهم أموالهم ليتولوا هم بانفسهم شؤونهم المالية ، ومفهوم هذا إذا لم يؤنس منهم رشداً بعد سن البلوغ لا تدفع اليهم أموالهم .

ثم نهى الله الاولياء عن اكل أموال اليتامى وذلك عن طريق الاسراف والمساواة في صرفها على انفسهم حذر ان يكبر اليتامى فيلزموا بدفعها اليهم ثم خاطبهم الله بانهم اذا كانوا اغنياء غير محتاجين الى مال اليتيم فليعفوا عن ان يأكلوا شيئاً منه اجراً على ولايتهم وليكن عملهم انسانية ومروءة ، واذا كانوا فقراء محتاجين الى اخذ شيء من مال اليتيم في مقابل بعض وقتهم في شؤون ولايتهم فيباح لهم أن يأكلوا من مال اليتيم ولكن بالمعروف : اي بالمتعارف الذي لا يستنكره اهل المروءة والخبرة بالاعمال ، بعد هذا

أمرهم الله بالاشهاد عند دفعهم مال اليتيم لانه يظهر امام الشهود نزاهة ايديهم ويجول دون الجحود والتنازع .

كتابة العقود المالية والرهن

ان العصر الحديث أظهر فائدة كتابة العقود المالية ، وذلك حتى يعلم طرفا التعاقد أو ورثتها أو أي شخص تمسه تلك العلاقة في الحاضر والمستقبل حقوقه وواجباته ، لأن مرور الزمن مدعاة للنسيان ، وموت الشهداء مدعاة للانكار وما الى ذلك من أكل اموال الناس بالباطل ، فلأجل الاحتراز من الوقوع في الخلافات المستقبلية أمر القرآن الكريم بكتابة الدين في وثيقة والاشهاد عليه برجلين أو رجل وامرأتين صيانة له من الضياع واحترازاً من النكران .

ويقاس على ذلك جميع العقود المالية لانها لا تقل أهمية عن الدين بل إن بعضها قد يفوق الدين أهمية كسراء العقارات وبيعها والرهنات وما الى ذلك وفيما يلي ما جاء في القرآن في تقرير ذلك :

(يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه^١ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب^٢ وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل^٣ . واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تفضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى^٤ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسئموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى اجله ذلكم أفسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم . وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة^٥ فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن امانته وليتق الله ربه ولا تكتبوا الشهادة ومن يكتسبها فانه آثم قلبه) البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣

يؤخذ من هاتين الآيتين على وجه عام وجوب المحافظة على الاموال واليك بعض ما جاء فيها .

١ - كتابة الدين المؤجل الى تاريخ معين وبقاس على ذلك جميع المعاملات المالية .

٢ - ان يكتب وثيقة الدين وما شابهها كاتب يتحرى العدل بين الطرفين ، ولا ريب في ان تحري العدل يستدعي العلم بشؤون التوثيق الذي يحفظ الحقوق حسب المعروف بين الناس او المنصوص عليه في القوانين الموضوعة ، وفي هذا ايجاء قوي الى انه ينبغي أن يكون في الامة المتعاملون القادرون على القيام بهذه المهمة وهم المعروفون اليوم باسم (المحررون)

٣ - ان الذي يتولى املاء الكاتب انما هو المدين والقصد من هذا ان يكون بحضرته واعترافه ليكون ما في الوثيقة حجة عليه تحفظ الحق الذي يتفق عليه مع دائته واذا كان المدين لا يستطيع ان يملي بان كان عاجزاً بأفة تمنعه من النطق او جاهلاً بشؤون التعامل وكيفيته قام عنه وليه بهذا الواجب وذلك حرصاً على حقه وخوفاً من أن توقعه حالته في الاساءة الى نفسه .

٤ - بعد الانتهاء من كتابة الوثيقة يجب الاشهاد عليها بشاهدين على الأقل من الرجال العدول فاذا تعذر ذلك فلا بأس بان يشهد رجل وامرأتان عدول ايضاً ، وأسارت الآية الى ان الحكمة في جعل المرأتين بمنزلة الرجل الواحد في الشهادة هي ان المرأة يغلب عليها النسيان او الخطأ ولعل ذلك يرجع الى ان ممارستها لشؤون المعاملات قليلة غير مألوفة لها .

٥ - ثم ارشد القرآن الى نوع آخر مما يحفظ الحقوق وهو الرهن ، فاذا كان المتعاملان على سفر ولم يجدا الكاتب قام الرهن مقام الكاتب والشهود ، ولا يدل هذا التقيد على ان مشروعية الرهن خاصة بتلك الحالة لأنه ثبت في الصحيحين ان النبي ﷺ رهن درعه في المدينة عند يهودي . وجرى التعامل بين المسلمين على الرهن في السفر والحضر ؛ ووجد الكاتب ام لم يوجد ، وانما أرشدت الآية الى ما يقوم مقام الكتابة في الحالة التي يغلب فيها عدم وجود الكاتب وهي حالة السفر .

وهكذا نرى ان توثيق الحقوق الذي يعد من النظم الحديثة قد شوهه الاسلام منذ اربعة عشر قرناً وانك لترى فيه نظاماً يشبه تمام المشابهة النظام في تسجيل الحقوق بالمحاكم المختلفة اليوم .

تحريم الربا

حرم الاسلام الربا ^١ لأنه يقتل كل مشاعر الشفقة في الانسان ، فالمرابي لا يتردد في تجريد المدين من امواله اذا كان في ذلك اضافة ليرة الى ألوته . فالمال في نظر الاسلام ودبعة في يد صاحبه ، وهو موظف لخير الجماعة فليس له ان يتعين ساعة احتياجهم فيأخذ منهم اكثر مما اعطاهم . والمحتاجون في الدولة الاسلامية يعطون قرضاً بلا فائدة لأن هذه هي الطريقة التي تنمي المودة وتكفل التضامن بين الجماعة غنيها وفقيرها ، بينما الربا يثير العداوة والبغض بين الافراد .

فالربا اعتبره الاسلام منكراً اقتصادياً غليظ الاثم . لأنه يتنافى مع تعاليمه التي تحض على المعاونة الصادقة والمساعدة لمن يحتاجها . قال الله تعالى (يحق ^٢ الله الربا ويربي ^٣ الصدقات) البقرة : ٢٧٦ ، ويقول تعالى ايضاً في التحذير من الربا (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) البقرة : ٢٧٨ - ٢٨٠ . هذه الآيات حرمت الربا تحريماً قاطعاً ، ومعناها : فان لم تتركوا ما بقي لكم من الربا كما امرتم فاعلموا واستيقنوا بانكم على حرب من الله ورسوله إذ نبذتم ما جاءكم به رسوله . ثم قال الله تعالى (فان تبتم فلكم رؤوس اموالكم) وفي هذا نص صريح على ان الذي يستحقه صاحب الدين انما هو رأس المال فقط بدون زيادة ما ، وبعد هذا قال تعالى

١ من مراجع هذا الفصل كتاب (العدالة الاجتماعية) للاستاذ سيد قطب وكتاب (الاسلام والمناهج الاشتراكية) للاستاذ محمد الغزالي

٢ يحق الله الربا : اي ان الله يهلك ويهلك المال الذي يدخل فيه . ^١

٣ يربي الصدقات : اي ان الله يزيد فائدتها وثمرتها في الدنيا واجرها في الآخرة

(وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) وفي هذا حض على امهال المعسر الى وقت يتمكن فيه من الاداء وحث على التصديق بالعفو عن المعسر الذي لا يجد ما يفي به دينه .

وجاء في القرآن في تحريم الربا (يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافاً مضاعفة^١ واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التي اعدت للكافرين . واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) آل عمران : ١٣٠ - ١٣٢ . هذه الآيات نص صريح قاطع بتحريم الربا وبيان ما فيه من ظلم شديد ، فذكر انه يؤدي الى ان يأخذ الدائن الدين اضعافاً مضاعفة ومعظم الذين يتعاملون بالربا افست بهم الفوائد اليسيرة الى ضياع ما يملكون ، واليسير من الربا يتضاعف بمرور الزمن فلا ينتهون الا وهم مثقلون بالدين وفوائده ، عاجزون عن السداد مما يجر الى شر المشاكل والحسائر ، ولهذا اوعد الله بالعذاب الشديد آكلي الربا ليتجنبوه ويتركوه .

والربا الذي حرمه القرآن هو ربا النسيئة : أي التأخير في الدفع مقابل أن يدفع زيادة على ما اقترضه . يقول الجصاص في كتابه احكام القرآن ما نصه : « الربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجل بزيادة على مقدار ما استقرضه على ما يتراضون به ، هذا كان التعارف المشهور عندهم^٢ ويقول ايضاً^٣ : « إنه معلوم ان ربا الجاهلية إنما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة فكانت الزيادة بدلا من الأجل فأبطله الله تعالى وحرمه وقال (وان تبتم فلکم رؤوس أموالکم) وقال الله تعالى (وذرُوا ما بقي من الربا) « وربا النسيئة يطلق عليه ايضاً ربا الجلي يقول ابن القيم^٤ : « الجلي ربا النسيئة وهو الذي كانوا يفعلونه في

١ هذه الآية ليست نهياً عن اكل الربا في حال المضاعفة خاصة فيدل على اباحته في غيرها - كما فهمه البعض - وانما هو مراعاة الواقع والغالب عند العرب من غير قصد الى تسوية ما عدها فقد ورد ان صاحب الدين في الجاهلية كان يقول للمدين الذي حل اجل دينه اما ان تقضي او تزيد وازيد في الاجل فيرضى المدين بالزيادة التي يفرضها عليه نظير تأخير دفع الدين وبذلك يتضاعف الربا

٢ احكام القرآن ج ١ ص ٤٦٥ - ٣ الكتاب المذكور ص ٤٦٧ - ٤ اعلام الموقعين

الجاهلية مثل ان يؤخر دينه ويزيده في المال ، وكلما أخره زاد في المال حتى
تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة .

وهناك نوع آخر من الربا فصلته السنة وهو الذي يطلق عليه ربا الفضل
وهو مبادلة عين بعين مع زيادة يأخذها احد المتبادلين بدون تأجيل ، وهذا
النوع من المعاملة قليل الوقوع في زماننا فلا حاجة الى تفصيله هنا .

بعض مضار الربا

هذا هو الربا الذي حرمه الاسلام الذي يسبب العداوة بين الافراد
وفقدان التعاون بينهم ، كما ان الاسلام يرمي من تحريره الى الحيلولة دون
المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح والسعي لتحقيق المساواة بين
افراد الامة ، فالمرابي بدلا من ان يعمل عملاً مجدياً يصبح كالطفيلي يعيش من
كد غيره وقد شرف القرآن العمل وذم الربا . قال الله تعالى (ذلك بانهم
قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا) البقرة : ٢٧٥ .
فبينما يستلزم البيع العمل والمهارة وارتفاع الروح المعنوية في الفرد ، فان
الربا يؤدي الى وجود طبقة مترفة مستبدة لا تعمل شيئاً وتتضخم الاموال بين
يديها تضخماً شديداً لا يقوم على الجهد ولا ينشأ من العمل .

والربا وسيلة للاستعمار وشقائه ، فقد ثبت ان الغزو الاقتصادي القائم على
المعاملات الربوية كان التمهيد الفعال للاحتلال العسكري والاقتصادي الذي
سقطت اكثر دول الشرق تحت رحمته ، فقد اقترضت الحكومات الشرقية
بالربا ، وفتحت ابواب البلاد للمرابين الأجانب ، فما هي الا سنوات معدودة
حتى تسربت الثروة من ايدي المواطنين الى هؤلاء الغازين ، حتى اذا أفاقت
الحكومات وأرادت الذود عن نفسها واموالها استعدي هؤلاء الأجانب عليها
دولهم فدخلت باسم حماية رعاياها ثم تغلفت هي كذلك فوضعت يدها
مستثمرة مرافق البلاد ولهذا لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكتبه
وشاهده وقال : هم سواء^١

فآكل الربا هو صاحب المال الذي يسلف بفائدة ، وموكله هو المدين

الذي يستدين بفائدة يعطيها لصاحب رأس المال ، والكاتب والشاهد لانها أعانا على ما نهى الله عنه .

يذهب العلامة شارل جيد في كتابه (الاقتصاد السياسي) في الجزء الثاني منه : « ان تحريم الربا كان من الضروريات في العصور الغابرة ، وان اباحته في هذا العصر من الضروريات ايضاً لأن الدين فيها مضى كان للاستهلاك وأما الآن فهو للإنتاج » .

اعترف العلامة شارل جيد ان الربا الذي يكون للاستهلاك يجب تحريمه ، ولكن هل الاقتراض بالربا في عصرنا الحاضر يذهب كله للإنتاج . كلا قسم منه يذهب للاستهلاك الضروري . ولنسلم جدلاً ان الدين بالربا للإنتاج مفيد ثم هب بعد ذلك ان حكومة من حكومات العالم حلت الربا للإنتاج وحرمت كل ربا معد للاستهلاك ، اخذاً برأيه ، فهذا التشريع غير قابل للتطبيق ، لأنه لا يمكن التحقق قبل الدين من ان المدين سوف يعد حتماً هذه الدارم للإنتاج دون غيره ، وباب الاحتيال كما نعلم في هذا الامر واسع .

ولهذا حرّم الاسلام الربا سواء أكان للاستهلاك او للإنتاج لانه إن كان للاستهلاك فهو لفئة المستدين على حاجاته الضرورية ، فانه لا يجوز ان يرهق برد زائد على دينه ، فحسبه ان يرد اصل الدين عند الميسرة ، وان كان الإنتاج فالاصل ان الجهد الذي يبذله المستدين هو الذي ينال عليه الربح لا المال الذي يستدينه فالمال لا يربح الا بالجهد .

ولكن يعترض انصار مشروعية الربا ويقولون : ان الربح الذي يحصل عليه المقرض للإنتاج ، انما ينشأ وليداً من التزاوج بين عمل المستدين ورأس مال الدائن ، فكيف تحولون للعمل حقاً في الربح ، ولا تحولون للمال حقه أي مكافأة الدائن مع انه شريكه في هذا النتاج ؟ والجواب على ذلك : انه بمجرد عقد القرض اصبح العمل ورأس المال في يد شخص واحد ولم يبق للمقرض علاقة ما بذلك المال ، بل صار المقرض هو الذي يتولى تدييره تحت مسؤوليته التامة في الربح والخسارة حتى ان المال اذا هلك او تلف فانما يهلك او يتلف على ملكه ، فاذا اصررنا على اشراك المقرض في الربح

والناس . وجب علينا في الوقت نفسه ان نشركه في الخسارة النازلة ، اذ كل حق يقابله واجب ، واما ان نجعل الميزان يتحرك في جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة . ومنى قبلنا اشتراك رب المال في الربح والخسارة معاً انتقلت المسألة من موضوع القرض بالربا الى صورة معاملة اخرى وهي الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل ، وهذا ما يقره الاسلام .

فائدة صندوق التوفير

اما حكم أخذ الفائدة من صندوق التوفير او احد المصارف فلتنقل ما جاء على لسان لجنة الفتوى التابعة لمشيخة الازهر إذ تقول : « ان أخذ فائدة من رأس المال المودع في صندوق التوفير ، او في احد المصارف محرم ، لانه من الربا المحرم بالكتاب والسنة والاجماع » .

وبيان ذلك : ان الاسلام يرى أن رأس المال والعمل يجب ان يشتركا في الربح والخسارة فان معنى دفع فائدة ثابتة هو ان رأس المال يربح دائماً حتى ولو كان لا يؤدي إلا الى الخسارة .

فنظام الاسلام يرى ان تقوم البنوك وشركات التأمين وصندوق التوفير على اسس تعاونية ، تستغل اموالها في مشروعات منتجة قابلة للربح والخسارة وليس لها فائدة ثابتة ، فتدفع لكل مودع فيها مبلغاً بنسبة الربح الذي ربحته ، وتخصم من المودعين مقدار ما خسرت بحسب نسبة اموالهم وبذلك يصبح المودعون جماعة تعاونية يدفعون من مالهم للمكسوب عند نكبته ، وينالون جميعاً نوعاً من الامان ينتفعون به عند الضرورة والحاجة .

وقد عمد هنر الى الغاء الربا عندما اراد ان يقيم الوطنية الاشتراكية الالمانية على دعائم ثابتة البنيات واحل محله نظام شركات المضاربة التي اقرها الاسلام ، فجعل محل المصارف شركات صناعية وتجارية يساهم فيها الناس ويدخرون اموالهم فاجتمع له الانتاج والعمل والادخار .

تحريم اكل اموال الناس بالباطل

قال الله تعالى (ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام

لأنكم كلكم فريقتان من أموال الناس بالأنتم وأنتم تعلمون (البقرة : ١٨٨ .
فالخطاب في هذه الآية لكافة المسلمين والمعنى : لا يأكل بعضكم مال بعض
لأن ذلك جناية على نفس الآكل ، من حيث هو جناية على الأمة التي هو
أحد أعضائها لا بد أن يصيبه سهم من كل جناية تقع عليها ، ولذا اختار
الله لفظ (أموالكم) للإشارة بوحدة الأمة وتكافلها فمال البعض هو مال
الكل ، لأن المال عصب الدولة فكان لازماً على الجميع أن يتكاتفوا لصيانتها
والحفاظة عليه .

ومعنى قوله تعالى (وتداولوا بها إلى الحكام) أي ولا تلقوا بها إلى الحكام
رشوة لهم (لأنكم كلكم فريقتان من أموال الناس بالأنتم وأنتم تعلمون) . فالاستعانة
بالحكام على أكل المال بالباطل محرم لأن حكم الحكام لا يغير الحق ولا يحل
للمحكوم له .

وإذا حرم القرآن أكل أموال الناس عامة ، نراه في موضع آخر يخصص
هذا المنع في فئات خاصة منها :
تحريم أكل أموال اليتامى والوعيد على من يفعل ذلك بالعقوبة الشديدة
في الآخرة . قال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون
في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) النساء : ١٠ .

وهاجم القرآن رجال الدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل (يأبوا
الذين آمنوا أن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل
ويصدون عن سبيل الله) التوبة : ٣٤ . هذه الآية حذرت من الأحبار
والرهبان الذين يأخذون أموال الناس بغير حق .
ويقاس على ذلك ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت
لأنه ليدعو لهم عند الله في قضاء حاجاتهم ، والدعاء مطلوب دون أخذ
الأموال .

ومنها ما يأخذه سدة قبور الأولياء والصالحين من الهدايا والندور التي
يحملها إلى تلك المواضع من لا يعقلون معنى التوحيد المجرد ، كل هذا مما
حاربه الإسلام .

تحريم القمار

سمى الله القمار في القرآن ميسراً وهو القمار الذي كان عند العرب ، فكل ما يتراهن فيه الناس من معاملة فيها خطر الكسب المطلق او الخسارة المطلقة يعد ميسراً أو قماراً ويدخل في الميسر اليوم ما نسميه « اوراق اليانصيب » والرهان في سباق الخيل . وقد حرم الاسلام الميسر بأنواعه فقال الله تعالى (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) المائدة : ٩٠ .

فالقمار يصد المقامرين عن الطريق القويم لكسب العيش ويعودهم الكسل وانتظار الرزق من السبل الوهمية واضعاف القوة العقلية بتوك الاعمال المفيدة من الزراعة والتجارة والصناعة التي ترقى الامة وتضييع الساعات الطوال بدون فائدة تجنى من ورائها . وفي القمار تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى الى الفقر فكم من عائلة نشأت في الغنى والعز ، وانحصرت ثروتها في رجل اضاعها في ليلة واحدة فصارت فقيرة لا قدرة لها على ان تعيش عيشة الكفاف والاستغناء عن الناس . لهذه الاسباب حرم الاسلام القمار لما ينشأ عنه من الاضرار في الامة .

تحريم التلاعب بالمكاييل والأوزان

وبما شرعه الاسلام لحفظ أموال الافراد ونيل حقهم هو ما دعا اليه من تنظيم الاوزان والمكاييل وعدم التلاعب بها ، وقد حظر الاسلام اتباعه من ان يبخسوا الناس اشيائهم فيمنعهم حقهم المشروع ، قال الله تعالى (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) الرحمن : ٩ .

وحذر الذين يتلاعبون بالاوزان بأشد العقوبات الاخروية . قال الله تعالى (ويل للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم او وزنهم يخسرون . الا يظن اولئك انهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين) المطففين : ١ - ٦ .

وعلى هذا فالواجب على الدولة الاسلامية اقامة جماعة مخصوصة يكون ميدان عملها تنفيذ ما امر به القرآن من الاشراف على المكاييل والاوزان وضبطها .

ذم الاسراف

ولحفظ اموال الافراد نهى القرآن عن التبذير والاسراف في الاموال وانفاقها في غير مواضعها لان الاسراف يؤدي بصاحبه في النهاية الى الافلاس ولهذا نرى القرآن شبه المسرفين بالشیاطین الذين يعملون على اضلال الناس ويعيشون في الارض فساداً (ولا تبذر تبذيراً . ان المبذرين كانوا اخوات الشیاطین وكان الشیطان لربه كفوراً) الاسراء : ٢٦ ، ٢٧ .

فالمبذرون يفسدون نظام المعیشة باسرافهم ، ويكفرون بالنعمة بعدم حفظها ووضعها في موضعها وذلك بالانفاق بالاعتدال .

ووصف الله عاقبة المسرف في آية اخرى بقوله : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) الاسراء : ٢٩ . علل الله الاسراف في الانفاق بأنه يجعل صاحبه ملوماً مذموماً عند الناس محتاجاً الى معونة غيره .

البر بالطبقات الفقية

وفي القرآن ناحية سامية للقضاء على الفوارق بين الجماعات ، وهي ما دعا اليه من الانفاق في سبيل الله وعلى مصالح الطبقة المحتاجة ، وقد رغب القرآن في هذا الانفاق ووعد المنفقين بحسن المثوبة عند الله والاجر العظيم في الآخرة .

الانفاق في سبيل الله

وهو يشمل كل ما ينفق لاعلاء كلمة الاسلام والدفاع عنه ونشره بين الناس واقامة احكامه ، وما يوصل الى مرضاة الله وهو ما كانت نفعه عاماً كازالة الجهل بنشر العلم ، ومساعدة الضعفاء ، وترقية الصناعات ، وكل ما يرفع مستوى المسلمين من كافة النواحي . والآيات القرآنية التي دعت للانفاق في سبيل الله كثيرة ، نختار منها قوله تعالى (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا مناً ولا أذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم

يُحْزَنُونَ (البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

اخبر الله ان ما ننفق في سبيل الله يضاعفه لنا اضعافاً كثيرة فهو مفيد لنا في دنيانا وآخرتنا وقد شرط الله لهذا الثواب ترك المن والاذى ، فالمن هو أن يذكر المحسن احسانه لمن احسن اليه ويظهر بذلك تفضله عليه ، واما الاذى فهو اعم كأن يذكر المحسن احسانه لغير من احسن اليه .

ووصف القرآن الانفاق في سبيل الله بأنه التجارة الراجحة التي تنفع صاحبها يوم القيامة (يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) الصف : ١٠ ، ١١ .

الانفاق على ذوي الحاجة

يدخل الانفاق على ذوي الحاجة في الجماعة الاسلامية تحت الانفاق في سبيل الله ولكن القرآن خصه بنصوص خاصة ، وحدد فئات من الناس هم احوج الى الاحسان والمؤاساة . ففي الآية القرآنية من سورة البقرة التي تعدد اعمال البر نرى قوله تعالى : (وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب) البقرة : ١٧٧ . والمراد بايتاء المال في الرقاب بذله في تحرير العبيد لترد اليهم حريتهم ويزول عنهم ذل العبودية .

ووصف الله البررة في آية أخرى (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) الانسان : ٨ ، ٩ .

وجعل الله أول صفات المكذبين بالاسلام : القسوة على اليتيم والاعراض عن اطعام المسكين (ارايت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين) الماعون : ١ - ٣ . ويسأل اصحاب النار يوم القيامة عن سبب عذابهم (ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين) المدثر : ٤٢ - ٤٤ .

الانفاق من الطيبات

قال الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وبما اخرجنا لكم من الارض ولا تسموا الحبيث منه تنفقون ولستم باخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد) البقرة : ٢٦٧ . نزلت هذه الآية في الزكاة المفروضة فقد كان الرجل من العرب يعمد الى التمر فيعزل الجيد فاحية حتى اذا جاء صاحب الصدقة اعطاه من الرديء . ومعنى الآية : انفقوا من جياذ اموالكم ولا تقصدوا الحبيث فتجعلوه صدقتكم خاصة دون الجيد ، ثم وبجهم الله بانهم كيف يقصدون الحبيث ، منه يتصدقون وليس يرضون بثله لانفسهم الا أن يتساهلوا فيه تساهل من اغمض عينيه فلم ير العيب فيه .

وورد في القرآن آية اخرى في هذا المعنى (لئن تناهوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم) آل عمران : ٩٢ .

المال ملك لله

والقرآن يوجه نظر الانسان الى أن المال هو ملك لله ، وأن الانسان نائب في الاشراف عنه فلا يجمل بالانسان ان يعصي ربه فيما استودعه اياه ، انظر الى هذه الآيات التي رتبناها ترتيباً منطقياً والتي قررت هذه الحقيقة .

فإنه هو مالك السموات والارض (والله ملك السموات والارض) آل عمران : ١٨٩ . وهو الذي يرزق جميع الناس (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض) فاطر : ٣ . والناس مكلفون بالانفاق بما رزقهم الله واستخلفهم عليه (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) الحديد : ٧ (وانفقوا من ما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب اولا اخرجتني الى أجل قريب فاصدق واكن من الصالحين) المنافقون : ١٠ . (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) النور : ٢٣ .

وعلى هذا فلا يجمل بالبشر ان يتأخروا عن تنفيذ أمر الله في ماله الذي استودعهم اياه ، واذا امروا أن يؤتوا فئات من الناس محتاجة فعليهم أن

يبادروا الى ذلك .

الاحسان قرض الله

والقرآن حض على الاحسان ورغب فيه بأسلوب غاية في الروعة ، من ذلك قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط) البقرة : ٢٤٥ .

فأي تلطف من الله في هذا التعبير يجعل الاحسان بمثابة الاقراض لله وانما يقتضى المحتاج والله غني عن العالمين الذي له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وانما جاء التعبير في هذه الصورة نيابة عن الفقراء والمحتاجين ودفاعاً عنهم ، وما قيمة امرىء يبخل باقراض بعض المال لواهبه الذي سيرده حتماً اضعافاً مضاعفة ثم يحتم الله الآية بقوله (والله يقبض ويبسط) فلو شاء لأغنى فقيراً وافقر غنياً فان الامر كله بيده .

مورد للفقراء لا حد له

والاسلام جعل للفقير مورداً لا حد له عن طريق الكفارات التي فيها معنى العقوبة أو البدل أو جبر الناقص مثال ذلك :

يحلف الرجل في يمينه على ان يفعل شيئاً أو يتركه ثم يعدل عن ذلك فانه في هذه الحالة ملزم باطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم به أهله أو كسوتهم أو تحرير رقبة . ويعجز الرجل عن صوم رمضان لسقم أو هرم فيفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً . ويخل الحجاج بشرط من شروط الحج الاساسية فيكفر بذبح يقدمه للمساكين . ويقبل عيد الصوم فتجب زكاة الفطر على كل مسلم ، كما يوجب الاسلام على القادر المستطيع ذبح ضحية في عيد الاضحى .

وينذر المسلم الله نذراً فيوجب عليه الاسلام أن يفي به برأ بالفقراء وعوناً لهم . ويعجز الرجل عن تكاليف العيش لسبب اضطراري فيوجب الاسلام على من يرثه بعد موته ان ينفق عليه : فينفق الابن على الاب والاب على الابن والاخ على الاخت والزوج على الزوجة . كما ان الاسلام شرع الوقف ليصرف

رابعه في وجوه البر عامة .

هذا بعض تشريع الاسلام الاقتصادي في التقريب والتوفيق بين الطبقات المختلفة والاقضاء على الفقر . ولو اردنا الاسهاب في تشريعه بما جاء في السنة لضايق بنا هذا البحث ولكن احببنا ان نعطي صورة لبعض اصول القرآن الرئيسية التي تشهد بسموه ومصدره الالهي وصالح هذه الاصول لكل زمان ومكان .

مَنْزِلَةُ الْمَرْأَةِ فِي الْإِسْلَامِ

المرأة عند الأمم القديمة — تحرير الاسلام للمرأة عموماً — تحرير
الاسلام للمرأة العربية — نظرة القرآن الى الزواج — اصول الزواج
في الاسلام — مساواة المرأة بالرجل في الحياة الزوجية — الحجاب — اباحة
تعدد الزوجات — حقوق المرأة الشخصية — الطلاق — العدة .

لم يتسع مجال الحديث عن المرأة في عصر من العصور بقدر اتساعه في العصر
الحاضر ، ولا عجب ان تحتل المرأة هذه الاهمية فانها لم تعد شيئاً يتلهى به ،
او سلعة تباع وتشترى ، او مواطناً لا حقوق له ، وإنما أصبحت الأساس
في الاسرة الانسانية .

ومن البديهي أن يعنى المفكر المعاصر بالكلام عن المرأة بعد أن ظفرت
بحقوق كثيرة ووثبت هذه الوثبة الاجتماعية الكبيرة ليرى أي الشرائع
أهدى لها واكثر اعتناء بها ، ثم هل الاسلام حرّرها وأعزّها وصانها ام
قضى بعبوديتها واذلالها ؟ وقبل ان نشرع في تفصيل وبيان تحرير الاسلام
للمرأة نلقي نظرة سريعة على منزلة المرأة عند الأمم القديمة — قبل الاسلام
وبعده — لنرى على ذلك صورة واضحة للمكانة التي تبوأتها المرأة
في الاسلام .

المرأة عند الأمم القديمة

فالاثينيون — اكثر الأمم القديمة حضارة — جعلوا المرأة من سقط المتاع
فكانت تباع وتشترى في الاسواق ، وقد سموها رجساً من عمل الشيطان ،

وحرّموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الاطفال .
وجاء في شرائع الهند : « ان الوباء والموت والجحيم والسم والافاعي
والنار خير من المرأة » .

ولم تكن التوراة اكثر رحمة بالمرأة من شرائع الهند . جاء في سفر الجامعة :
« دُرت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً ولاعرف الشر أنه جهالة
والحماسة انها جنون ، فوجدت أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها
أشراك ويداها قيود ... رجلاً واحداً بين ألف وجدت . اما امرأة فبين كل
أولئك لم أجدها » .

وفي رومية اجتمع مجمع كبير وبحث في شؤون المرأة فقرّر أنها كائن
لا-نفس له ، وانها لن توث الحياة الأخروية لهذه العلة ، وانها رجس يجب
ان لا تأكل اللحم ، وان لا تضحك بل ولا ان تتكلم ، وعليها
ان تنضي اوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة ، ولأجل أن يمنعوها الكلام
جعلوا على فمها قفلاً من حديد فكانت المرأة من أعلى الاسر وأدناها تسير
في الطرقات ، وتروح وتغدو في دارها وفي فمها قفل ، هذا غير العقوبات
البدنية التي كانت تعرض لها المرأة باعتبار انها أداة الاغواء يستخدمها الشيطان
لأفساد القلوب .

اما في فرنسا فقد عقد سنة ٥٨٦ م اجتماع في بعض ولاياتها دار فيه البحث
عن المرأة : أتعهد انساناً ام غير انسان ؟ وكان ختام البحث أن قرر المجمع
فيه ان المرأة انسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

أما في انكلترا فقد أصدر الملك هنري الثامن أمراً بتحريم مطالعة الكتاب
المقدس على النساء كما ان النساء كن طبقاً للقانون الانجليزي العام حوالى سنة
١٨٥٠ م غير محدودات من المواطنين ، ولم يكن لهن حقوق شخصية ولا
حق لهن في تملك ملابسهن ، ولا في الاموال التي يكسبها بعرق الجبين .

أما في بلاد العرب وقبل بعثة محمد ﷺ فقد كانت ممتنهة في كثير من
احوالها بما سنّفصله فيما بعد .

تحرير الاسلام للمرأة عموماً

جاء الاسلام والعالم على ما وصفنا لك ، فقام بتحرير المرأة بما وقع عليها من حيف وظلم ، ورفعها الى مكانة عالية لم تصل اليها في آخر تطورات المدنية .

فبينما كانت المرأة عند شعوب اوروبا وغيرها تعد من الحيوان الاعجم ، او من الشيطان الرجيم لا من نوع الانسان ، جاء الاسلام معلناً ان المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر منها الانسان وجعل ذلك نعمة منه على خلقه قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة^١ وخلق منها زوجها^٢ وبث منها رجالاً كثيراً ونساء) النساء : ١ .

وبينما كان بعض البشر يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين ، حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة ، جاء الاسلام مقررأ : أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة كالرجال . قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) النساء : ١٢٤ . كما أن الاسلام خاطب المرأة بتكاليف العقيدة وفضائل الاخلاق كما يخاطب الرجل . قال الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقاتنين والقاتنات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والחסنين والחסنات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرأ عظيماً) الاحزاب : ٣٥ .

ومسئولية المرأة عن نفسها مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل ، فلا يؤثر عليها وهي صالحة فساد الرجل وطفغائه ، ولا ينفعها وهي طالحة صلاح الرجل وتقواه . قال الله تعالى (ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة

١ نفس واحدة : هي نفس ادم عليه السلام .

٢ خلق منها زوجها : اي خلق حواء من نفس آدم .

فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله
ونجني من القوم الظالمين (التحريم : ١٠ ، ١١ .

كما ان الاسلام ساوى بين المرأة والرجل في حق المبايعة فقد كان النبي
يبايع الرجال على السمع والطاعة والقيام بمحدود الشريعة وكذلك بايع النساء
قال الله تعالى (يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله
شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين بهتاناً^١ يفترينه
بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله
غفور رحيم) الممتحنة : ١٢ .

ثم بينما نرى بعض الشعوب تحقر المرأة فلا تعتبرها اهلاً للاشتراك مع
الرجال في النشاط الاجتماعي ، جاء الاسلام فأثبت أنهم والرجال على سواء قال
الله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ،
اولئك سيرحمهم الله) التوبة : ٧١ . ففي هذه الآية اثبات ولاية المؤمنين
والمؤمنات بعضهم لبعض ، والولاية عبارة عن تعاونهم وتناصرهم لما فيه خيرهم كما
ان الآية اثبتت للمرأة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الاعمال
الصالحة وهذا برهان واضح في اعطاء المرأة حقها من النشاط الاجتماعي .
تحرير الاسلام للمرأة العربية

كان بعض العرب يثد البنات فجاء الاسلام بتحريم وأدهن ، وبذلك اعطى
المرأة حق الحياة ، قال الله تعالى (واذا بُشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسوداً
وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه
في التراب الا ساء ما يحكمون) النحل : ٥٨ ، ٥٩ .

وقال الله سبحانه (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وايأكم ان
قتلهم كان خطئاً كبيراً) الاسراء : ٣١ .

وكانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من ابناء الميت وانما يورثون
من يلاقي العدو ويقاوم في الحرب ، فشرع الاسلام تورث المرأة وبين

١ المراد بالبهتان في هذه الآية اي الولد الذي كانت الصفته بزوجها كذباً

حقوقها في الارث زوجاً واماً واختاً ، قال الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك آباؤهم وأولادهم وللنساء نصيب مما ترك آباؤهن وأولادهن مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) النساء : ٧ .

وكانت العرب ترث النساء كرها ، وذلك بان يجيء الوارث ويلقي ثوبه على زوج مورثه ثم يقول : « ورثتها كما ورثت ماله » فيكون احق بها من نفسها إن شاء زوجها واستوفى مهرها لنفسه أو حرّم عليها الزواج طمعاً في أن تفدي نفسها بال أو تموت فيرثها ، فجاء الاسلام محرماً ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتوهن) النساء : ١٩ .

وكان بعض العرب يكرهون فتياتهم على البغاء ليكسبن لهم مالاً فمنعهم الاسلام من ذلك ، قال الله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن اردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) النور : ٣٣ .

وكان بعض العرب يرثون زوجات آبيهم في جملة المتاع فيصبحون زوجاتهم فجاء الاسلام رادعاً اشد الردع عن هذا المنكر . قال الله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً .) النساء : ٢٢ .

كما ان الاسلام حرم كثيراً من انواع الزواج الفاسد الذي كان عند كثير من الشعوب ولا يزال بعضه الى اليوم في البلاد التي تغلب عليها الهمجية .

نظرة القرآن الى الزواج

ما هو تعريف الزواج قبل أن يعرفه القرآن ؟ هل هو صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ؟ هل هو وسيلة من وسائل الضرورة لارضاء مطالب الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية ؟ كل هذا واشباهه ما تصورته المجتمعات والعقائد من صور الزواج قبل مجيء القرآن .

ولكن الزواج في القرآن هو الزواج الانساني في وضعه الصحيح من وجهة المجتمع ومن وجهة الافراد . فهو واجب اجتماعي من وجهة المجتمع

للمحافظة على النوع الانساني ، وسكن نفساني من وجهة الفرد ، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء ؛ فكان خطاب القرآن في تدبير الزواج موجهاً الى افراد الامة لتبسيره . قال الله تعالى (وأنكحوا ^١ الايامى ^٢ منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) النور : ٣٢ . فهذه الآية خطاب للأولياء ونعم غيرهم مطلقاً بأن يزوجوا العزاب من النساء والرجال ، وأن لا يكون فقر العزاب داعياً للحيلولة دون تزويجهم لأن الله قد تكفل باغنائهم من فضله .

أما الفقير المدقع العاجز عن الانفاق فإن الآية التالية تأمره بالعفة ويَعِدُه الله بالغنى اذا عف عن الشهوة المحرمة (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً ^٣ حتى يغنيهم الله من فضله) النور : ٣٣ .

والزواج في الاسلام عهد وميثاق بين الزوجين . قال الله تعالى (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) النساء : ٢١ . فهذه الآية تدل على ان النساء أخذت من الرجال ميثاقاً غليظاً وهو ميثاق الزواج فهو عهد بين الرجل والمرأة يلتزم كل منهما بموجبه واجبات نحو الآخر . ولهذا التعبير (ميثاقاً غليظاً) قيمته في الايمان بعماني الحفظ والمودة والرحمة فهو ليس عقد تملك كعقد البيع والاجارة او نوعاً من الاسترقاق .

والعلاقة بين الرجل والنساء في الزواج علاقة سكن ، تستريح فيها النفوس وتتصل بها المودة والرحمة . قال الله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) الروم : ٢١ . فهذه الآية تنبه الرجل والمرأة الى ان من اعظم دلائل قدرة الله وآيات كرمه أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن اليها ؛ والسكون النفسي المذكور في هذه الآية هو تعبير بليغ عن شعور الشوق والحب الذي يشعر به كل منهما في اتصاله بالآخر ، والذي يزول به اعظم اضطراب فطري في القلب والعقل ، لا ترتاح النفس وتطمئن في

١ انكحوا : زوجوا ٢ الايامى جمع ايم يطلق على الرجل والمرأة اذا لم يتزوجا بكرين كانوا ثيبين .

٣ لا يجدون نكاحاً : اي استطاعة تزوج .

في سريرتها بدونه ، كذلك من دلائل كرمه التي حدثتنا به الآية أنه جعل بين الزوجين مودة حب ورحمة عطف ثابتين لا تبليان كما تبلى مودة غير الزوجين من الفت بينهما الشهوات .

وفي هذا المعنى ورد في القرآن (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) البقرة : ١٨٧ . فهذه الآية شئت كلاً من الزوجين باللباس لان كلاً منهما يستر الآخر . فحاجة كل منهما الى صاحبه كحاجته الى الملبس ، فان يكن الملبس لستر معائب الجسم وحفظه من عادات الأذى وللتجمل والزينة فكل من الزوجين لصاحبه كذلك : يحفظ عليه شرفه ، ويصون عرضه ، ويوفر له راحته وصحته .

وسكون الزوج الى زوجه كسكون كل انسان الى غيره اقوى دعائه التناسب بينهما في التربية والاخلاق ، والى هذا يشير القرآن (الحبيثات للحيثين والحيثون للحيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات) النور : ٢٦ . فالشق الاول من الآية معناه : أن الحبيثات من النساء لا يستأهلن من الأزواج الا الحيثين ، فمن كرمت نفسه من الرجال وضمن بمروءته عن مواطن الذلة والهوان فبعيد عليه ان ينجح الى خبيثة ساقطة يتخذها زوجة له ، وكذلك الحيثون من الرجال لا يستحقون إلا خباثت النساء ، فمن ربأت بها العزة وامتزج بها الشمم نحاست أن تجعل نفسها فراشاً لرجل ساقط المروءة وضع النفس . فاذا امتنع كل ذي كرامة من الجانبين عن الاتصال بالحيثت هياً له أن يكون مع من يدانيه شرفاً وطهراً ويناسبه أدباً وخلقاً وهذا ما نهتف به الآية في شقها الثاني (والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) فهنا اشادة بالنساء الطيبات واغراء للرجال باختيارهن وكذلك اشادة بالطيبين واغراء للنساء الطيبات باختيارهم ازواجاً .

والسكون الدائم الذي يثمره التناسب في الاخلاق هو وليد التربية الدينية الصحيحة وفي هذا يقول محمد ﷺ (تنكح المرأة لاربعة : لما لها ، ولحسبها ، ولجملها ، ولدينها ، فاطفر بذات الدين تربت^١ يداك)^٢ .

١ تربت يداك : دعاء بالفقر في اصل معناه ولكنه غير مقصود وانما يجري على لسان العرب في مقام الحث والتحريض . ٢ رواه البخاري ومسلم

فهذه اهم الاسباب التي يلتصق بها الناس في الخطوبة والرسول ﷺ يقر الناس عليها ، غير أنه لما كان الدين عند الناس في الموضع الاخير اكد الرسول على الحاطب أن يفضل ذات الدين على غيرها ، وأن يلتفت الى الدين قبل سواه فيمن يريد لها زوجة له ، وليس القصد من الدين أن تهلي المرأة أو تصوم - مثلا - وكفى .. ولو كانت سيئة الطباع - لا - بل التي هذب الدين اخلاقها وحفظ عليها حياءها ، واستمدت من روحه وآدابه تربيتها .

واختيار الزوجات مقصور على النساء اللاتي أباح الاسلام الزواج منهن لا المحرمات . قال الله تعالى (حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم^١ واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل^٢ ابناءكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف^٣ ان الله كان غفورا رحيما) النساء : ٢٣ .

أَصُولُ الزَّوْجِ فِي الْإِسْلَامِ

والزواج في الاسلام عقد كسائر العقود لا يشترط فيه حضور رجال الدين ولا يشترط أن يقام باحتفال ديني كما يحدث في اكثر الاديان . فالاسلام يعتبر الزواج ميثاقاً عقد على اساس التفاهم المتبادل بين الطرفين الرجل والمرأة ، وشرطه : الايجاب والقبول وحضور شاهدين^٤ . ولهذا فلو ان خاطباً

١ انفردت الشريعة الاسلامية من بين الشرائع القائمة بجمل الرضاع سبباً من اسباب التحريم وذلك لان الموضع التي ترضع الولد انما تغذيه بجزء من جسمها فتدخل اجزاؤها في تكوينه ويكون جزءاً منها . وان الطب يثبت ذلك فان لبنها خلاصة من دمه ينبت لحم الطفل وينشئ عظمه واذا كان الطفل جزءاً منها فهي كالام النسبه محرمة الى الابد وبعض من يتصل بها محرمات عليه كذلك .

٢ حلائل : جمع حليلة وهي الزوجة ، فقد حرم الله على الاب زوجة ابنه .

٣ الا ما قد سلف : اي لكن ما قد سلف قبل التحريم لا تؤاخذون عليه وقد كان العرب

في الجاهلية يجمعون بين الأختين .

٤ ومذهب المالكية يجب عندهم الاعلان والاشهار بحيث لو تواطأ الزوجان والشهود على الكتمان لا يصح النكاح لان نكاح السر منهي عنه .

ومخطوبته ١ اعلنا ارادتها بتواضعها في الاقتران امام شاهدين معتبرين شرعا ولم يكن ثمة مانع من زواجهما تم عقد الزواج بينهما سواء أكان ذلك امام مأذون او قاض ام لم يكن كأن يكون على يد موظف الحكومة المكلف بكتابة عقد الزواج ، والزواج في هذا يعتبر مقبولا من الوجهة الدينية .

الا ان الزواج في الاسلام يختلف عن القوانين الوضعية التي تجرد عقد الزواج من الصفة الدينية بينا الشريعة الاسلامية تعتبر الزواج من المسائل الدينية على معنى انه يستمد قواعده من الدين وان الدين يحض عليه وفي هذا يقول الرسول ﷺ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة ٢ فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء ٣) ٤ .

ويتفرع عن الزواج احكام كثيرة منها : عدم صحة زواج المسلمة بغير المسلم وعدم صحة زواج المسلم بالمشركة التي ليس لها كتاب سحاوي بخلاف القوانين الوضعية فانها تجيز ذلك .

الخطبة

ويسبق الزواج ، الخطبة : وهي طلب الرجل يد امرأة معينة للزواج بها ، والتقدم اليها والى ذويها ببيان حاله ومفاوضتهم في أمر العقد ، ومطالبه ومطالبهم بشأنه . والاولى ان يرى الخاطب مخطوبته وترى المخطوبة خطيبها حتى تأتلف القلوب وتتوadd ولا تنادم بعد فوات الوقت . جاء في صحيح

١ فالامام ابو حنيفة قرر - معتمداً على بعض صحاح السنة - ان المرأة ان اختارت الكف فليس لولي معها شأن وان ذلك القول لم تصل اليه المرأة في الامم الاوروبية الا منذ سنين . والقانون الفرنسي الذي يقدس عفاء القانون لا يعطي الفتى او الفتاة حرية الاختيار قبل الخامسة والعشرين للفتى والحادية والعشرين للفتاة فلا يجوز زواجهما قبل هذه السن من غير الولي وبعد هذه السن الى الثلاثين لا بد من الاستئذان واين هذا مما قرره ابو حنيفة معتمداً على السنة النبوية من ان البالغة العاقلة لها ان تزوج نفسها بمن تشاء من الاكفاء

٢ والمراد بالباءة التكليفات اللازمة للزواج من اعداد البيت والقدرة على الانفاق ٣ الزواج مأخوذ من وجأ بمعنى قطع، اي ان الصوم قاطع للشهوة لمن لم يستطع الزواج ٤ رواه البخاري ومسلم

مسلم أن النبي قال لرجل تزوج امرأة : أنظرت إليها ؟ قال لا : قال : اذهب فانظر إليها .

كما يجب ان يحصل الولي على موافقة المخطوبة إذا كانت بالغة ، قال الرسول ﷺ (الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأمر واذنها السكوت^١) . ولكل من الخاطب والمخطوبة العدول عن الخطبة ، وإذا عدل الخاطب عن خطبته أو ردت المخطوبة خاطبها ترد الهدايا كالحلي وغيرها الى مهديها إن كانت قائمة ، اما إذا كانت كالطعام فلا يرد بدله شيء .

وفي عهد الخطبة لا يجوز للخاطب ان يخلو بخطيبته او يستمتع بها ، وهو بالنسبة اليها كغيره من الاجانب لان الخطبة وعد بالزواج وليست بزواج .

الكفاءة

وبشروط كفاءة الرجل لمن يريد ان يتزوجها والكفاءة في اصل معناها في اللغة المساواة ، والكفاءة تكون في النسب والمال ، وشرف العلم فوق شرف النسب ، والكفاءة في المال أن يكون قادراً على المهر والنفقة ، فالغنى ليس بشرط في الكفاءة بل مطلق القدرة على الانفاق هو الشرط المعتمد . ومن حق الولي أن يطلب فسخ الزواج اذا تماهوت المرأة في شرط الكفاءة .

المهر

واوجب الاسلام على الرجل عند الزواج ان يبذل للزوجة مهراً وقد سماه الله صدقة قال الله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) النساء : ٤ . فقد كان العرب لا يحترمون حق ملكية الزوجات لمهورهن فوليها اذا قبض مهرها لا يعطيه لها واذا اعطاه لها تصرف فيه زوجها بدون اذنها ففقد الاسلام على هذا وأمر بأن تؤتى الزوجات مهورهن واكدت الآية بان وصفت الاعطاء بان يكون نحلة اي اعطاء عن طيب نفس ، واعتقاد بانه حقها ، وبان لا يباح لولي او زوج ان ينتفع بشيء منه الا اذا طابت نفس الزوجة وهذا شأن كل مالك محترم حقه في ماله . وبذلك قرر القرآن للمرأة حق

الملكية الصحيحة الخالصة من رقابة الزوج وهيمنته .

وقد صور بعض خصوم الاسلام المرأة المسلمة - فيما يتعلق بتشريع المهر - بالمرأة القابلة للبيع والشراء ولم يفهموا الحكمة من المهر بانه نصيب الرجل في بناء الحياة البيئية وان هذا الالتزام من جانبه وحده لما فرض له من قوامته على المرأة ولما فرض فيه بحكم الطبيعة من انه المكافح في الحياة .

فالمرأة في اوروبا بحكم العرف عليها ان تؤسس لحطبيها بيت الاسرة المقبلة التي ستتكون منها مبدئياً وهي التي اطلقوا عليها كلمة « دوطة » فكون المرأة تتحمل تأسيس الاسرة وهي دون الرجل في القدرة على المكافعة في الحياة قلب للوضع الطبيعي .

والمهر الذي اوجبه الاسلام لم تحدد قيمته ويختلف بقدرة الرجل المالية او اتفاق الزوجين حتى ان رجلاً فقيراً شكاً للرسول بأنه لا يملك قيمة المهر بما جرت به العادة فقال له ﷺ : (التمس ولو خائناً من حديد)^١ .

ولا يتعين ان يكون المهر حالاً ، بل يجوز ان يكون مؤجلاً كله او بعضه ، او مقسطاً لاوقات يتفق عليها العاقدان ، وللزوجة الرشيدة بعد العقد ان تبرىء الزوج منه لانه حقها فلها ان تتصرف فيه بالابراء او الهبة كما تشاء .

اما العادة السارية الآن عند بعض المسلمين من اشتراط المهور الفاحشة لبناتهم بما سبب احجام الشباب عن الزواج لعدم استطاعتهم تلبية تلك النفقات الباهظة التي لا يستطيع تأديتها صاحب الدخل المحدود فهذا مما يخالف روح القرآن الذي ورد فيه (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقوله ﷺ (اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير) فقد ذكر ﷺ الخلق والدين ولم يذكر المال ، ونبهنا الى اننا اذا لم نفعل ذلك تكن فتنة في الارض وفساد كبير وهذا ما نشاهده اليوم بين الشباب الذي انغمس في المحرمات لعدم قدرته تلبية عادات المجتمع المخالفة لروح الاسلام .

١ رواه البخاري

مساواة المرأة بالرجل في الحياة الزوجية

ان البيت نواة المجتمع البشري ، وتقدر سعادة البشر في الاحوال العادية بالسعادة التي ترفرف على البيت ، والاستقرار المنزلي دليل على استقرار المجتمع ورفقه .

ولما كان البيت يتألف من الرجل والمرأة فانه يتوقف -- على مقدار فهمها الصحيح لمركزهما ولعلاقة كل منهما بالآخر -- الاستقرار والهناء .
وقد انقضى زمن طويل قبل أن يعرف المجتمع مركز المرأة الصحيح فقد كان الزواج عند كثير من الشعوب ضرباً من استرقاق الرجال للنساء اما القرآن فقد ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل . جاء في القرآن (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) البقرة : ٢٢٨ .

« هذه آية جلية جمعت في ايجازها ما لا يؤدي بالتفصيل الا في سفر كبير فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق . فهذه الآية تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والاحوال فاذا هم بمطالبتها بأمر من الامور يتذكر انه يجب عليه مثله بازائها وليس من العدل ان يتحكم احد الصنفين بالآخر ويتخذة عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه لا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون الا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه »^١ .

وهذه الآية استثنت امرأ واحداً عبر عنه القرآن (وللرجال عليهن درجة) وهذه الدرجة مفسرة بآية اخرى وردت في القرآن وهي (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم) النساء : ٣٤ .

« فحق القوامه مستمد من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل ، ومستمد كذلك من نهوض الرجل باعباء المجتمع ، وتكاليف الحياة البيئية .
فهو اقدر من المرأة على كفاح الحياة ، ولو كانت مثله في القدرة العقلية

١ عن كتاب (نداء للجنس اللطيف) تأليف الشيخ رشيد رضا

والجسدية لانها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرضاعة .
وهو الكفيل بتدبير معاشها ، وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الابناء
وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيئية ^١ هذا وإن المرأة تقضي اسبوعاً من
كل شهر في حالة (اختلال في المزاج) كما ان الحياة الزوجية هي حياة اجتماعية
ولا بد لكل اجتماع من رئيس لان المجتمعين لا بد ان تختلف آراؤهم ورغباتهم
في بعض الامور ، ولا تقوم مصالحتهم الا اذا كان لهم رئيس يرجع الى رأيه
في الخلاف لئلا يعمل كل ضد الآخر فتنقسم عروة الوحدة الجامعة ، ويختل
النظام ، والرجل احق بالرياسة لانه اعلم بالمصلحة واقدر على التنفيذ
بقوته وماله ^٢ .

معاملة الزوجات

اما معاملة الزوجات فالشريعة الاسلامية تحض على معاملة الزوجة معاملة
طيبة حسنة . جاء في القرآن (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فاعسى
أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) النساء : ١٩ . وجاء أيضاً
(فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف) البقرة : ٢٣٦ . وعلى الزوج
ان يبسط كفه بالاتفاق غير مسرف ولا مقتر (لينفق ذو سعة من سعته ومن
قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها) الطلاق : ٧
وفي حالة تمرد المرأة يجوز للرجل ان يقوم خطأ امرأته بما نصت عليه هذه
الآية : (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع ^٣ واضربوهن
فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) النساء : ٣٤ .

فهذه الآية تنص على ان الرجل اذا آانس من المرأة ما يخشى أن يؤول
الى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية فعليه اولا ان يبدأ بالوعظ الذي يرى
انه يؤثر في نفسها والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة وحكمه الرجل ،
حتى اذا لم ينفع الوعظ عمل بعقوبة الهجر في المضاجع ، والحكمة من عقوبة
الهجر في المضاجع انها عقوبة نفسية تمس المرأة في الصميم لا على انها حرمان
من لذة الجسد لبضعة ايام او اسابيع . « فالمرأة تعلم انها ضعيفة الى جانب

١ عن كتاب الفلذة القرآنية للاستاذ عباس محمود العقاد ص ٤٨

٢ نداء للجنس اللطيف للشيخ رشيد رضا .

٣ الهجر في المضجع يتعلق بهجرها في الفراش مع الاعراض والصد

الرجل ، ولكنها لا تأس لذلك ما علمت انها فاتنة له وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعته فيه من شوق اليها ورغبة فيها . فليكن له ما شاء من قوة فلها هي ما نشاء من سحر وفطنة ، وعزاؤها الاكبر عن ضعفها ان فتنتها لا تقاوم ... فاذا قاربت الرجل مضاجعة له وهي في أشد حالاتها اغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذي يقع في وقرها ؟ يقع في وقرها ان تشك في صميم انوثتها وأن ترى الرجل في اقدر حالاته جديراً بهيبته واذعانها ... فهو مالك امره الى جانبها وهي الى جانبه لا تملك شيئاً الا ان تشوب الى التسليم . فهذه العقوبة ابطال العصيان ، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل باحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه ... ' .

وليس معنى إباحة الضرب - إذا لم ينفع الوعظ والهجر في المضجع - إباحته في كل حالة ومع كل امرأة فقد كان الرسول ﷺ وهو أول المؤثرين بأوامر القرآن يكره الضرب ويعيبه ويقول في حديثه المأثور (لن يضرب خياركم) ويقول : (اما يستحي احدكم ان يضرب امرأته كما يضرب العبد ، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره) كما انه روي ان الرسول لم يضرب زوجه قط .

والضرب اشترط فيه ان يكون خفيفاً غير مؤذ كما ان إباحته يحمل على حال الضرورة وحين لا يجد الرجل مفرأ من هذا التأديب ، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق لأن ضرر الضرب يقتصر امره على المرأة اما ضرر الطلاق فيتعداها الى اولادها ومن يؤذيهم طلاقها من اهلها .

(وانما يباح الضرب لان بعض النساء يتأدين به ولا يتأدين بغيره ... فمؤلاء النساء - الناشزات - لا يكرهنه ولا يستوذله . وليس من الضروري ان يكن من اولئك العصبيات المريضات اللاتي يشتهن الضرب كما يشتهن بعض المرضى الوان العذاب)^٢ .

١ الفلسفة القرآنية للاستاذ عباس محمود العقاد ٦٨ - ٦٩ ٢ نفس المصدر

المحجّاب

أما مسألة الحجاب التي تعرض لها كثير من كتاب الغرب بالطعن فأت القرآن لم يتعرض لمعالجتها إلا بما يصون الاخلاق والاعراض ، فشهوات الجنس اخطر من كثير من الاضرار التي تسبب القوانين لمحاربتها بالحد من الحرية في بعض الأحوال .

ونصوص القرآن التي تعرضت للحجاب هي (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن^١ ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آباءهن او أبناء بعولتهن او ابنائهن او اخوانهن او بني اخوانهن او بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولي الاربة من الرجال^٢ او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء^٣ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) النور : ٣٠ ، ٣١ .

أمر الله المؤمنين والمؤمنات في هاتين الآيتين بالغض من البصر ، وغض البصر هو خفضه وعدم ارساله فيما تأمر به الشهوة كأن يكون الانسان مطرقاً رأسه لا ينظر رجل الى امرأة ولا امرأة الى رجل قط وهذا مما يشق بل لا يستطاع ولذلك أمر الله بالغض منه ، ومن للتبويض وهو يحصل بعدم

١ وليضربن بخمرهن على جيوبهن : اي يلقين على صدورهن ونحوهن مقانع أي غطاء ليستترن بها عن اعين الناظرين فلا يرون منها شيئاً . والجيب المقصود في الآية هو فتحة الثوب والقميص الذي كانت ترتديه المرأة العربية في عهد الاسلام وقد كان من عادة بعضهن توسمة هذه الفتحة التي تظهر فنتة المرأة ٢ غير اولي الاربة من الرجال : هم الذين لا حاجة لهم في النساء كالشيوخ الهرمين وذوي العلة الطبيعية ٣ الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء : المراد بعدم ظهورهم على العورات عدم فطنهم لها ورغبتهم في الاشراف عليها ٤ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن : هذا ما كان يفعله بعض نساء العرب في الجاهلية للتذكير السامع بما في أرجلهن من الخلايل افتخاراً بها وتشويقاً للهن . ويقاس على ذلك ما لو كان شيء من زينة المرأة مسوراً فتحركت لظهور ما خفي او مست طيباً عند خروجها من بينها ليشم الرجال طيبها .

استدامة النظر الى ما يحرم اليه وما يثير الشهوة . ومعنى (الا ما ظهر منها) اي الوجه والكفين فانه يجوز كشفهما امام الرجال وذلك عند امن الفتنة بخلاف الشعر فانه لا يجوز كشفه . وعلى هذا ذهب كثير من فقهاء المسلمين .

فمذهب الحنفية والرأي الثاني للشافعي ، والقول المفتى به عند المالكية : انه يباح للمرأة ان تكشف وجهها وكفيها في الطرقات وامام الرجال الاجانب . ويرى اصحاب هذا الرأي ان المراد بالآية (ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها) نهي النساء عن ابداء شيء من اعضاءهن الا الاعضاء الظاهرة بعادتها وهي الوجه والكفان وقد قيدوا هذه الاباحة بحالة امن الفتنة . اما اذا كان كشف الوجه يثير الفتنة ويغري بالمرأة من لا خلق له فانه يجب عليها ستره كما تستر بقية اعضائها ^١ .

وتقول لجنة الفتوى التابعة لمشيخة الازهر في مجلة الازهر « ولجنة الفتوى ترى - تمثيلاً مع القاعدتين الاسلاميتين العظيمتين (بسر الدين وسماحته وسد ذرائع الفساد) ترجيح الرأي القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليست من العورة فلا جناح عليها ان تكشف شيئاً منها امام الرجال الاجانب ، دفعاً للعرج والمشقة في معاملاتها العامة والخاصة ، وانه اذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدننها سداً لذريعة الفساد .

واللجنة تقرر في الوقت نفسه ان كشف الوجه واليدين مزينة بالاصابع المعروفة نوع من التبرج الذي يمتقه الشرع ويشدد التكثير عليه ، وان الكشف المباح انما هو للوجه واليدين على طبيعتها التي خلقها الله عليها ، خالية من اصابع والوان ، وهي تناشد المسلمين حرصاً على سعادتهم ان يهيمنوا بهذا الادب الاسلامي الكريم على نسائهم وفتياتهم ويشعروهن بأن مخالفة هذا الادب توجب غضب الله وسخطه ، وفضلاً عن انها تدهور كيان الاسرة الخلقي ^٢ . »

وخلاصة ما تقدم ان القرآن نهى المرأة ان تخرج بزينة جسدها لتتصدى

١ اما ما استحدثه المهملون من المباغة في حجب النساء فهو من باب سد ذريعة الفساد ، فالسفور ممتد به فقد اجمع المهملون على شرعية صلاة النساء وراء الرجال في المساجد مكشوفات الوجوه والكفين واجمعوا على احرام النساء بالحج والعمرة والطواف بالبيت الحرام بمكة والوقوف بعرفة مكشوفات الوجوه والكفين وقد كن كذلك على مشهد من الرجال في عهد النبي وخلفائه الراشدين ٢ المجلد الثاني عشر من مجلة الازهر ص ١٢٠ .

للعناية بين الغرباء ، وهي في حل بعد ذلك ان تلقى من نشاء ممن تجمعها بهم
مجالس الاسرة من الرجال الذين نصت عليهم الآية ولا يحلون لها ولا يتأثرون
بفتنتها .

واعل البعض يدرك حكمة القرآن في النهي عن التبرج ، وان اخطار
الشهوات الجنسية شيء يجب ان يتعرض لها الدين بالعلاج . والقرآن كما رأينا
وصف النجع العلاج لذلك .

إباحة تعدد الزوجات

صدرت كتابات كثيرة في اوروبا من جانب المستشرقين والاجتماعيين في
مسألة تعدد الزوجات في الاسلام كلها ترمي الى استهجان هذه العادة ، وتنصح
المسلمين بضرورة الاقلاع عنها بل منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية
الاجتماعية على الغائها .

والحق ان تعدد الزوجات لم يوجد في الاسلام بل كان عند اغلب الشرائع ،
وكان العرب في جاهليتهم من اكثر الامم تعدداً للزوجات فرأى الاسلام ان
يتوسط في الامر فجعل للتعدد حداً لا يتعداه وأحاطه بشروط تنفي ما ينجم
عنه من اضرار ، كما سنبينه فيما بعد .

التعدد لحماية المرأة

والاسلام اباح تعدد الزوجات ولم يفرضه كما يبدر الى اذهان المتكلمين في
هذا الموضوع من الغربيين ، فقد يخيل اليك وانت تسمع بعضهم يتكلم في موضوع
الزواج الاسلامي ان الاسلام قد اوجب تعدد الزوجات على كل مسلم ، واستنكر
منه ان يقنع بزوج واحدة مدى الحياة .

اقر الاسلام مبدأ التعدد لانه يرمي الى هدف بعيد الغور في اصلاح الاجتماعي
لا يدركه الا نافذو البصر في العلم ، وهو انه علم ان من الرجال
من لا يمكن ان يردعهم عن المضي في شهواتهم رادع فاباح لهم التعدد لا
ليجد هؤلاء مخرجاً من الحرج فقط ، ولكن ليحني المرأة من شر مستطير
وقعت فيه . نعم : لان امثال اولئك الرجال في البيئات الغربية حيث

لا يسمح بتعدد الزوجات يتخذون صاحبات اوخيلات ، لا يخرجن هؤلاء عن طبقة المتجرات بأجسادهن المحرومات .من جميع الحقوق الزوجية ومن في الواقع زوجات غير قانونيات .

وإن العن الذي يقع على المرأة من ناحية هذا الارتباط العرفي لا يقف عند حد ، لأنها تكون عرضة في اي وقت للطرد هي واولادها دون ان يكون لها اي حق عند الرجل الذي عاش معها السنين الطوال ودون ان يكون لها الحق في نسبة الاولاد اليه ان كان لها منه اولاد . فقاية الاسلام حماية المرأة من الوقوع في حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية وتبرز في عداد الذسوة الساقطات ، فهو يريد ان تعامل المرأة في جميع الاحوال باعتبارها زوجة شرعية ذات حقوق . فأبي الحقوق اجدى للمرأة واحفظ لكرامتها من ان تصبح زوجة ثانية او ثالثة لرجل تستطيع ان تطالبه بنفقتها ونفقة اولادها ، وتورثه إذا مات ويرثه اولادها منه ؛ او تضحي في عداد المبذلات لا حق لها منه ولا تورثه إذا مات ولا يرث اولادها منه وتصبح هي وهم في حالة من البؤس يصيرون فيها عالة على الناس .

المبررات العلمية لتعدد الزوجات

والمبررات العلمية لتعدد الزوجات كثيرة ترجع الى خصائص الطبيعة وقارة الى ضرورات المعيشة الاجتماعية ؛ فالخصائص الطبيعية لتعدد الزوجات هو انه ظهر من احصاءات الامم ان عدد النساء يزيد على عدد الرجال في اوقات السلم فضلاً عن اوقات الحرب .

فعدد النساء في معظم دول اوروبا التي اندلعت فيها الحرب يفوق عدد الرجال ، ولا تزال الحروب المروعة التي يظهر انها اصبحت جزءاً من الحياة العادية في اوروبا تعمل على اضطراب زيادة هذا العدد ، وكيفية معاملة هذا الحشد المتزايد اصبحت السؤال الذي يشغل بال الاخلاقيين في اوروبا ، فالطبيعة البشرية تصرخ في طلب حاجاتها فإذا لم نوضع الحلول في الوقت المناسب فستنتشر شرور الدعارة ، التي اصبحت الآن لطخة سوداء في جبين المرأة الاوروبية .

والمبررات التي تفرضها ضرورات المعيشة الاجتماعية هو انه قد تصاب المرأة بمرض عضال ، او ربما عقت ، او ذهبت عنها جميع المغريات الحسية والنفسية ، او يرى ان المرأة الواحدة لا تكفي لاحصائه لان مزاجه يدفعه الى كثرة الافضاء ، ومزاجها بالعكس او يكون زمن حيضها طويلاً ينتهي الى عشرة ايام في الشهر فلو لم يبح له الاسلام التعدد لاقترب ما بينا في الدين او اختار الطلاق ، وان الطلاق يضر المرأة في هذه الحالات اخفاف ما تضررها المشاركة في زوجها .

احكام الاسلام في تعدد الزوجات

ذكرنا فيها سبق ان تعدد الزوجات كان فاشياً في جزيرة العرب قبل الاسلام ونزيد بأن كثيراً من العرب الذين اسلموا كان في عصمة الواحد منهم عدة زوجات ، ومنهم من اسلم وفي عصمته عشر نسوة . ولما جاء الاسلام لم يبطله ولكن عدله وهذبه فبعد ان كانت الاباحة مطلقة قيدها الاسلام كماً وكيفاً ، قيدها كماً بتحديد اقصى عدد يباح لهم من الزوجات ، وقيدوا كيفاً باشتراطه لهذه الاباحة الأمن من الظلم وهذا ما ورد في القرآن (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا) : النساء ٣ . والمعنى تزوجوا ممن أحل لكم من النساء ما تستطيعون نفوسكم من الواحدة حتى الاربع ولا تزيدوا على هذا فان خفتم ان لا تعدلوا اذا تزوجتم اكثر من واحدة فاكثفوا بواحدة او ما ملكت ايمانكم من الرقيقات ذلك النظام اقرب النظم الى ان لا يكون منكم ظلم لانفسكم ولا لزوجانكم ولا لمن تعولونهم ممن تجب عليكم نفقتهم والقيام بحقوقهم .

فـالآية القرآنية اباحت التعدد ولكن شرطت لهذه الاباحة العدل بين

- ١ ففي قوله تعالى مثنى وثلاث ورباع يفهم منه التحديد بما لا يزيد على اربع لانه يروي ان غيلان اسلم وفي عصمته عشر نسوة اسلمن معه فقال له الرسول (اختر منهن اربعاً وفارق سائرهن)
- ٢ ذلك ادنى الا تعولوا : المعنى ان ذلك النظام اقرب الى ان لا تظلموا - من العول وهو الزيادة ومجاوزة الحد . وفسر الشافعي كلمة (ألا تعولوا) بألا تكثروا عيالكم .

الزوجات والامن من الظلم ، ومعنى العدل : المساواة ، والمطلوب المساواة في المعاملة الظاهرة اي في الاتفاق والاسكان والمبيت وحسن المعاشرة والقيام بواجبات الزوجية .

كما ان الآية اشترطت لاباحة التعدد : الأمن من الظلم ، ولم تقيد الظلم الذي يخاف بأي قيد فيشمل ما اذا خاف ظمناً على زوجته او على اقاربه او على نفسه ، ويشمل الظلم في الاتفاق والاسكان وحسن المعاشرة وكل ما يخاف عدم المساواة فيه .

وبما يجب لفت النظر اليه في الآية القرآنية التي اباحت التعدد انها جعلت ايجاب الاقتصار على زوجة واحدة معلقاً على خوف الظلم لا على تيقنه او ترجيحه (فان خفتم الا تعدلوا فواحدة) ومن هذا يتبين لنا بوضوح وبدون تعسف في التأويل ان النص القرآني ضيق دائرة اباحة التعدد اشد تضيق لانه جعل مجرد الخوف من الظلم محرماً للتعدد وموجباً للاقتصار على زوجة واحدة . الا فليدرك ذلك كل من يرمي الاسلام بتهم هو منها براء بمن يجهل حكمة الاسلام في التعدد .

وقد كان الرسول ﷺ وجماعة الصحابة يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن مؤتمرين بوصية الرسول (من كانت له امرأتان يميل لاحدهما على الاخرى جاء يوم القيامة واحد شقيه مائل)^١

والعدل المطلوب هو العدل الظاهر وليس هو العدل في المحبة الباطنة فان ذلك لا يستطيعه احد . وكان الرسول لا يسوي بين ازواجه في المحبة القلبية . روي عن عائشة زوج النبي انها قالت : (كان رسول الله يقسم فيعدل ويقول : اللهم هذا قسمي فيما املك فلا تلمني فيما تملك ولا املك^٢) يعني ﷺ المحبة وود القلب وهذا الميل القلبي الذي اشار اليه القرآن (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة) النساء : ١٣٩ . فان العدل المنفي في هذه الآية هو العدل القلبي ولذلك لم يطلبه الله ، ودل على انه لم يطلبه بقوله (ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فقد اجاز الا يكون ولكن طلب الا يفرط

١ رواه النسائي ٢ رواه ابو داود والترمذي والنسائي

وعيل لاحداهن كل الميل فيذر الاخرى كالمعلقة اي التي لا هي زوجة ولا هي مطلقة ، مهمله من العطف والمحبة .

هذا هو تشريع الاسلام في تعدد الزوجات وهذا الذي كان عليه حال المسلمين في قرون الاسلام الاولى ولكنه قل في هذا الزمن بما طرأ على اكثر الشعوب الاسلامية من الجهل بالاسلام واحكامه وآدابه فصار تعدد الزوجات مثاراً لمفاسد لا تخص في الأزواج والاولاد .

ولهذا كان من رأي الشيخ محمد عبده ان يقيد تعدد الزوجات فلا يباح التعدد إلا بشرطين : العدل والقدرة على الاتفاق وهذا التفكير الذي ساقه الاستاذ محمد عبده في دروسه وتقريراته هو الذي نبه المسؤولين في مصر الى وضع مشروع يقضي بالاشراف على تعدد الزوجات بعض الاشراف الذي يجعله بقدر الامكان في حدود الدائرة الشرعية التي رسمها القرآن ، وليس في القرآن ما يحرم على اولي الامر في البلاد الاسلامية ان يسلكوا هذا المسلك ، بل اذا نفذ هذا القانون يكون متمشياً مع روح الاسلام .

هذا هو الذي قصده الاسلام باباحته تعدد الزوجات ليمكن من السيطرة على كل ما تجر اليه فوضى الشهوات وطغيان الميول البهيمية لانه يخاطب اهل اوربا واهل المناطق الحارة ويخاطب المعتدل في شهواته ويخاطب الحار المفرط في شهواته ولذلك وجب ان يكون فيه من السعة والمرونة ما يرضي المعتدل ويهذب المفرط .

حقوق المرأة الشخصية في الإسلام

ان الامر الهام الذي لا يزال القانون الاسلامي سابقاً فيه كل القوانين الحديثة هو ما يتعلق باعطاء المرأة كثيراً من الحقوق التي اعطاها للرجل ، فالشريعة الاسلامية تسوي بين الذكر والانثى في الولاية على المال والعقود فتتى بلغت المرأة سن الزواج وهي رشيدة كانت لها ان تتصرف بما لها ، مستقلة بجميع التصرفات القولية والفعلية ، وان تعقد عامة العقود المدنية من بيع وشراء واجارة وشركة وقرض ورهن ووديعة وهبة ووصية ووصاية وغيرها ، وأن توكل فيها من شاءت او تتوكل بها وليس لابيها او زوجها

او غيرهما ان يتدخل في ذلك .

هذا هو شأن المرأة الاسلامية منذ اربعة عشر قرناً وانظر الى حال المرأة الاوروبية ، ففي اغلب الممالك الاوروبية تنتقل ملكية املاك المرأة الى زوجها عند الزواج ، ففي انجلترا تصبح المرأة في نظر القانون العام هي وزوجها شخصاً واحداً ليس لها وحدها الحق في التملك او الدخول في الالتزامات ، ثم جاء قانون ١٨٨٢ للملكية النساء المتزوجات فاعطاهن الحق الذي لم يتمتعن به من قبل فاصبحت المرأة مسؤولة عما تدخله من الالتزامات والتعهدات بقدر املاكها الخاصة الا ان القانون لم يجعل الزوج خالياً من نبعة تصرفات زوجته فان للمدعي حق الاختيار بين مقاضاة الزوجة بمفردها او اشراك زوجها معها واذا لم يكن للزوجة مال خاص امكن المدعي مقاضاة الزوج بصفته مسؤولاً عن تصرفات زوجته .

اما فيما يتعلق بالمرأة الفرنسية فقد نشرت الجريدة الفرنسية للقوانين في ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ قانوناً بمنع المرأة المتزوجة :

أ - من توقيع اذونات الصرف المالية (الشيكات) .

ب - من فتحها حساباً جارياً في اي بنك من البنوك .

ج - من ان توقع اي عقد مالي .

د - من استيلائها على الارث مباشرة بدون اذن القاضي في ذلك كله .

ويمكننا بعد الذي ذكرناه ان نقول : اذا كان اطلاق التصرف المالي للمرأة هي الحرية الديمقراطية النسوية في القرن العشرين فللمرأة المسلمة ان تعزز بتمتعها بهذه الديمقراطية منذ القرن السابع الميلادي .

واذا كان الاسلام سوى بين الرجل والمرأة في التصرف المالي الخاص الا انه لم يسو بينهما في الميراث فجعل الذكر مثل حظ الانثيين وما ذاك الا لحكمة عادلة وهي ان مسؤولية الرجل في الحياة من الناحية المادية وغيرها اعظم من مسؤولية المرأة

فالاسلام يحتم على الرجل القيام باعباء الاسرة ومستلزماتها والاتفاق على جميع افرادها بخلاف المرأة التي لم يكلفها الاسلام بشيء من ذلك حتى بالاتفاق على نفسها نفقتها واجبة على ابيها او ولي امرها او اقاربها ما دامت لم

تتزوج ، وواجبة على الزوج بعد زواجها ، لا فرق في ذلك بين ان تكون فقيرة
لا تستطيع الانفاق ، او غنية تستطيعه ، ونفقتها واجبة على بيت المال ان لم
يكن لها زوج ولا عائل ، وكذلك نفقة اولادها فهي واجبة على ابيهم او على
اقارب ابيهم ، لذلك جاء الاسلام بشريعتهم العادلة فخصص للذكر مثل حظ
الانثيين كي يقوم التوازن بينهما فلا يظلم الرجل وعلى كاهله كل تلك الانقال
التي اعفى منها المرأة .

الطلاق

الطلاق في الفقه الاسلامي رفع قيد النكاح في الحال والاستقبال بعبارة تفيد ذلك
صريحاً - كأنك طالق - وكناية كقوله : انت علي حرام - او من القاضي
بناء على طلب الزوجة .

والحكمة من الطلاق في الشرائع التي تبيحه للضرورة هي : عدم تعطيل النسل
المرغوب فيه فقد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، والرجل فقيراً لا قدرة له على
الجمع بين زوجتين وهو في الوقت نفسه يرغب في الولد يعينه في شيخوخته ويحفظ
له اسمه بعد موته ، هذا اذا كان الزوج يدين بشريعة تبيح له تعدد الزوجات .
كما ان من حكمة الطلاق رفع الحرج عن الزوجين لان احدهما قد يتصف بسوء
في خلقه او فساد في تربيته او ضعف في دينه ، او يكون بينهما تخالف في الطباع
وتضاد في المقاصد فتتأفر القلوب ، او ينعدم التآلف ، والاسرة اذا لم تتآلف على
الحبة او تدعم بالموافقة تداعت اركانها وانهار بناؤها ، ولهذا نرى كثيراً من
الدول الاوروبية والاميركية اضطرت اخيراً الى تبني ما كانت تنكره سابقاً
على الاسلام فقد اقرت الزواج المدني الذي يحتوي على الطلاق وجعلته شرعة
ثابتة في قانونها الشخصي واصلاً من اصول مدنيته الحديثة ، وان خالف ذلك
اصول دينها .

ثم ان الطلاق ليس بدعاً من الشرائع بل هو عريق في الامم القديمة وقد كان
الرجل يباشره بطلاق حبيبته ، وليس للمرأة ان تطلبه بحال من الاحوال
وظل الامر كذلك الى عهد الدولة الرومانية حيث كانت الروابط جد واهية

والطلاق فاشياً ، وعلى ذلك جرت القوانين العبرية القديمة والاثنية .
ثم لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من حالة الزوجة ولكنها اباحت
الطلاق لسبب من ثلاثة : الزنا ، والعقم ، وعيب الخلق أو الخلق .

أما المسيحية فإلزامي الغالب بين رجال الكنيسة هو ان الطلاق (حتى في
حالة الزنا) محرم فيجب على الزوج إعادة زوجته الخاطئة متى ندمت وثابت
عن ذنبها . ولكن للزوج الحق بل واجب عليه ان يبتعد عن التي تصر على
خطئها ، كما انه ليس له الحق في التزوج ، فزنا الزوجة يؤدي الى الانفصال
الجسماني اذا ادعاه الزوج وليس الامر كذلك بالنسبة لزنا الزوج .

فالانفصال الجسماني لا يفصم عرى الزوجية وانما يؤدي فقط الى اعفاء الزوجين
من واجبات الزوجية ومع ذلك فقوامه الزوج على زوجته تبقى ولا تزول .
فالتفريق الجسدي الذي وضع اسمه رجال الكنيسة لا يختلف عن الطلاق ،
الا بمسألة عدم تلاشي الزواج اسماً ، لكن الزواج في الحقيقة قد تلاشى فعلاً
فالزوجان يعيشان متباعدين ولم يبق بين الزوجين من احكام الزواج الا امران :
وجوب النفقة عند الحاجة ووجوب المحافظة على فروجهما . زد على ذلك ان قيام
الزواج اسماً ينمعهما من الزواج ثانية ويكونان كما قال المسيو بلانيول ' ه قد
ضحايا ببقائهما دون ما أمل ، ويجدان انفسهما قد حكم عليهما بالعزوبة الاجبارية »
وقال ايضا ' ان في اغلب الاوقات يكون الباعث على استحالة بقاء الحياة هو
زنا احد الزوجين او زنا الاثنين معاً ، فهل يظن اذا فرق بينهما ان يتخليا عن علاقتهما
غير المشروعة ؟ ثم ما هو المركز الاجتماعي للمرأة المهجورة ؟ وما هو مركز
الزوج اذا كانت المرأة تعبت بشرفه حاملة ومجروا اسمه واسم اولاده في كل
مكان ، ومعجزة اياه بطلب الدراهم ، او مهددة اياه بفشائخ جديدة ؟ ، ثم
قال : ' ان التفريق الجسدي لا يزيل داء الا ويستبدله بداء آخر ، فانه لا
يوجد البتة صبغة حياة زوجية بين زوجين مكرهين على أن يعيشا معاً ، ولكن
يوجد فضائح علنية تحمل الزوج الآخر على اليأس ، حتى ان الزوجين بعد
التفريق الجسدي يمكنهما ان يقترفا المساوىء اكثر مما قبل ،

روح الطلاق في الاسلام

وقد اباح الاسلام الطلاق مع ذمه والتنفير منه . فقد روي عن النبي ﷺ انه قال : (ابغض الحلال الى الله الطلاق ') .

وليس الطلاق كما يظن البعض ان للزوج المسلم أن يطلق زوجته تبعاً لهوى النفس فهذا تشويه لشرعة الطلاق في الاسلام .

فالقرآن يشير الى عدة اسباب تجعل الطلاق ضرورة ولكنه لا يحصيها ولا يحصرها في حوادث معينة ، والامم الغربية التي أقرت الطلاق لم تتفق على اسباب الطلاق ، فكيف يستطيع في دين عام كالاسلام جاء لعصور مختلفة وامم متباينة في الرقي والحضارة أن تحصر اسباب الطلاق التي تتبدل وتتغير حسب الأزمنة والامكنة وطبيعة البشر ؟

وبواعث الطلاق الواردة في القرآن هي رغبة الزوجين الحقيقية في الانفصال وعدم المعاشرة ، والقرآن لا يعني أن كل خلاف ينبعث عنه الطلاق ، وإنما الذي يعنيه هو دوام الشقاق الذي تستحيل معه العشرة الزوجية ، وقد سمى الله هذا الخلاف - شقاقاً - ومعنى الشقاق الانقسام الى شقين . جاء في القرآن (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما) . النساء : ٣٥ . ففي هذه الآية ساوى القرآن بين الرجل والمرأة في هذا الشأن فلفظ - شقاق بينهما - أن كلا من الزوجين يحق له أن يطلب فسخ الحياة الزوجية ، من ذلك استحالة معاشرة احد الزوجين للآخر كأن يكون الشقاق من سوء سيرة احدهما او يكونا متنافرين في الطباع .

ثم انه في حالة الشقاق نفسه لا يجوز فصح غري الزوجية مباشرة ، ولا بد أولاً من القيام باصلاح ما بين الزوجين واجراء التحكيم قبل الطلاق بارسال حكم من اهل الزوج وحكم من اهل الزوجة ، ليتروى كل من الزوجين ويجدا فرصة للصلح ورجوعهما عن رأيها كما نصت الآية السالفة الذكر (فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله

١ رواه ابو داود وابن ماجه

بينهما) فالآية تشعر بان على الحكمين ان لا يدخرا جهدهما ووسعها في
الاصلاح ، ومن روعتها انها لم تذكر التفريق عند عدم التوفيق بل اكتفت
بذكر ان الحكمين اذا كانت نيتها منصرفة الى الجمع بين الزوجين فان الله يهد
لهما اسباب التوفيق في ذلك .

اذن لا يكون الطلاق ، الا عند استحكام النفرة بين الزوجين ، ولكن
من الذي يملكه ؟ املكه القاضي ام يملكه احدهما منفرداً ، الزوج او الزوجة ؟

الطلاق من حق الزوج

جعل الاسلام الطلاق بيد الزوج ولم يجعله في يد القاضي الا اذا كان يطلب
المرأة ولكن قد يقول القائل : « ان الطريقة المثلى اذا كان الزوجان غير
متفقين في امر الطلاق ان يكون بيد القاضي وليس لاحدهما ان ينفرد به ،
لأن القاضي ناظر غير متحيز ، ولأن العقد الذي ينشأ حقوقاً لازمة لا تبطله
الارادة المنفردة ، ولانه لو جعل بيد احدهما لانفهم العقد بنوبة غضب عارضة
فاذا جاء الندم كان في غير وقته وان لذلك مكاناً من الفكر ، قد اخذت به
شرائع ، ولكنه لا يستقيم الا اذا كانت امور النفوس وخفايا القلوب يمكن
ان تثبت بالدليل الظاهري لان القاضي لا يقضي الا بما تثبته الامارات والبيّنات
ثم ان القضاء اذا ينظر فيما هو حق او ظلم ليقر الحق ويمنع الظلم ، والمسألة في
الحياة الزوجية ليست مسألة ظالم ومظلوم ، وانما هي صلاحيتها للبقاء بامكان
استمرار المودة ، او عدم صلاحيتها ، فمثلاً اذا تقدم الزوج طالباً الطلاق لانه
اصبح يبغض زوجته ، وان حبلى المودة قد تقطع بينهما ، وانه حاول اصلاح
الامر - فلم يفلح - اف يطلق القاضي ام لا يطلق ، لا شك أن الطلاق في هذه
الحال أمر لا بد منه ، ولكن ما الفرق بين ايقاع القاضي الطلاق وايقاعه هو ؟
واذا كان سبب الطلاق امرآ غير الحب والبغض فهل من المصلحة الاجتماعية ان
تتشر دخائل الاسر في دور القضاء ، وتسجل في سجلاته ، ومنها لا يسوغ
اعلانه ... »^١ .

١ الاحوال الشخصية - قسم الزواج . للعلامة محمد ابو زهرة الطبعة ٢ ص ٢٧٨ .

حق المرأة في الطلاق

اما المرأة فلم يسوغ لها الطلاق الا بواسطة القاضي ، وحكمة ذلك : ان المرأة تحكمها العاطفة ، والعاطفة اذا سيطرت على الامور الخطيرة قد تضر ولا تنفع ، والطلاق من اخطر الامور ، وقد لاحظ ان النساء اللواتي يعطين حق طلاق انفسهن يستن استخدام هذا الحق ، ويطلقن انفسهن لأنفهن الامور ، وان الرجل بما اتفق في سبيل الزواج من مال وبما بقي عليه من تبعات ، وبما له من حرص على اولاده الذين ينتسبون اليه ، وبما يعقبه الطلاق من عواقب ليفكر ويقدر قبل ان يقدم عليه ، فلا يندفع الا اذا رجحت لديه عوامل الانفصال ولو اتنا جعلنا الطلاق بيد المرأة لكان في ذلك ظلم للرجل بضياح ما اتفق في سبيل هذا الزواج من نفقات مالية وانها لكثيرة ، فلم يكن للمرأة حق طلب الطلاق الا من طريق القاضي على شرط ان يقبل الزوج ، وتعوضه الزوجة بعض خسارته ، او كلها - تلك الحسارة التي تلحق بالرجل من جراء الطلاق وهذه العملية تسمى « الخلع » . روي ان امرأة ثابت بن قيس اتت النبي فقالت : يا رسول الله ثابت بن قيس ما اعيب عليه في خلق ولا دين واكني اكره الكفر^١ في الاسلام فقال رسول الله اتريدين عليه حديقته - حديقة كان قد قدمها الزوج مهرآ لها - فقالت : نعم ، فقال رسول الله (اقبل الحديقة وطلقها تطليقة)^٢ .

ولكن هناك سؤالاً يتبادر الى الذهن : اذا لم يرد الزوج ان يطلق زوجته فهل تستطيع المرأة ان تطلب من المحكمة الطلاق كحق لها فيما اذا كان لديها سبب شرعي ؟ والجواب على ذلك : ان الاسلام سوغ للمرأة ان تطلب الطلاق من زوجها اذا كان عاجزاً عن النفقة ، وهذا ما ذهب اليه الامام مالك واصحابه مسندين بقول الرسول (امرأتك بمن تعول ، تقول اطعمني والا فارقي) .

ومن الاسباب ايضاً التي تسوغ للمرأة طلب التطلق اذا وجدت بالزوج

١ المقصود بالكفر هنا كفران العشير والتقصير فيها يجب له بسبب شدة البغض .

٢ رواه البخاري .

عيباً مستحكماً لا يمكن البرء منه أو يمكن ولكن بعد زمن طويل ، ولا تقبل المقام معه كالجنون والجذام والبرص .

وكذلك يسوغ للمرأة طلب الطلاق إذا غاب الزوج سنة فأكثروا كما جاء في المدونة في المذهب المالكي فيكتب للزوج الغائب ان كانت تبلغه الكتابة إما ان يقدم او ينقل زوجته اليه او تطلق عليه ، فان امتنع عن ذلك ضرب له اجل فاذا انقضى الاجل فرق القاضي بينهما ، فان لم تبلغه الكتابة طلق عليه لتضررها بترك العشرة الزوجية . اما اذا ارتضت الزوجة ابقاء عقدة الزواج رغم هذه الاسباب فان الزواج يبقى مستمراً .

حواظ تمنع الزوج من الطلاق

جعل الاسلام الطلاق بيد الزوج ولم يجعله من حق الناضي الا بطلب المرأة للاسباب التي ذكرناها ، ولكن بالرغم من هذا اوصى الرجال بأن يعاشرُوا زوجاتهم بالمعروف والصبر على ما يكرهون منهن ، وأن لا يتسارعوا في الطلاق لأن الله الاسباب قال الله تعالى : (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) النساء : ١٩ .

كما ان الاسلام نهى الرجال عن ايقاع الطلاق في الحيض لان الرغبة الجنسية تكون منقطعة بين الزوجين . روي عن ابن عمر انه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله . فسأل عمر رسول الله عن ذلك فقال (مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم ان شاء أمسك بعد وان شاء طلق قبل ان يمس فتملك العدة التي امر الله ان تطلق لها النساء) .

والحكمة من ذلك : أن التطلق في الطهر تطليق في وقت تكون النفس راغبة تائفة اذا كان اصل المحبة ثابتاً ، فاذا طلق مع ذلك كان دليلاً على استحكام النفرة . ومن الحواظ التي شرعها الاسلام الاشهاد على الطلاق قال الله تعالى (واشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله) الطلاق : ٢ . ولا شك أن حضور شاهدي العدل في الطلاق قد يجملان المطلق على مراجعة نفسه قبل ايقاع الطلاق ، وقد قرر فقهاء الشيعة ان الاشهاد على الطلاق شرط

١ رواه البخاري ومسلم

في وقوعه كما ان الشهادة في الزواج شرط لانشائه وان ذلك هو صريح القرآن.

أقسام الطلاق

يقسم الطلاق الى ثلاثة اقسام . أولاً : الطلاق الرجعي . ثانياً : الطلاق البائن بينونة صغرى ، ثالثاً : الطلاق البائن بينونة كبرى ، ونبدأ بالطلاق الرجعي .

الطلاق الرجعي

فالطلاق الرجعي هو الطلاق الذي يجيز الزوج ان يعيد زوجته الى عصمته بدون عقد ومهر جديدين ... فالطلاق الرجعي لا يزيل الملك ولا يزيل الحل فللزوج ان يراجع زوجته في أي وقت شاء ما دامت العدة قائمة . والعدة هي مدة من الزمن جعلت لانقضاء ما بقي من آثار الزواج ، فاذا حصلت الفرة بين الرجل وزوجته لا تنقسم عرى الزوجية من كل الوجوه بمجرد وقوع الفرة ، بل تنتظر المرأة ولا تتزوج غيره حتى تنتهي تلك المدة التي قدرها الاسلام والتي سنفصلها فيما بعد .

والطلاق الرجعي لم يبتدعه الاسلام فقد كان للعرب في الجاهلية طلاق ومراجعة في العدة ، ولم يكن للطلاق حد ولا عدد فكانت المرأة ألعوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق ما شاء ان يضارها الى ان جاء الاسلام فجعل الطلاق مرتين . جاء في القرآن (الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان) البقرة : ٢٢٩ .

والمراد بالطلاق في هذه الآية هو الطلاق الرجعي ؛ وهو الطلاق الذي يوقعه الزوج على زوجته التي دخل بها ولم يكن مسبوقاً بطلقة أصلاً ، او كان مسبوقاً بطلقة واحدة ، وهو لا يرفع قيد الزوجية فيحل للزوج

١ كان سبب نزول هذه الآية : ما أخرجه الترمذي والحاكم عن عائشة قالت : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء ان يطلقها وهي امرأته اذا ارجعها وهي في العدة وان طلقها مئة مرة واكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لا اطلقك فتبيني ولا آويك ابداً قالت : وكيف ذلك قال اطلقك فكلما همت مدتك ان تنقضي راجعتك . فذهبت المرأة فأخبرت النبي (ص) فسكت حتى نزل الوحي (الطلاق مرتان) .

معاشرة زوجته ما دامت في العدة ، ويبطل بذلك حكم الطلاق ، وإذا مات أحدهما قبل انقضاء العدة ، ورثة الآخر ونفقتها واجبة عليه ، ولا يحل مؤجل المهر الا بانقضاء العدة ، وللزوج الحق في ارجاع زوجته ما دامت مطلقة رجعيّاً في العدة : قال الله تعالى (وبعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادوا اصلاحاً) البقرة : ٢٢٨ .

فاذا انقضت العدة ولم يراجعها في اثناء العدة ثبت في ذلك الطلاق (طلاقه بائنة) ولا تصح مراجعتها بل لا بد لاعادة زوجيتها من عقد زواج جديد يستلزم رضاها ، كما يحتاج هذا العقد الى مهر جديد .

وفي قوله تعالى (الطلاق مرتان) ولم يقل — طلقتان — اشارة الى انه ينبغي ان يكون الطلاق مرة لا طلقين دفعة واحدة ، كما ان الطلاق المقترن بالعدد لفظاً ينبغي بمقتضى نص الآية الا يقع الا واحدة .

فكل طلاق في المرحلة الاولى والثانية هو تجربة لفراق مؤقت مع منح الفرصة لارجاع العلاقات الزوجية وذلك بتركه الزوجين يعيشان معاً تحت سقف واحد فاذا ندم الزوج على فعلته ارجعها .

الطلاق البائن بينونة صغرى

وهو الطلاق الذي يرفع الزواج في الحال فحقوق الزوج على زوجته تنقطع بمجرد وقوعه ، وان اراد أن يستأنف معها حياة زوجية فانما يكون بعقد ومهر جديدين هذا اذا لم يكمل الطلقات الثلاث . وهو يكون في أربعة احوال .

اولاً : الطلاق (قبل الدخول) وهذا الطلاق يجب فيه نصف المهر ولا عدة فيه .

ثانياً : الطلاق على مال (بعد الدخول) وهو أن تعطي الزوجة زوجها المهر الذي دفعه او بعضه او مالا جديداً ليطلقها ، أو تبرئه من نفقة العدة او مؤخر الصداق وفي هذه الحالة تجب عليها العدة .

ثالثاً : الطلاق للعيب او للسجن او للضرر بسبب الغيبة وهذا النوع لا يكون الا بقضاء القاضي وهذا الطلاق تجب فيه العدة على المرأة .

رابعاً : اذا انقضت العدة في الطلاق الرجعي .
والطلاق البائن يحل به مؤخر الصداق اذا كان مؤجلاً ويمنع التوارث الا
اذا اعتبر الزوج فاراً من الميراث بان كان مريضاً مرض الموت وطلقها في
مرضه من غير رضاها .

الطلاق البائن بينونة كبرى

وهو الطلاق الذي يستكمل فيه المطلق المطلقات الثلاث فتقطع بذلك جميع
الصلات التي كانت بينه وبين زوجته ولا يحل له ان يعقد عليها عقداً آخر
الا اذا تزوجت زوجاً آخر بعد انتهاء عدتها من الاول زواجاً مقصوداً لذاته
لا بقصد التحليل . ويدخل بها ثم يطلقها وتنتهي عدتها فانها تحل حينئذ للزوج
الاول . والاصل في ذلك قوله تعالى (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى
تنكح زوجاً غيره فان طلقها فلا جناح عليها ان يتراجعا ان ظنا ان يقيا
حدود الله) البقرة : ٢٣٠ .

والزواج الثاني يعتبر لاغياً اذا قصد به تحليل الزوجة للزوج . وحكمة
هذا الطلاق ان الاسلام منح للزوجين الحق ان يعيدا العلاقات الزوجية
بعد الطلاق الاول اثناء العدة وبعد انتهائها ، فيعودان للحياة الزوجية ، كما
قد منح للزوجين الحق نفسه بعد الطلاق الثاني ، ولكن حرم عليها العودة
بعد الطلقة الثالثة وبيان ذلك : ان على الزوج بعد استرجاع زوجته عقب
الطلاق الثاني ان يبت بأمره اما باختيار المعيشة الزوجية طول الحياة او
بالانفصال التام ، هذا كما انه يمكنه استرجاعها بعد ان تزوج غيره ، ويطلقها
فيمكن ان تحسن المعاشرة عندئذ بعد ان اخذ كل منهما درساً على اثر
الزواج الثاني .

ومن الخطأ ان يستنكر (السيرموير) في كتابه (سيرة محمد ﷺ)
احكام هذا الطلاق وخفي عنه ان اتخاذ زوج آخر قبل الرجوع الى الاول
اكبر مانع من ايقاع الطلاق عند قوم كالعرب عرفوا بشدة الغيرة والحمية
واقوى رادع لهم عن ممارسة عادة الطلاق فجاء القرآن باكبر زجر لمنع الطلاق
في امة اشتهرت بالمحافظة على العزة والشرف .

الْعِدَّة

يعتبر سبيل قطع العلاقات الزوجية عقبات يقصد منها الإبقاء على رابطة الزوجية حتى بعد وقوع الخلاف بين الزوجين الذي يؤدي إلى الطلاق .
فكل طلاق تتبعه فترة تريت تسمى العدة . جاء في القرآن (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ) الطلاق : ١
وفترة التريت تتفاوت في طولها وقصرها تبعاً لحالة الزوجة واليك التفصيل :
أولاً : عدة المرأة الحامل : وضع الولد (وأولات الاحمال أجهلن أن يضعن حملهن) الطلاق : ٤ .

ثانياً : عدة المتوفي عنها زوجها (غير الحامل) أربعة أشهر وعشرة أيام جاء في القرآن (وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) البقرة : ٢٣٤ .

ثالثاً : عدة المطلقة (غير الحامل) تنقسم إلى قسمين : أ - ذوات الحيض وعدتهن ثلاثة قروء أي ثلاث دورات كاملات من الحيض والطمهر . جاء في القرآن (وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ٢ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) البقرة : ٢٢٨ .

ب - اليائسات : وهن اللاتي تجاوزن سن الحيض وعدتهن ثلاثة أشهر . جاء في القرآن (وَاللَّائِي يَئْسَنُ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ) الطلاق : ٤ .

ويلحق بهؤلاء النساء اللاتي لم يحضن بعد كاليائسات اللاتي تجاوزن سن البلوغ دون أن يحضن مثلاً .

ويجدر بالملاحظة أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها مطلقاً لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَهَّمُ الْمُؤْمِنَاتُ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ)

١ - ثلاثة قروء تقدر تقريباً بثلاثة أشهر في أغلب النساء . وميعاد ثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة لأنه قبل ذلك بشهر يصعب جداً الثبوت من الحمل حتى بواسطة الأطباء الاختصاصيين بل الكيميائيين وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادي .

فما لكم عليهم من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً (الاحزاب : ٤٩ .
فاذا وقع الطلاق وأصبحت الزوجة في العدة يستمر الزوجان يقطنان في
مسكن واحد ويستمر الزوج في الاتفاق ولا يجوز للزوج ان يخرج الزوجة من
بيت الزوجية الا في حالة سوء السيرة . . جاء في القرآن (يا أيها النبي اذا
طلقت النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من
بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة) الطلاق : ١ . فهذه الآية لها
غاية واضحة هي فسح المجال للزوجين لا عادة العلاقات بينهما وتخفيف حدة
الخلاف فاذا كان هنالك بقية من امل او محبة فان هذه تظهر آثارها أثناء العدة
فتكون وسيلة لعودة اللفة والوفاق .

وللعدة احكام أهمها : أنه يحرم على المرأة ان تخطب فيها ، ومنها أنه يجب
أن تظل في بيتها لا تخرج منه الا لضرورة ملحة . هذا اذا كانت معتدة من
طلاق لوجود من ينفق عليها ولا تحرم عليها الزينة وما يتبعها لأن الاسلام يود
أن تعود الحياة الزوجية . اما اذا كانت معتدة لوفاة فانها تخرج من المنزل
لحاجتها لعدم وجود من ينفق عليها ويجرم عليها الزينة وتوابعها والحكمة من
العدة متعددة منها : ان الاسلام يحرض على بقاء الزوجية المؤبدة فاذا حصل
الطلاق فان العدة تبقي من الصلات بين الزوجين ما يستطيع الزوج به مراجعة
زوجته فهي فترة لامعان الفكر قبل حل الحياة الزوجية . ومن حكم العدة
انها تحجب عن رحم المرأة ففيها يتبين للمرأة الحمل وعدمه وفي ذلك من النفع ما
فيه كي لا تختلط الانساب ، ومنها الحداد على المتوفي فان وفاة الزوج خسارة
فادحة للزوجة اذ خسرت رب اسرتها ومعينها فمن الوفاء ان تمتنع عن الزواج
فترة من الزمن .

شهادة الدكتور جوستاف لوبون في المرأة الاسلامية

ونختتم هذا البحث بهذه الشهادة القيمة للدكتور جوستاف لوبون في منزلة
المرأة الاسلامية اذ يقول :

« اذا اردنا ان نعلم درجة تأثير القرآن في احوال النساء وجب علينا أن
ننظر الى ما كانت عليه هذه الاحوال ايام ازدهار حضارة العرب ، فقد

روى المؤرخون انه كان هن من الشأن ما اتفق لآخواتهن حديثاً في اوروبة التي اقتبست من عرب الاندلس نبيل الطبائع وكرم العادات . ذكرنا في فصل سابق ان الاوربيين اخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة . والاسلام حقاً ، لا النصرانية ، هو الذي رفع المرأة من الدرك الاسفل الذي كانت فيه ، فانت اذا ما نظرت الى سيرة امراء النصارى الاقطاعيين في القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء ، وانت اذا ما تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن علمت ان رجال عصر الاقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل ان يتعلم النصارى من العرب امر معاملتهن بالحسنى ^١ .

« وقد خبت شعلة حضارة العرب في عهد وارثي العرب ولا سيما عهد التوك فنقص شأن النساء كثيراً . وسأبين في مكان آخر ان حالتهن الحاضرة هي ، مع ذلك ، افضل من حالة اخواتهن في اوروبا ، وما تقدم يثبت على كل حال ، ان نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن ، لا بسبب القرآن وهذا نكرر ان الاسلام الذي رفع شأن المرأة كثيراً بريء من خفضه لها ، ونحن لم نكن اول من جهر بهذا الرأي ، فقد سبقنا الى مثله كوسان دوبرسفال ، ومسيو بارتمبي سان هيلر ^٢ » .

١ نقلا عن كتاب حضارة العرب ص ٤٢٩ من الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعبي

٢ نفس المصدر ص ٤٣١ .

نظام الحرب في الإسلام

الحرب ضرورة اجتماعية - نظرة اليهودية والمسيحية الى الحرب - دعوة الاسلام الى السلم - القتال للدفاع عن النفس - القتال في سبيل الله - مقارنة بين تشريع الاسلام والقانون الدولي في تشريع القتال - الاستعداد للحرب - وصايا عامة اثناء الحرب - القوة المعنوية - الجزية - المستأمنون - المهود - شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الاسلامي .

الحرب هي النزاع المسلح القائم بين دولتين فأكثر ، تقدم عليه احدها برضاها وتجبى غيرها عليه ، وهي ذريعة تتوسل بها الدول لتحقيق مآرب سياسية او اقتصادية او اقليمية .

الحرب ضرورة اجتماعية

وبما لا شك فيه ايضاً ، ان الحرب ضرورة اجتماعية تلجأ اليها الجماعات البشرية لحل بعض المشاكل الاجتماعية التي تستعصي على الحلول السلمية . فالجماعات البشرية اندفعت في التناحر لا لمجرد استيفائها اغراضها المادية فحسب ، ولكن لحاجتها الادبية ايضاً ، فلولا الحروب التي ثارت بين الجماعات لتعطل تقدمها في طريق العمران والمدنية .

والاسلام اقر الحرب على انها وسيلة لحل المشاكل الاجتماعية في وقت كانت القوة العاشمة هي العائق الوحيد الذي يقف امام دعوة الحق . والدول الغربية نراها بعد ان نالت ما نالت من ثقافة علمية عالية ، ومدنية راقية ، لا تزال تعتمد في القرن العشرين لحل مشاكلها المختلفة الى

الحرب ، فهل يعقل ان يحرم الاسلام الحرب قبل اربعة عشر قرناً ؟ وقد قصد الى إحداث تطور عام من الناحيتين الدينية والاجتماعية . وهذا بما يدحض رأي الطاعنين في الاسلام بأنه دين حربي ، وأنه لم ينتشر الا بالسيف ، هذا الطعن الذي اتخذته أعداء الاسلام وسيلة لتشويهه ، من ذلك ما قاله ماكدونالد في : « دائرة المعارف الاسلامية » : « ان نشر الاسلام بمجد السيف والقوة هو الواجب الديني على كل مسلم » وهذا هو الذي دفعنا الى كتابة هذا البحث ، للرد على هذه التهمة الباطلة ودحضها من كافة الوجوه .

نظرة اليهودية والمسيحية في الحرب

وإذا نظرنا الى الاديان القديمة وجدنا ان اليهودية فرضت على اهلها الحرب حفظاً لوجودهم ولتتمكن في الارض والتبسط في الفتح ، وتعاليمها مبنية على القتل العام ومحو سكان البلاد المفتوحة . جاء في الكتاب الخامس من الزبور « اذا أدخلك ربك في ارض لتملكها وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تغنيهم عن آخرهم ولا تعطيهم عهداً ولا تأخذ عليهم شفقة أبداً » .

ثم جاءت المسيحية بتحريمها الحرب بتاتاً لقول السيد المسيح بما جاء في الانجيل متى : « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضاً » .

ويستند كذلك انصار الرأي القائل بتحريم الحرب تحريماً مطلقاً الى قول السيد المسيح عليه السلام للقديس بطرس : « أعد سيفك الى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » وعلى هذا تكون المسيحية تحرم الحرب .

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل التمسك بتحريم الحرب بل تحريم صناعة الجندية ، وبذل آخرون جهوداً جبارة في سبيل التوفيق بين نص الانجيل وضرورات الدولة فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب المنوعة ، واثاروا البحث فيما هي الحرب العادلة ؟ فحددوها بان يعلنها الامير وان تكون عادلة ، واشتروطوا فيمن يعلنها ان يكون سليم النية صادقاً بلا طمع ولا

وحشية ؛ واقد اضطرت المسيحية في القرن الرابع الميلادي اي بعد ان اصبح لها دولة تحت قيادة الامبراطور قسطنطين الروماني ان تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار .

فهل يريد الطاعنون في الاسلام ان يحرم الحرب مع ان الاديان قبله لجأت الى الحرب بعد ان اعيتهما الحيل في القيام بدونها ؟ أم هل يريدون ان يحرمها على اتباعه ثم متى اضطرتهم الحياة لجأوا اليها غير آبهين لنهييه كما حدث لاهل الاديان الاخرى ؟ لاهذا ولا ذاك فالاسلام دين صراحة ومنطق يعطي لكل حالة من حالات الانسان حقه من التقدير والرعاية ويبيني حكمه فيها على تقدير المادة والروح معاً .

دَعْوَةُ الْإِسْلَامِ إِلَى السَّلَامِ

وضع علماء القانون الدولي قواعد لواجبات كل دولة نحو غيرها من الدول في حال السلم والحرب ، واول ما قرره العلماء من القواعد ان تكون علاقات الدولة مع غيرها اساسها السلم حتى يتيسر لها تبادل المنافع والتعاون على بلوغ النوع الانساني درجة كماله ، وقرروا انه لا يسوغ قطع هذه الصلة السلمية الا عند الضرورة القصوى التي تلجىء الى الحرب ، وبعد ان تفشل جميع الوسائل السلمية في حسم الخلاف .

وهذا ماسعى اليه الاسلام فانه اسس علاقات المسلمين بغيرهم على المساواة والامان ، فهو لا يجيز قتل النفس لمجرد انها تدين بغير الاسلام ، ولا يبيع للمسلمين قتال مخالفيهم في الدين لمخالفتهم في عقيدتهم بل يأمر اتباعه معاملة مخالفيهم بالحسنى ، ومبادلتهم المنافع وهذا واضح في قوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبوءهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

ويقول تعالى (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلا) النساء : ٩٠ .

والاسلام حريص على السلم اشد الحرص ، يتبين لنا ذلك من قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة^١ ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) البقرة : ٢٠٨ . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ان ايمانكم يوجب عليكم أن تدخلوا في السلام العام فلا تعتدوا على احد لم يعتد عليكم ولم يقاتلكم .

ومن الآيات ايضاً التي نحض على السلم قوله تعالى : (وإن جنحوا^٢ للسلم فأجبح لها) الانفال : ٦١ . والمعنى : واذا كنت في حرب مع اعدائك ايها الرسول ومالوا عن جانب الحرب الى السلم والمصالحة فأجبحهم الى ذلك واقبل منهم ، فالاسلام دين السلم . هذه الآية تفتح باب السلام على مصراعيه وتتلأم والنزعة العصرية في وضع اصول مقررة لابطال الحرب .

وبما يجب لفت النظر اليه ان الاسلام حريص على السلام بما لم يحرص عليه مذهب اجتماعي قبله فقد جعل السلام تحية الاسلام يتبادلها المسلمون في اليوم ملايين المرات بقولهم (السلام عليكم) كما انه اوجب ذكرها في نهاية كل صلاة ، فالمصلي يختم صلاته بالتوجه الى اخوانه المصلين قائلاً : « السلام عليكم ورحمة الله » .

هذا هو مذهب الاسلام في السلام الذي ينحو فيه منحى المسيحية ولكن اذا كانت المسيحية صورت لنا السلم الانساني في الصفع المطلق . فالاسلام يصور لنا السلم الانساني في صفع جميل ، وهو صفع القادر الذي يمد للسلام يمينه وفي يسراه سيف يجعل السلم كريماً لا ذل فيه ، ويجعله سلماً قوياً يحمي نفسه ويستأصل الشر أنى وجد .

الأحوال التي أقر بها الإسلام القتال والغلبة منها

القتال للدفاع عن النفس ولمنع الفتنة في الدين

مكث النبي بضع عشرة سنة يندُر بالدعوة من غير قتال صابراً على شدة

١ قال الكسائي السلم والسلم بكسر الهمزة وفتحها يطلقان على المسالمة وعلى الاسلام واطلاق السلم على الاسلام من حيث ان احكام الدين الاسلامي تنبع كلها نحو تحقيق السلام بين الناس .

٢ الجنوح : الميل

ايذاء العرب بمكة واليهود بالمدينة المنورة ، فكان يأتيه أصحابه ما بين مضروب ومجروح يشكون اليه حالهم ويطلبون منه السماح لرد العدوان بالمثل فيقول لهم النبي : اصبروا لاني لم أوامر بالقتال ، حتى ان بعض أصحابه قتل من جراء العذاب ، منهم ممية ام عمار بن ياسر وزوجها ياسر عذبهما آل المغيرة على اسلامهما ليرجعا عنه فلم يرجعا ، وماتا تحت العذاب .

ثم تطورت بعد ذلك الاحداث وتفنن المشركون في ايذاء المسلمين حتى اجمعوا امرهم على قتل النبي ، فلما علم بقصدهم هاجر الى المدينة المنورة حيث استقبله اهلها بالترحاب وبايعوه على الاسلام .

ولم يكتف المشركون بمحاواتهم قتل النبي ، بل البوا عليه القبائل الجاهلية لابطال دعوته والقضاء عليها ، فكان امام هذه المحاولة ، أن اذن فيها للنبي بالقتال من قبل الله .

وإذا أمعنا النظر في النصوص القرآنية التي أمر فيها المسلمون بالقتال ، وأبناها تعترف بان الحرب وسيلة لدفع العدوان ، اعترف بها لانه يعلم أن طبيعة البشر كثيراً ما تفضي الى التنازع والبغي والاعتداء على الحريات ، والى هذا يشير القرآن .

(اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع^١ وبيع^٢ وصلوات^٣ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) الحج : ٣٩ ، ٤٠ . تناولت هاتان الآيتان الاذن بالقتال وعلمت هذا الاذن بما مني به المسلمون من الظلم والاعتداء ، وما اكرهوا عليه من الخروج من الديار والاطوان بغير الحق ، ثم ذكر الله انه لولا القتال وما شرعه الله للانبياء والمؤمنين من قتال الاعداء في كل عصر ، لهدمت في شريعة كل نبي معابد امته ، فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ، ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً .

ثم يبين القرآن الواجب بعد النصر وبعد فخر المؤمنين للمشركين عقب

١ الصوامع : معابد الرهبان ٢ البيع : كنائس النصارى ٣ الصلوات : كنائس اليهود

الآيات التي ذكرناها (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور) الحج : ٤١ . فليست الغاية من النصر توسعاً في الملك كما تفعل الدول المستعمرة ، ولا وضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض ، ولا علواً واستكباراً في الأرض لكي يكون جنس أعلى من جنس ، ولكن لغاية واضحة وهي : ان يقيموا الصلاة اي انهم توجهوا الى السمو الروحي من عبادة الله وتطهير انفسهم . وآتوا الزكاة اي انهم حققوا العدالة الاجتماعية من اعطاء المحتاجين حقهم في هذه الحياة وأمروا بالمعروف أي اشاعوا الخير والحق بين الناس ونهوا عن المنكر اي حاربوا الشر والفساد واستأصلوها من المجتمع .

والنبي إذا قاتل فإنها يقاتل لرد العدوان ، وقد كان مأموراً به من قبل الله (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلواهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلواهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلواهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣ .

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمون في سبيل الله الذين يقاتلونهم ، وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا ، وتشتيتهم كما تشتتوهم من قبل ، وتنهائهم عن الاعتداء ، وتؤكد هذا النهي بعدم محبة الله للمعتدين . ثم ترشد الى ان اخراج الناس من ديارهم وترويعهم في امنهم وايدائهم ليعرموهم من دينهم هو فتنة أشد قبحاً من القتل ، إذ لا بلاء على الانسان اشد من ايدائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده ، الذي تمكن من عقله ، فيجب مقاتلة المشيرين لهذه الفتنة ، ثم تمنع المسلمين عن القتال في الاماكن المقدسة ، فان انتهكت حرمتهم فيها ساغ لهم ان يردوا العدوات مثلاً بمثل ، ثم تختتم هذه الآيات الى بيان الغاية التي تلمتهي بها الحرب وهي : ألا تكون فتنة في الدين وأن يكون الدين لله ليحصل الناس على حريتهم الدينية من غير اضطهاد .

القتال في سبيل الله

الامة الاسلامية مكافئة بتحقيق العدالة في الأرض وهذا التكليف يوجب على المسلمين ان يكافحوا الظلم والبغي حيث كان ويزيلوا اسبابه ، لا ليملكوا الأرض ويستولوا على المرافق ، ويستذلوا الانفس ، بل لتحقيق كلمة الله في الارض خالصة من كل غرض وهذا ما يطلق عليه في الاسلام (الجهاد في سبيل الله) و (القتال في سبيل الله) . جاء في القرآن : (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم) البقرة : ٢١٤ (وجاهدوا في الله حق جهاده) الحج : ٧٨ .

وسبيل الله هو سبيل الحق ، فكل قتال لاجل الدين والدفاع عنه فهو : في سبيل الله ، وكل قتال لدفع الظلم ، ومعاونة المظلومين ضد الظالمين ونصرة الحق هو من القتال في سبيل الله ، وكل طريق للوصول الى الحق او حمايته او الدفاع عنه هو من سبيل الله سبحانه وتعالى .

والقرآن يدعو في كثير من الآيات للقتال في سبيل الله خالصاً من أي غرض دنيوي . انظر الى هذه الآيات التي نزلت على الرسول وهو في المدينة المنورة والتي تبين أهداف القتال (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) النساء : ٧٤ ، ٧٥ .

ففي هاتين الآيتين افت لطيف الى أن الحرب في الاسلام ليست للتحكم في الرقاب ولا ذلال العباد ، بل هي في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من المؤمنين الساكنين في مكة الذين استدلمهم أهل مكة الكفار ، وآذوهم أشد الأيذاء لينعموهم من الهجرة ، وليفتنوهم عن دينهم ، هؤلاء المستضعفون الذين فقدوا النصير واستغاثوا بالله ، فعليكم أيها المؤمنون أن تنصروهم وترفعوا عنهم الظلم .

ثم قال تعالى بعد ذلك عقب الآيتين اللتين ذكرناهما (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) النساء : ٧٦ . والطغيان حسب ما

نصت عليه معاجم اللغة هو مجاوزة الحد ، وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان فهو طاع ، يقال طعا السيل : ارتفع حتى جاوز الحد في الكثرة . وكذلك اذا تجاوز الانسان الحد وعلا في الأرض يفسد فيها ، ويستعبد الناس ويسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الارض وخيراتها فذلك هو القتال في سبيل الطاغوت « الذي ندبه الله وجعله شعار الكفار ، أما القتال في سبيل الله فهو الذي غايته أن يرفرف القانون الالهي العادل على العالمين ، دون ان يكون هناك غاية شخصية او علو في الأرض كما امر به تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) القصص : ٨٣ .

وقد ورد في الحديث ان اعرابياً قال للنبي ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)^١ .

فالاسلام في جهاد دائم لا ينقطع ابداً لتحقيق كلمة الله في الارض اي لتحقيق النظام الصالح الذي يسعد البشرية ، والامة الاسلامية منتدبة لرفع الظلم عن الافراد والجماعات في اقطار الارض كافة بقطع النظر عن الوانهم واجناسهم واديانهم ، قال الله تعالى مخاطباً امة محمد ﷺ (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) البقرة : ١٤٣ .

اي لتكونوا شهداء على الناس في تقصيرهم وغلوهم فتقوموا باصلاح عوجهم . وليس في هذا الامر إظهار فضل امة على أخرى أو جرح كبرياء امة من الامم لان الله الذي وضع هذا الانتداب لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ولا وفقاً على جنس من الاجناس ، ولكنه جعله للجماعة التي تدب بأصوله مهما كان لون هذه الجماعة او جنسيتها ، ولهذا كانت دعوة الاسلام في سبيل الاصلاح عامة لكافة الجنس البشري لا تختص بأمة دون امة ، أو طائفة دون طائفة ، ونصوص القرآن واضحة في أن الاسلام دين عام للناس كافة . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً (قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي

له ملك السماوات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) الاعراف : ١٥٨ .
وقال سبحانه (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون) سبأ : ٢٨ .

ولهذا نرى الرسول ارسل سفراءه الى ثمانية ملوك وامراء مجاورين لجزيرة العرب يدعوهم الى الاسلام بكتب ارسلها اليهم فرفض هؤلاء دعوته، فمنهم من قتل رسله ومنهم من مزق تلك الكتب مع تهديد الرسول الذي كان يحملها فكان لازماً على المسلمين أن يجاربوا هؤلاء بعد أن تبين انهم قتلوا الدعاة وقتلوا انباعهم وساسوهم بسياسة الظلم .

« ولما أخذ العرب أهبنتهم لمقاتلة فارس والروم كاننا تنقاسمان اكثر بقاع العالم المعروفة يومئذ ولكنها مضمحللتان اضمحلاً سياسياً واجتماعياً فقد انهكتها الحروب المتتابعة ، ولم يخرج منها وفيها بقية ، وكانت سيرة الدولتين سيرة ظلم وجبروت تستأصل الرعية وتفدحها بالمؤن المجففة ، وتميت ما في قلوب ابنائها من حب الوطن ومناصرة الحكام وكان اهلها يعتقدون عقائد مزخرفة مشوهة فانقلبت الزارديستية دين فارس الموروثة الى مجوسية سحرية قائمة على اساس الجور والبغي ، مكروهة منبوذة في السر ، وغشيت النصرانية في الشرق بهارج الوثنية ، وفستت بالمناظرات الجدلية التي ورثتها عن متأخري اليونان فافتوت المجوسية والنصرانية كلتاهما الى فرق كبرى تتوارث العداوة والبغضاء ويعذب بعضها بايدي بعض كل ذلك بما أفاد الفاتحين القادمين . فلم يلق الاسلام في مكان ما مقاومة شعبية ولم يكن يعبأ اهل العراق إذا بذلوا الحراج الى بزنطة او الى المدائن او المدينة وإذا خيروا بين العرب والفرس فلا جرم ان الاولين كانوا ابر وانقى واعدل وارحم »^١

مقارنة بين تشريع الاسلام والقانون الدولي في تشريع القتال

اباح الاسلام الحرب ولكنه احاطها بسياسات من الرحمة لم تبلغ اليه

١ Esquisse de l'Histoire Universelle نقلا عن كتاب (الشرع الدولي

في الاسلام) للدكتور نجيب الارمنازي

مدنية القرن العشرين ولا الى ما يقرب منه فقد سن احكاماً وأوجب مراعاتها لتخفيف ويلات القتال وهي خير ما عرف من قوانين الرحمة بالانسان .

وهذه الاحكام انما تتفق مع احكام القانون الدولي في كثير من المواضع الا انها تخالفها من جهة انها احكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها ايمان المسلمين ، واما احكام القانون الدولي فانها ليس لها قوة تنفيذية تكفل امضاءها ، حتى ان بعض الباحثين يرى ان تسمية الاحكام الدولية قانوناً ، ضرب من التسميع ، لان القانون لا يكسب هذا الوصف الا اذا كان من ورائه قوة لحمايته وتنفيذ احكامه ، ولا توجد قوة ما لاختصاص الدول لاحكام القانون الدولي . فالاحكام الاسلامية الحربية مع انها ترمى الى العدل والرحمة لها من ايمان المسلمين قوة تنفيذية تكفل امضاءها .

وعلى هذا الاساس شرعت الاحكام الحربية في الاسلام كما يأتي :

● قرر القانون الدولي ان الدولة التي تضطر الى اعلان الحرب على دولة اخرى يجب عليها قبل البدء ان تعلن الدولة الاخرى ببيعة الحرب ، وتخطر الدول الاخرى لتتزم حيادها ، والغرض من هذا الاعلان توقي الغدر والاخذ على غرة .

وجاء في الشرع الاسلامي انه يجب على المسلمين قبل البدء بقتال الكافرين ان يبلغوهم دعوة الاسلام . فقد ثبت ان النبي ما قاتل قوماً حتى دعاهم الى الاسلام قبل أن يقاتلهم وبهذا كان يأمر قواده ، ففي صحيح مسلم أن رسول الله قال لبعض قواده « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث فأيتنهن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : الاسلام او الجزية او القتال ، والجزية هي ضريبة مالية خفيفة تحول دافعها الدخول في سلطان المسلمين والخضوع لحكمهم وسنفضلها فيما بعد .

● قرر القانون الدولي أن الرعايا غير المنتظمين في الجيش لا يعدون محاربين ولا يجوز الحاق الاذى بهم وأن وصف المحاربين خاص بكل جندي أو جيش محارب .

والشريعة الاسلامية قررت ذلك فقد جاء في القرآن (وقاتلوا في سبيل الله

١ من مراجع هذا الفصل كتاب السياسة الشرعية للامامة الشيخ عبد الوهاب خلاف .

الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا) البقرة : ١٩٠ ومن الاعتداء ان يجاربوا من لا يجارهم كأبناء اعدائهم ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم ورجال دينهم الخ ...
 روى رباح بن ربيعة انه خرج مع رسول الله في غزوة غزاها ، فمر رسول الله واصحابه على امرأة مقتولة فوقف امامها ثم قال : ما كانت هذه لتقاتل ؟ ثم نظر في وجوه اصحابه وقال لاحدهم : اخلق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً ولا امرأة ٢ .

واوصى الرسول جيشه في غزوة مؤتة وهو يتأهب للرحيل : لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ٣ ولا كبيراً فانياً ، ولا تفرقن نخلاً ، ولا تفلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً .

وعن ابن عباس ان النبي عليه السلام كان إذا بعث جيوشه قال : (لا تقتلوا اصحاب الصوامع) .

● منع القانون الدولي الاجهاز على الجرحى ، وتعذيب العدو والقتل به غيلة ، واستعمال القنابل والقذائف والاسلحة التي تزيد في التعذيب وحرم تسميم الآبار والانهار والاطعمة كما انه اوصى أن تحترم جثث القتلى وعدم التمثيل بها مهما كانت جنسية اصحابها .

والاسلام حرم هذا ايضاً فقد كان النبي ﷺ اذا عين اميراً على جيش او على سرية اوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال : و اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، حتى ان الاعداء إذا مثلوا بالمسلمين فالافضل عدم مجاراتهم في هذا التمثيل وبدل على هذا ما روي انه لما مثل المشركون في غزوة أحد بحمزة بن عبد المطلب وغيره من الشهداء قال رسول الله : لئن اظفرتني الله بهم لامثلن بهم ضعفي ما مثلوا بنا ، فأنزل الله عليه هذه الآيات (وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك الا بالله) النحل : ١٢٦ ، ١٢٧ . فقال الرسول : بل نصبر .

وأوصى ابو بكر - اول خليفة للمسلمين - قائده أسامه بقوله : لا تحزنوا

١ عسيفاً : اجيراً ٢ رواه مسلم ٣ ضرعاً : ضعيفاً ٤ رواه مسلم

ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ،
ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا
تذبحوا شاه ولا بقرة ، ولا بغيراً الا لما كلة .

● قرر القانون الدولي قواعد بحسن معاملة الاسرى وعدم مسهم باذى
فلا يجوز قتلهم ولا جرحهم واساءة معاملتهم أو تحقيرهم اذا سلموا انفسهم او
صودرت حريتهم . والشريعة الاسلامية حثت على تكريم الاسرى عامة
وجعلت ذلك من البر الذي هو علامة الايمان فقد اثنى الله على المؤمنين الذين
يحسنون الى الاسرى بقوله (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً واسيراً
انما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) الانسان : ٨ ، ٩ .
وقال النبي ﷺ يوصي اصحابه بحسن معاملة الاسرى : « أحسنوا إسامهم » .
وخير الاسلام الامام بين اطلاق سراحهم من غير مقابل او فدايتهم بالمال
على حسب ما يرى من المصلحة (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب
حتى اذا اتخنتهم فشددوا الوثاق فاما مناً بعد وإما فداء) محمد : ٤ .
وقد من النبي أي اطلق سراحهم بدون مقابل وفادى بالمال وبتعليم
الاسرى ابناء المسلمين الكتابة .

الاستعداد للحرب

ومن مزايا الشريعة الاسلامية انها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية بالحل
العملي فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ، وما دام اعداء
الاسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة
فان الحرب واقعة بين الناس ؛ ولهذا امر الاسلام بالاستعداد لها ، واخذ
الاهبة للحرب . قال تعالى (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الحيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم
وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون) الانفال : ٦٠ .
امر الله المسلمين في هذه الآية بان يستعدوا لاعدائهم بكل ما

يستطيعون من قوة ، وهو امر لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس . ولفظ القوة عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للحرب من الحصون واسلحة البر والبحر والهواء على اختلاف انواعها واشكالها بحسب الازمنة والامكنة المختلفة ، ومصانع الذخيرة ، وكل ما يفيد في صلاحية الأمة للحرب كانشاء معاهد لتعليم فنون الحرب ، وغير ذلك مما يجعل الأمة قوية مرهوبة الجانب .

ومعنى قوله تعالى (ومن رباط الحيل) يعني حبسها واقتنائها وقد امر الله باعداد رباط الحيل لأن الحيل كانت مركب الحرب في زمن الرسول ، فاذا تغير الزمان وصار مركب الحرب سفناً حربية وطائرات وسيارات مصفحة وجب على المسلمين ان يعدوا ذلك لأن الامر باعداد رباط الحيل ليس لذات الحيل ، بل لأنها مركب الحرب فاذا صار مركب الحرب شيئاً غيرها اقوى منها انتقل الامر اليه .

والقصد من اعداد هذه القوى إرهاب الاعداء واخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة الاسلامية ومصالحها . ولأجل ان تكون آمنة في عقر دارها وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلح ، وقد اوجبه الاسلام قبل ان يعرفه اهل اوروبا بزمن طويل . وهذا معنى قوله تعالى : (ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

ثم حض الاسلام المؤمنين على انفاق المال في سبيل الله لاعداد القوى العسكرية التي أمر بها اذ لا يتم بدون المال شيء منها . فقال تعالى : (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون) فقد وعد الله المؤمنين بأن ما ينفقونه في سبيل الله قل او كثر يجزون عليه في الدنيا والآخرة جزاء وافياً والقرآن في آية اخرى جعل ترك انفاق المال في سبيل الله من اسباب التهلكة (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) البقرة : ١٩٥ . والمعنى : لا تهلكوا انفسكم بأيديكم بتوك الانفاق فيغلبكم العدو ، لأن عدم انفاق المال في الاستعداد للقتال يضعفكم ويمكن الاعداء من نواصيكم فتهلكون .

وَصَايَا عَامَّةُ أَثْنَاءِ الْحَرْبِ

وعند اندلاع الحرب تتجلى لنا ناحية رائعة في تعاليم الاسلام التي يفرضها على اتباعه ، والتي هي عماد النصر للشعوب الآخذة به . قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فُتَّةً فَاثْبِتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رُبُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) الانفال : ٤٥ ، ٤٦ .

اشتملت هاتان الآيتان على خمس وصايا وهي :

أولاً : الثبات عند لقاء العدو وعدم الفرار من المعركة ، والنظام الحربي المعاصر يقضي بقتل الجندي الفار من القتال حال فراره ، وذلك خشية أن تنتقل عدوى فراره الى غيره فتحدث البلبلة والجزع في صفوف المقاتلين ، فيكون داعياً لهم على الهزيمة .

ثانياً : ذكر الله في حالة الحرب ، فذكر الله في حالة الحرب له تأثير فعال في النصر ، لان الايمان بمد المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية فتدعمها ويكون لها الحكم الفصل في المعركة .

ثالثاً : الطاعة ، طاعة الله اولاً وذلك باتباع ما أمرهم به من الوصايا التي تنهض بحالهم ، وعدم معصيته . وإطاعة الرسول فيما يأمر به من شؤون القتال ، فقد كان الرسول هو قائدهم في أغلب المعارك التي خاضوها ضد الكفار ، وبعد وفاته أوجب عليهم اطاعة قوادهم في القتال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) فطاعة القائد العام هي جماع النظام الذي هو ركن من اركان النصر .

رابعاً : عدم التنازع فالنزاع في حال القتال مدعاة للفشل وتغلب الاعداء عليهم .

خامساً : الصبر على ما يكرهون من شدة ، وما يلاقون من بأس العدو وكثرة عدده فان الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد ، والصبر في الحرب من الوسائل لنيل النصر .

ومن الوصايا التي وردت في الحديث الشريف قوله ﷺ (الحرب خدعه)
ففي هذا الحديث تحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب الى خداع
الكفار . واليوم يعد هذا فناً من فنون الحرب يدرس في الكليات الحربية
واكبر معين للحصول على النصر .

القوة المعنوية

وسلاح المسلمين في الحرب على نوعين : سلاح مادي ، وسلاح معنوي فالسلاح
المعنوي ما وقر في القلب وثبت في الصدر : الا وهو الايمان الكامل بالله
وانهم يقاتلون في سبيله ، هذا العناد المعنوي يعتمد على امور منها :

ان الله معهم في حربهم يمدهم بالملائكة ، وانه سبحانه سيقذف في قلوب
اعدائهم الرعب فما يطيقون حرباً . قال الله تعالى (اذ يوحى ربك الى الملائكة
اني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) الانفال :
١٢ . فما ظنك بهذا الجيش الذي يسمع ان الله معه يمدّه بالملائكة ثم يسمع من
آيات التشجيع أن الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله تغلب فئة كبيرة من
اعدائها (قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة
بإذن الله والله مع الصابرين) البقرة : ٢٤٩ . وقوله سبحانه (إن يكن منكم
عشرون صابرون يغلبوا مائتين ؛ وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين
كفروا) الانفال : ٦٥ . فهؤلاء العشرون الذين يغلبون مائتين ، والمائة الذين
يغلبون ألفاً ، وهذه الفئة القليلة التي تغلب الفئة الكثيرة كانت تتأزر بسلاح
روحي يغطي عجزها من حيث الكمية ويجعلها تتفوق على خصمها الذي
يفوقها عدداً .

ومنها : ان الله فتح امام الجنود الذين يقاتلون في سبيله باب الامل ، مبيناً
ما اعد له من الجزاء العظيم والاجر الكبير الذي ينتظرهم في الآخرة قال
سبحانه (فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا
وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً
من عند الله والله عنده حسن الثواب) آل عمران : ١٩٥ .

١ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

ومنها : ان الله رغب المؤمنين في القتال في سبيله وحببه الى قلوبهم بأن عاقبته ستكون لهم في حالي البقاء والاستشهاد ، فاذا ظلوا احياء كان لهم الاستخلاف في الارض ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) النور : ٥٥ . واذا استشهدوا كانت لهم الجنة (وثئن قتلتم في سبيل الله او متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) آل عمران : ١٥٧ .

ثم نجد القرآن يسلك تعبيراً آخر يعيد الطمأنينة الى النفوس ويهدى من اضطرابها ، فيعطيه وثيقة بالحياة بعد الموت ، وان هذا الاستشهاد في سبيل الله ليس موتاً ابدياً ، بل ان هؤلاء المستشهدين لا يزالون احياء في الآخرة . قال الله تعالى (ولا تحزن الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون) آل عمران : ١٦٩ .

وقد تنوعت اساليب القرآن في هذا الصدد ترغيباً في الجهاد وتشويقاً اليه ، من ذلك قوله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) التوبة : ١١١ .

ففي هذه الآية قرب الله الجهاد الى النفوس ، وجعله بيعاً وتجارة تمثيلاً بما يتعاطاه المرء من البيع والشراء مع البشر ، ولكن هنا بيع وشراء ، الله هو المشتري والعبد هو البائع ، ولا أحد اصدق من الله في عهده ووعد ، ثم جعل الله الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين واموالهم بحيث اذا بذلوها في سبيله استحقوا الثمن .

وكما رغب الله الى المؤمنين القتال في سبيله ، وحببه الى نفوسهم ، وشوقهم في ثواب الدار الآخرة وجزائها الحسن ، نجده في مواطن أخرى يحذرهم من ترك الجهاد في سبيله ، وينذرهم من أن يرضوا بالحياة الدنيا ، وأن الدنيا لا يقاس المقام فيها بمقام الآخرة ، انظر الى قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل) التوبة : ٣٨ . ثم ينتقل الى التحذير فيقول (الا تنفروا يعذبكم عذاباً ايماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير) التوبة : ٣٩ . ينذرهم الله اذا هم تناقلوا عن

تلبية الدعوة الى الجهاد بالعذاب الاليم ، عذاب الذل والاستعباد ، وانتقال الملك والسلطان الى قوم غيرهم .

ولما كان القتال غير محبوب الى النفوس بين الله انه وسيلة الى امر محبوب وانه يخفي وراءه خيراً كثيراً كاعلاء كلمة الاسلام ودفع الظلم (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون) البقرة : ٢١٦ .

الجزية

قبل ان تعلن الدولة الاسلامية الحرب على دولة اخرى تخيرها بين : الاسلام او الجزية او الحرب . والقصد من الجزية هو أن تكون هذه الدولة تحت حماية المسلمين ليأمنوا شرها ولافساح المجال لحرية الدعوة الاسلامية بأن تصل الى جميع طبقات الشعب بدون اكراه ، وليكون الدعاة المسلمون في مأمن من الاعتداء عليهم .

والاصل في تشريعها قوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد^١ وهم صاغرون^٢) التوبة : ٢٩ .

فالجزية ضريبة شخصية فرضها الاسلام على غير المسلمين من رعايا الدولة الاسلامية وهي من غير المسلمين قائمة مقام الزكاة بما يؤخذ من المسلمين ، وذلك ان كل فرد من افراد الدولة قادر على أن يؤدي قسطاً مما يصرف في المصالح العامة يجب أن يفرض عليه هذا النصيب ، ليكون له في مقابل هذا الواجب التمتع بحقوق الدولة التي هو من رعاياها ، ولهذا فان من يعتنق الاسلام تسقط عنه الجزية ويطالب بالزكاة .

والاسلام لا ينسى واجب المروءة والرحمة ، فهو لا يجيز ان توضع الجزية على الضعفاء والمساكين . ففي كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة يقول فيه « واما شيخ ضعف عن العمل او اصابته آفة من الآفات او كان غنياً فافتقر وصار اهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام » ويقول ابو يوسف في كتابه الخراج « لا تجوز

١ عن يد : اي عن قدرة وغنى ٢ صاغرون : اي تجري عليهم احكام الانسان

الجزية على النساء والصبيان ولا المسكين الذي يتصدق عليه ولا المتعد ولا الاعمى^١.

« ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق عليه ، ولا من اعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذمي يتصدق عليه ولا من مقعد . والمقعد والزمن إذا كان لها يسار أخذ منها وكذلك الاعمى . وكذلك المترهبون الذين في الاديرة إذا كان لهم يسار أخذ منهم وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم اهل اليسار لم يؤخذ منهم^٢ »

وفي تعيين قدرها نعرض آراء الأئمة الاربعة فيها :

يقول ابو حنيفة ان الجزية على الفقير اثنا عشر درهماً ، وعلى المتوسط اربعة وعشرون درهماً وعلى الغني ثمانية واربعون درهماً^٣.

ويقول احمد بن حنبل انها موكولة الى رأي الامام وليست مقدرة .

ويقول مالك انها مقدرة على الغني والفقير بأربعة دنانير او اربعين درهماً

ويقول الشافعي ان الجزية دينار يستوي فيها الغني والفقير على السواء .

ومتى اعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم ومنحهم حريتهم في دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين ويسمون (اهل الذمة) وسماوا بهذا الاسم لان كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ، وهذا ما سار عليه امراء المسلمين في معاملة اهل الذمة انظر الى هذا العهد الذي عاهد فيه خالد بن الوليد اهل دمشق وهذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم الا بخير إذا اعطوا الجزية^٤ .

والجزية هي جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن اهل الذمة ، وإعانة للجند الذين يحملونهم بمن يعتدي عليهم ، وليس ادل

١ كتاب الخراج ص ٦٩ ٢ نفس المصدر ٦٤١

٣ لم يكن سعر الدرهم بالنسبة للدينار ثابتاً بل كان متبدلاً حسب الاوضاع الاقتصادية العامة لذا كان الدينار يساوي ١٢ درهماً في زمن خلافة عمر وكان يساوي ١٠ دراهم في دور الرسالة وفي خلافة الامام علي . ٤ البلاذري : فتوح البلدان ص ١٢١ .

على ادراك المسلمين هذه الحقيقة وعلمهم بها ما ذكره ابو يوسف في كتابه الخراج : ان ابا عبيده بعدما صالح اهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا له فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب ابو عبيدة الى كل وال من خلفه في المدن التي صالح اهلها بأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب اليهم أن يقولوا لهم انما رددنا عليكم اموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشتروتم علينا أن نمنعكم واننا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم وليس ادل على قيمة الجزية الزهيدة مما شهد به العلامة (دريبر) في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهورهم الا شيئاً ضئيلاً من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية » .

ويقول المشرع مونتسكيو في كتابه (روح الشرائع) عند المامه بالاتوات الحكومية : « ان هذه الاتوات المفروضة كانت سبباً لهذه السهولة الغربية التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم . فالشعوب رأت بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الابطرة أن تمنع لاداء جزية خفيفة ، يمكن توفيتها بسهولة ، وتسلمها بسهولة كذلك ، ووجدت نفسها سعيدة بأن تستخذي لأمة متبررة تعاملها على هذه الصورة من ان تدب لحكومة فاسدة كانت تكابد تحت سلطانها كل ضروب الموانع دون حرية لم تنعم بها قط مضافاً اليها كل ويلات عبودية عتيقة »^٢ .

اما وصف مونتسكيو المسلمين الاولين بالأمة المتبررة فنرد عليه بأنه هل عهد في تاريخ الانسانية أن امة متبررة يضرب بها المثل في قناعتها وحسن معاملتها لمن تقهرها من الامم ؟ ان من المشاهد بين الناس ان الامم المتبررة لا يقف حبها للمال عند حد فلا تزال بالمقهور حتى تستنزف أمواله ولا تدع له شيئاً . فمن أين جاء هذا السلوك المثالي للمسلمين المتبررين في نظر مونتسكيو على خلاف سياسة الشعوب قديماً وحديثاً ؟ انه ضيق

١ كتاب الخراج ص ١٦٦

٢ نقلا عن العدد ٩ من مجلة الازهر ترجمة الاستاذ محمد فريد وجدي

النظر والتعصب اللذين يسبغان على الاشياء حكماً خاطئاً بعيداً عن التجرد والصواب .

المستأمنون

ومن نظم الاسلام الدالة على السهاحة في اثناء الحرب ، انه يبيح لافراد وجماعات من الدولة المحاربة أن تتصل بالمسلمين وتدخل ديارهم وتقيم فيها في عصمة قانون يعرف في التشريع الاسلامي باسم الامان . والاسلام يقرر عصمة المستأمنين ويوجب على المسلمين حمايتهم في انفسهم واموالهم ما داموا في ديار الاسلام ، بل يذهب ابعد من ذلك فنراه يمنحهم انواعاً من الامتيازات ، ويعفيهم من بعض ما ينفذه على المسلمين من احكام .

والغاية من هذا الامان الذي شرعه الاسلام ، هو ان يهيئ فرصة للمستأمنين تمكنهم من درس حقيقة الاسلام وادراك اغراضه عن كتب ، ولقد كان للاسلام من ذلك وسيلة قوية لنشر دعوته .

والاصل في هذا ما جاء في القرآن (وإن احد من المشركين استجارك ^١ فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه) التوبة : ٦ . والمعنى : وان استأمنك ايها الرسول احد من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو اليه أو ليلقاك مطلقاً ، فيجب ان نجيره ونؤمنه لكي يسمع كلام الله فان هذه فرصة للتبليغ والاستماع ، فان اهتدى به وآمن عن علم واقتناع فذاك ، والا فالواجب ان تبلغه المكان الذي يأمن على نفسه ويكون حراً في عقيدته .

وقد توسع الاسلام في هذا الباب توسعاً عظيماً فسمح للفرد ان يجير ويؤمن ويعطي عهداً لفرد او جماعة من الناس ، وأمانه وعهده محترم لقوله ﷺ (ذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم) وكذلك أقر المسلمون أمان المرأة لقوله ﷺ (قد اجرنا من اجرت يا ام هاني) .

والاسلام لم يشترط في ذلك التشريع الا ما يضمن للمسلمين سلامتهم

١ الاستجارة طلب الجوار وهو الحماية والامان. فقد كان من اخلاق العرب حماية الجار والدفاع عنه

كالتأكد من انه ليس المستامن قوة ولا منعة ، ولا تبدو عليهم مظاهر الميل الى الفتنة والتجسس على المسلمين ، وليس معنى هذا ان الاسلام ينسى حق الامام فله إبطال اي أمان لا يوافق مصلحة المسلمين .

العهود في الإسلام

كانت المعاهدات ولا تزال اداة هامة لتسوية العلاقات وفض المشاكل والمنازعات بالطرق السلمية ، قائمة على الثقة بين الطرفين ، فاذا فقدت هذه الثقة انهارت اهم دعائم السلام بين الامم .

والاسلام احاط المعاهدات بكل صنوف الاحترام ، وهيا لها كثيراً من الضمانات مما جعل المسلمين يرتفعون بها فوق مصالحهم وشهواتهم وعواطفهم . فليس لازماً في تشريع الاسلام انه اذا قضت الظروف بنزاع بينه وبين خصومه ان يخيرهم بين : الاسلام ، والجزية ، والحرب ، وليست هذه الحالات الثلاث التي كانت تعرض على الاعداء آتية في عمل المسلمين على سبيل الحصر فاندنا نجد اتفاقات ، وعهوداً ، وحالات سلام ، كانت قائمة بين المسلمين ومن يجاورهم من الامم ، بغير ان يشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث .

وإذا رجعنا للعهود المنوعة والمخالفات التي عقدها النبي رأينا فيها امراً واحداً مطرداً هو والقصد للنشر دعوة الاسلام ، والوصول بهذه الدعوة الى الظهور والانتشار بالوسائل السلمية .

ولهذا اوجب القرآن على المسلمين الوفاء بعهودهم في كثير من الآيات قال الله تعالى (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) الاسراء : ٣٤ . وذكر الله صفات المؤمنين الصادقين فقال (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون) المؤمنون : ٨ وجعل القرآن الخروج من فضيلة الوفاء بالخروج من فضيلة الانسانية كلها فقال الله تعالى (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون) الانفال :

. ٥٦٥٥

ولا ينبغي الاسلام من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكاً ولا استعماراً ،
ولا وسيلة لغش الشعوب وخداعها لأجل أن تكون امة اقوى من امة ، بل
لأجل إقرار السلام . قال الله تعالى (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا
الايان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ان الله يعلم ما تفعلون .
ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلاً
بينكم ان تكون امة هي اربى من امة) النحل : ٩١ ، ٩٢ . والمعنى :
أي لا تكونوا في افساد عهودكم والعود الى تجديدها كالمرأة الحماء التي تنفش
غزلها بعد ابرامه واحكامه ، ولا يجوز ان تقوم عهودكم على الفساد والغش لكي
تكون امة اقوى من امة أي اكثر مالا ورجالا وقوة بما يجعلها ارجح .

والقرآن امر بالوفاء بالعهد ولو ادى ذلك بالمسلمين الى عدم نجدة اخرائهم
الذين يقيمون في بلد غير اسلامي معاهد لهم ، مع أن القرآن يعتبر المسلمين على
اختلاف اجناسهم وبلادهم امة واحدة ، كل عدوان يقع على طائفة او شعب
من المسلمين فهو عدوان على الامة الاسلامية . قال الله تعالى (والذين آمنوا
ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في
الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) الانفال : ٧٢ .

أما إذا أخل المعاهدون بالمعاهدة ، كان المسلمون في حل من قتالهم (وإن
نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان
لهم لعلهم ينتهون) التوبة : ١٢ .

وكذلك اذا لمسوا من اعدائهم امارات الخيانة فيجوز لهم نقض العهد مع
اخبارهم بذلك (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله
لا يحب الخائنين) الانفال : ٥٨ . قال الزخشي في كشافه : واما تخافن
من قوم معاهدين خيانة ونكثاً لأمارات تلوح لك فانبذ اليهم ، أي
فاطرح اليهم العهد على سواء ، أي على طريق مستو وذلك ان تظهر لهم
نبذ العهد وتخبرهم اخباراً مكشوفاً بيناً انك قطعت ما بينك وبينهم ، ولا

تتأجزم الحرب وهم على توهمهم بقاء ذلك العهد فيكون ذلك خيانة منك انت
الله لا يحب الخائنين .

شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الإسلامي

نريد في هذا المقام ان نستشهد بأقوال مؤرخين وكتاب لا يتون الى
الاسلام بصلة ، وانما هم رجال اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من العناية
ويضعون الامور في نصابها .

قال الدكتور جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) : « سيري
القاري ، حين نبحث في فتوح العرب واسباب انتصاراتهم ان القوة لم تكن
عاملا في انتشار القوات ، وان العرب تركوا المغلوبين احراراً في اديانهم ،
فاذا حدث ان انتحل بعض الشعوب النصرانية الاسلام واتخذ العربية لغة له فذلك
لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد
بمثله ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم تعرفها الاديان الاخرى »^١

ويقول في موضع آخر : « كان يمكن ان تعمي فتوح العرب الاولى
ابصارهم فيقتربون من المظالم ما يقتضيه الفاتحون عادة ويسبئون معاملة
المغلوبين ، ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في انحاء
العالم ، ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الامم التي كانت بعد غير خاضعة
لهم ، ولاصابتهم مثل ما اصابت الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخراً .
ولكن الخلفاء السابقين ، الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة
الديانات الجديدة ، ادركوا ان النظم والاديان ليست بما يفرض قسراً ،
فعاملوا اهل سورية ومصر واسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم
تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة
في مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الامن بينهم ، والحق ان الامم لم تعرف فاتحين

راجين متسامحين مثل العرب »^٢

١ نقلا عن الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعبي ص ١٤٥ ٢ نفس المصدر ص ١٤٦

« ورحمة العرب الفاتحين وتسامحهم كانا من اسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الامم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسمت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم ، وان انكر ذلك المؤرخون ، ونعد مصر اوضح دليل على ذلك فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب ، وحافظت عليه ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم اليها من الفرس والاغريق والرومان ان يقبلوا الحضارة الفرعونية القديمة وان يحملوها على ما اتوها به ١ »

ويقول في موضع آخر : وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء اوربية المنصفين القليلين الذين انعموا النظر في تاريخ العرب . قال روبرتسون في كتابه (تاريخ شارلكن) : « ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو اتباع الاديان الاخرى الذين غلبوهم وتركوهم احراراً في اقامة شعائهم الدينية » .

وقال ميشود في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : « ان الاسلام الذي امر بالجهاد متسامح نحو اتباع الاديان الاخرى ، وهو قد اعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وقد حرم قتل الرهبان على الحصوص لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس . وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها » .

ويقول الكونت هنري دي كاستري في كتابه (الاسلام خواطر وسوانح) « بعد ان دانت العرب وآمنت بالقرآن واستنارات القلوب بنور الدين الخفيف برز المسلمون في ثوب جديد امام اهل الارض قاطبة ؛ هو المساواة وحرية الافكار في المعاملات . وتتابعت آيات القرآن تأمر بالمحاسنة بعد تلك الآيات التي كانت تنذر القبائل المارقة ... » . وهكذا كانت تعاليم النبي بعد اسلام العرب وقد اقتفى أثره فيها الخلفاء من بعده

وذلك يحملنا على القول كما قال (روبنسون) ان شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسة ومحبة انتشار دينهم ، وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة ، اذ أغاروا على الشام وساروا سير الصواعق الى افريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطيكي ولم يتركوا أثراً للعسف في طريقهم الا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال ، فلم يقتلوا أمة ابت الاسلام ^١ .

« ولانتشار الاسلام ورضوخ الامم لسلطانه سبب آخر في هاتين القارتين آسيا وافريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية . فانه كان قد بلغ منتهى العسف ووصل جور الحكام الى درجة ازهقت النفوس . فلما جاء الاسلام تراموا اليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الاموال » ^٢ .

« على ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصون يقومون بالدعوة له وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ولو انه كان له اناس قوامون لسهل علينا اشكال معرفة السبب في تقدمه القريب فانا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان ليمباشروا فتح الضائر والقلوب بعد ان يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الامم حرباً تجعل الولدان شبيهاً ، ولكننا لا نعلم للاسلام (مجعاً دينياً) ولا رسلاً واحباراً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح ، فلم يكره احد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما اودع في القرآن من مواهب التأثير والاخذ بالالباب ^٣ . »

وقد اعترف كثير من المؤرخين بأن انتشار الاسلام بين نصارى الكنائس الشرقية انما كانت نتيجة شعور باستياء من السفسة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية الى اللاهوت المسيحي وبسبب ما وجدوه في الاسلام من خير لهم ، وقدرته على نشلهم من الفوضى التي يتخبطون بها : « اما للشرق الذي عرف بحبه للافكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالأعلى عليه من الوجهة الدينية

١ من الترجمة العربية لاجد فتحي زغلول الكتاب L'Islam impression et études

٢ نفس المصدر ص ٣٨

٣ نفس المصدر ص ٣٩ - ٤٠

لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية الى عقيدة مخفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات فأدى ذلك الى خلق شعور من اليأس بل زعزع اصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما اهلت آخر الأمر انباء الوحي الجديد فجأت من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي تفرقت بفعل الانقسامات الداخلية ... وترعزت قواعدها الاساسية واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من خرباته كل الشكوك التافهة وقدم مزايا مادية جلييلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتقى في احضان نبي بلاد العرب ^١

وجاء في كتاب (العالم الاسلامي الجديد) ^٢ « ولم يبتغ العرب من فتوحهم احرار المعانء ودرس المعالم ، بل كانوا ضد ذلك ابناء أمة كريمة تحب العلم والتعلم وتجل ميراث الحضارات السابقة . وقد تشابكت بين الغالبين والمغلوبين ارحام المصاهرة وعقدت قلوبها على الاخوة الدينية فلم يلبث الفريقان ان امتزج بعضهما ببعض ليخرجا للناس حضارة جديدة ، هي حضارة الاسلام التي احيت آثار اليونان والفرس والروم وطبعتها بطابع العزيمة العربية والعبقرية الاسلامية » .

هذه هي اقوال بعض المؤرخين والكتاب في الفتح الاسلامي وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في التاريخ الديني والاجتماعي لأمة من أمم الارض بما يشهد على ان القرآن له تأثير في الجماعات البشرية بما لا يوجد لكتاب قبله وهو بذلك يعطي البرهان الواضح على انه وحي الهى .

١ Caetani , vol ii p 1045-9

٢ Le Nouveau Monde de l'Islam من ١١ لكتاب

العقوبات في الإسلام

حالة الامن قبل بعثة محمد عليه السلام - تعريف الجريمة - علة
التحريم والعقاب - لا جريمة ولا عقوبة بلا نص - عقوبة القتل العمد -
عقوبة القتل الخطأ - عقوبة الجناية على الاطراف - عقوبة قطاع الطرق
- عقوبة القذف - عقوبة الزنا - اللعان - عقوبة اللواط - عقوبة
السرقه - عقوبة البغي - عقوبة شرب الخمر - عقوبة الارتداد عن
الدين - التعزير - وصايا عامة للمحافظة على الامن - المساواة في العقوبة -
عقوبات الاسلام عادلة .

حالة الامن قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم

بعث محمد ﷺ في عصر مضطرب الأمن تسوده الفوضى من جميع نواحيه ،
عصبيات جاهلية ، وارتكاب لأشنع المنكرات ، سلب وقتل وعدوان ،
تغير القبيلة على الأخرى فتبدد شملها ، وتسلبها حرياتها ومالها ، وتعتدي على
اعراضها ، فكان الحق للقوة العاشمة ؛ إن كان ذلك في جزيرة العرب فان
الشعوب المحيطة بها لم تكن أسعد حظاً من الشعب العربي .

ولكن مشيئة خالق هذه الشعوب ارادت لها السلام فأوحت بالقرآن
لحمد ﷺ جامعاً لكل ما فيه سعادة المجتمع ورفاهيته ، ولتلق نظرة شاملة في
تشريع الاسلام للمحافظة على الأمن والسلام وذلك فيما شرعه من العقوبات
على الجرائم ، لأنه من المتفق عليه ان الجريمة اثر لفساد في نفس المجرم وان
العقوبة إصلاح له او وقاية للمجتمع من فساد .

تعريف الجريمة

والجرائم في عرف الشريعة الاسلامية هي محظورات شرعية زجر الله عنها بحد او تعزير وهي إما اتيان فعل منهى عنه ، او ترك فعل مأمور به .
والشريعة الاسلامية تتفق تمام الاتفاق مع القوانين الوضعية الحديثة في تعريف الجريمة ، فالجريمة في عرف القوانين عمل يحرمه القانون ، او امتناع عن عمل يقضي به القانون ، ولا يعتبر الفعل او الترك جريمة في نظر القوانين الوضعية الا اذا كان معاقباً عليه .

علة التحريم والعقاب

والافعال المعتبر فعلها او تركها جرائم ، هي التي يسبب اتيانها او تركها ضرراً في نظام الجماعة او بعبائدها ، او ب حياة افرادها ، أو بأموالهم أو بأعراضهم ، أو بمشاعرهم ، او بغير ذلك من شتى الاعتبارات التي تستوجب حماية الجماعة وصيانتها .

وقد شرع العقاب في الجريمة لمنع الناس من اقترافها ، لان النهي عن الفعل او الامر باتيانه لا يكفي وحده لحمل الناس على اتيان الفعل او الاقلاع عنه ، ولولا العقاب لكانت الاوامر والنواهي ضرباً من العبث . فالعقاب هو الذي يزجر الناس عن الجرائم ، ويمنع الفساد في الارض ، ويحمل الناس على الابتعاد عما يضرهم او فعل ما فيه خيرهم .

والشريعة الاسلامية تتفق مع القوانين الوضعية في أن الغرض من تقرير الجرائم والعقاب عليها هو حفظ مصالحة الجماعة ، وصيانة نظامها ، وضمان بقائها ، ولهذا جاء في القرآن في تعليل القصاص في القتل (ولكم في القصاص^١

١ معنى القصاص الذي كتبه الله على جماعة المؤمنين في شأن القتل هو قتل من قتل كما سنفصله في هذا البحث في عقوبة القتل الممد .

حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون^١ (البقرة : ١٧٩ .

لا جريمة ولا عقوبة بلا نص

وجدت هذه القاعدة في الشريعة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً حيث جاءت في نصوص القرآن . وبهذا تمايز الشريعة على القوانين الوضعية التي لم تعرف هذه القاعدة الا في اعقاب القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث ادخلت في التشريع الفرنسي كنتيجة من نتائج الثورة الفرنسية وقررت لأول مرة في اعلان حقوق الانسان الصادر في سنة ١٧٨٩ م ثم انتقلت هذه القاعدة من التشريع الفرنسي الى غيره من التشريعات الوضعية . والحكمة من تقرير هذا المبدأ هي ان يكون الافراد على بينة من الجرائم التي يعاقب عليها القانون فيكون ذلك رادعاً لهم عن ارتكابها ، كما ان هذا المبدأ يمنع تعسف القضاء وباقي سلطات الدولة فلا يمكن أن يعاقب شخص على ما يباح لسواه ولا بعقوبة تختلف عن العقوبة التي يعاقب بها غيره .

والشريعة الاسلامية التي جاءت بهذه القاعدة لم تحدد العقوبات الا في امهات الجرائم وكبائر المعاصي وهي التي يضرب لها رباط الجماعات وتشقى بها الامم وهي في ستة مواضع . اولاً : قتل النفس بغير حق . ثانياً : قطع الطرق . ثالثاً : القذف . رابعاً : الزنا . خامساً : السرقة . سادساً : البغي .

هذه الجرائم نص على عقوبتها القرآن وهناك عقوبات نص عليها النبي ﷺ وهي عقوبة « شرب الخمر » و « الردة عن الاسلام » وما عدا ذلك من

١ هذه الآية بينت حكمة القصاص بأنه يترتب غاية حياة الافراد والجماعات لانه من علم انه اذا قتل قتل وان القصاص له بالمرصاد كف عن قتل صاحبه . فتحفظ لها حياتها ويسلمان : هذا من القتل وذاك من القصاص .

وقد اشتهر عن هذه الآية انها ابلاغ آي في القرآن فانها على ايجازها بينت حكمة القصاص بأسلوب بايغ . وخص النداء بأولي الالباب مع ان الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم لانهم هم الذين يتدبرون عواقب الامور ويعرفون قيمة الحياة وان اهمال الامة في تشريع القصاص صنيع لا يتفق وقضايا العقل الصحيح . وانظر الى تذييلها بقوله تعالى (لعلكم تتقون) أي كتبنا عليكم القصاص لتقوا الجريمة خوفاً من القصاص .

الجرائم لم تحدد العقوبات فيها بل ترك ذلك للحكام وأهل الرأي من العلماء ليلاحظوا ملائمة الجريمة وحالة المجرم ، وما يناسب البيئة ويتفق مع احوال الامة^١ .

ولنسرده عقوبة كل جريمة باختصار، أما التفاصيل فيرجع اليها في كتب الفقه الاسلامي .

القتل العمد

تعتبر جريمة القتل العمد من اخطر الجرائم واشدها اخلاقاً بالأمن ولذا فعقوبتها في كل القوانين من أقسى العقوبات وغالباً يعدم القاتل ، وقد نشأت هذه الجريمة منذ وجدت الجماعة الانسانية وورد ذكرها في جميع الشرائع والديانات القديمة .

فالتوراة تنجس في تشريعها الى جانب المجني عليه فتفرض لوليه قتل الجاني ولا تقبل هوادة ، أما المسيحية فتتميل الى الرحمة . (راجع انجيل متى الاصحاح الخامس الآية رقم ٣٨ الى ٤١) .

والقانون الروماني - في قديمه - يعطف على الجاني إذا كان من الاشراف فيرفع عنه القتل ويكتفي بنفيه ، وإذا كان من اواسط الناس كانت عقوبته قطع الرقبة وإذا كان من الطبقة الدنيا كانت عقوبته الصلب ، ثم غيرت بالقائه في حظيرة حيوان مفترس ثم غير هذا بالشنق .

والعرب قبل الاسلام كانت لهم عادات ونظم يرجعون اليها من بينها قتل القاتل ، ولكنهم كانوا يسرفون في تطبيق هذا المبدأ ولا يتوخون معنى العدل ، فكانوا كثيراً ما يطلبون في سبيل ذلك غير القاتل بالقاتل ،

١ قسم الفقهاء العقوبات الاسلامية على ثلاثة اقسام : اولا : الحدود - وقد عرفوا الحد بأنه عقوبة مقدرة حقاً لله فمتى علم الحاكم ان مجرمًا استحق عقوبة الحد فانه يجب عليه التنفيذ ولا يملك العفو . والجرائم التي تستوجب الحد هي : الزنا ومثله اللواط - السرقة - القذف - شرب الخمر اما حد قطاع الطرق فلا يخرج عن حد السرقة او القصاص او التعزير . القسم الثاني : القصاص - وهو ماملة الجاني بثل اعتدائه ولا يسمى القصاص حداً لانه حق للعبد له فيه ان ينفذ كما في القتل والجروح . والقسم الثالث : التعزير - وهو تأديب لا حد فيه ولا كفارة .

والعدد بالواحد ، بل كانوا كثيراً ما يأخذون الانسات بالهيمة وكانوا يفعلون ذلك أيضاً في «الجراحات» والديات ، فيجعلون ديانتهم وجراحاتهم ضعف ديات الخصوم وجراحاتهم ، وكثيراً ما دفعهم هذا العسف الى الحروب فاندلعت السننما فيما بينهم واشتد اوارها ، وطال امدها ، حتى تنتهي بقاء القبائل .

جاء الاسلام فاتخذ سبيلاً وسطاً بين اليهودية والمسيحية فأوجب عقوبة القتل على الجاني وأجاز لولي القتل ان يعدل عنه الى الدية .

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ^١ : الحر بالحر ، والعبد بالعبد والانس بالانس ^٢ ، فمن عفي له من اخيه شيء ^٣ فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم . ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون) البقرة : ١٧٨ - ١٧٩ .

وجه الله تعالى الخطاب في هذه الآية الى الامة (يا أيها الذين آمنوا) على ان يقيمها الحاكم او من ينوب عنه ثم قال سبحانه (كتب عليكم القصاص في القتلى) ومعنى القصاص ان يفعل بالقاتل مثل ما فعل .

ثم قال سبحانه بعد ذلك (الحر بالحر ، والعبد بالعبد والانس بالانس) وفي هذا ابطال لما كان جارياً في جزيرة العرب من أنه إذا قتل شخص من قبيلة ضعيفة شخصاً من قبيلة أقوى لا ترضى هذه الا ان تقتل معه اشخاصاً من شيعته .

والاسلام لم يحتم عقوبة القتل لهذه الجريمة فخير ولي القتل بين القصاص للقاتل أي قتله أو العفو عنه مع اخذ الدية (فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان) . أي فمن عفا له من اولياء القتل شيء

١ القتلى : جمع قتيل

٢ سياق مقابلة الاصناف بالاصناف يفهم ان لا يقتل فريق بفريق آخر وهو غير مراد على اطلاقه فقد جرى العمل في زمن الرسول على قتل الرجل بالمرأة واختلفت الائمة في قتل الحر بالعبد فذهب الامام ابو حنيفة انه يقتل به ، وتقتل الجماعة اذا اشتركوا في قتل واحد .

٣ المراد بقوله في الآية « شيء » اي من العفو .

من العفو ولو واحداً منهم وجب اتباعه وسقط القصاص . وعبر الله عن العافي بلفظ الأخ تذكرياً بالاخوة البشرية والدينية وحتى يثير عطف كل واحد منهما الى الآخر فيقع بينهم العفو والتراحم .

وانما يعفو من له حق طلب القصاص ، وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول ، وهم عصبته الذين يعتزون بوجوده ، ويهانون بفقده ، ويجرمون من عونه ، فمن ازهق روحه كان لهم ان يطلبوا ازهاق روحه لأنه إذا لم يجبهم الحاكم الى طلبهم ولم يقتص لهم فانهم ربما يمتثلون للانتقام ويفشو بينهم وبين القاتل وقومه التشاحن والحصام ، وهذا مشاهد الآن وخصوصاً في الامم التي تعيش على حالة قبلية ، اما اذا جاء العفو من جانبهم امن الضرر والفتنة ولا سيما اذا كان من اسباب العفو استعطاف القاتل وقومه لهم بآثارة عاطفة الاخوة الدينية ، وأرجحية المروءة الانسانية .

كما انه قد تقع في كل بلاد صور من جرائم القتل يكون فيها الحكم بقتل القاتل ضاراً كأن يقتل الانسان أخاه او احد اقاربه لعارض دفعه الى ذلك ، ويكون هذا القاتل هو العاقل لذلك البيت فيكون حجب الدم افضل .

وليس للحكومة أن تستقل بالعفو إذا طلب اولياء القاتل القصاص ، ولا أن تمتنع عن العفو إذا رضوا به الا إذا كان اطلاق سراحه يهدد الأمن فللحاكم أن يؤدبه بما يراه زاجراً ، وأن يجعله تحت المراقبة التي تحول بينه وبين العدوان حتى يتحقق حسن سلوكه .

وفي حال العفو عن الجاني تجب الدية ولذلك يقول الله تعالى (فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان) وصية من الله لولي المقتول أن يتبع عفو بالمعروف فلا يثقل عليه في البذل ، ولا يخرج في الطلب ووصية منه للقاتل بأن يؤدي الدية باحسان ، أي لا يماطل ولا يبخس فيها .

أما قوله تعالى بعد ذلك (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) فهو امتنان من الله سبحانه على عباده بما في هذا التشريع الذي تضمن فتح باب العفو والاكتفاء بالدية فانها تخفيف على القاتل ونفع لأولياء القاتل . ثم ختم الله هذه الآية بتحذير من يرجع بعاطفة الغضب الى قصد الانتقام فيقتل « أخاه »

الذي عفا عنه (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم) عذاب الدنيا بالقصاص وعذاب الآخرة بغضب الله .

هذه آية القصاص التي بينت عقوبة القتل عمن عمد والتي تثبت بشهادة شاهدين . وفي القرآن آيات أخرى نمت عن هذه الجريمة أشدها زجراً قوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) النساء : ٩٣ . فإن في هذه الآية من شدة العقوبة الأخروية ما تقشعر له جلود القساة ، وتباعد بينهم وبين هذه الجريمة الشنيعة . وكذلك جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ قوله : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، ف قيل : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : انه كان حريصاً على قتل صاحبه) .

أما القتل خطأ فقد بينته هذه الآية القرآنية : وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً الا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الا أن يصدقوا) النساء : ٩٢ والمعنى : أي ليس من شأن المؤمن ولا من خلقه ان يقتل احداً من المؤمنين لكن قد يفعل ذلك خطأ بأن أراد رمي صيد او غرض فأصاب مؤمناً . وعلى القاتل حينئذ تحرير نفس مؤمنة من الرق وان يدفع دية الى اهل المقتول وهي مائة بعير مختلفة في السن او قيمتها فاذا اسقطها اهل المقتول سقطت .

واما الجناية على الاطراف من يد أو عين فقد جعلت الشريعة الاسلامية عقوبتها أن يفعل بالجاني مثل ما فعل ، ولكن يشترط المماثلة بين العضوين . فلا تفتأ عين سليمة في نظير عين عوراء — هذا هو العدل المطلق فان الذي يعتدي على اتلاف عضو انسان لا جزاء له الا ان يتلف ذلك العضو لما جاء في القرآن (وجزاء سيئة سيئة مثلها) الشورى : ٤٠ .

كما ان المجني عليه له أن يعدل عن طلب القصاص بالعفو عن الجاني وفقاً لما حض عليه القرآن من العفو والتسامح مثل قوله تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) الشورى : ٤٠ .

واذا اسقط المجني عليه حقه في القصاص فله دية جروحه وقد عين قدرها الفقهاء المسلمون في كتب الفقه .

عقوبة قطاع الطرق

قطاع الطرق هم العصابات المسلحة التي تتربص بالمارة ليلاً أو نهاراً وتعمل فيهم القتل والسلب وهم الذين ورد ذكرهم في القرآن (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم) المائدة : ٣٣ ، ٣٤ .

وحكم الشريعة فيهم ينحصر فيما يلي :

اولاً : الاعداء ان ثبت انهم ارتكبوا القتل .

ثانياً : الصلب مع القتل ان قتلوا وسلبوا الاموال على خلاف بين الأئمة في الصلب

ثالثاً : قطع ايديهم وارجلهم من خلاف « اليد اليمنى والرجل اليسرى » هذا ان اقتصروا على سلب المال دون سفك الدماء .

رابعاً : النفي ان استعملوا الارهاب ولم يقتلوا ولم يسلبوا . وقد فسر النفي بعض الأئمة بالحبس .

ومعنى قوله تعالى (الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم) .

استثنى الله هنا من تابوا واناوبوا من قبل ان يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم فهؤلاء تسقط عنهم العقوبة ، ولكن تبقى على هؤلاء حقوق العباد ، فالسالب للمال أيام افساده اذا تاب ، للحاكم ان يطالبه بها ، ومن قتل تنفذ عليه عقوبة القصاص كما مر ذكرها إما العفو مع الدية وإما القتل كما يرتئي اولياء القتيل .

عقوبة القذف

القذف هو ان يتهم شخص شخصاً آخر بالزنا اتهاماً صريحاً كأن يقول له : أنت زاني ، أو دلالة كأن ينسب شخصاً الى غير ابيه ، فمن صدر منه ذلك كان جزاؤه ان يجلد ثمانين جلدة ، ما لم يأت بأربعة شهداء وأوا بأعينهم المتهم

يزني في امرأة. ويستوي الحكم فيما إذا كان القاذف رجلاً أو امرأة وكذا ان كان المقدوف رجلاً أو امرأة .

والأصل في ذلك ما جاء في القرآن (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً وأولئك هم الفاسقون) النور : ٤ .

على ان الآية قد اشارت الى أهم شرط من هذه الشروط وهو أن يكون المقدوف محصناً^١ ذكرآ كان ام انثى ومعنى احصانه هنا ان لا يكون قد ارتكب جريمة الزنا قبل قذفه او بعده ، قبل اقامة العقوبة عليه ، فان ثبت عليه ذلك فانه لا يكون محصناً وتسقط العقوبة عن القاذف .

وانما خص الله المقدوف من النساء بالذكر حيث عبر (بالمحصنات) لأن ضرر الزنا يتعدى المرأة الى اسرتها فقذفها يصيبهم به عار عظيم بخلاف الرجل ، وكذلك خص الله القاذف من الرجال بالذكر حيث قال (والذين يرمون) لأن النساء يغلب عليهن الحياء عادة فلا يقذفن الرجال بالزنا .

وقد بينت السنة انه لا فرق بين الرجال والنساء في القذف ، كما بينت الشروط اللازمة لاقامة حد القذف من عقل وحرية الى آخر ما هو مبين في كتب الفقه ، كما أنه يتوجب على عقوبة الجلد للقاذف عقوبة تبعية ، هي الحرمان من حق اداء الشهادة لقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة ابداً) .

عقوبة الزاني والزانية

اما عقوبة الزنا فقد فرقت الشريعة الاسلامية فيها بين المحصن^٢ وغير المحصن ، رجلاً كان او امرأة .

اما غير المحصن وغير المحصنة اي غير المتزوجين فقد قدرت العقوبة لهما بمائة جلدة والاصل في ذلك ما جاء في القرآن (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) النور : ٢ .

١ شروط الاحصان في القذف : الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والعتقة عن الزنا .

٢ شروط الاحصان التي يتوجب بمقتضاها رجم الزاني والزانية هي الاسلام والبلوغ والعقل والحرية والدخول في زواج صحيح .

أما المحصن أو المحصنة فجزاؤهما الأعدام رجماً لقوله ﷺ (لا يجل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزناً بعد احصان ، وقتل نفس بغير حق) .

وعقوبة الزنا منوطة في الواقع بأقرار الزاني فإذا لم يقر فانه لا يمكن اثبات الزنا عليه بالبينة ، والبينة لا تثبت إلا بأربعة شهود عدول يرون حقيقة الزنا بالفعل وذلك ان لم يكن محالاً فهو متعسر كما ان هؤلاء الشهود الاربعة اذا قصر واحد منهم في اداء الشهادة يتعرض الثلاثة الباقيون لعقوبة القذف .

والحكمة من هذا التشديد في اثبات هذه الجريمة كي لا يجرؤ الناس على اتهام بعضهم بعضاً بدون مبالاة .

ومن يتتبع حالات رجم الزاني المحصن في عهد النبي ﷺ وانبائه يجد ان الحد وقع باعتراف الزاني لا بشهادة الشهود الاربعة ، حتى ان المعتبر بالزنا كان النبي يحقق معه سائلاً اياه اسئلة متعددة حتى يتبين حقيقة اعترافه ليخفف عنه الحد بشبهة ترد في اعترافه فكان يقول له : لعلك قبأت ، لعلك لامست فكان هذه العقوبة لا تنفذ الا على من اراد ان يطهر نفسه من هذه الفاحشة .

اللعان

أما حق الزوج فان الشريعة الاسلامية لم تهمله في حال ما اذا رأى امرأته تزني بل جعل له مخرجاً معقولاً يدفع عنه اذى الغضب والغيظ من جهة ، ويخفف ما علق به من العار من جهة اخرى ، وبيان ذلك : ان الاجنبي اذا رمى امرأة عفيفة او رجلاً عفيفاً بالزنا ولم يأت بأربعة شهود كان جزاؤه ان تنفذ عليه عقوبة القذف كما مرّ بيانها .

أما الزوج فانه اذا ادعى ان امرأته قد زنت فان الشريعة لم تكلفه الاثبات كلاجنبي اذ لا مصلحة للزوج العاقل في قذف زوجته واتهامها بالزنا جزافاً ، فان عار ذلك يلحق ابنائه وبناته ، فان لم يكن له منها ابناء وبنات فانه يظن بكرامته عن الامتهان بين الناس ، ولهذا شرع للزوجين

في هذه الحالة اللعان وهو ان يقول الزوج امام القاضي : اشهد بالله انني صادق فيما رميتها به من الزنا ، ويكرر ذلك اربع مرات ثم يقول بعد ذلك : لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين وتقول الزوجة : اشهد بالله انه لكاذب فيما يرميها به من الزنا وتكرر ذلك اربع مرات ثم تقول : ان غضب الله عليهما ان كان من الصادقين وبذلك تتمخلص من العقوبة والاصل في ذلك ما جاء في القرآن :

(والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين . والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين . ويدروا عنها العذاب ان يشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين . والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين) النور : ٦ - ٩ .
ويترتب على هذا بان ينقطع الزواج وتحرم الزوجة على الزوج الى الابد ويلحق الولد بالمرأة .

عقوبة اللواط

اما اللواط فانه من الجرائم الخلقية التي لا تليق بالنوع الانساني فهو عدوان ظاهر على الانسانية وخروج عن سنن الله الطبيعية ، ولهذا سماه الله فاحشة كالزنا . قال الله تعالى في شأن قوم لوط الذين انتشرت فيهم هذه الفاحشة (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين) العنكبوت : ٢٨ . ثم يحدثنا القرآن بان الله عاقبهم على سوء فعلهم (انا منزلون على اهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) . العنكبوت : ٣٤ . وعقوبة اللواط في الشريعة الاسلامية كعقوبة الزنا كما ذهب بعض العلماء . وقيل بقررها الحاكم بما تقتضي به المصلحة وبما يزجر الناس عن فعل ذلك العمل البشع ، وقيل يقتل الاثنان فان اهل السنن رووا عن ابن عباس عن النبي ﷺ من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به .

عقوبة السارق والسارقة

اما السرقة فعقوبتها كما جاء في هذه الآية (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما

جزاء بما كسباً) المائدة : ٣٨ . وقد فسرها النبي باليد اليمنى .
ويشترط في السرقة التي تستوجب العقوبة عدة شروط :

اولاً : ان يكون السارق عاقلاً بالغاً فالجنون لا عقوبة عليه اذا سرق
والصغير لا تقطع يده وانما يضمن وليه قيمة المسروق مع تأديبه .

ثانياً : ان يأخذ السارق مال الغير الذي ليس له فيه ادنى ملك أما اذا
كان شريكاً وسرق من مال الشركة فلا يعتبر عمله سرقة وانما يعتبر خيانة فتبدل
عقوبة قطع اليد بعقوبة أخرى .

ثالثاً : أن يأخذ السارق المسروق من حرز مثله ، أي محل محفوظ فيه ،
فالمال الضائع من صاحبه ، والثمر الذي يكون في الشجر بلا حائط ، والماشية
التي لا راعي لها ونحو ذلك فلا قطع فيها ولكن يعزر الآخذ .

رابعاً : ان لا يقل المسروق عن ربع دينار لقوله ﷺ (تقطع اليد في
ربع دينار فصاعداً) والحكمة في هذا التحديد هو ان الشريعة جعلت سبب
قطع اليد ماله قيمة في الجملة ، وهو ما يتضرر به صاحبه فربع دينار قد
يكون قوت أسرة فقيرة يومين ، فاذا سرقت منها تضررت ، اما ما دون
ذلك فانه لا يوجب القطع لقلته بل تجب عليه عقوبة التعزير من ضرب وسجن ،
ومثل ذلك ما اذا أراد ان يسرق فتقب الدار أو تسور الجدار ثم منعه من
السرقة مانع .

خامساً : أن لا تكون السرقة عن حاجة ملحة كالجوع الشديد ففي هذه
الحالة يعدل عن حد السرقة الى عقاب اخف وطأة ، فان عمر بن الخطاب منع
قطع اليد في عام المجاعة .

عقوبة البغي

والاسلام اتى بتشريع عادل للمحافظة على الامن الداخلي قال الله تعالى
(وان طائفتان من المؤمنين اقاتلتا فاصالحوا بينهما فان بغت احدهما على
الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فاصالحوا بينهما
بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) الحجرات : ٩ . والمعنى
ان اقتلت طائفتان من اهل الايمان فاصالحوا بينهما بالدعاء الى حكم

الله والرضا بما فيه ، فان ابت احدى هاتين الطائفتين الاجابة الى حكم الله وأجابت الاخرى فقاتلوا التي تعتدي وتأبى الاجابة الى حكمه حتى ترجع وتخضع طائعة له ، فان رجعت الباغية بعد قتالكم اياها فأصلحوا بينها ان الله يحب العادلين .

عقوبة شارب الخمر

اما عقوبة شارب الخمر فهي اربعون جلدة فقد روى مسلم عن أنس (كان النبي يضرب في الخمر بالجريد والنعال اربعين) وعن علي رضي الله عنه (جلد صلى الله عليه وسلم اربعين وجلد ابو بكر اربعين ، وعمر ثمانين ، وكل سنة ، وهذا أحب الي)

وعلى هذا فللحاكم ان يزيد على اربعين جلدة الى ثمانين جلدة على وجه التعزير وتقام العقوبة على الشارب اذا شهد على الشارب شاهدان عدلان أو أقر على نفسه ، وكان الشرب لغير ضرورة كالنداي ولم يكن الشرب للاضطرار .

عقوبة الارتداد عن الدين

وفي عقوبة المرتد عن دينه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه) وحكمة ذلك ان الاسلام لا يسوغ لذوي الاهواء أن يعشوا بالاديان فيدخل في الاسلام لغاية ثم يخرج منه لغاية ، بل اعتبر ذلك لعباً بالدين وتضليلاً للمعتدين ولذلك اعتبر القرآن الردة من اشد التضليل . قال الله تعالى (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) النساء : ١٣٧ .

التعزير

اما التعزير فهو التأديب بما يراه الحاكم زاجراً لمن يفعل فعلاً محرماً ليمنع من العودة الى هذا الفعل « فكل من اتى فعلاً محرماً لا عقوبة عليه في القرآن والسنة ، او جريمة من الجرائم التي حددت لها عقوبة ولكن لم تتوافر فيها شروط تنفيذ هذه العقوبة ، فان على الحاكم ان يعزره بما يراه زاجراً له ليمنع من

العودة الى هذا الفعل « المحرم » . قال الامام ابن تيمية في رسالته عن الحسبة « منها عقوبات غير مقدرة وقد تسمى التعزير وتختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر الذنوب وصغرها وبحسب حال المذنب وبحسب حال الذنب في قلته وكثرته . والتعزير اجناس : فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن ومنه ما يكون بالضرب ... والتعزير بالعقوبات المالية مشروع ايضاً في مواضع مخصوصة في مذهب مالك في المشهور عنه »

ومن هذه الجنايات التي يجب فيها التعزير شهادة الزور ، او ان بغش شخص آخر او يخدعه او يمتال عليه ، او يطفف الكيل والميزان الى غير ذلك مما لا يمكن حصره هنا .

فالتعزير مجال واسع امام الحاكم يؤدب به من يشاء ما دام رائده اصلاح المسيء ومنع استفحال خطره ، وفي هذا من دقة التشريع الاسلامي ما يدل على انه وحي من الله ، فان مما لا ريب فيه ان احوال الناس تختلف باختلاف الازمنة والامكنة . فالعقوبة التي تناسب جماعة لها حالة خاصة ، لا تناسب جماعة أخرى تخالفها في عاداتها واطوارها ، فلا يمكن وضع عقوبة محددة يمكن تطبيقها على جميع الناس . فالله العليم باحوال عباده ناط امر تقدير العقوبة باولي الامر والقيام بتأديب المجرمين بالعقوبات المناسبة كي يعيش الناس في امن وراحة واطمئنان .

وصايا عامة للمحافظة على الامن

وفي القرآن والحديث وصايا عامة تتعلق بالمحافظة على الأمن من ذلك ما ورد في القرآن بوجوب اداء الشهادة بالحق وعدم كتمانها لأن اكثر الجرائم يتوقف ثبوتها على وجود شهود لها ولذلك جاء في القرآن (ولا تكتُموا الشهادة ومن يكتُمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) البقرة : ٢٨٣ . وجاء في القرآن ايضاً (واقسموا بالشهادة لله) الطلاق : ٢ .

كما ان شهادة الزور جعلتها الشريعة من اكبر كبائر المحرمات وقرنتها بالاشراك بالله . عن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح ،

فلما انصرف قائماً قال عدلت شهادة الزور الاشرار بالله ، عدلت شهادة الزور الاشرار بالله ، ثم قرأ قوله تعالى : (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به) الحج ٣٠ ، ٣١

وسنورد بعض وصايا النبي في المحافظة على الامن والتي لها تعلق بالعقوبات التي ذكرناها « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البينة على المدعي واليمين على من انكر » « ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله فان للامام أن يخطيء في العفو خير من ان يخطيء في العقوبة » « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » « كل احد احق بآله من ولده ووالده والناس اجمعين » « لا ضرر ولا ضرار »^٢ « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

المساواة في العقوبة

وبما تمتاز به الشريعة الاسلامية عن الشرائع القديمة المساواة في تطبيق قانون العقوبات بلا استثناء وهذا مما يشهد بعدالة الاسلام فقد كان نظام الطبقات قبل الاسلام معروفاً عند الرومان ، فقانونهم يقول : « ومن يستهوي أرملة مستقيمة او عذراء فعقوبته ان كان من بيعة كريمة مصادرة نصف ماله ، وان كان من بيعة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الارض »^٣

اما الاسلام فقد محا الفروق بين الطبقات وسوى بين الجميع في تطبيق العقوبة . من ذلك ما روت عائشة زوجة النبي ﷺ : « أن قريشاً اهتمهم شأن الخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ ثم قالوا من يجتريء عليه الا اسامة بن زيد حب رسول الله ؟ فكلّمه

١ اخرجه البيهقي وجاء بعضه في الصحيحين ٢ الضرر : هو الضرر ومعنى الحديث انه ينبغي لكل مسلم ان يرفع ضرره عن غيره ويجب على كل رئيس قادر سواء كان حاكماً وغيره ان يرفع الضرر عن رؤوسه فلا يؤذيهم وهو لا يسمح لاحد ان يؤذيهم ٣ مدونة جوستنيان ص ٣١٧ ترجمة المرحوم الاستاذ عبد العزيز فهمي ٤ حب رسول الله : اي محبوباً من الرسول

أسماء ، فقال رسول الله يا أسماء أتشفع في أحد من حدود الله ! ثم قام فاخطب^٢ فقال : إنما أهلك الذين من قبلكم انهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها^٣ » والجدير بالذكر أن النبي أقسم أنه لا يتأخر عن تنفيذ القانون على الجميع ولو على بنته نفسها وذلك حق لا ريب فيه ، فإذا لم ينفذ القانون على القوي والضعيف بنسبة واحدة كان ذلك تحريضاً للقوي على انتهاك حرمة الضعيف والعدوان عليه وهو آمن من العقاب وهذا هو عين الفوضى المقوضة لدعائم العمران .

عقوبات الإسلام عادلة

ونحنم هذا البحث بدحض شبهة على العقوبات الإسلامية بأنها قاسية لا تتفق مع روح المدنية وهي التي حكمت برجم الزاني إذا كان متزوجاً ، وبجلد غير المتزوج مائة جلدة وقضت بقطع يد السارق وبجلد شارب الخمر أربعين جلدة .

ولدحض هذه الشبهة نقول : أن جميع الشرائع والقوانين السماوية والوضعية ترمي في غايتها إلى المحافظة على الضرورات الخمس : النفس والعقل والمال والنسل والعرض ، إذ يترتب على التفريط فيها والاعتداء عليها التنازع وسفك الدماء وفقدان الأمن وانتشار المفساد والشور ولكن القوانين الوضعية تنسكت عن الصراط السوي فلم تستطع المحافظة عليها بما يقطع دابر الفساد وذلك لأنها لم تحرم الزنا إلا في حالات معينة وإباحته عند الرضا في أكثر الحالات محتجة بالمحافظة على الحرية الشخصية فكانت عاقبة ذلك كثرة اللقطاء وانتشار الأمراض السرية التي تفتك فتكا ذريعاً ، والاحتجاج عن الزواج .

أما الاحتجاج بالحرية الشخصية فردود ، فإن من القواعد المسلم بها أن للإنسان مطلق الحرية الشخصية إلا فيما يعود بالضرر على نفسه أو على غيره ، وقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن الزنا ضار بالزانيين صحياً وأدبياً ويتعدى

١ أي ما كان يليق بك أن تجرؤ على ذلك

٢ اختطب : خطب

٣ رواه البخاري ومسلم

الضرر منها الى غيرهما من اسرئيهما وهي تدنسهما بقضية الجناية على الاعراض التي تعتبر عند الامم الشرقية كالتعدي بالقتل وهذا نراهم يحفزهم دافع الشرف الى الانتقام لأعراضهم وبذلك كثرت جرائم القتل من اجل الزنا .

كذلك اباحت القوانين الوضعية تعاطي المسكرات بحجة الحرية الشخصية وما دروا ان هذه الحرية جانية بشهادة الاطباء الذين قرروا ضررها للجسم ، هذا الى جانب اضعافها المال في غير مصلحة ، وجنابتها ايضاً على العقل وذلك شر عظيم قد يؤدي الى مفسدة كبرى فقد يقتل السكران غيره وقد يهجر زوجه ويخرب بيته .

أفترى مع هذا ان عقوبة الحبس او التعزيم زاجرة رادعة ؟ لا شيء من ذلك يكون رادعاً الا ان تكون العقوبة بدنية لانها اشد وقعاً على النفس وابلغ في زجر الجانين وردع غيرهم .

اما عقوبة القذف بثانين جلدة فهي عادلة ايضاً لان القذف اعتداء على الاعراض التي يقتضي النظام العام صيانتها خصوصاً اذا لوحظ ما يترتب عليه من الشر والفساد ، لأن قذف المحصنات بالزنا يوجب لا محالة العداوة والبغضاء بين الاسر ، ويولد الضغائن والاحقاد في نفوس الناس ، وربما افضى الى الانتقام بقتل النفس وذلك شر وبيل يجب أن توضع له عقوبة تزجر الناس عنه فلا يطلقون لالسننتهم العنان حذراً مما يترتب على ذلك من شر وفساد .

اما السرقة التي تعاقب عليها الشريعة الاسلامية بقطع اليد فهي عادلة ايضاً لان السارق يأخذ خفية ويعتدي على صاحب المال في غفلته ، فهو جبان في اعتدائه ، يستلبد منه أعز شيء لديه بعد حياته ، وقد يرتكب جريمة القتل مع السرقة بل كثيراً ما تقع هذه الجريمة كوسيلة يتذرع بها السارق الى اتمام سرقة والفرار من تبعاتها فيقتل من غير تمييز .

فاذا كانت عقوبة السارق - وهو الذي يهدد المجتمع بأمضى الاسلحة وأخسها - هي الحبس كما تفعل القوانين الوضعية فهل ينزجر بها ويرتدع ؟ وهل تؤثر فيمن نحدتهم انفسهم بارتكاب هذه الجريمة ؟ وهل يتحقق بذلك الامن على النفوس والأموال ؟ كلا .. ولهذا نرى السرقات لا تقل ولا تنقطع ،

بل نكثر لان العقوبة غير زاجرة ، ومن ثم نرى اللصوص في هذا العصر ،
الذي يزعم قاده ان قطع اليد لا يتفق مع روح المدنية ، ينظمون انفسهم
ويكونون عصابات قوية مسلحة كأنها حكومة داخل حكومة لا يبالون
بإضاعة الاموال ولا الارواح كما نشاهد في الولايات المتحدة وغيرها .

ولو كانت عقوبة السارق قطع اليد لأخفنا جميع المجرمين خوفاً يمنعهم من
اقتواف جريمة السرقة فتصبح السجون خالية منهم ونستريح ادارة الامن العام
وقضاة المحاكم من تلك المزعجات المقلقات التي فشل في الحد منها كل ما شرع
حديثاً من القوانين

فلو طبق الشرع الاسلامي في السرقة لانحسم الشر من اصله كما نشاهد آثار
ذلك حالياً في البلاد الحجازية في حكومتها السعودية ، وقد كانت من قبل
مسلوبة الامن لا يطمئن فيها مقيم على نفسه ولا على ماله ، فانها بتنفيذها عقوبة
قطع يد السارق - مرات معدودة - قد أمنت عدم تكرار هذه الجريمة .

بذلك البيان الذي اوضحناه يقتنع كل منصف بأن العقوبات التي
شرعها الاسلام قد دعت اليها الحكمة واقتضتها مصلحة الافراد وسعادة
الجماعات وهي يصلح تطبيقها في هذه الايام كما صلحت للتطبيق منذ اربعة
عشر قرناً .

ومن هذا تتجلى لنا حكمة الاسلام فيما شرعه من العقوبات التي ترشدنا
الى انها أحكممت بوضع الهي هبط على نبي الاسلام محمد بن عبد الله والتي
تبرهن لكل منصف صدق نبوته ﷺ

صِحَّةُ الْإِبْدَانِ فِي الْإِسْلَامِ بَحْثٌ يَحْتَوِي عَلَى مُعْجَزَاتٍ طَبِيعَةِ اكْتِشَافِ الْعِلْمِ أَسْرَارَهَا

النظافة وتشمل ما يلي : الوضوء - الاستنجاء - تنظيف الأسنان
- قص الأظافر والشعر - نظافة الثياب - الاستنجاء - المأكل والمشرب
ويشمل ما يلي : تحريم أكل الميتة وأنواعها - تحريم أكل الحيوان
المفترس والطيء الجارح - تحريم تناول الدم - تحريم أكل الخنزير -
تحريم تعاطي الخمر - النهي عن الشراهة - العسل فيه شفاء للناس -
الصحة العامة وتشمل ما يلي : " : التداوي - الحجر الصحي - تحريم وطم
الحائض - تحريم الزنا - التعجيل بدفن الميت - الابتعاد عن النجاسة -
تقرير نجاسة الكلب - الرياضة وتشمل ما يلي : الصلاة - الصيام
- النهي عن الاجتهاد .

عناية الاسلام بصحة الابدان

وضع الاسلام للابدان تشريعات خاصة ، تقيها من العلل وتحفظها من
الامراض ، وذلك لما للصلة المتينة بين الروح والجسد ، ولأن صاحب الجسد
العليل لا يتاح له الفرصة للسير في مضمار الحياة ، والقيام بواجبه الانساني
كعضو في الهيئة الاجتماعية .

ملاحظة : من مصادر هذا البحث : محاضرة الدكتور الحاج محمد وصفي عنوانها (الاسلام
وصحة الابدان) نشرها في مجلة الشؤون الاجتماعية في القاهرة عدد ابريل ١٩٤١ . وكذلك
كتاب (الاسلام والطب الحديث) للدكتور عبد العزيز اسماعيل . وكتاب (الطب الحديث
يترسم خطى الاسلام) للدكتور حامد البدرى الغواني وكذلك بعض المقالات له نشرها في مجلة
لواء الاسلام .

فالإنسان المريض ضعيف الإرادة ، واهي الاعضاء ، مضطرب التفكير ، عصبي المزاج ، لا يستفيد منه المجتمع الإنساني كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء ، لذلك مدح الله في القرآن قوة البدن مع سلامة النفس ومثانة الاخلاق في قوله على لسان ابنة شعيب عن موسى عليه السلام (يا أبت استأجره انت خير من استأجرت القوي الامين) القصص : ٢٦ . كما قد وردت آية أخرى في القرآن تدل على أن القوة البدنية مزية محمودة . قال الله تعالى في طالوت (ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم) البقرة : ٢٤٧ . والخطاب في هذه الآية لبني اسرائيل وقد بين الله ان اختياره لطلالوت وتفضيله عليهم لأمرين هما : بسطة العلم وهو السعة في العلم الذي يكون به التدبير وجودة الفكر في تدبير شؤون الامة ، وبسطة الجسم وهو الكمال الجسماني المستلزم لصحة الفكر .

والحديث الشريف لم يخل من الاشارة الى مزية المؤمن القوي قال عليه السلام (المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير) .

والذي يتتبع التشريعات الاسلامية المتعلقة بصحة الابدان يلاحظ ان الاسلام فرض على اهله كثيراً من الاصول التي يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد الأولية التي تصلح لدفع اكثر الأمراض قبل وقوعها وللتخفيف من حدتها إذا وقعت ، وقد عني الاسلام بالتشريعات الوقائية ، ثم بالتشريعات المرضية التي تخفف من علل الاجسام كما سنرى في هذا البحث .

التشريعات الوقائية

ان خير علاج للمرض هو ان تنفادي الوقوع فيه ، هذا ما يقوله الاطباء المحدثون ، أي ان الوقاية خير من العلاج لذلك نرى الطب الوقائي يزدهر وينمو في الدول المتحضرة ونرى حكومات هذه الدول تعمل على تلقينه

لابناء المدارس والمواطنين كشيء ضروري لا غنى عنه ، هذا والتشريعات الوقائية في الاسلام تقسم الى اربعة اقسام رئيسية ولكل منها اجزاء تتفرع منها : (١) النظافة (٢) المأكل والمشرب (٣) الصحة العامة (٤) الرياضة .

النظافة

عني الاسلام بالنظافة عناية فائقة حتى قال النبي ﷺ (النظافة من الايمان) ويظهر حرص الاسلام على النظافة من الامور الآتية :

الوضوء

فالوضوء شرع في الاسلام قبل القيام الى الصلاة ، والاصل في ذلك ما جاء في القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة ، فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين) المائدة : ٦ . وسن النبي زيادة على ذلك المضمضة والاستنشاق ومسح الاذنين وتدليك اجزاء الجسم التي يمر عليها ماء الوضوء وتخليل ما بين اصابع اليدين والرجلين وغسل كل عضو ثلاث مرات .

وإذا كان في اليوم واللييلة خمس صلوات عند المسلمين وكانت الطهارة واجبة عند كل صلاة علمنا ان عملية الوضوء إذا تكررت خمس مرات او ثلاث مرات او مرتين ، تقي العيون من اصابته بالرمد لأن العين تغسل بالماء النظيف عدة مرات في اليوم ، كذلك غسل طاقة الانف بماء بارد من اهم الوقاية من الزكام المتكرر . . . وقد كتب اخيراً في هذا الشأن اطباء اختصاصيون في الانف . وفوائد غسل الوجه والاذنين والايدي ظاهرة من كثرة ما يصيب الوجه والاجزاء المعرضة عادة للأمراض الجلدية والالتهابات ، فان غسلها عدة مرات كل يوم احسن وقاية لها من ذلك ، وقد اتضح اخيراً ان كثيراً من الميكروبات بل الاغلبية منها تصيب الانسان بطريق اختراق الجلد ايضاً ، كما اتضح ان طفيليات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجلد ايضاً ، ولا شك في ان الغسل المتكرر من الوقايات البسيطة الفعالة ، لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع كل

الميكروبات من الوصول الى داخل الجسم الا اذا حصل فيها « تسليخ » (abrasion) ولو بسيطاً ، فهي حينئذ تفقد وظيفتها وتتمكن الجراثيم من الدخول الى الجسم ، واهم سبب لوجود التسليخات البسيطة هو « الهرش » وهو نتيجة عدم النظافة ، واما الجراثيم التي تدخل من الفم فلا تدخل الا من طريق تلويث الايدي ، فاذا كانت الايدي مغسولة نظيفة على الدوام ، كانت أحسن وقاية ١

الاستحمام

واوجب الاسلام غسل جميع البدن بالماء للرجل والمرأة عقب الاتصال الجنسي او الاحتلام كما جاء في القرآن (وان كنتم جنباً فاطهروا) المائدة: ٦ وهي عملية نافعة جداً للرجل والمرأة على السواء ، فقد ثبت طبيياً وعملياً ان الجسم الانساني يفقد شيئاً من حيويته وقوته بعد الانتهاء من الاتصال الجنسي وليس من شيء يعيد اليه تلك القوة الحيوية مثل ان يغسل الجسم كله ويدلكه جزءاً جزءاً بالماء النظيف ، ولهذا لو ترك المغتسل قطعة صغيرة من جسمه دون ان يصيبها البلل لم يصح غسله .

تنظيف الاسنان

والاسلام يحض على تنظيف الاسنان بالسواك فيقول ﷺ : (لولا ان اشق على امتي لامرهم بالسواك قبل كل صلاة) والسواك عود من خشب شجر الاراك له الياف دقيقة تستعمل لتنظيف الاسنان وينعش الفم نكهة طيبة . « ولو نظرنا اليه من الناحية الطبية لوجدنا هذا النبات يتكون كيميائياً من الياف السيليولوز وبعض الزيوت الطيارة ، وبه راتنج عطري واملاح معدنية اهمها كلورور الصوديوم وهو ملح الطعام وكلوريد البوتاسيوم واكسالات الجير .

فالسواك فرشاة طبيعية زودت باملاح معدنية ومواد عطرية تساعد

١ الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل - ص ٦٢ ، ٦٣ .

على تنظيف الاسنان فنرى ان النبي واصحابه قد استعملوا فرشاة الاسنان الطبيعية منذ قرون حينما استعمل الناس الفرشاة لتنظيف اسنانهم لأول مرة حوالي سنة ١٨٠٠ م

هذا وان الانسان اذا اهمل اسنانه سرى فيها الفساد والتسوس وافرزت السموم التي يمتصها الجسم وتسبب امراضاً كثيرة « ١ » .

قص الاظافر والشعر

امر النبي بالاعتناء بسائر اجزاء البدن كحلق الشعر الزائد في الجسم وقص الاظافر فقال : « خمس من الفطرة : الاستحجام ٢ ، والختان وقص الشارب ، وتنف الابط ، وتقليم الاظافر ٣ » .
والمراد بالفطرة في الحديث : السنة القديمة التي اختارها الانبياء واتفقت عليها الشرائع وكأنها امر جبلي فطروا عليه وقيل المراد بها الدين .

نظافة الثياب

واوجب الاسلام طهارة الثوب من النجاسات في الصلاة قال الله تعالى « وثيابك فطهر » المذثر : ٤

الاستنجاء

وبما سنه الدين الاسلامي للنظافة الاستنجاء بالماء الطاهر الذي يزيل عين النجاسة فان لم يوجد ماء فبالحجارة ونحوها . ومن حكم الاسلام في الاستنجاء ما سنه من استعمال اليد اليسرى لازالة النجاسة دون اليمنى التي قرر بها التحية وتناول الطعام قال النبي عليه السلام (اذا شرب احدكم فلا

١ من مقالة للدكتور حامد البدري النواني في مجلة لواء الاسلام

٢ المراد بالاستحجام حلق شعر الاعضاء التناسلية

٣ رواء البخاري ومسلم

يتنفس في الاناء واذا اتى الحلاء فلا يس ذكره ولا يتمسح بيمينه^١) كما ان النبي أوصى بغسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم فقال : (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الاناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، فان أحدكم لا يدري أين باقت يده^٢) .

المأكل والمشرب

إن الجسم الانساني يحتاج الى الغذاء الكامل ليقوم بوظيفته في الحياة ، لهذا نرى الاسلام يأمر المسلم ان يأكل من طيبات ما رزقه الله ولا يقرب الحثيث من المأكول . قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون . انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) البقرة : ١٧٢ - ١٧٣ .

هذه الآية تنص على تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، ولنفصل هذه الحرمات :

الميتة

فالميتة التي نصت عليها الآية هو الحيوان غير المذبوح الذي يموت ميتة طبيعية او بمحاذة من الحوادث . ونبدأ بالميتة الطبيعية :

« فالحيوان الميت ميتة طبيعية لا يموت الا لسبب ، فان كان لمرض فما لا شك فيه انه لا يزال في الجسم نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان ، حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة يظل مضرًا بالانسان وربما أدى الاكل منه الى الوفاة^٣ » .

« وإذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال احد الانسجة قبل الانسجة الاخرى فتؤدي الى انحلال الكل ، وانحلال احد الانسجة لا يأتي الا لضعف طبيعي فيها او

١ رواه البخاري ٢ رواه البخاري ومسلم
٣ الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ١٧

بمرض تدريجي غير منظور يحدث تغييرات في حُوم الحيوان تقللي من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يومياً في البلاد الباردة مثلاً ، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمها ولا تشكل ضرراً ظاهراً . والجواب على ذلك : ان ضرر التخمر يقل كثيراً في الاقاليم الباردة ويزيد في الاقاليم الحارة ، والدين الاسلامي أنزل للعالم كله بما فيه الاقاليم الحارة التي يحدث فيها التخمر بسرعة مدهشة . إذآ بما لا شك فيه طيباً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصفى دمه احسن غذاء وليس فيه اقل ضرر بخلاف الحيوان المريض المتخلة لحومه بالدم .

أما الميتة التي تموت بمجاذة من الحوادث فقد حرمها الاسلام ايضاً جاء في القرآن (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل اغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة وما أكل السبع) المائدة : ٣ .

فالمنخنقة هي الحيوانات التي تموت خنقاً . فالاختناق يجعل لحم الحيوان المخنوق اسرع الى التعفن كما أن المنخنقة لا تصلح للاكل طيباً لتغير شكل لحمها وكآبته واسوداده عند قطعه وكريه رائحته ولزوجة ملمسه .

والموقوذة هي المضروبة حتى تشرف على الموت فتترك حتى تموت أو هي ماتت فعلاً من اثر الضرب فوراً .

والمتردية هي التي سقطت من مكان مرتفع فهانت من اثر صدمة الوقوع .

والنطيحة هي التي ماتت من اثر عراكها مع مثيلاتها من الحيوانات وغالباً ما يحدث الموت من اثر النطح ولهذا خصصه النص بالذكر .

فلحوم الموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة لا تصلح للاكل كما قرر علم فحص اللحوم لاسودادها ولزوجتها وكريه رائحتها ، اما اذا وصلت الجراثيم المدمية او الفعجية الى الجروح التي حدثت في الجثة من الضرب او السقوط فهذا مما يزيد الطين بلة وكذلك اذا اصبحت الجروح بالعطبة (الغنغرينا) .

ما أكل السبع

حرم الاسلام أكل ما ترك السبع ، والسبع هو الحيوان المفترس الضاري وهو كثيراً ما يعتدي على قطعان الماشية فيتناول منها فريسته ويتبعه الرعاة عادة للحيولة بينه وبين الفتك بالفريسة وقد يدر كونه قبل الفتك بها وقد يدر كونه بعد خنقها أو بعد قتلها بصورة ما ، وقد يدر كون الفريسة وقد أبقي منها جزءاً قليلاً أو كثيراً وفي جميع الحالات المتقدمة لا يجوز أكل الحيوان الاليف اذا كان ميتاً لأنه إن اخذ مخنوقاً فقد شابه ما تقدم ، أو مقتولاً بجراح فلا يجوز أيضاً وضرر ذلك ان الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الامراض وربما انتقلت الجراثيم من فم السبع الى الفريسة ، ولهذا السبب حرم الاسلام أكل ما ترك السبع .

تحريم اكل الحيوانات المفترس والطير الجارح المفترس

كما ان الاسلام حرم اكل كل ذي مخلب من الطير وكل ذي ناب من السباع لصلابة عضلاتها وتلون لحمها ولقبح رائحتها فيقول ﷺ « حُرِّمَ عَلَيْكُمْ كُلُّ ذِي مَخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ » فلحوم هذه الحيوانات غير صالحة لمعدة الانسان لان هذه الحيوانات تبذل مجهوداً عضلياً في افتراسها لغيرها فتقوى بذلك عضلاتها وتصلب وتكون عسرة المضم .

تحريم تناول الدم

وحرم الاسلام تناول الدم ، لانه اصلح وسط لنمو شتى الجراثيم وتوالدها وانتشارها ولانه يحمل افرازات وسموماً يجب التخلص منها ، ولانه يحمل معه محتويات البول . أما اذا اخذ دم الحيوان المريض فهناك الطامة الكبرى . والدم لا يُعتبر غذاء مطلقاً ونوع الزلال الذي يحتويه يعتبر من اردثها .

تحريم أكل لحم الخنزير

وحرم الاسلام كذلك لحم الخنزير فوقى المسلمين شر الاصابة بدودة

لحم الخنزير ويقول ببني وديكسون : ان الاصابة بها تكاد تكون عامة في جهات خاصة من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا ولكنها تكاد تكون نادرة الوجود في البلاد الشرقية لتحريم دين اهلها أكل لحم الخنزير . وينقل لحم الخنزير كذلك مرض الترخيخينا للانسان ، ويكفي أن نذكر عن هذا المرض الحقائق الآتية :
 اولاً - لا يمكن للطبيب الاخصائي ان يقرر ان خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان الا اذ فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر ، وهذا غير ممكن لأنه اذا فعل ذلك فقد لحم الحيوان .

ثانياً - الانثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو ١٥٠٠ جنين في الغشاء المحاطي المبطن لامعاء المصاب فتوزع الملايين المولودة من الاناث جميعاً بطريق الدورة الدموية الى جميع اجزاء الجسم فتتجمع الاجنة في العضلات الارادية حيث تسبب آلاماً شديدة والتهابات عضلية مؤلمة تدعو الى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته وتكون نتيجة ذاك الاورام التي تمتد بطول العضلات .

ثالثاً - لا يوجد علاج لهذا المرض ، ولا سبب فنية لا يجدي معه دواء . وبجانب ذلك ينقل لحم الخنزير للانسان بعض الجراثيم العفنة والباراتيفود التي تسبب للانسان تسماً حاداً مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي قد تسبب الوفاة في بضع ساعات .

تحريم تعاطي الخمر

وللوقاية من كثير من الامراض حرم الاسلام شرب الخمر . جاء في القرآن (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) المائدة : ٩٠

ويقول ﷺ (كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام) ويقول ايضاً (لعن الله الخمر وشاربها وساقها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه) . ويقول ايضاً (اجتنبوا الخمر فانها مفتاح كل شر) .

ه الخمر اساسها مادة الكحول بكميات مختلفة وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة في جسم الانسان في عملية هضم المواد السكرية ... ولها فوائد طيبة ولكن يظهر ان هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جداً^١ فان زاد عن ذلك احدث ضرراً خصوصاً إذا كان التعاطي لمدة طويلة فانه يحدث التهاباً مزمناً في الاعصاب وفي الكلي وتصلباً في الشرايين وتحجراً في الكبد وضعفاً في القلب .

ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ والجواب : ان الكحول يختلف عن اغلب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفاً في قوة الارادة والحكم وتزداد به الانفعالات النفسانية وهذا هو الخطر لأن الشخص يصبح شخصاً آخر وارادته تصبح غير ارادته الطبيعية ومع علمه بضرر الزيادة في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه وهو تحت تأثير البسيط منه ، وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاش . ولكن ضعف الارادة يجعل الشخص عبداً لعادة شرب الخمر^٢ .

وان تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول الى الدم للشخص البالغ وهذا القدر يوجد في كأس واحدة من الويسكي أو الكونياك وقد لا يصل بالشخص الى درجة السكر ولكن على كل حال له أثر ملموس في حالة الشخص الجسمية والعقلية . واذا فحص الشخص في هذه الحالة نجد ان درجة ادراكه وتقديره قد تغيرت فعلاً فهو مثلاً اذا كتب على الآلة الكاتبة زادت اخطاؤه عن المعتاد واذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور . وقد ثبت من الاحصائيات ان اكثر من ١٣٪ في المائة من حوادث المرور سببها الخمر .

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شتتاً من الارتفاع في ضغط الدم ، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف إذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم اذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجاناً يزيد في الضغط لدرجة ينفجر معها شريان

١ ويرى بعض الاطباء ان الخمر ولو كانت قليلة جداً فهي ضارة بالخمرات في طول القضاة الهضمية والفرورية لسير حركة الهضم سيراً طبيعياً ٢ الاسلام والطب الحديث ص ٢٥ ، ٢٦

في المخ يسبب شللاً قد ينجو منه الشخص جزئياً أو لا ينجو كلية اذ من المعلوم ان الشخص الذي ضغطه الدموي مرتفع يجب ان يلتزم الهدوء في حياته لأن أي هيجان يزيد في ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شرياني ، والسكران لا يمكنه ان يضبط عواطفه ، وبالتالي لا يمكنه ان يضمن لنفسه هذا الهدوء .

والخمر تحدث عند غير المعتود عليها احتقاناً في المعدة قد يسبب غثياناً او اقيئاً ، واذا كانت الجرعة كبيرة سببت التهاباً في المعدة ، وعسر هضم يمتد الى بضعة ايام .

والخمر لها تأثير في الوراثة فقد شوهد أن اولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ضعفاء البنية ، ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل الى الاجرام ودافع الى الشر ، وإن من يبحث في كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الامراض المختلفة اذ يجد للخمر نصيب الاسد في ذلك . والملاحظات الطبية قد اثبتت ان سلوك طريق شرب الخمر لتدفئة الاجسام وسيلة غير صالحة وغير نافعة فقد شوهد ان جزيرة ايسلندا وهي اشد البلدان برداً ، كان اهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطي المشروبات الروحية ، فكثرت بينهم الوفيات الى حد اقلق بال ولالة امورهم ، فالتفوا لجنة لتبحث في الامر وتتعرف اسبابه ، فاثبتت ان كثرة الوفيات في الجزيرة راجع الى ان القوم يستنفدون حرارة اجسامهم بما يتعاطونه من الخمر ، فيضعد الدم بتأثير الكحول من داخل الجسم الى سطح الجلد فتبيده برودة الجو تدريجياً حتى تأتي على آخره فتنتهي الحياة بانتهاء الحرارة من الجسم ، ومن ثم عرض الامر على برلمان ايسلندا فقرر الموافقة على سن قانون بتحريم تعاطي المسكرات على اهل البلد . والعجيب ان هذا النهي سبق به النبي صلى الله عليه وسلم . عن ديلم الحميري قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم قلت : يا رسول الله إنا بارض باردة نعالج فيها عملاً شديداً ، وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على اعمالنا وعلى برد بلادنا . قال : هل يسكر ؟ قلت نعم . قال : فاجتنبوه . قلت : ان الناس غير تاركيه . قال : فان لم يتروكوه فقاتلوهم ١ .

كما ان العلم الحديث اثبت ان الخمر لا فائدة منها في التداوي ، وان

فكرة التداوي بالخمر كانت خاطئة وهذا ما سبق به الاسلام . عن طارق
الجعفي أنه سأل النبي عن الخمر فنهاه عنها فقال : إنما اصنعها للدواء . فقال :
انه ليس بدواء ولكنه داء ١ .

وقد اشاد بعض الكتاب الغربيين بتشريع الاسلام في مكافحة الخمر فقال
(بنتام) في كتاب اصول الشرائع ما نصه : « النبيذ في الاقاليم الشمالية يجعل
الانسان كالابله ، وفي الاقاليم الجنوبية يصير كالمجنون وقد حرمت ديانة محمد
جميع المشروبات وهذه من محاسنها » .

النهي عن الشراهة

ووضع الاسلام كذلك مبدأ عاماً للوقاية من أمراض الجهاز الهضمي جاء
في القرآن : (واكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) الاعراف :
٣١ . فهذه الكلمات القليلة العرسد ، قانون من قوانين الصحة ، من سار على
حكمها ضمن لنفسه الصحة وابتعد عن جسمه المرض . وللنبي ﷺ قول في هذا
المعنى : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيات يقمن
صلبه ، فان كان لا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » . يأمر
النبي بان يجعل الانسان ثلث حجم المعدة لطعامه ، وثلثا لشرابه ، وثلثها
خالياً حتى لا يعوق التنفس .

والانسان اذا اكثر من الطعام لم يستطع له هضمها ويصاب بالتخمة وعسر
الهضم وقد يحدث ان تصاب المعدة بالاتساع والتمدد نتيجة الافراط فيفقد
الانسان الشهية لتناول الطعام وإن تناوله لم يستطع له هضمها وقد يصاب الانسان
نتيجة ذلك بالقيء او الاسهال او الامساك والصداع .

والاسراف في الطعام تتبعه البدانة عند الانسان والتعرض لامراض القلب ،
وارتفاع الضغط وأمراض الكلي ومرض السكر .

وقد دل الاحصاءات على أن نسبة الوفيات في حالات أمراض الكلي الحادة
بين المسرفين في البدانة ضعف النسبة بين أولئك الذين تتناسب اوزانهم مع
طول قاماتهم واعمارهم . وليس ذلك غريباً ، فان زيادة الوزن تعني كثرة

المواد الفاسدة في الدم وفي الجهاز الهضمي وذلك يعني زيادة عمل الكليتين ، والكليتان من الاعضاء التي تعمل طوال ساعات الليل والنهار في جميع الاجسام المعتدلة الصحيحة ، فاذا ما امرف الانسان بالطعام تضخم عملها واصيبتا بالانهيار الذي تتبعه الامراض المختلفة .

ولو حرص مريض القلب على الاعتدال في الأكل منذ فجر شبابه ، ولم يتعود الافراط فيه ، لكان من المحتمل الا يصاب بهذا الداء او ان الحالة تكون سهلة العلاج . وذلك لأن قلب البدن تكسوه طبقة من الشحم تحمل عضلاته عبئاً كبيراً ، وتوقعها عن تأدية وظائفها الطبيعية . فلا عجب اذن ان تكون نسبة الوفاة بين البدينين -- بسبب مرض الذبحة الصدرية وما شابهها -- اعلى منها بين متوسطي الوزن .

وتقليل وزن الجسم -- اذا لم يكن متأخراً -- يفيد الرجل البدن المصاب بارتفاع الضغط فائدة كبيرة ، فذلك غالباً ما يتبعه هبوط ضغط الدم الى المستوى العادي .

وتدل الاحصاءات على ان السيدات المصابات بالسكر في الغالب من النوع الذي يزيد وزنه عن الوزن العادي بأكثر من ٢٥٪

العسل فيه شفاء للناس

قال الله تعالى (واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يمرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) النحل : ٦٨ - ٦٩ .

فالقرآن يقرر أن الشراب الذي يخرج من بطون النحل فيه شفاء للناس من ادوائهم وهذه معجزة من معجزات القرآن العلمية اثبتتها الطب حديثاً . واذا رجعنا الى تركيب العسل الكيماوي وجدنا أنه يحتوي على ٢٥ - ٤٠٪ جلوكوز .

فالجلوكوز الموجود فيه هو بيت القصيد وهو سلاح الطبيب في اغلب الامراض ، واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم ، وبالحقن

الشرجية وتحت الجلد ، وفي الوريد ويعطى بصفته مقويا ومغذياً ، وضد التسمم الناشئ من امراض اعضاء في الجسم مثل التسمم البولي الناشئ من امراض الكبد والاضطرابات المعدية والمعدية وضد التسمم في الخفيات مثل التيفوئيد والالتهاب الرئوي والسعال الحبي والحصبة وفي حالات ضعف القلب وحالات الذبحة الصدرية الخ ... كل هذه الامراض يفيدها الجلوكوز ويسير بها الى طريق الشفاء .

وللعسل تأثير ملطف يزيد في افرازات الفم فيفيد في حالات صعوبة الابتلاع وجفاف الزور في حالات السعال الجافة ، ولذلك أدخل طبيياً في تركيب كثير من الفراغ وأدوية السعال . والعسل ملين لطيف ، فابدأ صباح كل يوم بتناول ملعقة كبيرة منه تستفيد غذاء وتجد فيه ملبناً .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية القرآنية التي قررت أن العسل (فيه شفاء للناس) مع ان كل انواع الاغذية لها فوائد وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة . والجواب على ذلك : ان انواع الغذاء الاخرى لا تستعمل كعلاج الا فيما ندر من الامراض الناشئة عن نقص في الغذاء فقط . وهذه الفواكه التي تشبه العسل في الطعم ، فان السكر الذي فيها هو سكر القصب او انواع اخرى ولكن ليس فيها الا نسبة ضئيلة من (الجلوكوز) الذي هو أعظم عناصر العسل . وان القرآن لم يذكره بطريق المصادفة ولكنه معجزة من معجزات القرآن التي قررناها منذ اكثر من ثلاثة عشر قرناً عندما كان لا يعرف شيء عن مركبات العسل ولا ان الجلوكوز يستعمل دواء لكثير من الامراض .

الصِّحَّةُ الْعَامَّةُ

من النظريات العلمية التي ثبتت : ان الوقاية خير من العلاج . والاسلام يقر هذه النظرية بما شرعه من الامور الآتية :

التداوي

فالاسلام حض على التداوي لقوله ﷺ (لكل داء دواء فاذا اصاب

دواء الداء برىء باذن الله عز وجل (١) .

وحارب الاسلام الشعوذة والخزعلات والالوهام وابطل الطلاسمة والرقى بما كان يستعمله الكهنة في الجاهلية ، وسفه احلام من نسبوا بعض الامراض للجان والعفاريت ، ولقد ترك الدين الجمال للبشر لمعرفة اسباب الامراض وكشف علاجها .

الحجر الصحي .

والاسلام اول من وضع قانون الحجر الصحي وسبق بذلك الطب الحديث وفي ذلك يقول النبي ﷺ (اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخلوها واذا نزل وانتم بارض فلا تخرجوا منها) ٢ ولو علمت اوروبا بهذا القانون وعملت به حين اجتاحتها الطاعون في اواسط القرن الرابع عشر الميلادي لحفت حينئذ الحسائر التي منيت بها في الارواح فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض بـ ٢٥ مليون نسمة .

وكان سبب انتشار المرض نقل التتار له الى جنوب روسيا سنة ١٣٤٦ م وبدأ ينتشر حتى سنة ١٣٧٠ م - ١٣٧٤ م فبينما كان الطاعون يجتاح اوروبا نفذت ميلانو والبندقية بعض قوانين صارمة نقلتها بعد ذلك جمهورية راجوسا وهذبته فأنشأت المآوي بعيداً عن المدينة ليقوم فيها القادمون المشتبه فيهم ، ليبقوا معزولين لمدة ٣٠ يوماً ثم زيدت المدة بعد ذلك حتى صارت ٤٠ يوماً . كما ان الاسلام وضع الحجر الصحي للحيوان وفي ذلك يقول النبي ﷺ (لا يورد ممرض على مصح) اي لا يورد صاحب الابل المريضة على صاحب الابل السليمة فيعدي مريضها سليماً .

ومن تعاليم الاسلام للوقاية قول النبي ﷺ (فر من المجزوم فرارك من الاسد) ٣ .

تحريم وطء الحائض

ومن الاشياء التي حرمها الدين كذلك للوقاية من الامراض وطء

١ رواه مسلم ٢ رواه اصحاب السنن

٣ رواه البخاري ومسلم

الحائض ، جاء في القرآن (ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) البقرة : ٢٢٢ .

و افرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الافرازات التي تساعد الهضم او التناسل ، او افرازات داخلية تنظم اجهزة الجسم وانسجته الخ ... وهذا النوع يسمى (secretion) وهو ضروري للحياة وليس فيه ضرر .

ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب طرده من الجسم الى الخارج وهو مكون من مواد سامة اذا بقيت في الجسم اضررت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض الخ ... وهذا النوع يسمى (Excretion) .

فآية القرآنية التي حرمت وطء الحائض هي معجزة علمية للاسلام لانها علمت الانسان قبل ان يعرف شيئاً من انواع الافرازات ان المحيض اذى وأنه لا يفيد الجسم .

واما الجزء الثاني من الآية « فاعتزلوا النساء في المحيض » فقد منع الطب مخالطة المرأة في زمن الحيض لأنه ضار بالزوج والزوجة كليهما ، فهذا الدم الفاسد يحوي ميكروبات عديدة وجراثيم متنوعة لا تلبث ان تصيب الرجل فتحدث له الالتهابات كما انه في زمن الحيض تحتقن أغشية المرأة الداخلية وفي المخالطة قد يحدث لها التمزيق فتنتشر العدوى من المكروبات الموجودة وتنتقل من مكان الرحم الى أمكنة أبعد مما يؤثر في صحة المرأة ويضرها كما أن الاختلاط ربما يمنع نزول الحيض كما يسبب كثيراً من الاضطراب العصبي : فانظر أيها القارئ كيف يسير الطب خلف القرآن مهتدياً بهديه .

الزنا

وبما حرمه الاسلام للوقاية من كثير من الامراض الجنسية الزنا . جاء في القرآن (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) . الاسراء : ٣٢ .

ولا يقتصر تحريم الاسلام لفاحشة الزنا على الاسباب الاجتماعية فحسب بل ان الامراض الجنسية والنفسية والحلقية التي تسببها لها نصيب كبير في التحريم .

وحسبك ان من آثار الزنا مرض الزهري الذي يعتبر ثالث مرض في العالم منوط به ازهاق النفوس وتضييع الارواح وهو مرض لا يستريح المصاب به الا بالموت وبعد ان يتركه بحال يفتت الا كبد .

وبيصب الزهري جميع أجهزة الجسم كالجهاز العصبي والتنفسي والدوري والمفاوي والمضمي والتناسلي ، ويصيب العظام والمفاصل وجميع غدد الجسم القنوية واللاقنوية والجلد والعين والأذن باصابات لا حد لخطورتها . ويحدث الزنا بجانب ذلك امراضاً أخرى مختلفة كالقرحة الرخوة ، وكالقرحة الاكالة وجرب التناسل ، وسنط التناسل وهربس التناسل وغيرها . ويمكن الرجوع الى اخطار هذه الامراض وتفصيل اصابتها في كتبها الخاصة . لتري الى اي مدى بلغت عناية الاسلام بالاجسام .

ويحدث الزنا بخلاف هذا مرض السيلان الذي ينذر العالم بشر مستطير وهو ميكروب صغير جداً لا يرى الا بالمجهر وسببه الجماع فيصاب الرجل اذا جامع امرأة مصابة بالسيلان كما تصاب المرأة اذا جامعته مصاباً به .

التعجيل بدفن الميت

ومن اغراض الاسلام الوقائية حظه علي التعجيل بدفن الموتى عند تحقق الوفاة وذلك لسرعة تعفن الجثث والخوف من انتشار الاوبئة والامراض بين الاصحاء .

التطهر من النجاسة

واطلق الاسلام اسم النجاسة على كل ما هو ملوث بالجراثيم او على الاقل عرضة لاتصال العدوى والمرض الى الانسان ، وامر الاسلام بالتطهر منها ، من ذلك تقريره نجاسة الدماء والمواد البرازية والبول والقيح وجثة الحيوان الميت الى غير ذلك من القاذورات التي تأتي اوبئة من طريقها .

النهي عن البول في الماء الراكد

نهى النبي ﷺ ان يبول شخص في الماء الراكد ثم يغتسل فيه فقال : (لا يبولن احدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) ففي

هذا الحديث حارب النبي البلهارسيا وغيرها من الامراض . فالماء الراكد اذا بال فيه الانسان وخصوصاً اذا كان مصاباً بمرض ما ينقل كثيراً من الامراض ، هذا فضلاً عما يتولد فيه من الروائح الكريهة . وان في قول الرسول - في الماء الدائم - لحكمة اخرى حيث ان الماء الجاري يقل فيه العدوى ان لم تنعدم .

نجاسة الكلب

ومن حكم الاسلام كذلك لوقاية الابدان حكمه بنجاسة الكلب فقد قال النبي ﷺ « اذا ولغ الكلب في إناء احكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات احداهن بالتراب » .

ومعنى ذلك الا يأكل الانسان من وعاء ولغ فيه الكلب ولوثه بفضله وانفه ووضع فيه مختلف الجراثيم والامراض .

وهذه معجزة علمية للإسلام سبق بها الطب الحديث الذي اثبت ان الكلاب تنقل كثيراً من الامراض الى الانسان . جاء في مجلة (كوسموس Cosmos) الالمانية تحت عنوان « الاخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب او الاقتراب منها » للدكتور جراد فنتسمر ، قوله :

« إن ازدياد شغل الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الاخير يضطرننا الى لفت الانظار للاخطار التي تنجم عن ذلك ، وخاصة اذا دفع اقتناؤها الى مداعبتها وقبيلها والسماح لها بلحس أيدي اصحابها وتركها تلحق فضلات الطعام من اوانيها » « فكل ما ذكر مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته الآداب لا يتفق وقوانين الصحة فان الاخطار التي تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح بما لا يستهان بها . فان الكلاب تصاب بدودة شريطية ١ تتعدها الى الانسان ، وتصيبه بامراض عضالة قد تصل الى حد العدوان على حياته » . « وقد ثبت ان جميع اجناس الكلاب حتى اصغرها حجبها لا تسلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية واثبت الدكتور (نولر) من تشريح الجثث بالمانيا ان الاصابات الآدمية بقروح دودة الكلاب قد لا تقل عن واحد في

١ اسمها العلمي « Taenia Echinococcus »

كل مائة ، .

« وقد رؤي في اقليم فريزلاند بهولنده حيث تستخدم الكلاب في الجر ان في كل مائة منها ١٢ إصابة . ووجد في اسلاند شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصاً من اهاليها وشهد ان هذه النسبة تزيد في استراليا اذ ثبت وجود شخص يصاب بها في كل ٣٩ شخصاً من سكانها وثبت كذلك انها كانت سبباً مباشراً للكثير من الامراض في الاقطار الاخرى » .

وقد شهد ان الحيوانات اكثر تعرضاً للعدوى بهذه الدودة من الانسان .

« لذلك فيجب العناية بامر الذبائح المنزلية فقد تكون مصابة بدودة الكلب ولا يعرفها صاحبها ولا القصاب المكلف بذبحها » .

ثم يقول : « وما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب وتعويد الاطفال التوقي منها ، فلا تترك تعلق ايديهم ، ولا يجوز ابقاء الكلاب بمحال نزهة الاطفال وميادين رياضتهم ويجب ان لا تطعم الكلاب في الاواني المعدة لاكل الناس ، وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والاسواق العامة او المطاعم ، وعلى وجه عام يجب ابعادها عن كل ما له صلة بما كل الانسان ومشربه .

الرياضة

واهتم الدين اهتماماً عظيماً بالرياضة البدنية ولنضرب لذلك مثلاً :

(١) الصلاة : وهي رياضة دينية اجبارية لكل مسلم يؤديها خمس مرات يومياً بغير ما اجهاد ولا ارهاق . فتكون خير مقوم لبدنه ومنشط لامعائه ورياضة صالحة لعضلات جسمه ومفاصله « واذا تأملنا حركات الصلاة وجدنا شبهاً بينها وبين النظام السويدي في الرياضة ، فالنظام السويدي لا يزيد عمره عن مائة سنة في حين ان نظام الصلاة في الاسلام قد مضى عليه الف واربعمائة عام او اقل قليلاً .

واذا قارنا بين حركات الصلاة وبين ما جاء به لنهج السويدي نرى ان

حركة الجسم في أثناء الصلاة احكم واصح لكل سن وجنس .

فالصلاة تبدأ بالتكبير يرفع اليدين وتحريك مفصلي الكتفين الى اعلى ، وهذا من التمرينات التي تنصح النظم السويدية بعملها على اساس انها تفتح الصدر . وبعد التكبير وقراءة الفاتحة وما بعدها يثني المصلي جذعه للامام واضعاً يديه على ركبتيه ويستفيد الجسم من اتخاذه هذا الوضع عدة فوائد ، منها انه يحرك مفصل الفخذين ، ويفرد العمود الفقري ، ويضغط بيديه على ركبتيه فيشدّهما ، وكلتا العمليتين - شد فقرات العمود الفقري وضغط الركبتين للخلف - هامتان ومفيدتان للجسم . وقد قلدت النظم الرياضية هذا الوضع فجعلت الانسان يميل بجذعه للامام ولكن نظاماً واحداً منها لم يتمكن من اضافة الحركتين معاً . وهذا يدل على الحكمة البالغة في حركات الصلاة .

أما السجود فحركة جامعة شاملة الفائدة لاكثر اجهزة الجسم . فثني الركبتين لآخرهما يفيد في منع تصلب مفصلي الركبتين ، وثني الجذع ووضع الجبهة على الارض في حركة السجود هذه تعتبر من افيد الحركات في عمل نوع من التدليك الذاتي للمعدة والجهاز الهضمي مما يساعد على الهضم ويمنع الامساك . وهذا الوضع مفيد ايضاً للسيدات لانه يبقى الرحم في مكانه الطبيعي ، ويمنع حدوث التواءات او اعوجاج فيه ^١ . والسجود يساعد على ازالة هبوط المعدة وقد أقر الاطباء المعاصرون ان احسن علاج لهبوط المعدة هو السجود .

ومن حكم الاسلام انه اوجب اعطاء عضلات البدن ومفاصله حقها من الرياضة والحركة في الصلاة ولهذا يقول النبي ﷺ (أسوأ الناس الذي يسرق من صلاته) وهذه السرقة هي عدم اتمام الوقوف والركوع والسجود والعود بنشاط تام وبدهي ان يكون ذلك مع خشوع القلب وقد ذم الله من لا يراعي هذا في قوله (وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى) النساء : ١١٢

١ - للاستاذ احمد محمد مرزوق اخصاني في التربية البدنية من جامعات اسكتلندا والمانيا والسويد عن مجلة لواء الاسلام .

ولا جدال ان خير الرياضات اليومية الرياضة المستمرة غير المجهدة التي تتحرك بها اغلب عضلات الجسم ومفاصله ، الميسرة في أي مكان ، الموزعة على اوقات النهار قبل طلوع الشمس وبعد الزوال وقبل الغروب وبعده وقبل النوم مع الاعتناء بنظافة البدن .

الصيام

وحيث قرر الاسلام تلك الرياضة اليومية بالصلاة أوجب رياضة اخرى من نوع آخر هي الصيام فجعله شهراً في العام وجعله من الناحية الرياضية يكاد يكون خاصاً بالجهاز الهضمي وما يتعلق به من غدد وغيرها . وقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة وهو اهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من امراض كثيرة . فهو العلاج المستعمل للأمراض الآتية :

١ - اضطرابات الامعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية. وهنا ينجح الصيام وخصوصاً مع عدم شرب الماء بين الاكلتين ، وان تكون بين الاكلة والاخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان . ويمكن اخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هي انجع طريقة لتنظيف الامعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا انجع من كل علاج ، مع الاعتدال وقت الافطار في الطعام ، والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص اكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ - البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى اقل من الحد الطبيعي في حالات البول . السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات في اقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور الانسولين ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي ولم

يكن هناك علاج لهذا المرض قبل « الانسولين » غير الصيام .
٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاج وتورم .

٦ - امراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً اذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الاربعين ...

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج الى ارشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي تكتب على المسلمين انما كتب على الاصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام الاصحاء هي الوقاية من هذه الامراض وخصوصاً الامراض التي مر ذكرها ... وهذه الامراض كلها تبتدىء في الانسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم باول المرض ... ومن المؤكد طيباً ان الوقاية من كل هذه الامراض هي في الصيام ، بل ان الوقاية فعالة جداً قبل ظهور اعراض المرض بوضوح . وقد ظهر باحصاءات لا تقبل الشك ان زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكري ، وزيادة ضغط الدم الذاتي والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها ' .

النهي عن الاجهاد

فرض الدين اعطاء الجسم حظاً من الرياضة وتروك المجال متسعاً للاستزادة منها ولكنه اشترط عدم الاجهاد الذي يخرج الرياضة عن معناها الحقيقي . جاء في القرآن (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) البقرة : ٢٨٦ . ولما كانت الصلاة بجانب معناها الرياضي عبادة روحية يجب ان يقوم بها الصحيح والسقيم على السواء ، ولما كان المريض لا يمكنه القيام بجميع حركاتها لهذا خفف الله عنه . ففي صحيح البخاري عن عمران بن حصين قال : كانت بي بواسير ، فسألت النبي ﷺ في الصلاة فقال : « صل قائماً ، فان لم تستطع ففاعداً ، فان لم تستطع فعلى جنب » كما ان الدين اباح للمريض والمسافر الافطار في رمضان (فمن كان منكم مريضاً او على سفر فعدة من ايام اخر) كما انه اسقط فرض الحج

١ عن كتاب الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ٢٣ - ٢٤

من ليست له اية قدرة جسمانية على ادائه ، كما اسقط فرض الجهاد عن المريض ، جاء في القرآن (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) .

فالاسلام كما ترى يمزج المنافع الروحية بالمنافع الجسدية ليتأهل الآخذ به لسعادة روحه وسعادة بدنه .

واليوم ، اعتبرت تقوية الاجسام من موجبات تقوية العقل حتى قالوا : العقل السليم في الجسم السليم ، فسيجد الناس في الاسلام اكبر منشط لهم في نزوعهم هذا وفي ذلك دليل على ان الاسلام يماشي الميول الانسانية الحقة من كل وجه .

كما ان المعجزات العلمية الطبية التي جاءت في ثنايا القُرْآن والسنة النبوية والتي لم يكتشف علم الطب اسرارها الا من قويب لهي من أقوى الادلة على صدق نبوة محمد عليه السلام .

الصَّلَاةُ فِي الْإِسْلَامِ

الغاية من الصلاة - حكمة الصلاة - الوضوء وحكمته - شروط الصلاة - عرض لأفعال الصلاة - المعاني التي ترمز إليها سورة الفاتحة من حكم الصلاة في القرآن : تغيير الأعمال القبيحة - غرس خلق الثبات والشجاعة - الخوض على الجود والسخاء - تنمية ملكة حصر الذهن

الصلاة في اللغة : الدعاء بخير ، وهي دعاء يتقرب به الى الله استغفاراً لذنب ، او شكراً لنعمة او دفعاً لضم ، او قياماً بفرض عبادة .
كما انها اظهار الحاجة والافتقار الى المعبود بالقول والعمل . وقد فرضها الله على عباده ليذكروا امره ، وليستعينوا بها على تخفيف ما يلقونه من انواع المشقة والبلاء في الحياة الدنيا ، كما أن من معانيها الثناء على الله بما يستحقه من الحمد والتمجيد .

الغاية من الصلاة

يقول الاستاذ اجوست سباتييه مدرس الفلسفة بجامعة باريس في كتابه فلسفة الدين : « اننا نستطيع الآن ان نستخلص اصل الدين وان نضع له تعريفاً ، فهو صلة وعلاقة معروفة ومرادة تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي انها تابعة لها ، وان مقدوراتها تحت مشيئتها . فالصلاة هي الدين في حالة العمل ، او هي الدين الحق ، ثم يقول : « والدين لا يكون شيئاً يعتد به اذا لم يكن عملاً حيويّاً بواسطته نحاول النفس ان تنجو من الهلاك بالتجائها الى اصلها الذي تنزلت منه ، وهذا العمل

هو الصلاة ، وهي كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات أو ترديد عبارات ، ولكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية ، واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الانسان بوجودها حتى قبل ان يستطيع ان يطلق عليها اسماً ، فحيث لا توجد هذه الصلاة الباطنية فلا يكون هناك دين ^١

حكمة الصلاة

المجتمع الانساني بحاجة الى قوة روحية ترفع من نفسية الافراد على وجه الاستمرار الى مثل عليا ، وذلك خشية ان تنحصر روابط الافراد في الحاجات المادية والمصالح الشخصية مما يؤدي الى الفساد في الارض ، والصلاة هي التي تمد الجماعة الانسانية على الاستمرار بالقوى الروحية التي لا بد منها لاصلاح المجتمع .

اما من الناحية النفسية فالانسان اذا لم تتصل روحه بمبدعها ظهرت فيه مظاهر الوحشة والاكتئاب وعدم القناعة بشيء ، وربما ظن ان وحشته واكتنابه حصل من عدم اخذه حظاً من الملذات فألقى بنفسه بين احضانها وجره ذلك الى تعاطي الخمر ، ففقد حياته وهو شديد الاقبال على الدنيا عظيم الحسرة فيما لم يبلغ اليه اجتهاده فيها ، دائم الحيرة ، كثير الملل ؛ بينما الصلاة تتيح للمرء أن يسأل بآرثه كل ما يريد حتى بنفس عن مشاعره ، وتخلق في الانسان عقيدة اطاعة اوامر الله ولو كانت تتعارض ورغباته الشخصية ، كما تبث فيه عدم اليأس ، وتدعوه الى التماس القوة من الله ؛ فالانسان الذي يعتمد على الله لا يعرف اليأس الى قلبه سبيلاً ، ويملك من القوى النفسية ما يواجه بها اعظم المشاكل دقة وخطراً .

من هنا يتبين لنا ان اتصال الروح الانسانية بخالقها ولو لحظات في اليوم من الضروريات للانسان ، لهذا شرع الله الصلاة في الاسلام .
امر القرآن بالصلاة في آيات كثيرة منها قوله تعالى (فاقموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) النساء : ١٠٣ . ويقول سبحانه في

١ ترجم هذه الكلمات العلامة محمد فريد وجدي ونشرها في مجلة الازهر .

وصف اصحاب النار عندما يسألون عن سبب عذابهم (ما سألكم في سفر
قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين) المذثر : ٤٢ - ٤٤ .
والقرآن لم يفصل كيفية الصلاة بل فصلها النبي ﷺ فقد قال لاصحابه :
(صلوا كما رأيتموني اصلي) وها نحن سنعرض حركات الصلاة مع ما تشتمل
عليه من معان روحية ، وقبل أن نفصلها نذكر مقدماتها ونبدأ بالوضوء .

الوضوء وحكمته

أشار القرآن الى كيفية الوضوء بقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم الى الصلاة
فأغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين)
المائدة : ٦ .

« ومن حكم الوضوء الاستعداد للصلاة ، لأن جوهر الصلاة هو أن يتصور
الشخص انه امام الخالق خاشع ، ولكي يتهيأ ذهنه لذلك ويتخلص من شواغل
الحياة الكثيرة ، فرض عليه الوضوء قبل القيام بالعبادة .
وبيان ذلك : ان الانسان إذا كان مشغولاً بتفكير عميق فانه لا يمكنه
أن يفكر في شيء آخر الا اذا تنبه اليه بانفعالات عصبية وهنا يتترك التفكير
الاول فجأة وعلى عجل واذا اريد تنبيهه ليفكر في شيء آخر تفكيراً
هادئاً فانه يحتاج الى وقت ما ، فان الذي يفكر في التجارة والصناعة ثم يقال
له : قم للعبادة ، يجد صعوبة في تأديتها ؛ وهنا كانت حكمة الوضوء لأنه
يساعد على ترك التفكير الأول ويعطيه الوقت الكافي ليبدأ في تفكير عميق من
نوع آخر » ١ .

شروط الصلاة

ويشترط لصحة الصلاة طهارة بدن المصلي وثوبه ، ومكان صلاته من
النجاسات والاقذار ، وفي هذا تعويد المسلم عن اجتنابها والتباعد عنها .
ويشترط أيضاً للمصلي أن يستر عورته وهي بالنسبة للذكر ما بين السرة
والركبة وللأنثى جميع بدنها ما عدا وجهها وكفيها .
ويشترط كذلك استقبال الكعبة ، لتتحد وجهة الصلاة عند المسلمين

١ اقتبسنا هذا المعنى بتصرف عن كتاب (الاسلام والطب الحديث)

إذ لو فوض الأمر الى المصلي لعلب على نفسه الاضطراب والحيرة فلا يدري أي الجهات أقرب الى الله ، فلهذا كان من حكمة الله ان عين له جهة الكعبة التي هي أول بناء قام في الارض لعبادة الله . وليس المقصود من استقبال الكعبة - استقبال عينها - بل المقصود بذلك هو الله وحده لان الشريعة تحكم بالكفر على من يقصد بتوجهه غير الله .

وقبل أن يشرع المسلم في الصلاة يقول الصيغة المعروفة في الاذان والاقامة والفاظ الاذان هي : (الله اكبر . الله اكبر . الله اكبر . الله اكبر . اشهد ان لا اله الا الله . اشهد ان لا اله الا الله . اشهد ان محمداً رسول الله . اشهد ان محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الصلاة . حي على الفلاح . حي على الفلاح . الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله)^٢ .

عرض لأفعال الصلاة

وعندما ينتهي من الاقامة يستحضر النية في قلبه فاذا استحضر في قلبه ذلك رفع المصلي يديه حذو منكبيه قائلاً (الله اكبر) ليشعر نفسه بان الله اكبر من كل شيء وقد اراد ان يشرع بمناجاته ، فعليه الا يشغل قلبه بشيء سواه ، ثم يرسل المصلي يديه ويضع اليمنى على اليسرى . وهذه الهيئة تذكر المصلي بوجوب اقامة القلب مع الله عز وجل .

ثم يقول المصلي بعد هذا دعاء من ادعية الاستفتاح وهذا نصه « وجهت وجهي^٣ للذي فطر السماوات والارض خنيئاً مسلماً وما انا من المشركين ، ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وانا من المسلمين » يقول المصلي ذلك لاجل أن يحرك في نفسه الاحساس بعظمة

١ حي على الصلاة : اي يا نفس اقبل على الصلاة فان حي في اللغة تستعمل لطلب الاقبال .

٢ ويزاد على صيغة الاذان بعد حي على الفلاح (قد قامت الصلاة) صيغة الاقامة .

٣ وجهت وجهي : ليس المراد فيه الوجه الظاهر فالله سبحانه يتقدس عن ان تحده الجهات حتى يقبل المصلي بوجهه عليه وانما المراد بذلك وجه القلب .

الله ، وبوقظها الاخلاص في عملها .

ثم يتلو المصلي بعد دعاء الاستفتاح (سورة الفاتحة) وهذا نصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد و اياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقد فرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة لما تحمل من المعاني العظيمة والسمو الروحي والتي لها اثر فعال في اصلاح الفرد والجماعة . (فالفاتحة) هي روح الصلاة ، ولذا يحسن بنا ان نقف عندها قليلاً ونخلها باسهاب .

مُرْفَحُ الصَّلَاةِ

أَوِ الْمَعَانِي الَّتِي تَرْمِزُ إِلَيْهَا سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

(١) تعرف احسان الله : مقتبس من قوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) .
الرحمن الرحيم) .

فجملته (الحمد لله) مفيدة لتعريف الحمد عليه سبحانه وتعالى ، لأن كل ما يستحق ان يقابل بالحمد انما هو صادر من الله سبحانه ، مصدر كل نعمة في الكون .
وجملته (رب العالمين) تنص على ان الجنس البشري امرة واحدة وان الله تعالى ربها وهذه الفكرة الانسانية التي يقررها القرآن هي الدرع الواقى من طغيان الوطنية والجنسية والالوان .

وتربية الله للناس نوعان : تربية خلقية وتكون بتبنيهم اجسامهم وتنمية قواهم العقلية ، وتربية دينية تهذيبية وتكون بما يوحى به الى افراد منهم

١ الباء في بسم متعلقة بفعل مصدر ، والمعنى ابتدئ القراءة متبركا باسم الله .

٢ الحمد : هو المدح والثناء على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره .

٣ الرب : السيد المطاع والمصلح للشيء ، والمالك له .

٤ العالمين : جمع عالم ، والعالم الخلق من ذوى العلم وهو الجنس البشري والملائكة والجن .

٥ الرحمن الرحيم : صفتان مشتقتان من الرحمة ، والرحمة في اصل اللغة : رقة القلب تقتضى الاحسان وهذا المعنى لا يلبق ان يكون وصفاً لله تعالى ففسرها العلماء بالاحسان وليست صفتا (الرحمن الرحيم) بمعنى واحد فالرحمن في اللغة عظيم الرحمة والرحيم بمعنى دائم الرحمة : وقيل ان الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلها بالرحوم .

ليبلغوا للناس ما يصلح به حالهم وتصفو به نفوسهم .
ومعنى (الرحمن الرحيم) أي ان تربية الله تعالى للناس وللعوالم الاخرى ليست لحاجته اليهم وانما هي لعموم رحمته وشمول احسانه . فالعلاقة بين الرب والعباد علاقة رحمة ورعاية . ومعنى آخر وهو ان البعض يفهم من معنى الرب : الجبروت والقهر فأراد الله تعالى ان يذكرهم برحمته واحسانه وان ربوبيته ربوبية رحمة واحسان ليقبلوا على اكتساب مرضاته مطمئنة قلوبهم . وفي هذا رد على بعض المستشرقين الذين اتهموا الاسلام بأنه لا يصور الله الا بصورة الجبروت والقهر ، فالاسلام يغرس في نفوس المصلين في كل صلاة بأن الله رحمن رحيم .

(٢) الوعد والوعيد : لما بين الله صفة الرحمة قال : لا تغتروا بذلك فاني (مالك يوم الدين ^١) اي انه سبحانه وتعالى يتصرف في امور يوم القيامة تصرف المالك فيما يملك .

والوعد يشمل ما للامة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة فقد وعد الله المؤمنين العاملين بشريعته بالاسـتـخلاف في الأرض ، والنعم في الآخرة والوعيد يشمل شقاءها وخزيتها في الدنيا ونار الجحيم في الآخرة .

(٣) التوحيد والعبادة : مقتبسـان من قوله تعالى (اياك نعبد ^٢ واياك نستعين ^٣) اي نعبدك وحدك دون سواك بدعائك والتوجه اليك ونطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا بالعمل بما اعطينا من الأسباب والتسليم اليك عند العجز عنها .

وفي ذكر هاتين الصفتين القضاء على الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الامم وهي اتخاذ اولياء يعتقد فيهم السلطة الغيبية ، ويدعون من دون الله ويستعـان بهم على قضاء الحوائج ، فمن يستعين بقبر ناسك ، او ضريح عابد لنضاء حاجة له ، او تيسير امر تعسر عليه ، او شفاء مريض فقد

١ مالك يوم الدين : المالك وصف من الملك بكسر الميم . والدين يطاق في اللغة على الحساب وعلى المكافأة والجزاء . ٢ العبادة : الطاعة الباطنة للنهاية في الخضوع والتمظيم والتذلل . ٣ الاستعانة : طلب المعونة ولم يذكر الله المستعان عليه من الاعمال ليشمل الطلب كل ما يتجه اليه الانسان من الاعمال الصالحة .

ضل سواء السبيل واعرض عما شرعه الله وارتكب ضربا من ضروب الوثنية .

فاذا كان الله وحده هو المعبود وهو المستعان فقد تخلص الضمير من استغلال البشر والاساطير والخرافات والالوهام .

(٤) الاستقامة والثبات : مقتبسة من قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أي دلنا واوصلنا بتوفيقك ومعونتك الى طريق الحق في العلم والعمل الذي لا عرج فيه . فالمسلم عندما يحقق به البلاء او يصاب بأزمة نفسانية حادة ، ويسد باب الفرج في وجهه يهرع الى الصلاة ويدعو ربه فيها (اهدنا الصراط المستقيم) فتطمئن نفسه وتقوى على مواجهة الالهوال .

(٥) الاقتداء بالمثل الصالحة : مقتبسة من قوله تعالى (صراط الذين انعمت عليهم) اي دلنا الى الطريق الذي سلكه خيار عبادك المفلحين من النبيين والصديقين والصالحين ؛ والمثل الصالحة يحتاج اليها الانسان فهي تضاعف همته ، وتوجهه نحو الخير .

(٦) اجتناب سبل الضلال : مقتبسة من قوله تعالى (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فالمغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به فغضب الله عليهم ، والضالين هم الذين غلوا في معتقداتهم فضلوا سواء السبيل .

فوائد اخوى لسورة الفاتحة

ثم ان سورة الفاتحة ترشد الى معان أخر : ففي قوله تعالى : نعبد ، ونستعين ، واهدنا ، بصيغة الجمع مع ان المصلي مفرد هو دعوة من الله الى وحدة شاملة والى تعاون وثيق والى نصح يفضي الى خير الجماعة ، فقوله تعالى (اياك نعبد) دعوة منه لتوحيد قلوبنا نحو هدف واحد وهو عبادة الله وحده ، وجعل صلاتنا مع بعض صلة غايتها رضا الله لا المصالح الشخصية ولا الشهوات التي تودي بالوحدة الانسانية . وفي قوله تعالى

١ الهداية : هي الارشاد والدلالة بلطف على ما يوصل الى البنية ٢ الصراط في اللغة هو الطريق الدهل المستوي ومعناه في الآية ما يدعو اليه الانبياء من العقائد والشرائع والاداب .
٣ الانعام : ايصال الخير الى الاحياء العقلاء والمراد في الآية الانعام الديني فالنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به ، والخير فعملوا به .

(اياك نستعين) ارشاد لنا للاستعانة به على امورنا ، كما انه دعوة منه لنا لمعونة بعضنا البعض لأن طلب المعونة لا يكون الا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فيطلب المعونة على اتمامه وكاله .

وفي قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) طلب الهداية للطريق القويم ودعوة منه تعالى لارشاد بعضنا البعض .

هذه الفاتحة التي يرددوها المسلمون كل يوم و ليلة في كل ركعة من ركعات الصلاة وعددها سبع عشرة ركعة عدا صلاة النافلة ، وهي النشيد الرباني الذي يتلوه المسلمون آناء الليل واطواف النهار يناجون به ربهم ، هذا النشيد اسمى وانبى من سائر اناشيد الامم التي تحمل في طياتها معنى التعصب والاستعلاء والدعوة الى الافليمية الضيقة بينما ينشر نشيد الاسلام الاخوة والمحبة للانسانية جمعاء .

هذه هي الفاتحة وما تشتمل عليه من تهذيب الفرد واصلاحه ، وهي كما رأينا اقصى ما يمكن تخيله من نظام يدعو الى اصلاح الجماعة الانسانية عن طريق العبادة .

تمة افعال الصلاة

وبعد أن يقرأ المصلي الفاتحة ويتدبر معانيها يقول بعد الانتهاء منها (آمين) اي استجب لي يا رب ، وان حالة المصلي مع ربه كحالة المريض مع طبيبه فان المريض يهرع الى الطبيب آملا في الشفاء فيأمره طبيبه بأخذ الدواء المناسب ، فكذلك المصلي في طلبه الهداية من ربه يطلب الدواء الشافي من امراض الاعمال والاعتقادات الباطلة فكأن الله يقول له : خذ دواءك من كلامي وهو القرآن وانزل ما تيسر منه فهو الدواء الشافي لك من جميع الامراض ، لذلك يقرأ المصلي بعد الفاتحة عدة آيات من القرآن . وبعدها ينظر المصلي الى عجزه وضعفه واحتياجه الى ربه في هدايته لذلك الدواء ، وحصول الشفاء ، ويتصور انه لا قادر على ذلك سوى الله ، فيخير المصلي حينئذ راعماً له ممثلاً صورة عجزه قائلاً (الله اكبر) واضعاً راحتيه

على ركبتيه قائلاً : (سبحان ربي العظيم) ثلاث مرات والزيادة على ذلك مستحبة إن لم يكن اماماً .

ثم يرتفع المصلي من الركوع الى القيام لاداء الحمد والشكر لمولاه الذي من عليه بالدواء الشافي قائلاً (سمع الله لمن حمده) اي اجاب لمن شكره ويقول بعد ذلك (ربنا ولك الحمد) ثم يرى ان نعم الله لا تحصر وهو عاجز عن اداء شكرها ، فيختر ساجداً معظمها مولاه قائلاً : (الله اكبر) ويضع جبهته على الارض في ذلك السجود فيرى نفسه وقد بلغ غاية الخضوع انه ما فعل ذلك الا لتعظيم ربه الاعلى فينطلق لسانه قائلاً (سبحان ربي الاعلى) ثلاث مرات ، وبعد السجود يرفع رأسه مكبراً وسائلاً حاجته بقوله (رب اغفر وارحم) ثم يعود الى السجود ثانياً وهو يقول (الله اكبر) وبعد السجود الثاني يقوم لتأدية الركعة الثانية قائلاً ايضاً (الله اكبر) ويفعل ما فعل في الركعة الاولى ما عدا قراءة دعاء الاستفتاح .

وبما يجب لفت النظر اليه ان الصلاة شرع فيها (الله اكبر) عند ابتدائها وعند الركوع والسجود والقيام من السجود وفي تكرير هذه الكلمة عدة مرات تعويد المسلم على العزة والكرامة وأن لا يذل لمخلوق لان الله اكبر من كل من يستكبر ويستعظم من اخلق فكلمة حدثته نفسه ان يذل لانسان ذكر في صلاته ان الله اكبر .

ثم عندما يأتي المصلي بالركعة الثانية يجلس عقب السجود الاخير ويقول (التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله) والحكمة فيها ان المصلي عندما يخرج من الصلاة فهو بمنزلة من يريد الانصراف من حضرة الملك فيثني عليه ابلغ الثناء بقوله التحيات لله ، أي ان كل تحية وتعظيم لا يستحقها في الحقيقة الا الله . وهذه الصلوات التي نقيسها لا ينبغي ان تكون الا للرب العالمين ، ثم امرنا الله بالسلام على النبي تنويهاً بذكره واظهاراً لفضله واقراراً برسالته واداء لبعض حقه ، وكما ان في السلام على الرسول معنى الميثاق والعهد معه على التمسك بالاسلام ، وبعدها يقول المصلي (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)

وهنا إشارة الى معنى سام من معاني الاسلام وهو انه دين يدعو الى السلم ويأمر اهله ان يحبوا به في الصلوات الخمس وانه شعارهم الذي تنطق به شفاههم كل يوم ملايين المرات ثم يأتي بالتشهد وهو تجديد لعقد الايمان امام الله قبل الانصراف من حضرة الله ، بعد هذا يصلي على النبي ثم يختار من الدعاء ما يحتاج اليه من خير الدنيا والآخرة ثم ينصرف من الصلاة مسلماً على من معه من الملائكة والمؤمنين ، وذلك بأن يلتفت الى اليمين ويقول (السلام عليكم ورحمة الله) ويلتفت الى الشمال ويقول مثل ذلك ، وبهذا يقبل المسلم على الدنيا اقبالا جديداً فيه معنى السلام والرحمة .

هذه هي الصلاة في الاسلام ، فهل ترى ايها القارئ ان من صلى هذه الصلاة يبقى فيه شيء من دنس الطباع او ظلمات النفس . هذا وقد كانت من حكمة الله ان علم ان الانسان لا بد له من الاشتغال بأمور الدنيا ومقارفة ما يتلوث به أثناء الاشتغال بأمورها فأمر بتكرير الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة فهي بمنزلة الدواء الذي يتكرر اخذه كلما خيف من صولة المرض .

بَعْضُ حُكْمِ الصَّلَاةِ فِي الْقُرْآنِ

تغيير الاعمال النسيجة

فالمصلي إذ يحس برهبة المثل بين يدي الحضرة الالهية خمس مرات في اليوم والليلة لا بد ان يغرس الايمان بالله في تفكيره وفي نظراته الى العالم المادي ، فيصبح هذا الايمان قوة فعالة في حياته فترتدع نفسه عن الشهوات ، وتعديل عما كانت عليه من الآثام والمنكرات ، والى هذا المعنى يشير قوله تعالى (وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) العنكبوت : ٤٥ . ففي هذه الآية يأمر الله سبحانه بإقامة الصلاة وإقامة الشيء هو الاتيان به اتياناً كاملاً يتحقق

١ ان ما فصلناه هنا هي صلاة الصبح وهي ركعتان وهناك صلاة الظهر والعشاء وكل منهما اربع ركعات وصلاة المغرب ثلاث ركعات

المتصور منه وهو الخيلولة بينه وبين الفحشاء والمنكر . فروح اقامة الصلاة هو التوجه الى الله ، والخشوع الحقيقي له ، والاحساس بالحاجة اليه ، فاذا خلت صورة الصلاة من هذه المعاني لم يصدق على المصلي انه اقام الصلاة بل هدمها اذ سلبها روحها . وعلى هذا فالصلاة ليست هي الصورة المعهودة من القيام والركوع والسجود والتعبد بالالفاظ التي يسهل على كل صبي ان يتعودها والتي نشاهد من المعتادين لها من المسلمين الاصرار على الفواحش والمنكرات . وقد توعده الله الذين يأتون بصورة الصلاة الظاهرة من الحركات والالفاظ مع السهو عن معنى العبادة بقوله (فويل للمصلين . الذين عن صلاتهم ساهون) الماعون : ٤ ، ٥ .

غرس خلق الثبات والشجاعة

الانسان غير ثابت في احواله ، ان رزقه الله خيراً بطر ، وان اصابه الشر جزع ، فاذا ادى الصلاة توطنت نفسه على الثبات وقوة الجأش ، وخضعت لجميع ما يجري عليها من خير وشر . والى هذا المعنى يشير قوله تعالى (ان الانسان خلق هلوعاً . اذا مسه الشر جزوعاً . واذا مسه الخير منوعاً . الا المصلين) المعارج : ١٩-٢٢ . ويقول سبحانه في هذا المعنى (يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين) اي استعينوا على سائر ما يشق عليكم من مصائب الحياة بالصبر والصلاة التي تكبر بها الثقة بالله وتصغر بمناجاته فيها كل الموم .

الحض على الجود والسخاء

فالانسان عندما يقيم الصلاة لا ينسى الله ، ولا يغفل فضله ، ويصبح مستنداً الى ركن متين الا وهو خالق الكون ورازق البشر ، ومن كان كذلك

١ يظن البعض ان حضور القلب في جميع اجزاء الصلاة من امسب ما تنجشمه النفس بل يكاد يكون مستحيلاً لغلبة الخواطر على ذهن المصلي ، وانما عرض لهم هذا الظن الخاطيء من شدة الغفلة وجهلهم بروح الصلاة وعلاج ذلك : هو ان لا ينطق المصلي بلفظ من تلاوة من السور ، وما يسبح به ربه الا وهو يستحضر معناه في ذهنه . فاذا اخذ المصلي على نفسه ان يتصور المعاني من الفاظها التي ينطق بها فقد اقام الصلاة

سهل عليه امر انفاق المال فينفقه في سبيل المنفعة العامة ، والى هذا يشير القرآن في الآيات الكريمة التالية : (ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين) .

كما انه عهد في القرآن قرن الامر بابتاء الزكاة باقامة الصلاة في كثير من الآيات (واقبوا الصلاة وآتوا الزكاة) .

تنمية ملكة حصر الذهن في الانسان

فالانسان عندما يهرع الى الصلاة ويتوجه الى الله بالعبادة تتنازع افكار متعددة فيحاول ان يطردها ليحل محلها استحضار عظمة وروعة مناجاته وان هذا العمل الذي يتحملة المصلي لطرد الافكار التي تتنازع به يحتاج الى قوة وصبر ورهبة من الله ، وهو ما يسمى بالحشوع .

والقرآن رتب على الحشوع في الصلاة الفلاح في الدنيا والآخرة . قال الله تعالى (قد افلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون) المؤمنون : ٢٠١ . فالخاشعون هم الخاضعون لله والخائفون منه ، وفسر الفخر الرازي الحشوع في الصلاة بأنه : جمع الهمة لها والاعراض عما سواها وهذا الحشوع هو وسيلة لتنمية ملكة حصر الذهن التي لها اكبر الاثر في نجاح الانسان في هذه الحياة ، ولهذا يحسن بنا ان نعرفها ونرى مبلغ اهميتها في نجاح الفرد ، يقول ولیم مولتون مارستن الاختصاصي في علم النفس في مجلة المختار من ريدرز دايجست : « القدرة على تركيز الحواطر تجري مجرى العادة عند كل رجل بارز في كل باب من ابواب الحياة . ففي اية لحظة معينة يركز الزعيم او الرجل الفائق في امر ما ، خواطره كلها في العمل المفرد الذي يكون عليه ان ينهض به واكثرنا تنقصه هذه القدرة على التركيز ، ويجبره ويفسد عليه امره الاضطراب والشواغل والاهواء المتعارضة ... » ثم يقول : « والعقل الانساني يصبح اداة مدهشة الكفاءة إذا ركز تركيزاً قوياً حاداً » .

ونقل عن ولیم جيمس وهو ابو علم النفس الحديث انه قال : « ان الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديين ليس مرجعه الى صفة او موهبة فطرية للعقل ، بل الى الموضوعات والغايات التي يوجهون اليها همهم والى درجة

التركيز التي يسعون ان يبلغوها .

ثم يقول ولیم مولتون في كيفية اكتساب هذه الصفة : « وهذه القدرة تكتسب بالمرانة ، والمرانة تتطلب الصبر ، فان الانتقال من الشرود الى حصر الذهن حصراً بيناً محكماً ، هو ثرة الجهد الملح ، فاذا استطعت ان ترد عقلك مرة بعد اخرى ، وخمسين مرة ، ومئة مرة الى الموضوع الذي اعتزمت معالجته فان الحواطر التي تتنازعك لا تلبث ان تحلي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار والعناية ثم تلفي نفسك آخر الامر قادراً على حصر ذهنك بارادتك فيما تختار .

ونستطيع ان نقول : إن الصلاة في الاسلام هي تمرين على ملكة حصر الذهن في الانسان فالمصلي الذي يستطيع ويجاول بكل قدرته ان يمحصر فكره طيلة الوقت الذي تستغرقه الصلاة وهو ما يسمى بالحشوع ، لا شك بانه تنمو فيه ملكة حصر الذهن وتصبح له اكبر معين في سائر الاعمال التي يزاولها .
وبما يزيد في تأييد هذا المعنى قول ولیم مولتون ايضاً « وخير ما يمكك الالتفات ويمنعه ان يتوزع هو أن يعمل العقل والجسم معاً بالانحداد فيما بينهما »
والصلاة في الاسلام يعمل العقل فيها والجسم معاً فالمصلي يركع ويسجد وهو يقوم بطقوس العبادة .

ولا ريب أن ما يعمل العقل والجسم معاً في الصلاة هو معين على تقوية ملكة حصر الذهن في الانسان .

الصَّوْمُ فِي الْإِسْلَامِ

الصيام في القرآن - روح الصيام - بعض حكم الصوم وفوائده -
تلطيف الإسلام لشده المتوقعة من الصوم .

الصيام في القرآن

الصيام في اللغة : الامساك والكف عن الشيء ، وفي اصطلاح علماء الشرع
الامساك عن الاكل والشرب والاتصال الجنسي ، من الفجر الى الغروب
ابتغاء مرضاة الله . والاصل في فرضيته ما جاء في القرآن :

(يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم
لعلكم تتقون . أياما معدودات فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من
ايام آخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له
وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون . شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن
هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن
كان مريضا او على سفر فعدة من ايام آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم
العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون)
البقرة ١٨٣ - ١٨٥ .

فرض الله على المسلمين الصيام بهذه الآيات وأبان احكامه ، ولنبين ذلك
بشرح هذه الآيات :

فالله سبحانه يقول (يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على
الذين من قبلكم) .

بين الله المسلمين ان تشريع الصوم ليس جديداً في شرائع الله سبحانه وانما هو تشريع قديم شرع للامم السابقة ايضاً ، ولا شك ان في هذا مما تستريح له النفوس ، وييسر القبول والطاعة وعدم الشعور بالحرج لانهم ليسوا منفردين بما يطالبون به .

روح الصيام

بعد هذا عقب الله بالغاية من الصيام بقوله تعالى (لعلكم تتقون) أي تتخذون من الصيام وقاية تحول بينكم وبين الميول المردولة والمنكرات . والصوم يقي الشخص في مفردة والمجتمع في مجموعه ، فهو يقي الشخص في مفردة ان يكون حيواناً يعمل بشريعة الغاب ، ويقي المجتمع بتهيئة الفرد الصالح العامل على خيره فيكون انساناً مع انسان لا حيواناً ضارباً مع انسان ولهذا يقول النبي ﷺ (انما الصوم جنة فاذا كان احدكم صائماً فلا يرفث^١ ولا يجهل^٢ وان امرؤ قاتله او شاتمه فليقل : اني صائم ، اني صائم) .

والجنة هي الوقاية ، يتقي بها الانسان ، والمراد أن يعتقد الصائم انه صام ليتقي شر حيوانيته . وعندما يقول : اني صائم يتذكر انه في انسانيته وليس في حيوانيته .

واذا اتقى الانسان شرور نفسه ، واذا اتقى منه المجتمع شروره فقد بلغ رضى الله وصار في مصاف المتقين وهذا ما يفهم من قوله تعالى (لعلكم تتقون) .

ومعنى (لعل) الاعداد والتهيئة ، واعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله ، يظهر من وجوه كثيرة اعظمها شأناً : انه امر موكول الى نفس الصائم لا رقيب عليه الا الله فاذا ترك الصائم شهواته التي تعرض له اثناء الصوم امتثالاً لأمر الله تعالى ، وراض نفسه على الصبر كلما اغرتها الطيبات والشهوات ، شعوراً منه بأن الله تعالى يراقبه ، وانه مطلع على

١ فلا يرفث : المراد بالرفث : الكلام الفاحش وهو يطلق على هذا ، وعلى الجماع ، وعلى مقدماته ، وعلى ذكره مع النساء مطلقاً

٢ ولا يجهل : اي لا يفعل شيئاً من افعال اهل الجهل ، كالصباح والسفه ونحو ذلك

سر نفسه ، وتكرر ذلك منه ايام صيامه ، فلا جرم انه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة مراقبة الله وخشيته ، والحياء من الله ان يراه حيث نهاه ، والقدرة على ترك ملذات يجعل به ان يتخلى عنها ؛ كما ان مراقبة الله تؤهله لكل اعمال الخير وتبعده عن الشر ، فلا يخدع ولا يغش ، ولا يظلم ، ولا يهضم حقاً ، ولا يسعى في الفساد بين الناس .

اما مجرد الامساك عن الطعام والشراب مع عدم مراقبة الله تعالى مما يسهل عليه ارتكاب الآثام فليس هو الصيام الذي فرضه الله على المؤمنين ولهذا يقول الرسول ﷺ (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه) .

فروح الصيام في الاسلام : مراقبة الله ، وكون الصيام لوجهه . ويؤيد ذلك ما ورد عن الرسول ايضاً (من صام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) كذلك يعد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله من جهة ان الصوم يخفف الشهوة التي هي ام المعاصي ولهذا يقول الرسول ﷺ (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء) .

بعض حكم الصوم وفوائده

وللصوم حكم كثيرة وفوائد جمّة من الناحية الاجتماعية او من الناحية الفردية منها : العطف على المساكين لان الصائم عندما يجوع يتذكر من هذا حاله في عوم الاوقات فيحمله هذا التذكر الرحمة على المساكين ، لان الرحمة في الانسان تنشأ عن الألم ، والصيام طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير اصبح للكلمة الانسانية الداخلية سلطانها النافذ .

ومن حكم الصوم المساواة بين الاغنياء والفقراء ، فهو نظام عملي من اقوى وابعد الانظمة الاشتراكية الصحيحة فهذا الصوم فقر اجباري يفرضه الاسلام فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم ، فقر اجباري يراد به اشعار

النفس الانسانية بطريقة عملية ان الاشتراكية الصحيحة حين يتساوى الناس الشعور ، لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون باحساس الالم الواحد ، لا حين يتنازعون بالرغبات المتعددة . ومن حكم الصوم : « اضعاف سلطان العادة فقد بلغ ببعض الافراد سلطان العادات الى حد الاستعباد فالبعض لو تأخر عنهم الطعام عن مواعده فأصابهم الجوع ساءت اخلاقهم وقد يكون سلطان المكيفات من القهوة والشاي والتدخين أشد من سلطان الطعام على أهله ، فهؤلاء يعتبرون مستعبدين لعاداتهم ، فاذا اضطروا في حين من الزمان الى تغيير نظام حياتهم كما يحدث في ايام الحروب ، لم يستطيعوا هذا التغيير والصمود امام تبعات الحروب التي تفرضها عليهم ^١ » .

ومن حكم الصوم تقوية الارادة فقد وضع الاستاذ الالماني (جيهاردت) كتابا في تقوية الارادة جعل اساسه الصوم وذهب فيه الى ان الصوم هو الوسيلة الفعالة لتحقيق سلطان الروح على الجسد فيعيش الانسان مالمكا زمام نفسه لا اسير ميوله المادية .

هذه بعض حكم الصوم اخبرتناها من كثير وهي بلا ريب علاج ناجع لكثير من الامراض التي يشكو منها عالمنا الحاضر .

تلطيف الاسلام للشدة المتوقعة من الصوم

ان من الناس من يتفق ان يكون مريضاً في شهر رمضان ، او ان يكون على سفر ، والسفر مرهق للجسم فاقنضت حكمة الله ان يخفف وطأة الصيام عن هؤلاء فقال (فمن كان منكم مريضاً ^٢ او على سفر ^٣ فعدة من ايام آخر) أي من كان مريضاً او مسافراً فله ان يفطر ايام

١ اقتبسنا هذا المعنى عن احد البحوث للاستاذ محمد فريد وجدي

٢ المرض المبيح للفطر هو الذي يؤدي عادة الى ضرر في النفس او زيادة في العلة . اما المريض الذي لا يضره الصوم فلا يرخص له في الافطار ٣ اختلف العلماء في المسافة التي يباح للمسافر فيها الافطار . بعضهم يرى انه من قصد مسيرة يوم وليلة بسير متوسط وهو سير الابل وسير الاقدام في اقصر ايام السنة وتقدر هذه المسافة بالكيلومتر بحوالي ستة وثمانين كيلو مترا ونصف . فمن قطع هذه المسافة في يوم وليلة او ساعة كمن يسافر في قطار سريع او في طائرة ووصل الى المكان المقصود كان له ان يفطر ويصوم بدله

فرضه ويصوم بدلها في غير رمضان في حال صحته .

ثم قال الله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) الاطاقة نهاية درجات الممكنة والقدرة على الشيء فلا تقول العرب اطاق الشيء الا اذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة جديدة ، فالمراد بالذين يطيقونه هنا الشيوخ الغانوث والضعفاء والمرضع والحوامل والمرضى الذين لا يرجى براء امراضهم ، فهؤلاء حكمهم ان يفطروا ويطعموا بدلا عن كل يوم مسكيناً مقدار ما يشبع الرجل المعتدل ولا قضاء عليهم^١ .

ثم قال الله تعالى بعد ذلك (فمن تطوع) بان زاد على القدر المذكور في الفدية او اطعم عن اليوم الواحد اكثر من مسكين ، او جمع بين الصوم والفدية (فهو خير له) لان فائدته وثوابه له . ثم عقب على ذلك بقوله (وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون) ما في الصوم من فضيلة وخير لا الصيام لمجرد الجوع والعطش أو اتباعاً لعادات اعتدتم عليها .

(شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) هذا الشطر من الآية مستأنف لبيان تلك الايام المعدودات التي كتبت على المسلمين وهي ايام شهر ومضات وان الحكمة في تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة هي انه الشهر الذي انزل فيه القرآن وافيضت على البشر فيه هداية الله . والمراد بانزال القرآن فيه ابتداء نزوله .

(فمن شهد منكم الشهر فليصمه) المراد بالشهر هنا الهلال فقد كانت العرب تعبر عن الهلال بالشهر ، فكل من رآه أو ثبتت عنده رؤية غيره له عليه أن يصوم . ويثبت شهر رمضان باحد أمرين : الاول ، رؤية الهلال اذا كانت السماء خالية بما يمنع الرؤية من غيم او نحوه . ويكفي لاثبات الرؤية شاهد واحد ورؤية الجماعة مفضلة . ويشترط في الشاهد ان يكون مسلماً عاقلاً بالغاً ذكراً عدلاً ولو بحسب الظاهر وأن يأتي في شهادته بلفظ أشهد ، كأن يقول امام القاضي أشهد أنني رأيت الهلال . ولا يجب الصوم على عموم الناس الا إذا سمعها القاضي وحكم بصحتها .

١ مذهب ابي حنيفة رضي الله عنه : ان يطعم المسكين اكلتين مشبعتين او يعطى مقدار صدقة الفطر

الثاني ، اذا كانت السماء غائمة يستحيل معها رؤية الهلال فيجب اكمال شهر شعبان ثلاثين يوماً نقول النبي ﷺ (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين) .

اما سكان بلاد الشمال الذين يطول ليلهم ونهارهم وقد يصل في بعض الجهات القريبة من القطبين الى شهور فمؤلا يقدرون اوقات صيامهم على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع كمكة والمدينة وقيل على اقرب بلاد معتدلة اليهم .

الزكاة في الإسلام

الضرائب عند الامم السابقة - معنى الزكاة - تأثير الفقر في المجتمع
منزلة الزكاة - الزكاة اجبارية - انواع الزكاة - شروط الزكاة -
زكاة الذهب والفضة - زكاة عروض التجارة - زكاة المحصولات
الزراعية - زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم - زكاة ما يعثر
عليه في باطن الارض - مستحقو الزكاة

كانت الامم قبل عهد الاسلام تفرض الضرائب على الفقراء ومتوسطي
الحال ، أما الملوك والامراء ورجال الدين ومن لهم صلة بهؤلاء فقد كانوا معفيين
من كل التكاليف المالية . وكانت الطبقات الفقيرة تعيش في الحرمان بل في
العبودية للامراء والمثربين .

ولهذا « ما كان الفرد في الزمن القديم يعتبر الحكومة تمثله او تمثل مصلحته
العامه انما كانت على العكس يرى فيها عدوه الاكبر الذي لا هم له الا ابتزاز
امواله وامتصاص دمه من غير منفعة محسوسة تأتية من وراء ذلك ولهذا فقد
كان الفرد يعتبر الضريبة عبثاً ثقيلاً لا ينبغي التهرب منها ما استطاع الى ذلك
سبيلاً » .

« ولقد كانت الشعوب فيما مضى لا تعنى بمالية الحكومة من حيث
وارداتها او مصروفاتها إذ كانوا يعتبرونها بما يخص الملك ومن يلوذ به من

الوزراء والعمال ... وكانت الحكومات القديمة بدورها لا تهتم الا بتوفير المال لتخزينه الملك ، مستعملة في ذلك ما تستطيع من وسائل مشروعة وغير مشروعة . فلم تكن — كالحكومات الحديثة — توجه قسماً كبيراً من عنايتها الى العدل في فرض الضريبة ، وفي توزيع عبئها توزيعاً مناسباً بين طبقات الأمة ، والى اتفاق الواردات العامة فيما ينفع الناس ويزيد الرفاهية في المجتمع^١ . فلما جاء الاسلام قلب هذه الحال الى ضدها ففرض على الاغنياء والقادرين ضريبة لمصلحة الفقراء سماها (الزكاة) وتوخى في جبايتها وصرفها أسساً من العدل والنظام لا يوجد نظيرها في أي مذهب من المذاهب الحديثة .

معنى الزكاة

الزكاة صدقة والصدقة زكاة اختلف الاسم واتفق المسمى^٢ . والزكاة في اللغة معناها : الطهارة . وسمى الله الصدقة المفروضة زكاة لانها تطهر النفس . قال تعالى (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها) وما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين يشمل افرادهم وجماعتهم فهي تطهر نفوس الافراد من ارجاس البخل والدناءة والقسوة والاثرة والطمع ومن اكل اموال الناس بالباطل وغير ذلك من ارجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والعدوات والفتن والحروب .

تأثير الفقر في المجتمع

وقد ثبت أن الفقراء في الطبقات السفلى من المجتمعات شر ادواء المجتمع ، فالفقر يحمل الواقعين تحت سلطانه على اتيان جميع ضروب الشرور للحصول على اخص حاجات الحياة وهو القوت ، فالبطون اذا جاعت دفعت اصحابها لاستساعة جميع صنوف الجرائم ، وعدت ذلك عملاً مشروعاً ، وفي البيئات التي يشيع فيها الفقر تروج جميع المذاهب المتطرفة ، وتستحل جميع الاعمال الوحشية للوصول الى اغراضها .

١ Lutz Public finance

٢ الماورودي في احكامه السلطانية

وقد ذقت أوروبا من هذه الناحية شر ما يولده الفقر من الاعمال الضارة
للعمران ، ابتدأت بالاضرابات البريئة من الشغب ، وانتهت بالثورات التي لا
تبقى ولا تذر .

منزلة الزكاة

طالب الله سبحانه وتعالى المسلمين بدفع الزكاة في مواضع كثيرة ولم ترد
في القرآن آية من الآيات التي تدعو المسلمين الى اقامة الصلاة الا مقرونة
بدعوتهم الى ايتاء الزكاة ، والزكاة والصلاة دعامتان متينتان بني عليهما الاسلام
من ذلك قوله تعالى (فاقموا الصلاة وآتوا الزكاة) الحج : ٧٨ . كما ان
المسلم لا تحصل اخوته الدينية للمسلمين الا بادلها (فات تابوا واقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة فآخوانكم في الدين) التوبة : ١١ . وانذر النبي مانعي الزكاة
بالجذب وضيق العيش فقال (وما منع قوم الزكاة الا منعوا القطر من السماء
ولولا البهائم لم يمطروا) .

الزكاة اجبارية في الاسلام

والاسلام ما جعل فريضة الزكاة ترجع لهوى الشخص ان شاء اعطى وإن
شاء منع بل جعلها اجبارية لانها حق الفقير ونصيبه من مال الله الذي اعطاه
للفني لقوله تعالى (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) المعارج :
٢٤ ، ٢٥ . فكان حقاً على الامام ان يجمع حقوقهم ويوزعها عليهم
بالقسطاس المستقيم .

ولهذا كان النبي يجمع الزكاة ويأمر امرائه كذلك يجمعها من الاغنياء ليردها
على الفقراء . ثم بعد وفاته ومبايعة ابي بكر الصديق بالخلافة حدث ان اعلن
بعض العرب منع الزكاة وقد ظنوا ان الخليفة لا يستجيز مقاتلتهم ، ولكن ابا
بكر جمع سراة الصحابة وتشاورواهم ثم اجمعوا على قتال مانعي الزكاة ،
فاعدوا العدة وخرجوا الى مانعي الزكاة وضربوهم ضربة قاضية ارجعت للمجتمع
الاسلامي تعاليمه السامية التي جاء بها القرآن .

لقد كانت حربا اهلية لانصاف الطبقة الفقيرة ولن تجد في جميع الحروب
الاهلية التي قامت لانصاف الطبقة الفقيرة في أوروبا ما بعدها اخلاصاً ونزاهة

ذلك لان الذين حاربوا لانصاف الطبقة الفقيرة في اوروبا هم الطبقة الفقيرة نفسها حاربوا تحت تأثير الحاجة ، اما الذين حاربوا في زمن الخليفة ابي بكر فهم سرارة الصحابة ، ورجال الحل والعقد وعلى رأسهم الخليفة نفسه ، الذي قال في هذه الحادثة (والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه الى رسول لقاتلهم عليه او اهلك دونه) من هذا يتبين لنا ان الزكاة ليست احساناً فردياً وان اعتبارها كذلك خروج بها عن معانيها ، بل هي ضريبة اجبارية تأخذها الحكومة الاسلامية لتصرفها على الطبقة الفقيرة لان الاصل ان الامام هو الذي يأخذ ويعطي لقوله تعالى (خذ من اموالهم صدقة) وعلى هذا اتفق الفقهاء على ان الزكاة لا يتولى توزيعها من تجب عليهم من المسلمين وكان ذلك نقيضاً لمعنى الاحسان الفردي الذي يتحقق فيه الذل والهوان للمحتاجين ، أما عطاء الدولة للفقراء المحتاجين من غير سؤال منهم ولا منة في العطاء فليس فيه استدلال بل معونة كريمة وسد حاجة .

انواع الزكاة .

الانواع التي يجب فيها الزكاة شرعاً خمسة :

اولاً : الذهب والفضة .

ثانياً : البضائع التجارية .

ثالثاً : المحصولات الزراعية وثمار الاشجار والكروم .

رابعاً : السوائم من الابل والبقر والغنم .

خامساً : ما يعثر عليه في باطن الارض من المعادن والكنوز .

وما عدا هذه الانواع الخمسة من الاموال لا تجب فيها الزكاة . فلا زكاة في الدور المعدة للسكنى ، ولا في الثياب ، ولا في أثاث المنزل ، ولا في دواب الركوب ، ولا في السيارات الخصوصية المعدة للحاجة ، ولا في الاسلحة والتحف وادوات الزينة والحلي والجواهر الكريمة . ولا في آلات الصناعة والزراعة وكتب العلم .

١ . نقلاً عن كتاب اصلاح الاسلام الاقتصادي للاستاذ هاشم الدفتردار المدني .

اما اذا اتخذ شيء من ذلك للتجارة فانه يجب عندئذ الزكاة فيه .
والمعادن النفيسة غير الذهب والفضة قد درج الفقهاء على اعتبارها لا زكاة
عليها ، ولكن الحق هو ان يطبق على هذه المعادن حكم الذهب والفضة في
وجوب الزكاة عليها ، فاذا بلغت قيمتها نصاباً ذهبياً او فضياً اخرجت زكاتها .

شروط الزكاة

واما شروط الزكاة التي يجب ان تتوافر في كل نوع من هذه الانواع هي اربعة :
اولاً : ان يكون المال مملوكاً ملكاً تاماً والمراد بتمام الملكية ان يكون
المال بيد صاحبه وان لا يتعلق به حق لغيره ، وان يكون له حرية التصرف
فيه باختياره ، وان تكون ثمرته له . وعلى هذا الشرط فالمال الموقوف لا تجب
فيه الزكاة ، وكذلك الديون التي في ذمم المدينين . وكذلك المال الذي ليس
لمالكه حرية التصرف فيه باختياره كالمال المرهون ، والموضوع تحت يد حارس ،
والقائم بشأنه نزاع .

ثانياً : ان يبلغ هذا المال النصاب اي المقدار الذي حدده الشارع لكل
نوع من انواع هذه الاموال . وعلى هذا الشرط فالمال القليل الذي لا يبلغ
مقدار النصاب لا زكاة فيه ، لان الزكاة تكون من الزائد عن حاجة المالك
لقوله تعالى « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » اي الفائض عما يحتاجون .

ثالثاً : ان تمضي سنة قمرية على هذا النصاب وهو مملوك لصاحبه ملكاً تاماً . وعلى
هذا الشرط اذا زالت ملكية المالك عن ماله بعد نصف سنة او اكثر فلا تجب
عليه الزكاة فيه ، ومرور سنة شرط لوجوب الزكاة فيها عدا الحاصلات الزراعية
وما يعثر عليه في باطن الارض من معادن وكنوز ، فتجب الزكاة فيها عند ظهورهما
رابعاً : ان يكون المال زائداً عن حاجات مالكه الاصلية وعن ديونه وعلى
هذا الشرط فالمال المملوك للانسان ولكنه على قدر نفقة مالكه ونفقة من يعولهم
او مستغرق بديون عليه لا تجب الزكاة فيه .

والزكاة تؤخذ كل عام مرة واحدة ولا تتكرر لان ثمنها لا يتحقق الا بمرور العام وهذا الحكم بالنسبة للأموال المنقولة ، اما زكاة الزروع فقد اخذها النبي من غلاتها . ويتكرر الاخذ كلما انتجت الارض .

وتؤخذ الزكاة من مال الصبي والمجنون والسفيه إذا بلغ ما لهم النصاب ويدفعها الولي او القيم على الاموال ، ولا فرق في الزكاة بين ذكر وانثى وبين سجين وطلق .

والزكاة لا تتبع ميزانية الدولة بل يجب ان تكون لها ادارة قائمة بذاتها والدولة إذا كانت متسعة الارضاء فأنها تترك الامر لحكومات المقاطعات تنظم كل مقاطعة طريق الجمع وطريق التوزيع .

زكاة الذهب والفضة

تفرض الزكاة في الذهب والفضة سواء أكانا مسكوكين نقوداً ، ام نبراً ، ام سبائك إذا مر عليها سنة قمرية .

ومقدار الزكاة ربع العشر أي $\frac{2}{5}$ في المائة ممن يملك نصاباً من الذهب او الفضة . ومعنى نصاب الذهب ، أي المقدار الذي يبتدىء فيه وجوب الزكاة ، ويجعل مالكة من جملة المالكين هو الذي يملك عشرين مثقالاً او عشرين ديناراً من الذهب^١ .

ونصاب الفضة مائتا درهم وهو ما يعادل بالتقريب ٢٧ ريالاً او ٥٤٠ قرشاً مصرياً . والذي يلاحظ ان نصاب الفضة يساوي اقل من نصف نصاب الذهب وكان بالاحرى ان يساويه ولهذا فان من يملك الآن عشر جنيهات من الذهب لا تجب عليه الزكاة فيها لانها دون النصاب ومن يملك ثلاثين ريالاً من الفضة وهي دون العشرة جنيهات تجب عليه الزكاة فيها لأنها تزيد من النصاب الفضي ، فعلى هذا القياس يكون الغني لا زكاة عليه والفقير عليه الزكاة وقد فطن لهذا الاستاذ عبد الوهاب خلاف فقال في مجلة لواء الاسلام في مجلد ١٩٥٠ ما نصه : وعلى هذا لابد ان تكون القيمة المالية للعشرين ديناراً في وقت التشريع

١ قيمة العشرين مثقالاً ١٠٠٨٠ ليرة عثمانية ذهباً والمثقال يساوي ٣٠٨٨ غرام ذهباً

القيمة المالية للمائتي درهم . والاحكام الشرعية تدل على هذا فقد قررت دية القتل خطأ بألف دينار او عشرة آلاف درهم . وهذا معناه ان الدينار يعادل في قيمته المالية عشرة دراهم وعلى هذا فالعشرون ديناراً تعادل في قيمتها . المالية مائتي درهم . ولكن هذا التعادل غير ثابت بل هو متغير تبعاً لتغير سعر الفضة ونسبتها الى الذهب » ثم يقول « والذي اراه : ان تقدير النصاب المالي كان مراعى فيه قيمة الفضة بالنسبة الى الذهب في وقت التشريع ، وهذه النسبة تتغير بتغير الازمان والبيئات والعرض والطلب وأرى أن يعتبر الذهب هو الوحدة في تقدير النصاب ويكون نصاب الزكاة عشرين ديناراً أو ما يعادلها من الفضة المضروبة او غير المضروبة » .

والاوراق النقدية والعملة التي تكون من غير الذهب والفضة كالعملة المتخذة من النيكل وغيره تجب الزكاة فيها اذا بلغت نصاب الذهب . والاوراق المالية الاجنبية واسهم الشركات تجب الزكاة فيها على اساس قيمتها . هذه احكام النقود بكل انواعها ما دامت في حوزة صاحبها ويستوي في ذلك ان تكون في المصارف المالية مودعة فيها امانة وكذلك اذا كانت رصيداً تجارياً أو أموالاً مدخرة أو (بوالص) تأمين .

زكاة عروض التجارة

والزكاة واجبة في عروض التجارة والوجوب ليس متوجهاً على اعيان العروض ، وإنما على قيمتها ، لذلك كان نصابها هو نصاب الذهب .

وليس الشرط ان تمر السنة على نفس السلعة ، بل على القيمة وان تداولت القيمة آلاف السلع . والمعتبر أن تكون البضائع التجارية بالغة النصاب في اول السنة وفي آخرها ولا عبوة بنقصها في وسطها .

وتشمل عروض التجارة الحيوان الذي يقتنى للاستيلاد ويرعى بالمحاث والفاكهة والاسلحة إذا كانت للتجارة .

والزكاة تؤخذ من رأس المال مع الارباح . وتقوّم عروض التجارة بحسب

لزم من الحاضر .

زكاة المحصولات الزراعية وثمار الاشجار

وزكاة الزروع عشرة في المائة اذا سقيت بدون آلات أي من مطر أو غير أو عين ،
 وخمسة في المائة اذا سقيت بالآلات واذا اختلف السقي كان الحكم للاغلب
 وان تساوى كان الواجب اخراج نصف العشر .

والزكاة من الزروع تؤخذ من كل ما اخرجت الارض لا فرق بين
 صنف وصنف ولا بين مطعوم وغير مطعوم ، ولا نصاب لها ، ففي كل ما
 اخرجت الارض زكاة ويتكرر الاخذ كلما انتجت الارض فاذا انتجت
 مرتين اخذ من كل منهما ، ولو انتجت ثلاث مرات في العام الواحد اخذ منها كلها
 لقوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) الانعام : ١٤١ .

وأخى فضيلة الاستاذ محمد ابو زهرة^١ زكاة الدور المعدة للاستغلال بزكاة
 الزروع فقال : « والمعروف عن جمهور الفقهاء انهم لم يقرروا زكاة في الدور ،
 لأن الدور في عصورهم لم تكن مستغلة بل كانت لسد الحاجات الاصلية ،
 وكان ذلك عدلاً اجتماعياً في عهد الاستنباط الفقهي اما في عصرنا الحاضر فقد
 استبحر العمران وشيدت العمارات والقصور للاستغلال وصارت تدر اضعاف ما
 تدره الارضون فكان من المصلحة ان تؤخذ منها زكاة كالاراضي الزراعية
 إذ لا فرق بين مالك تجبى اليه غلات عمارته كل شهر ومالك تجبى اليه غلات
 ارض زراعية كل عام فلو أوجبنا الزكاة في الاراضي الزراعية ورفعناها عن
 المستغلات العقارية لكان ذلك ظلماً^٢ » .

فكل ما يحصل من غلات العمارات المعدة للسكنى أو نحوها تجب فيه الزكاة
 واذا انقطعت الغلات امدأ انقطعت الزكاة في ذلك الامد ، وتتبع الزكاة
 الادوار التي تحصل بها غلات تلك العقارات وما يشبهها ، فاذا كانت الغلات
 تحصل كل شهر وجبت كل شهر وان كانت تحصل كل عام وجبت كل عام .
 ويؤخذ نصف العشر من الغلات .

وبقيس فضيلة الاستاذ محمد ابو زهرة نفس القياس على ادوات الصناعات
 التي تكون في المصانع التي تفيض فيها الغلات وليست ادوات شخصية للعامل

٢ لواء الاسلام مجلد ١٩٥٠

١ من علماء الازهر

يستخدمها لسد حاجاته فتجب فيها الزكاة من ثمراتها ، وتحتسب غلات تلك المصانع كل عام فاذا تبين كسب كان للفقير حق فيه وقدره الاستاذ أيضاً بنصف العشر .

زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم

المراد بالسوائم تلك التي ترعى أكثر السنة من المراعي العامة المباحة ، ولا يتكلف ملاكها مؤونة علفها . فالابل والبقر والغنم التي يغذيها ملاكها باموالهم لا تجب فيها الزكاة . فالاسلام لا يجمع على مالك الانعام بين مؤونة علفها وفريضة الزكاة فيها .

ولكل نوع من أنواع هذه السوائم نصاب مقدر لا تفرض الزكاة فيها دونه . ففي الابل لا زكاة فيما دون الخمس وفي الغنم لا زكاة فيما دون اربعين ، وفي البقر لا زكاة فيما دون ثلاثين . والواجب في خمس من الابل شاة ، والواجب في اربعين من الغنم شاة ، والواجب في ثلاثين من البقر تبيع « اي واحد منها » اتم سنة ودخل في السنة الثانية^١ والابل تشمل الجمال والنوق ، والغنم تشمل الضأن والمعز ، والبقر تشمل البقر والجاموس وليس فيما عدا هذه الثلاثة من المواشي زكاة ولو كانت سائمة فلا زكاة في الحيل والبغال والحمير ولعل الحكمة في هذا ان الابل والبقر والغنم هي التي لها نماء بالدر والنسل فتكون الزكاة من ثمنائها لانها تقصد للدر والنسل .

وانما ذكر الفقهاء أن لا زكاة في الحيل والبغال والحمير لانها تتخذ للحاجة فالفرس للجهاد والبغال والحمير للحمل وغيره أما اذا اتخذت للاستغلال فان لها نسلاً ونماء فعندئذ تجب فيها الزكاة .

ما يعثر عليه في باطن الارض من المعادن والكنوز

ما يكون في باطن الارض كالبترول يكون ملكاً لبيت مال

١ من اراد ان يعرف الواجب فيها زاد عن خمس من الابل او اربعين من الغنم او ثلاثين من البقر فليرجع الى كتب الفقه فقد فصلت ذلك او الى كتاب فتح القدير للكمال بن الهمام ج ١ ص ٤٩٥ - ٤٩٦

أما المعادن والكنوز الجاهلية التي ثبت أنها وضعت في باطن الأرض قبل الإسلام يؤخذ منها الخمس وأربعة الأخماس الباقية للواجد . والكنوز الإسلامية وهي التي ثبت أنها وضعت في باطن الأرض بعد ظهور الإسلام تكون ملكاً للدولة إلا إذا عرف ملاكها فأنها تكون لهم وإنما تكون تلك الكنوز للدولة لأنها ضائع أو الضائع تكون لبيت المال الخاص بها ومثلها كمثل المال الذي يؤول إلى بيت المال إذا مات صاحبه ولم يعرف له وارث ، فإنه يكون لبيت مال المسلمين الخاص بالضائع ويصرف في مصارف الزكاة .

أما ما يكون في البحار من غنبر ولآلىء وأسماك فيؤخذ منها الخمس . وهذا ما اختاره واضعو مشروع قانون الزكاة في مصر إذ قالوا (نعم إن المعروف عن جمهور الفقهاء ، أنهم لا يأخذون الخمس في السمك وذلك حكم زمانهم ، لأن السيادة على البحار لم تكن ثابتة ، ولأن من كان يصطاد إنما كان يصطاد قوت يومه ، ولأنها لم تكن محل عناية وتربية ولم تنظم المصايد ذلك التنظيم القائم اليوم ، ولو أن أثبتنا عاشوا في عصرنا لقرروا ما قررنا ، فالاختلاف بيننا وبينهم اختلاف عصر وزمان لا اختلاف دليل وبرهان) . والكنوز الجاهلية التي تكون ذات قيمة علمية تعد ملكاً للدولة لفائدة العلم فإن الآثار في كل الأمم هي ملك للدولة ، لا لنفسائها ، بل لقيمتها التاريخية .

مستحقو الزكاة

لم يترك الإسلام أمر الزكاة إلى تقدير ولي الأمر بل بين المصارف وعيّن بها بالنص القرآن في الذي لا يقبل التأويل قال الله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) التوبة : ٦٠ هذا هو النص القرآن في المحكم الذي بين أصناف المستحقين للزكاة^٢ صنفاً صنفاً ولينين كل صنف بكلمة موضحة .

أولاً : الفقراء ، وهم الذين لا يملكون أموالاً يزكون عنها أي أن أموالهم

١ مذهب مالك ٢ لخصنا فصل مستحقي الزكاة من بحث لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد

ابوزهرة في مجلة لواء الإسلام في مجلد سنة ١٩٥١ ص ٨٣٢

لا تبلغ النصاب وانما لديهم قليل من المال لا يكفي لكل حاجاتهم وقيل من لا يملكون قوت يوم وليلة .

ثانياً : **المساكين** ، قيل في تفسير المسكين : السائل . وقيل بان المسكين أشد حاجة من الفقير ، وروي عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس : ان الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء اهل الكتاب ، ويزكي هذا الرأي ان عمر بن الخطاب فسر المساكين بزمنى اهل الكتاب ، فانه يروى انه رأى ذمياً مكفوراً مطروحاً على باب المدينة فقال له عمر رضي الله عنه : مالك ؟ قال : استكروني في هذه الجزية ، حتى اذا كف بصري تركوني ، وليس لي احد يعود علي بشيء ! فقال الفاروق ما انصفت اذن ! واجرى له ما يقوته وما يصلحه ، وقال هذا من الذين قال الله تعالى فيهم : « انما الصدقات للفقراء والمساكين » وهم زمنى اهل الكتاب اي ذوو العاهات المانعة من الكسب ، والمرضى بمرض لا يرجى البرء منه . ونرى من هذا ان الزكاة على هذا التفسير تعطى لمساكين اهل الذمة العاجزين عن الكسب وهو غير ما عليه جمهور الفقهاء الذين يرون ان الزكاة لا تعطى لغير المسلمين .

ثالثاً : **العاملين عليها** ، وهم الذين يعملون في الزكاة في جمعها من اربابها وتوزيعها على مستحقيها وهم يعطون على قدر اعمالهم وكفاية امثالهم ولان العمل في الزكاة له اجر والاجير يأخذ سواء اكان غنياً ام فقيراً .

رابعاً : **المؤلفة قلوبهم** ، وهم قوم يعطون من الزكاة نأليفاً لقلوبهم او قلوب ذويهم ، او تمكيناً للاسلام في قلوبهم . ولقد قال ابو يعلى في الاحكام السلطانية « والمؤلفة قلوبهم اربعة ، اصناف : صنف منهم تتألف قلوبهم لمعونة المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم للكف عن المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم لترغيبهم في الاسلام ، وصنف يتألف ترغيباً لقومهم وعشائرم في الاسلام ؛ فيجوز ان يعطى كل واحد من هذه الاصناف من سهم المؤلفة قلوبهم مسلماً كان او مشركاً » .

وعطاء هؤلاء من قبيل الدفاع عن الاسلام والدعوة له ؛ فاعطاء المؤلفة قلوبهم هو من قبيل ما نسميه اليوم الدعاية ؛ ولذلك كان حقاً ان نجعل من مصارف الزكاة الدعاية للاسلام ، وبيان مزايده ، وخواصه ، ليعلم حقيقته من لم يكن يعلم

خامساً : وفي الرقاب ، اي في فك اسر الارقاء ، فقد كان من عادة العرب ان يعين الواحد لرفيقه مالاً اذا اداه له تحرر من اسره . فامر الله الحكومة الاسلامية ان تمد هؤلاء الاسرى باموال ليتحرروا من رقهم . وقد ذهب الرق تقريباً من العالم .

ونريد ان نسجل في هذا المقام ان الدولة الاسلامية هي اول دولة حاربت الرق في الوجود وحسبها ان جعلت جزءاً من ميزانيتها لفك الرقاب ولم يذكر التاريخ ان اي نظام سياسي او فلسفي سبق الاسلام في ذلك .

سادساً : الغارمين ، وهم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم وهم ثلاثة اقسام :

١ - قسم يستدين في سفاهة واسراف وينفق بما يستدين في الحلل والمحرم . والا كثرون من الفقهاء على ان هذا لا يوفى عنه دينه ، الا اذا تاب وصار من اهل الصلاح والتقوى والتدبير .

٢ - من استدان لغير ذلك في مصالح نفسه كتاجر لزمته ديون في تجارته وهو يحسن تدبيرها ولكن اضطرب الميزان الاقتصادي ، واحاط الدين بماله ولم يف ما عنده من المال بدينه ، فما بقي من ديون بعد ذلك يسدد من الزكاة .

٣ - من ركب دين في مصلحة عامة لا لمصلحة نفسه ، كمن تحمل ديون للصالح بين الناس ، فقد قال الفقهاء انه يسدد عنه دينه ، ولو كان غنياً يبقى له بعد سداد الدين من ماله نصاب ؛ وهذا للتشجيع على المروءة والصالح بين الناس واذا مات مدين وليس في تركته ما يفي بدينه يؤدي باقي دينه من مال الزكاة .

والجدير بالذكر ان الاسلام يجعل الديون العادلة تؤدي من بيت مال الزكاة وبهذا سبق الشرائع الانسانية كلها سبقاً بعيداً وخصوصاً الشرائع التي

عاصرت نشأته . وحسبك ان تعلم ان القانون الروماني ^١ في بعض ادواره كان يسوغ للدائن ان يسترق المدين . اما الاسلام فقد جعل دين المعسر تؤديه الدولة عنه وفي ذلك تشجيع للناس على المروءة والقرض الحسن ، لأن ذا المال إن علم ان ماله لن يضيع ابداً أقرض القرض الحسن . ويصح بالقياس على ذلك ان يقرض من مال الزكاة القرض الحسن لأنه إذا كانت الديون العادلة تؤدي فأولى أن تعطى منها القروض الحالية من الربا لتورد الى بيت المال .

سابعاً : ابن السبيل ، والمراد به المسافر الذي لا يجد مالاً يوصله الى وطنه فانه يعطى من مال الزكاة ما يوصله الى وطنه .
اما إذا كان غنياً فيعطيه بيت المال قرضاً ليسترد ما أعطاه عند الرجوع الى أهله وذويه .

ثامناً : وفي سبيل الله ، والمراد به الصرف على الغزاة والمرابطين لحماية الثغور فينفق من الزكاة على الجيش وكل ما يتصل به ما دام الجيش يجاهد في سبيل الله .

ولقد فسر بعض الفقهاء كلمة في سبيل الله بما يعم كل مصالح المسلمين ، فقد جاء في التفسير الكبير للفرغاني ما نصه :

« واعلم ان ظاهر اللفظ لا يوجب التقصر على كل الغزاة ، فلهذا المعنى نقل الفقهاء في تفسيره عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقات الى جميع وجوه الخير : من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ، لأن قوله تعالى في سبيل الله عام في الكل » .

ويجوز اعطاء الزكاة للمؤسسات الخيرية كمؤسسة طبية لمعالجة الفقراء أو تعليمهم أو الانفاق عليهم باعتبار ان هذه الجماعات نائبة عن الفقراء الذين تتولى الانفاق عليهم ، وقد نص ابن عابدين على ان ما ينفق في سبيل تعليم الفقراء وعلاجهم هو انفاق عليهم واعطاء لهم .

١ جاء في القانون الروماني المسمى : قانون الألواح الاثني عشر : (المدين اذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق ان كان حراً ويحكم عليه بالحبس او بالقتل ان كان رقيقاً) .

هل تصرف الزكاة على جميع مستحقيها

يرى جمهور الفقهاء خلافاً للشافعي انه لا يلزم استيعاب كل مصارف الزكاة بل في أيها وضعت اجزأت . ويلزم الامام العناية بالامم اجتماعياً فالمهم .

الزكاة ضمان اجتماعي

ونختتم هذا البحث باننا نستطيع أن نؤكد ان الحكومات الاسلامية لو عملت بما شرعه الاسلام من تحصيل ضريبة الزكاة لبلغ ايرادها منها ملايين الجنيهات الذهبية تسد حاجة الطبقات المحرومة .

وهذه الزكاة تؤدي ما تؤديه الضرائب التي عمدت اليها الدول الاوروبية في القرنين الاخيرين اذ قرروا ضرائب على رؤوس الاموال وسموها بضريبة الضمان الاجتماعي وضرائب غيرها على اصحاب الايرادات الضخمة بلغت في بعض الامم نحو تسعين في المائة من تلك الايرادات ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن في ناحية الطبقات المحرومة .

من ذلك يتبين لنا ان (الزكاة) نظام اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الامة وكان الاسلام اول من سبق العالم الى وضعه ، كما ان تشريع الزكاة المستوعب لجميع اصناف المال والمقدر لكل صنف زكاته بقدر معقول وعادل لا يمكن ان يكون وليد عقلية كمالية محمد نشأت في جزيرة العرب لم تتعلم ولم تنتف . كل هذا يدل دلالة قاطعة على ان تشريع الاسلام هو من عند الله .

الحج في الإسلام

قصة بناء الكعبة - روح الحج في الاسلام - حكمة الاحرام -
حكمة الطواف حول الكعبة - حكمة السعي بين الصفا والمروة -
حكمة الوقوف بعرفة - حكمة الحلق والتقصير - الحج وتجديد الشخصية

الحج لغة : القصد الى معظم ، وفي الشرع الاسلامي قصد البيت الحرام
بمكة للعبادة . والحج من الشئون الدينية التي كانت تعرف من لدن اقدم العصور
عند جميع الامم .

وكان العرب قبل الاسلام كسائر الامم يحجون الى البيت الحرام الذي
بناه ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام في مكة .

فلما جاء الاسلام اقر الحج ولكنه لم يدعه على ما كان عليه في عهد
الجاهلية فان العرب كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد مشبكين بين
اصابعهم يصفرون ويصفقون وقد سجل الله عليهم هذه الحالة فقال مستهزئاً بهم :
(وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء^١ وتصدي^٢) الانفال : ٣٥ .

كما انه لما قوي الاسلام ، امر الرسول عليه السلام ان لا يدخل البيت
الحرام عريان .

قصة بناء الكعبة

الكعبة هي الموطن الاساسي لاداء فريضة الحج لذا يجدر بنا ان نلم
بقصة بنائها : ان بناء الكعبة يرجع الى عصر ابراهيم الخليل عليه السلام ،

١ المكاء : الصفير ٢ التصدي : التصفيق

فقد فشلت عبادة الاصنام في ذلك الزمن وهجر الناس عبادة الله ، فهاجر ابراهيم من بلاد الشام موطن آبائه واجداده ومعه زوجته هاجر وولدهما اسماعيل واتجه جنوباً حتى حط رحله في بادية الحجاز بعيداً عن الناس ليكون اسرة تعبد الله وحده . وعندما شب اسماعيل وبلغ أشده ، امر الله تعالى ابراهيم ان يقيم مصلى لتجتمع حوله الناس لعبادة الله ولذكركه وشكره على ما انعم عليهم . وقد ذكر الله ذلك الحادث بقوله (واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم) البقرة : ١٢٧ .

فلما اتم ابراهيم البناء مع ابنه اسماعيل أمرهما الله ان يحافظا عليه ويبعدا عنه كل رجس سواء اكان مادياً كالاقدار ، ام معنوياً كالاشراك بالله ، قال الله تعالى (...) وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود (البقرة : ١٢٥) . فالكعبة هي اول بيت وضع للناس لعبادة الله وحده كما يقول الله تعالى (ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين) . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً (آل عمران : ٩٥ - ٩٧ .

مات ابراهيم وتبعه اسماعيل عليها السلام وطال الزمن فادخل الناس في امور الحج اشياء منكورة من الشرك وعبادة الاصنام لهذا بعث الله محمداً ﷺ للقضاء على الشرك وللرجوع الى توحيد الله كما دعا اليه ابراهيم عليه السلام . قال الله تعالى مخاطباً امة محمد ﷺ (...) هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل (...) الحج : ٧٨ .

روح الحج في الاسلام

والحج في الاسلام ، يختلف كل الاختلاف عن الحج في سائر الاديان اذ ان الحج عندها عبارة عن التبرك بقبور القديسين وما تركوه من آثار ومباني - وهذا ما كرهه الاسلام ونفر منه - وكان افضل الحج عندها ما حمل الانسان نفسه في سبيله من المشاق . اما الاسلام فانه كره ان

١ القواعد من البيت : بناؤهما جدرانها .

يرهق فيه احد نفسه ولو تطوعاً وتطلباً لزيادة الاجر . فقد روي ان النبي رأى رجلاً ماشياً يتهاذى بين ولدين له يريد الحج فسأل عن شأنه فقيل يا رسول الله انه نذر ان يزور البيت ماشياً فقال : كلا ، ان الله غني عن تعذيب هذا نفسه احموه ، (اي على بعير) .

فالاسلام يعتبر الحج وسيلة لا غاية لتحقيق الفوائد الروحية والادبية والاجتماعية والاقتصادية وتنطق بذلك هذه الآية (واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير) الحج ٢٧ ، ٢٨ .

تأمل قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) وقد فسر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً ، والدين والدنيا في نظر القرآن مترابطان ترابط الروح بالجسد ، فاذا كان الدين يمد الروح بالايان الصحيح والآداب ، فان امور الدنيا تمده بأسباب البقاء ودواعي الارتقاء . فلواردنا ان نستقصي ما يمكن ان يشره الحج للمسلمين كافة من وجوه المنافع الادبية والمادية لضاقي بنا المجال ، فان لم يكن فيه الا تعارف الشعوب الاسلامية والمآم بعضها بحاجات بعض لكفاها ذلك الوصول الى مستوى رفيع بين شعوب العالم ، ولكن وبالأسف لا تزال الامم الاسلامية تجهل او تهمل هذه النواحي العظيمة الجديرة بالانفات والاهتمام .

فالحج مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم الى مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر بما يكونون قد هدوا اليه دون غيرهم سواء أكان ذلك في عالم العلم او العمل .

ويتبع هذا ايضاً ناحية لا تقل اهمية عن الاولى إن لم تكن تفوقها قوة تلك هي الناحية الاقتصادية ، فان لكل شعب من الشعوب الاسلامية صناعات ، ونبوغاً في بعض ضروب المحولات ، ولبلادهم منتوجات لا توجد في غيرها وبواسطة هذا المؤتمر العام يمكن أبرام اتفاقات على تبادلها فيما بينهم ، وإن مثول اصحابها في مجتمع عام يسهل عليهم تدارس الوسائل المختلفة لتسهيل امر ذلك التبادل وجعله امراً واقعياً بتذليل ما عسى ان

يقوم امامه من العقبات .

من يجب عليه الحج

والحج يجب على المسلم العاقل البالغ الصحيح البدن والذي يستطيع الانفاق على نفسه أي أنه يملك زاد السفر ، واجرة الانتقال ، كما أنه يملك من المال ما يمكن عياله من النفقة على انفسهم في مجبوحه حال سفره ، على أن يكون هذا المال الذي يملكه خالصاً من الدين والحقوق ، خالياً من الربا والمحظورات ، مدفوعاً عنه فريضة الزكاة ، وأن يكون فوق ذلك كله الطريق الى مكة مأموناً .

أركان الحج

وأركان الحج هي : (١) الاحرام (٢) طواف الزيارة (٣) السعي بين الصفا والمروة (٤) الوقوف بعرفة (٥) حلق شعر الرأس أو تقصيره (٦) ترتيب هذه الافعال .^١ واليك حكم كل ركن من هذه الأركان .

حكمة الاحوام

كانت العرب تضرب الحمى لمراعيها وتجعل لها حدوداً لا تتعداه القبائل الاخرى ، وكان العزيز منهم من يتخذ له متسعاً من الارض يجعله حمى له ، الى أن جاء الاسلام فأبطل كل حمى الا حمى الله ، وجعل لبيته (أي الكعبة) حرماً ومواقيت لا يتعداها من يريد الدخول الى الحرم إلا إذا كانت على وصف معين .

فاذا دخل المسلم في الاحرام حرم عليه الاسلام أن يتخذ أي وسيلة من وسائل الرفاهية والزينة فلا يتطيب بأي طيب . وكما منع من مس الطيب منع من شبه إذا قصد الرفاه واللذة ، وكذلك حرم عليه الاسلام أن يلبس من الثياب ما فصل على الجسم وخيط من حلة وقميص ، ولا يتناول حذاء الا نعلاً ساذجة ولا يتزين بالحوائم وما اشبه ذلك وعليه فوق هذا كله ان يترك شعر رأسه ينمو على طبيعته فلا يخلق ولا يقصر وعليه

١ هذه الاركان بمنضى مذهب الامام الشافعي .

ان يترك أظافره تنمو نموها فلا يقصها وان يكون ممتنعاً عن لذة الجسد في أخف أشكالها .

وحكمة الامتناع عن هذا كله ، ان الحج عبادة الغرض منها التقرب الى الله والوصول الى ما أعدّه سبحانه للنفس المحسنة من حسن الجزاء . ولا يكون ذلك عادة الا بإبعاد النفس عن شهواتها وخروجها عن ألوفاها ، وكفها عن لذائذها ، ومظهر هذا الاقتصار على الضروريات من الحياة والتجرد لله في جميع الحركات والسكنات .

ومن حكمه أيضاً انه يوحى بالتقشف والزهد في متع الحياة ، والسمو والارتفاع فوق المادة ، وفوق ما اعتدنا أن نخضع له من شهوات وضيفة .
انما الرياضة ترجع النفس الى طبيعتها الاولى ونحن في الفترات القليلة التي نعود فيها الى طبيعتنا نشعر اننا ازكى أرواحاً وأطهر قلوباً .

كما أن الحكمة من ذلك رياضة النفس على المشقة واحتمال المكروه . لقد كان لنظام الكشافة الذي ابتدعه بادن باول نتائج حميدة في تربية نفوس الناشء على قوة الاحتمال مما جعل كثيراً من الامم توليه عنايتها ، وإنه ليسوع لنا القول إن رياضة الاحرام اعظم أثراً في النفس من رياضة « الكشافة » فان المشقة في الاحرام اثقل حملاً وأطول مدة وهي في جو ديني يجعل تأثيرها على النفس اعظم ، وفائدتها اكثر .

الاحرام والسلام

يقول المحرم عندما يرى البيت الحرام : « اللهم أنت السلام ومنك السلام حيناً ربنا بالسلام اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتكريماً ومهابة ، وزد من حجه او اعتمره تكريماً وتشريقاً ، هذا الدعاء يدل على أن من أهداف الاسلام في الحج غرس حب السلام في النفوس واستئصال روح الكراهية والبغضاء منها وتوجيه الناس الى أن يعيشوا إخوة متحابين . ويؤكد هذا المعنى ما جاء في القرآن (الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله) البقرة : ١٩٧ . بهذه الآية فرض الله على المحرم أن يكون

وديعاً مسلماً لا يخاضم احداً فهي تأمره بأن يجتنب فيه الرفث فلا يقول الحنا ولا يفحش في المنطق ولا يلعو في الكلام وان يترك الفسوق فلا يخرج عن طاعة الله ولا يرتكب شيئاً من المحظورات وأن يدع الجدل فيه أيضاً خشية التدرج الى السباب والتكذيب وإذا كان مجرد الجدل إثماً فلا شك ان ما فوقه اشد واعظم نكراً .

ولغرس حب السلام في الانفس حرم الاسلام على المحرم ان يقتل الحيوان البري سواء اكان اكله مباحاً أم غير مباح . قال الله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي اليه تحشرون) المائدة : ٩٦ .

إن الدعوة الى السلم في الحج في أشمل معانيه يريد أن يغرسها الاسلام في متبعيه بالمرانة والتدريب أي بالاعتماد على قانون العادة .

الخضوع والانقياد لله

يردد المحرم بصوت مرتفع هذه التلبية في كل فرصة وعند كل مشهد «اييك اللهم لييك لا شريك لك لييك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » ان هذه الكلمات بمنزلة النشيد الذي ينشده الجند في ساحة الحرب فتشع فيهم روح الحماسة والاقدام . والغاية من ترديد هذه التلبية ان يلقي الانسان مقادته لله وان تتحطم كبرياؤه لكي يعيش كما أمره الله ان يعيش مخلوقاً وديعاً واقفاً عند الحدود التي شرعها له .

حكمة الطواف حول الكعبة

يطوف الحاج سبعة اشواط حول الكعبة جاعلاً الحجر الاسود نقطة الابداء لتلك الاشواط والطواف حول الكعبة هو بمثابة تحية للكعبة التي هي أول بيت وضع لعبادة الله وحده .

والحجر الاسود هو حجر الزاوية للكعبة وقد وضع هناك كشعار أو رمز الى أن هذا هو الذي خلفه ابراهيم ، وقد كان العرب يحتفظون به كلما تغير البناء . وليست للحجر الاسود قدسية خاصة غير الذي ذكرنا لأن الاسلام يحرم الوثنية . ومن الجدير بالذكر ان العرب في الجاهلية مع وثنتها

العريفة لم تكن تعبد الحجر الاسود قط^١ .

ثم ان الطواف حول الكعبة تشبه بالملائكة الحافين بعرش الله الطائفين به المسبحين له لا يفترون وفي هذا من سمو الروح ما فيه . هذا والمسلمون في صلاتهم يتوجهون شطر الكعبة خمس مرات في اليوم فيجب عليهم إذا ذهبوا لأداء فريضة الحج أن يطوفوا بحين هذا المكان الذي بناه ابراهيم لعبادة الله وحده .

حكمة السعي بين الصفا والمروة

السعي هو السير بسرعة تزيد على المشي وتقل عن الركض . وقد كان السعي بين الصفا والمروة من أركان الحج في الجاهلية فأبقاه الاسلام كذكرى لحادثة تاريخية فان أول من سعى بين الرابيتين هي ام اسماعيل زوجة ابراهيم عليه السلام وقد احتفظ الجاهليون بهذه العبادة الا انهم وضعوا على كل من الرابيتين صنما يقال لاحدهما أساف وللآخر نائلة فلما جاء الاسلام كسر جميع الاصنام وابقى السعي بين الصفا والمروة نقياً من شوائب الشرك والأوثان وقد احتفظ الاسلام بالسعي بين الصفا والمروة أيضاً لانه يوافق مبادئ الاسلام من حيث بث النشاط في جسم الحاج وهو أشبه بالتمارين العسكرية الرياضية .

حكمة الوقوف بعرفة

فرض الاسلام الوقوف بعرفة في التاسع من ذي الحجة ومزايا هذا الوقوف لا تعد فهو المؤتمر العام لجميع المسلمين من أي مكان . يجتمع فيه

١ يسن تقبيل الحجر الاسود وهذه السنة اثر من عهد ابراهيم الخليل وقد استغل النقاد الغربيون ذلك في اتهماتهم الاسلام بأنه قد احتفظ ببقايا من الوثنية الجاهلية . وما ينقض هذا الاتهام ان عمر ابن الخطاب كما ورد في الصحيحين (جاء الى الحجر الاسود فقبله وقال : اني اعلم انك حجر لا تنضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك)

والعرب في الجاهلية اتخذوا آلهتهم من اشياء لا تخصي ومع ذلك فان الكعبة والحجر الاسود هما الشيثان الوحيدان اللذان استمرا بعبيدين عن اتخاذهما ضمن تلك الآلهة فكيف يقر الاسلام وثنية لم تكن في الجاهلية ؟

الهندي والمصري والعراقي والجاوي والتركي والسوري واللبناني وسائر وفود
الاقطار الاسلامية يقفون في صعيد واحد يدعون الله ويسألونه الرحمة وغفران
الذنوب . هذا الموقف الذي تظهر فيه المساواة بين الناس اعظم مظهر يمثل
الاشتراكية الحقة بكل معانيها .

حكمة الخلق والتقصير

ان الامتناع عن الزينة ضرورة قضت بها اعمال الحج للحكم التي ذكرناها
فيما سبق فاذا ما انتهى الحاج من اعمال الحج وجب ان يتنظف ويخلق
وبهذا تنتهي اهم اعمال الحج وإذا لاحظنا ان بدءا اعمال الحج كانت بأعمال
النظافة (الاحرام) وان نهايته كانت بالنظافة (الخلق والتقصير) ادركنا
حرص الاسلام على النظافة في سائر عباداته التي تتخلل حياة المسلم من مهده
الى لحدده .

تجديد الشخصية

ومن حكم الحج تجديد الشخصية : فمن اغراض الحج ايضا الانخلاع من
الماضي المصوب بالاثم والباطل والشر ، وتجديد العهد مع الله على استئناف
حياة نظيفة مستقيمة فتقاطع الشيطان في كل ما يحاوله من الاتصال
بتفكيرنا والابحاء البناءا يوقظ انايتنا ومطامعنا وشهواتنا . قال ﷺ (من
حج ولم يفسق خرج كيوم ولدته أمه) .

شهادة الدكتور فيليب حتي في الحج

ونختم هذا الموضوع بما قاله الدكتور فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب
عند كلامه عن الحج عند المسلمين :

« ولا يزال الحج على كبر العصور نظاماً لا يبارى في تشديد عرى
النظام الاسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين وبفضله يتسنى لكل
مسلم أن يكون رحالة مرة في حياته على الاقل وان يجتمع مع غيره من
المؤمنين اجتماعاً أخوياً ، ويوحد شعوره مع شعور سواه من القادمين من
أطراف الارض . وبفضل هذا النظام يتيسر للزنج والبربر والصينيين

والفرس والتوك والعرب وغيرهم اغنياء كانوا أم فقراء ، عظماء أم صغاليك
ان يتألفوا لغة وإيماناً وعقيدة . وقد ادرك الاسلام نجاحاً لم يتفق لدين آخر
من أديان العالم في القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية خاصة بين ابنائه
فهو لا يعترف بفاصل بين افراد البشر الا الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير
المؤمنين . ولا شك ان الاجتماع في مواسم الحج أدى خدمة كبرى في
هذا السبيل ١ .

١ تاريخ العرب ج ١ ص ١٨٧ ط ٢ .

المسيحية في القرآن

وحدانية الله هي ديانة المسيح - دعوة المسيح تقوم على
الحياة الروحية - مريم في القرآن - بشرى من جبريل
لمريم - الحمل بعيسى وولادته - رسالة عيسى - معجزات
عيسى - مناورة اليهود لعيسى - نهاية عيسى عليه السلام .

وحدانية الله هي ديانة المسيح

إذا تتبعنا آيات القرآن الكريم التي ذكر فيها المسيح عليه السلام
وديانته وجدنا ان القرآن ينص على ان عقيدة المسيح هي التوحيد الكامل ،
التوحيد بكل شعبه ، التوحيد في العبادة فلا يعبد الا الله ، والتوحيد في
التكوين ، فخالق السماء والارض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له ،
والتوحيد في الذات والصفات فليست ذاته بمركبة ، وليست لصفاته مشابهة ،
وازه يتنزه عن الوالد والولد . قال الله تعالى (يا اهل الكتاب لا تغلوا في
دينكم^١ ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
وكلمته^٢ القاها الى مريم وروح منه^٣ فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة

ملاحظة : من مراجع هذا البحث الكتب التالية : محاضرات في النصرانية للعلامة محمد ابوزهرة وكتاب
قصص الانبياء للعلامة عبد الوهاب النجار . وكتاب الدين في نظر العقل الصحيح للدكتور
محمد موفيق صدقي .

- ١ لا تغلوا في دينكم : اي لا تتجاوزوا الحدود التي حددها الله
- ٢ وكلمته : اي انه حدث بكلمة (كن) من غير مادة معتادة . جاء في القرآن عن عيسى :
(ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقة من تراب ثم قال له كن فيكون) .
- ٣ وروح منه : اي ان عيسى خالق بنفخ من روح الله وهو جبريل .

انتهوا خير لكم ، انما الله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السماوات
وما في الارض وكفى بالله وكيلًا) النساء : ١٧٠

ويقول سبحانه (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك
من الله شيئاً ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعاً)
المائدة : ١٧ .

ويقول سبحانه ايضاً (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً ادّآ ١ .
تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً . أن دعوا
للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) مريم : ٨٨ - ٩٢ .

فهذه النصوص القرآنية تفيد ان عيسى بشر اصطفاه الله بالنبوة والرسالة .
ولقد انزل الله على السيد المسيح كتاباً هو الانجيل مصداقاً للتوراة ومتمماً
لها ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه احمد (أي محمد ﷺ) ومشتملاً على
هدى للمؤمنين . جاء في القرآن (وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني
رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من
بعدي اسمه احمد ٣) الصف : ٦ .

دعوة المسيح تقوم على الحياة الروحية

ولقد كانت دعوة المسيح عليه السلام كما تضافرت عليه أقوال المؤرخين
تقو على الزهد والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفي لأن تقوم عليه
الحياة ، وكان يحث على الايمان بالله واليوم الآخر واعتبار الحياة الاخرى الغاية
السامية لبني الانسان في الدنيا .

١ ادآ : اي منكراً عظيماً ٢ يتفطرن : يتشققن

٣ بشر المسيح بالرسول محمد كما جاء في اناجيل النصارى وكان يعبر عنه بلفظ «فارقليط» وهو
تعريب لفظ « بيريكلتوس » وقد سأل العلامة عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الانبياء
العلامة الدكتور « كارلونيون » المستشرق الايطالي عن كلمة « بيريكلتوس » فأجابه بقوله : ان
الفلس يقولون ان هذه الكلمة معناها « المعزى » فقال له : اني اسأل الدكتور كارلونيون
الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست اسأل قسيساً فقال : ان معناها « الذي
له حمد كثير » فسأله ايضاً : هل ذلك يوافق اقل التفضيل من حمد ؟ فقال نعم وهذا ما جاء في
القرآن (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد)

ولماذا كانت دعوة المسيح عليه السلام تقوم على الزهد في الدنيا والابتعاد عن أسباب النزاع الدنيوي والمعكوف على الحياة الروحية ؟ الجواب على ذلك ان اليهود الذين جاء المسيح مبشراً بهذه الديانة بينهم كانت تغلب عليهم النزعات المادية وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الانسان ، ومن فرقهم من كان يعتقد ان عقاب الله الذي أوعده به العصاة وثوابه الذي وعد به المتقين انما زمانه في الدنيا لا في الآخرة . يقول رينان الفيلسوف الفرنسي في كتابه (حياة المسيح) في بيان اسباب الحقد الذي تغلغل في النفس اليهودية : « لو كان الشعب الاسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين : احدهما الروح ، والآخر الجسد ، وانه إذا تعذبت الروح في هذه الدنيا فانها تستريح في الحياة الثانية لسري عنه شيء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذل وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الادبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله » يقرر « رينان » في هذا ان اليهود ما كانوا يقولون كاليونان إن الانسان جسم وروح واقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بانها الدم ، فقد جاء فيها : « لا تأكلوا دم جسم ما ، لأن نفس كل جسد هي دمه » إذن لم يكن اليهود يعرفون الروح على انها شيء غير الجسم ولهذا جاء المسيح مبشراً بالحياة الآخرة وأنها الغاية السامية لهذا العالم وبخلود الروح الانسانية . كما ان بني اسرائيل كانوا اصحاب شريعة مدنية مفصلة في شؤون المعاملات قبل أن تتوجه اليهم دعوة السيد المسيح وكانت آداب القائمين على تلك الشريعة هي موضع الحاجة الى الاصلاح .

واذا كانت شخصية المسيح هي الاساس في المسيحية لهذا وجب علينا ان نبينها كما جاءت في القرآن ، ونبدأ بقصة ولادة مريم التي على ضوءها كل التفصيلات فيما يتعلق بحياة المسيح والعقيدة التي أنشأ بها .

مريم في القرآن

كان عمران ابو مريم رجلاً عظيماً بين العلماء في بني اسرائيل وكانت امرأته

عاقراً لم ترزق بولد فالتجأت الى الله وتوسلت اليه في خضوع ونذرت له ان
رزقها ولداً ان تتصدق به على بيت المقدس فيكون خادماً له .

اجاب الله دعاءها فشعرت بالجنين يتحرك بين احشائها ، ووضعت ، واذا
المولود انثى ، والبنات لا يصلحن لذلك ثم سميتها مريم وطلبت الى الله ان
يعصمها بعنايته ؛ والله سبحانه قبل هبتها ورضي ان تكون ابنتها وفاء للنذر
واخبرها بانه اعلم بما وضعت .

والظاهر ان عمران قد توفي وابنته صغيرة تحتاج الى من يكفلها ويقوم
بشأنها فلما قدمتها امها الى رعاة الهيكل اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها والقوا
على ذلك قرعة فكان الكافل لها زكريا الذي وجهها الى العبادة الصحيحة
واستمر على ذلك حتى رأى يوماً شيئاً عجب له ، ذلك انه كلما دخل عليها
المصلى وجد عندها رزقاً من رزق الله لم يأتها به ولا وجود له عند الناس في
ذلك الوقت فيسألها من أين لك هذا ؟ فنقول إنه من عند الله ، وهذا ما يقصه
علينا القرآن : (إذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محرراً
فتقبل مني انك انت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى
والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى واني سميتها مريم واني اعيزها بك
وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وابنتها نبأاً حسناً
وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم
اننى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) آل
عمران : ٣٥ - ٣٧ .

هذه هي الاحوال التي اكتتفت الحمل بالعدراء وولادتها وتربيتها . ويلاحظ
القارىء ان العبادة والنسك اظلمتها وهي جنين في بطن امها الى ان بلغت مبلغ
النساء ، ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة تمهيداً لامر جليل قد اصطفاه الله له
دون العالمين .

ولذا خاطبتها الملائكة باصطفاء الله لها كما جاء في هذه الآية (وإذا قالت
الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم
اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) آل عمران : ٤٢ ، ٤٣ .
ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أمّاً لمن يولد بغير
الاسباب المعتادة وكان ذلك لكي تكون آية الله مشهورة ، تحمل فيما

حَف بها من احوال القرائن التي تقطع ريب المرتاب ولسان كل افاك ، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفي بالريبة وتبعدها عن مواطن الشبهة .

بشرى من جبريل لمريم

ولما بلغت مبلغ النساء رأت - في احدي خلواتها - منظرأ فزعّت منه واضطربت له : رأت فتى جميل الطلعة ، حسن الهيئة يدنو منها ، فتوجست منه شراً وظنت انه يريد بها سوءاً فاستعاذت بالله منه وذكرته بتقوى الله ، لعله يخشاه فذكر لها انه الملك جبريل ارسله الله ليهب لها غلاماً طاهراً ؛ فتملكها العجب واستبعدت ان يكون لها ولد وليس لها زوج ، وليست بغياً ، فذكرها جبريل بعظيم قدرة الله القادر على كل شيء ، وان ابنها هذا سيكون آية من آيات تلك القدرة الباهرة . وهذا ما قصه علينا القرآن (واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت ^١ من اهلها مكاناً شرقياً ^٢ . فانخذت من دونهم حجاباً ^٣ فأرسلنا اليها روحنا : فتمثل لها بشراً سوياً ^٥ . قالت اني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً ^٦ . قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكاث امراً مقضياً) مريم : ١٦ - ٢١ .

وكان فيما اخبرها جبريل ان ابنها يسمى المسيح عيسى ابن مريم وانـه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة وانه يكون من المقربين وانه يكلم الناس في المهد وكهلاً ، الاشارة الى انه يكلمهم في المهد بكلام انما يصدر مثله من كان كهلاً، وان الله سيعلمه الكتاب والحكمة والتوراة ويعطيه الانجيل . اقرأ

١ انتبذت : اعتزلت ٢ مكاناً شرقياً : شرقي بيت المقدس ٣ حجاباً : اي ساتراً توارت به منهم ٤ روحنا : جبريل ٥ سوياً : تام الخلق ٦ زكياً : اي طاهراً من الادناس والارجاس

هذه الآيات (إذ قالت الملائكة ١ يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت ربي انى يكون لى ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امراً فانما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب ٢ والحكمة والتوراة والانجيل) آل عمران : ٤٥ - ٤٨ .

الحمل بعيسى وولادته

حات السيدة مريم في اللحظة التي وهب لها الملك غلاماً ، وانه حمل غريب ولكنه ليس ببعيد على قدرة الله الذي اراد ان يكون هذا الحمل آية عظيمة لقدرته ، وفي هذا يقول سبحانه (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) آل عمران : ٥٩ .

جلست مريم حائرة تفكر فيما سمعته من جبريل ، ولا شك انها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير ان يكون لها زوج ، وانها قد افزعتها هذه الافكار وصيرتها قلقه مضطربة خائفة ، فأصبحت تحب العزلة وتميل الى الانفراد ، وحينئذ اعتزلت مكاناً بعيداً عن الناس تستتر فيه عن اعينهم خوفاً من ان يكشف سر امرها فتلوك الالسنه في عرضها .

ولما آن اوان الوضع الجأها أم الولادة الى جذع نخلة لتستتر به وتعتمد عليه ، وتذكر آنذاك انها سترمى بوصم شائن فتمنت حينئذ ان لو كانت لقيت منيتها قبل هذا ، او كانت شيئاً لا يذكر لتفاهته . فطمأنها جبريل وأمرها أن تهز جذع النخلة فيسقط عليها الرطب فتأكل هنيئاً وتشرب من الجدول الذي يجري تحتها ، وتطيب خاطراً وتهدأ بالاً ، وعلمها جبريل بانها إذا قابلت من

١ عبر الله عن الروح الذي جاء مريم « بالملائكة » بلفظ الجمع . والجمع ليس مقصوداً ولكن المقصود ان الذي كلمها كان من ذلك الصنف من خلق الله بدليل قوله تعالى بعد ذلك (قال كذلك) بالانفراد

٢ الكتاب : الكتابة والخط

يلومها أو يسألها عن الذي تحمله ، ومن ابن انت به لا ترد جواباً بل تقول :
 (اني نذرت للرحمن صوماً) وهذا ما يقصه علينا القرآن (فحملته فانتبذت
 به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا
 وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريباً^١
 وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً^٢ . فكلي واشربي وقري
 عينا فاما ترين من البشر احداً فقولني اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم
 انسانياً) مريم : ٢٣ - ٢٦ .

ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم سواء من يعرف
 نسكها وعبادتها ومن لا يعرف ، لأنها فاجأتهم بامر غريب وهي المعروفة
 بينهم بانها عذراء ليس لها زوج ، فكانت المفاجأة داعية الاتهام لأنه عند المفاجأة
 تذهب الروية وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم وقربته امر مادي لا مجال
 للريب فيه . وكل ما عملته السيدة مريم إزاء هذه العاصفة انها اعتصمت بوصية
 جبريل فلزمت الصمت وأشارت الى ابنها في المهد طالبة اليهم ان يكلموه فاشتد
 غضبهم لا اعتقادهم انها تزأ بهم إذ لم يعهدوا طفلاً يتكلم في المهد ، ولكن
 عيسى عليه السلام اجابهم الجواب الشافي الدال على براءة امه ، واخبر انه
 سيكون من اهل العلم الذين آتاهم الله الكتاب وانه سيجعله نبياً وبيارك فيه
 ايما توجه ، وأن الله اوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، وانه سيكون برأ
 بوالدته وسيكون متواضعاً لا جباراً شقيماً . اقرأ هذه الآيات (فأنت به
 قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا اخت هارون^٣ ما
 كان ابوك امراً سوء وما كانت امك بغياً . فأشارت اليه ، قالوا كيف
 نكلم من كان في المهد صبياً . قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ،
 وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبرأ

١ السري : الجدول

٢ جنياً : أي الثمر الذي جني من ساعته

٣ أي شقيقة هارون في النسك والعبادة .

بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم
ابعث حياً) مريم : ٢٧ - ٣٣ .

ولا بد ان نشير هنا قبل ان ننقل الى رسالة عيسى عليه السلام الى السبب
الذي من اجله ولد من غير اب فانه لا بد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله
جلت قدرته واليه اشار القرآن (وانجعل آية للناس ورحمة منا وكانت امراً
مقضياً) مريم : ٢١ .

وانما نلتبس تلك الآية الدالة في ولادة عيسى من غير اب ، فنجد انه
يبدو امام انظارنا امر جليل ، هو أن ولادة عيسى من غير اب تعلن قدرة
الله سبحانه وانه الفاعل المختار الذي لا يتقيد في تكوينه للاشياء بقانون الاسباب
والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظامه الذي ابدعه الله .

رسالة عيسى

حاد بنو اسرائيل عن الطريق القوسيم ، وجاوزوا الحد ، وانغمسوا في
الشهوات ، وافرطوا في اللذات واستغرقوا في جمع المال من حله ومن غير حله
فحرم الله عليهم كثيراً من الطيبات . جاء في القرآن (فبظلم من الذين هادوا^١
حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . واخذهم الربا
وقد نهوا عنه واكثهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذاباً ايها)
النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

ولهذا كان من حكمة الله ان ارسل اليهم عيسى بعد ان تلقى من ربه
الوحي وعلمه التوراة والانجيل . قال الله تعالى (ويعلمه الكتاب والحكمة
والتوراة والانجيل . ورسولا الى بني اسرائيل) آل عمران : ٤٨ ، ٤٩ .
بعث الله عيسى عليه السلام بالنبوة الى بني اسرائيل فاخذ يبشر في الناس
برسالته ويدعوهم الى اتباعه ويسعى في ان يرد اليهود عن زيغهم ويصدهم عن
ضلالهم ، ويبين لهم ما اختلفوا فيه من الحلال والحرام ، ويجل لهم بعض

١ هادوا : اليهود

الذي حرم عليهم . جاء في القرآن :
(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي
تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون . ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا
صراط مستقيم) الزخرف : ٦٣ ، ٦٤ .

معجزات عيسى عليه السلام

شعر رجال الدين بالخطر بدهم فيها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في
الشهوات وتمالكهم على الملمات ثم هو يفضح اسرارهم وينشر بين الناس مخازيمهم
فاجمعوا امرهم على مناواته وتكذيبه فطالبوه بما يؤيد رسالته فأبده الله
بالمعجزات الباهرة وهذا ما يقصه علينا القرآن :

(اني قد جئكم بآية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ
فيه فيكون طيراً باذن الله ، وابرىء الاكمة^١ والابرس^٢ واحيي الموتى
باذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم
ان كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي
حرم عليكم وجئكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون . ان الله ربي
وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) آل عمران : ٤٩ - ٥١ .

وهناك معجزة اخرى يقصها علينا القرآن : (إذ قال الحواريون^٣ يا عيسى
ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء قال : اتقوا الله
ان كنتم مؤمنين . قالوا : نريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد
صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا انزل
علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت
خير الرازقين . قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه
عذاباً لا اعذبه احداً من العالمين) المائدة : ١١٢ - ١١٥ .

الحكمة من معجزاته

هذه هي معجزات عيسى عليه السلام وهنا يتساءل القاريء لماذا كانت

١ الاكمة : اي الذي يولد اعمى ٢ الابرس : هو الذي ابيض ظاهر بدنه لفساده زاجه
٣ الحواريون : خلاصاء عيسى وانصاره

معجزاته عليه السلام من هذا النوع ؟ والذي نراه تعليلاً لكون معجزات المسيح جاءت على هذا النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه الذين كانوا ينكرون الروح في اقوال بعضهم وأفعال جميعهم فجاء المسيح بمعجزة هي في ذاتها امر خارق للعادة ومصداق لما يأتي به الرسول ؛ وهي في الوقت ذاته اعلان صادق للروح وبرهان قاطع على وجودها . هذا طين مصور على شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيكون حياً ، وما ذاك الا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه فكانت معه الحياة ، وهذا ميت قد أكله البلي يناديه المسيح فاذا هو حي يجيب نداء من ناداه ، وما ذاك الا لان روحاً غير الجسم الذي غيره البلي حلت فيه بذلك النداء ، ففاضت عليه الحياة ، وهكذا كانت معجزة عيسى من جنس دعوته تناسب اخص رسالته وهي الدعوة الى تربية الروح والايمان بالبعث وان هناك حياة اخرى يجازى فيها المحسن باحسانه والمسيء باساءته ؛ ان خيراً فخير وان شراً فشر .

مناوأة اليهود لعيسى عليه السلام

أيد عيسى رسالته بتلك المعجزات ، وانما باهرة تحرس الالسنه وتقطع الطريق على منكري رسالته لو كان الدليل وحده هو الذي يهدي النفوس الضالة . ولكن اليهود الذين بعث فيهم كانوا قساة القلوب فتناوؤوه واخذوا يعملون على منع الناس من سماع دعوته ويجيكون ضده المؤامرات والدسائس فلما اعيتهم الحيلة من التخلص منه ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداه ويلتفون حوله مقتنعين بقوله اخذوا بوصوصون للحكام بشأنه ويجرضون الرومان عليه ويوهمونهم ان في دعوة عيسى زوالاً لملك قيصر وتقويضاً لسلطانه . وهكذا تمكنوا من حمل الحاكم الروماني على أن يصدر الامر بالقبض عليه والحكم عليه بالاعدام صلباً . وهانحن نجد أن القرآن يقرر ان الله لم يمكنهم من رقبته بل نجاه الله من ايديهم وهذا ما يقصه علينا القرآن (وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن (النساء : ١٥٧) .

والمعنى : أي ما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ولكن وقع لهم الشبه فظنوا انهم صلبوا عيسى وهم انما صلبوا غيره . وان الذين اختلفوا في شأن عيسى من اهل الكتاب لفي شك من حقيقة الصلب ، اذ ليس لهم به علم قطعي الثبوت وانما هم يتبعون الظن .

وليس بعجيب أن يكون لعيسى من يشتد شبهه ومثله له ، فقد ورد في باب تحقيق الشخصيات من كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة تدل على ان الناس كثيراً ما يخطئون في معرفة بعض الاشخاص لقوة شبههم بغيرهم .

نهاية عيسى عليه السلام

واذا كان المسيح لم يصلب فما هي حاله بعد ذلك ؟ الجواب على ذلك ما ذكره القرآن (وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله اليه) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨ ويقول سبحانه (إذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا) آل عمران : ٥٥

ومعنى متوفيك أي اني مستوف اجلك ومميتك حتف انفك لا اسلط عليك من يقتلك . فهنا كناية عن عصمة المسيح من الاعداء وما هم بصدد من الفتك به عليه السلام .

وفي معنى قوله تعالى (ورافعك الي) ذهب اكثر المفسرين الى ان الله رفع عيسى بجسمه وروحه اليه وفريق آخر من المفسرين قال انه عاش حتى توفاه الله كما يتوفى انبياءه ، والظاهر من الرفع بعد الوفاة في قوله تعالى (بل رفعه الله اليه) أي انه رفع درجات عند الله كما قال تعالى في ادريس عليه السلام (ورفعناه مكاناً علياً) مريم : ٥٧ .

وعلى الرأي الثاني نتساءل اين ذهب عيسى وما الذي آل اليه امره . الجواب على ذلك : أن الله تعالى اهتم امره علينا ولم يدينه لنا فنحن نفوض العلم بذلك

١ اذا نظرنا الى مسألة صلب المسيح وقتله لم نجدها عند المسيحيين مسألة اجماعية بل وجد من طوائف المسيحيين من ينفي الصلب والقتل فمن القائلين بذلك «الساطونيونيون» و«الكارثيون» و«المركيونيون» و«البارديسيانيون» و«الناتانيونيون» و«البارسكاليونيون» و«البولبيونيون» وهؤلاء مع كثيرين غيرهم لم يسلوا بوجه من الوجوه الى ان المسيح سمر فعلا ومات على الصليب . وما ذكر هنا مقرر في تاريخهم «موسبيم» الذي يدرس في مدارس اللاهوت الانجيلية .

الى الله تعالى .

هذه هي حياة المسيح كما وردت في القرآن من مولده الى وفاته فهو ليس ابن الله كما يعتقد النصارى بل رسول من رسله أرسله لهداية بني اسرائيل .

ونختم قصة عيسى بما ورد في القرآن عما يكون من عيسى يوم القيامة من محاوره بينه وبين ربه (وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلم اتوفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد . ان تعذبهم فاعذبهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) المائدة : ١١٦ - ١١٨ .

وان في قصة السيد المسيح ما يدحض ادعاء كل معاند ، ويطمئن قلب كل متشكك في صحة ما يرويه محمد عليه السلام عن ربه . اذ من اين لمحمد عليه السلام هذه الانباء الغيبية عن المسيحية ؟

لقد زعم البعض من لا يعتقدون بنبوته انه تلقاها عن معلمين له في زمنه ولارد على امثال هؤلاء نقول : ان المعلم لا يخرج عن كونه وثنيّاً او يهودياً او نصرانياً او مبتدعاً .

فالوثني لا يمكن ان يعلمه ما في الانجيل وما اشتمل عليه من وحدانية الله ونبوته عيسى . واليهودي لا يمكن ان يعلمه اخبار المسيح وامه والافرار لهما بافضل والنزاهة . والنصراني لا يمكن ان يعلمه أن ينكر لاهوت المسيح ولا الثنويت ولا الصلب واما انه كان من المبتدعين ومثل هذا اولى ان يشتهر بين الناس بنفسه او تعرف له علاقة بمحمد تؤهله أن يتعلم منه وهذا لم يشهد تاريخياً .

فالمتعمّن في النصوص القرآنية التي ذكرت قصة المسيحية يرى في روحها ومعناها وبلاغة كلامها شيئاً لا يمكن ان يمدد عن عقل بشري ولا من الذين يدعون النبوة كذباً . بل تشهد بأنهم من عند الله اوحاها لمحمد عليه السلام ليظهر بعض الحقائق التي ضل عنها كثير من الناس .

الفصل الخامس والعشرون

الأدلة العقلية على صدق نبوة محمد عليه السلام

سيرة الرسول قبل النبوة - الانقلاب الذي أحدثه في جزيرة العرب -
الفروض التي يدعيها منكرو نبوته - أمية الرسول - ادعاء النبوة - انتفاء المراءاة عن
سلوكه - انعكاس سلوكه على اخص اصحابه - تأييد الله له - تحقيق رسالة الانبياء .

سيرة الرسول قبل النبوة

لم تثبت نبوة نبي في شريعة من الشرائع بالبرهان العقلي القاطع كما ثبتت
نبوة محمد بن عبد الله واليك الدليل مستقى من حياته .
فقد ثبت انه نشأ عليه السلام أمياً ، بين قوم أميين ، لم يقرأ كتاباً ، ولا
قال شعراً ، ولا ارتجل خطبة ، ولا ترأس قبيلة ، ولا انتحل كهانة ، ولا
عرف شيئاً من شرائع الامم وأديانها ، ولو ثبت عنه شيء من ذلك لنقله اتباعه
الذين عنوا برواية كل ما علموه وما سمعوه في شأنه - قبل النبوة وبعدها -
أو لأذاعه اعداؤه ليكون ذريعة لهم في انكار نبوته . بقي هكذا شأنه حتى
بلغ سن الاربعين ، ثم قام بدعوى النبوة وأيد دعواه بالقرآن الذي اشتمل على
اخبار الغيب الماضية والمستقبلية وسنن الله في الدين والمدنية ، واشتمل أيضاً على
العقائد الالهية المؤيدة بالبراهين العقلية والعلمية ، وأصح قوانين الاخلاق والفضائل
النفسية والعبادات الجامعة بين المنافع الروحية والجسدية وأعدل قواعد الشرائع
السياسية مما ذكرناه في هذا الكتاب .

الانقلاب الذي أحدثه في جزيرة العرب

ولقد تم على يد محمد ﷺ حوادث ضخمة لا يعقل ان تم الا في خلال آحاد
طويلة وعقب تطورات متتالية .

منها : توحيده الامة العربية بعد أن كانت قبائل لا تجمعها جامعة ولا
تؤلف بين عناصرها وحدة .

ومنها : القضاء على وثنية كانت متوارثة منذ آمام طويلة واحلاله محلها ديناً سماوياً يرفع الانسانية الى اعلى مراتب السمو .

ومنها : احداثه اصلاحاً اجتماعياً قلب أخلاق العرب من جاهلية جهلاء وما تشتمل عليه من ضياع حقوق المستضعفين والانغماس في الشهوات الجسدية الى تحقيق العدالة الاجتماعية غير مفرقة بين الضعفاء والاقوياء .

وعمل من هذه الاعمال كفيل بأن يرفع مقيم صرحها الى درجة ممتازة قل ان يبلغها غيره وتجعل له اسماً خالداً بين عظماء التاريخ فما ظنك وقد تمت كلها على يد رجل واحد هو محمد ﷺ ، ذلك لانه مؤيد بوحى السماء .

هذه حوادث اجتماعية تحتاج الى تعليل مقبول تطمئن اليه النفس وليس امامنا الا احد فرضين : اما التسليم بأن محمداً هو رسول الله ، كما صرح بذلك القرآن وكما ايده العقل المجرد عن الهوى ، وإما فرض انه ليس برسول وانه وصل الى ما وصل اليه بالتدبير وحسن السياسة .
الفروض التي يدعيها منكرو نبوته

إن مال مائل الى الفرض الثاني ناقشناه المسألة وقلنا : ينبغي على فرضك جملة أمور : (١) انه كان يجيد القراءة والكتابة وانه اقتبس دينه من الشرائع السابقة (٢) انه مدع للنبوّة كذباً (٣) انه كان يتظاهر بما كان متصفاً به من الاخلاق والعبادة رياء ، وانه استطاع ان يثبت على هذا الرياء طول حياته (٤) انه استطاع ان يخفي هذا الكذب والرياء على كل فرد حتى على اخص اصحابه وأخص نسائه (٥) ان الله ايده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات (٦) انه مدع للرسالة وانه أتى باكثر مما جاء به المرسلون من الكمالات^١ .

لنستعرض هذه الفروض على ضوء العقل المجرد :

امية الرسول

أما الفرض الاول : وهو ان الرسول كان قارئاً كاتباً فهو فرض لا يقوى على الثبات امام أي سند تاريخي ، فقد ثبت ان الرسول كان امياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يشاهد في منزله او خارجه قبل النبوة او بعدها انه كان يستعمل قرطاساً او قلماً في تأليف شيء ما او تدوينه .

١ اقتبسنا الفروض (٢، ٣، ٤، ٥، ٦) من كتاب مقدمة تفسير القرآن للعلامة محمد فريدوجدي بعد ان تصرفنا فيها وزدنا عليها بعض الوقائع من سيرة الرسول وشهادات بعض كتاب الغرب فيه .

فامية الرسول هي آية من آيات نبوته لانه مع هذه الامية أتى بكتاب وهو القرآن ، عجز كل واحد من البشر على أن يأتي بسورة من مثله ، وكان الرسول يتلو هذا القرآن على الناس ويعاود تلاوته عليهم ، لا يتغير منه حرف ولا يختلف في كلمة ، ومن المعتبر به ان الرجل البليغ إذا ألقى كلاماً مرتجلاً غير مكتوب لا يمكنه ان يعيده كله ولا اكثره بنصه وحروفه وإن امكنه ان يعيد كثيراً من معانيه بعبارات اخرى .

وقد أطلق القرآن وصف الامية على الرسول ، وهذا ما حكاه الرسول عن ربه على مسمع من العرب اجمعين بما فيهم اتباعه واعداؤه قال الله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لاوتاب المبطلون) الغنكبوت : ٤٨ . وحكى الرسول عن ربه أيضاً (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) الاعراف : ١٥٧ .

سمع العرب هاتين الآيتين وغيرهما أيضاً وكان كثير منهم يناصبونه العداة فلو كانوا يعلمون أن الرسول يجيد القراءة والكتابة لكان لهم السبيل الى نفي قوله ولقامت لهم الحجة على تكذيبه في اوضح برهان .

ثم لنفرض جدلاً ان الرسول تعلم القراءة والكتابة فان التعلم لا يتأتى في جلسة واحدة ولا يتم في الحقاء بل التعلم انما يتم إذا اختلف المتعلم الى المعلم أزمدة متطاولة ولو كان الامر كذلك لاشتهر بين العرب ان محمداً يتعلم العلوم من فلان وفلان . والعلوم الموجودة في القرآن كثيرة وتعلمها لا يتأتى الا اذا كان المعلم في غاية المعرفة فلو حصل في العرب ان انساناً بلغ من التعلم هذا المبلغ لكان مشاراً اليه مرموقاً جانبه ولاضطر النبي الى تقديمه على اصحابه ولاظهر له احتراماً زائداً ، ولقاء المعلم لبعض الناس بذلك وهذا لم يحصل قط . من ذلك يتبين ان امية الرسول آية من آيات نبوته لا يتطرق اليها شك .

ادعاء النبوة

اما الفرض الثاني : وهو ادعاؤه النبوة كذباً فهو فرض لا يشبث امام النقد لأن النبوة امر خطير لا يقوم على ادعائه زوراً وبهتاناً الا رجل غليظ القلب ، واسع الاطماع ، فاسد الفطرة ، جريء على الله ، ومن كان كذلك كانت

حياته كلها سلسلة جرائم وشبكة مآثم ، بعيدة عن الخير في كافة وجوها
فهل كان في نشأة حياته من هذا الصنف من الناس ؟ اما شهد تاريخه بأنه كان
من مكارم الاخلاق قبل النبوة بمكان كبير حتى سماه معاصروه بالأمين ، لم
تعرف عنه جريمة ولا خصلة ذميمة ؟ ومن كانت حياته الاولى كلها طهرآ
فكيف ينقلب بعد الاربعين الى ضدها ؟ هل تبدات سنة الخليفة ؟ كلا ! .

ثم ان الذين عاشروه قد شاهدوا في كلامه وحركانه ما ملا قلوبهم يقينآ
بأنه صادق جاء يخبر عن ربه بوحيه . من ذلك أن بعض الاعراب اسلم حين رآه
وقال : والله ما هذا بوجه كذاب . وكذلك كانت خديجة زوجه تعلم انه
الصادق الامين فعندما جاءه الوحي قال لها : (لقد خشيت على نفسي فأجابته :
والله ما يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتقري
الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق)^١ .

وكذلك ما قاله هرقل ملك الروم لابي سفيان واصحابه وكان كافراً اذ
ذاك : هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل ان يقول ما قال ؟ فقالوا : لا ،
ما جربنا عليه كذبا . فقال لهم هرقل : « لم يكن ليدع الكذب على الناس
ثم يكذب على الله » .

انتفاء المراءاة عن سلوكه

أما الفرض الثالث وهو أنه كان متظاهراً بتلك الخلال الكريمة والصفات
القوية رياء فهو أوهى امام النقد من الفرض الثاني لان المراءاة لا تكون الا
لنيل غرض فان حصل ذلك الغرض عاجلاً أو آجلاً ضعفت المراءاة وشفت عما
وراءها من التمجيد لان نفس المرآئي عادة لا تكون الا نفساً منحطة يستطيرها
بارق الامل وتغريها امارات النجاح فتنفذ .

فاذا كان ذلك الغرض مادياً نراه يتجمع بلوازمه وقد ثبت ان محمداً عاش
فقيراً ومات فقيراً لم يصب من الدنيا شيئاً مع انها كانت طوع يديه فلم يفتش
الديباج ، ولم يكتس الحرير ، ولم يتحل بالذهب ، وكان بيته على ابسط ما
يكون عليه بيت ، ولبسه كلباس اوساط الناس .

وإذا كان الغرض جاهاً رأيناه يتقدم الناس اذا مشى ويأمر بأن تنعني له

١ راجع صحيح البخاري باب الوحي .

الرؤوس اذا مر بل ان يخرجوا بين يديه سجداً . وقد ثبت ان الرسول كان يجلس حيث انتهى به المجلس وكان يمشي وسط اصحابه . وروي عنه انه خرج مرة على اصحابه متوكئاً على عصا فقاموا له احتراماً واجلالاً فقال : « لا تقوموا كما يقوم الاعاجم لملوكها فلست بملك » . وكان الرسول يكره ان يمدحه احد في وجهه ونهاهم عن اطرائه ويروي عنه انه قال : « لا تطروني كما طرت النصارى ابن مريم انما انا عبد الله ، فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وإذا كانت المראה لنيل الملك فقد بلغ الرسول من السلطات والتأثير على اصحابه بحيث لو امرهم ان يعاملوه معاملة الرعية لملوكها لفعلوا وزادوا ، ولكنه بقي على ما كان عليه في اول امره فلم ينوع ما كله ولم يغير ملابسه ولم يتخذ له حرساً ولا حجاباً ولم يستبد بأمر ، يأتيه الاعرابي فيجذبه من رداءه ، ويغلظ له في القول فيهم اصحابه بزجره فيمنعهم . وروي انه جاءه رجل يرتعد يوم فتح مكة فقال له ﷺ (هون عليك فاني لست بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) .

وهذا ابو الوليد وكان سيداً مطاعاً في قومه يقول لسادات قريش عندما اجتمعت تتشاور في الأمر الذي جاء به ﷺ : الا اقوم لمحمد فأكله واعرض عليه اموراً عليه يقبل بعضها فتعطيه اياها ويكف عنا فقالوا يا ابا الوليد لك ذلك ، فذهب الى رسول الله وقال له : يا ابن اخي ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من اموالنا ، حتى تكون اكثرنا مالا وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع امرأ دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الأمر الذي يأتيك رثياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه اموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى . فقال ﷺ : قد فرغت يا ابا الوليد ؟ قال نعم : فاسمع مني... ثم تلا عليه شيئاً من القرآن من اوائل سورة (فصلت) .

وقد كتب « واشنطن ايرفينج » Washington Irving عن بواعث نبوة محمد يقول : « أكانت الثروة ؟ لقد افاده زواجه من خديجة الغنى فظل سنوات قبل الوحي لا يبدي رغبة في زيادة ثروته ، ام كان يطلب المنزل الملحوظة ؟

لقد كانت منزلته عالية في قومه وكان معروفاً بينهم بالفضل والامانة وكان من قريش ومن اكرم فرع فيها وكانت سدانة الكعبة وما تفيده من العز والسلطان في اسرته منذ اجيال ، وكان من حقه ان يتطلع اليها ، فلما قام بمحاول أن يهدم الدين الذي نشأ عليه قومه اقتلع جذور هذه المزايا جميعاً ، فقد كانت ثروة اهله ومنزلتهم قائمتين على هذا الدين فهاجمه وجر على نفسه عداوة اهله وغضب مواطنيه وسخطهم جميعاً .

ويعضى ايرفنج في تقصيه فيسأل : هل كان هناك في بداية سيرته النبوية ما يبعث الامل او يعوض هذه التضحيات ؟ ويرد على ذلك فيقول : ان الامر كان على النقيض ، فقد بدأ محاذراً متوخياً الكتبان وظل سنوات غير موفق ، وعلى قدر توسعه في بث دعوته وإذاعة رسالته ، كان يشتد ويعظم ما يلقي من الغنت والسخرية والاذى والاضطهاد واضطر بعض اهله وانصاره ان يفروا الى بلاد اخرى واحتاج هو نفسه آخر الامر ان يهاجر الى بلد غير مكة ، فلما اذا كان يصر هذه السنوات الطويلة على « دجل » يسلبه كل متاع الدنيا في سن لا تسمح بان يبدأ المرء حياته مرة اخرى ؟ فما قام بالدعوة الا بعد الاربعين وقضى في مكة ثلاثة عشر عاماً وكان تاجراً حسن الحال فهاجر منها فقيراً معدماً لا يعرف ما كتب الله في غيبه من النصر ، ولا ينبغي اكثر من ان يبني مسجداً يعبد فيه ربه ، ولا يرجو الا ان يعبد الله في سلام ، ولما جاءه النصر لم يتكبر ولم يتجبر ولم يغتر ، كما يفعل الذين ينشدون المآرب الشخصية والغايات الخاصة ، فيحافظ وهو في اوج قوته على بساطته ايام ضعفه ، انعكاس سلوكه على اخص اصحابه

اما الفرض الرابع : وهو انه استطاع ان يكتم رياهه على اخص اصحابه ونسائه فهذا الفرض اضعف امام النقد من سابقه لأن التاريخ دلنا ان كل صاحب مبدأ له اصحاب مثله ، فمن كان من المرائين يكون له اخفاء على شاكلته يعاونونه على نيل بغيته ويشاطرونه المغنم من فضلاته ، وقد دل تاريخ رسول الله ﷺ على ان اخص اصحابه ابابكر وعمر بن الخطاب وعثمان وعلياً ابن ابي طالب كانوا على شاكلته من الزهد في الدنيا والتضحية في سبيل الله ، وقد تولوا الخلافة بعده فلم تفتنهم السلطة وتغير حياتهم بل كانوا خدماً لمن تولوا

شأنهم يلبسون اقل مما يلبسون ويأكلون ادنى مما يأكلون، ويبيتون ركباً سجداً لله
وهامن ازواجه كن امثلة كمال وفضيلة ، وعلى غاية من الزهد والصلاح حتى لحقن
به ، فما هذا الرياء الذي يبلغ هذا المبلغ وما هي اذن الفضيلة بعد ذلك .
وما يؤيد صدق الرسول ان هؤلاء جميعاً كانوا مطلعين على اسراره ولو
ارتابوا في صدقه لما آمنوا واقتدوا به .
تأييد الله له

اما الفرض الخامس : بان الله ايده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات
فهو اضعف من كل الوجوه التي مرت ، لانه متى عهد ان الله يؤيد المرائين
المفتورين ويمكنهم من التسلط على قلوب الناس ، لا سيما وهم منتحلون لقب
النبوة وهي اكبر حوادث العالم خطورة .

وما اصدق ما قاله الكاتب الانجليزي (توماس كارليل) في كتابه
(الابطال) : « لقد اصبح من اكبر العار على اي فرد متمدين من ابناء هذا
العصر ان يصغي الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب وان محمداً خداع مزور ،
وآن لنا ان نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المحجلة فان الرسالة
التي اداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي
مليون من الناس امثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان احدكم يظن ان هذه
الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفاتنة الحصر والاحصاء
اكذوبة وخدعة ؟ اما انا فلا استطيع ان ارى هذا الرأي ابداً ، ولو ان
الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك
التصديق والقبول فما الناس الا بهل ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبت
وأضلولة كان الاولى بها ان لا تخلق »^١

ويقول بعد ذلك « وهل رأيتم قط معشر الاخوان ان رجلاً كاذباً يستطيع
ان يوجد ديناً وينشره ؟ عجباً والله - ان الرجل الكاذب لا يقدر ان يبني
بيتاً من الطوب ! فهو اذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما
شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت وانما هو تل من الانقاض وكثيب من
اخلاط المواد ، نعم ، وليس جديراً ان يبقى على دعائه اثني عشر قرناً يسكنه
مائتا مليون من الانفس ، ولكنه جدير ان تنهار اركانه فينهدم فكأنه لم يكن ،

١ نقلا عن الترجمة العربية للاستاذ محمد السباعي ص ٤٥ ط ٣

اما الفرض الاخير : وهو ان الرسول مدع ولكنه جاء بما أتى به الرسل من الكلمات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العبادات فهو فرض لا يثبت امام النقد لأنه قلب لسنة الكون . اذ كيف يفرض انه مفتر ثم ينتظر منه الاتيان بشريعة تعدل شريعة ظهرت في الوجود لاشتغالها على اصول العدالة المطلقة واحتوائها على مستلزمات الرقي والمدينة وقد اعترف بهذه الحقيقة الدكتور جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب فقال : « ان اصول الأخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الاخرى جميعها » ويقول أيضاً : « ... فان بما لا ريب فيه ان محمداً اصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك لا نرى حدة لفضل محمد على العرب ٢ » .

ويقول في موضع آخر ايضاً : « واذا ما قيس قيمة الرجال بجليل اعمالهم كان محمد من اعظم من عرفهم التاريخ . وقد اخذ بعض علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخيهم من الاعتراف بفضله . قال العلامة بارتلمي سنت هيلر : « لقد كان محمد اكثر عرب زمانه ذكاء واشدهم تدبناً واعظمهم رافة وقد نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، وقد كان دينه الذي دعا الناس الى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته ٣ هذا ما احببنا دحضه من الشبهات التي يدعيها منكرو نبوة محمد ﷺ وقد أظهرنا مكانتها من العلم والواقع فلم يبق امامنا الا فرض بانه رسول من رب العالمين . ونختم الكلام في هذا الموضوع بما قاله المؤرخ الانكليزي المشهور المستر (بوسورت سميث) في كتابه (محمد والدين الحمدي) لم يحرص محمد الى آخر حياته على شيء الا على ذلك اللقب الذي تلقب به اول مرة وهو لقب اعتقد بانه سيأتي يوم ترضى فيه ارقى فلسفة واخلص مسيحية ان تسلم له به ، هذا القلب هو انه رسول ، رسول الله حقاً » .

١ لقلا عن الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعير ص ٥٥٤ ٢ نفس المصدر ١٢٧

٣ نفس المصدر ص ١٢٨

مراجع الكتاب

القرآن الكريم

تفصيل آيات القرآن الكريم لجول لا بوم ترجمة الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي
تفسير الزمخشري ، تفسير المنار ، تفسير المراغي ، تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده
صحيح البخاري وصحيح مسلم .
دائرة المعارف الاسلامية

دائرة معارف القرن العشرين للاستاذ محمد فريد وجدي

كتاب الفقه على المذاهب الاربعة (قسم العبادات)

مجلة الازهر ، مجلة لواء الاسلام ، مجلة المسلمون ، مجلة المنار .

احياء علوم الدين للإمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي

رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده (دار المنار بصر)

الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده (مطبعة المنار بصر)

الدين الاسلامي في الاصول والعقائد تأليف العلامة مولانا محمد علي .

الاسلام والنظام العالمي الجديد للعلامة مولانا محمد علي

الطلاق في الاسلام للعلامة مولانا محمد علي ترجمة السيدة حبيبة يكن

اصول الفقه للعلامة عبد الوهاب خلاف

السياسة الشرعية او نظام الدولة الاسلامية للعلامة عبد الوهاب خلاف

الاحوال الشخصية (قسم الزواج) للعلامة محمد ابو زهرة

حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ترجمة الاستاذ محمد عادل زعيتر

الاسلام خواطر وسوانح تأليف الكونت هنري دي كاستري ترجمة الاستاذ

احمد فتحي زغلول

الابطال للكاتب الانكليزي توماس كارليل ترجمة الاستاذ محمد السباعي

تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي .

الدين والعلم الفقه بالتوكية المشير احمد عزت ترجمة الاستاذ حمزة طاهر
الوحي المحمدي للشيخ محمد رشيد رضا
قصص الانبياء للعلامة عبد الوهاب النجار (مطبعة مصر)
في سنن الله الكونية للاستاذ محمد احمد الغمراوي (مطبعة لجنة التأليف والنشر)
القرآن والقتال للعلامة محمود شلتوت (مطبعة دار الكتاب العربي)

الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل
المدنية والاسلام للعلامة محمد فريد وجدي
الفلسفة القرآنية للاستاذ عباس محمود العقاد
الله : للاستاذ عباس محمود العقاد
الرسالة الخالدة للاستاذ عبد الرحمن عزام
الاخلاق للدكتور احمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
محمد المثل الكامل للاستاذ محمد احمد جاد المولى
ادب الاسلام للمدارس الثانوية تأليف الاساتذة محمد ابو بكر ابراهيم ،
مصطفى خفاجي ، علي محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسي
العدالة الاجتماعية في الاسلام للاستاذ سيد قطب (لجنة النشر للجامعيين بمصر)
السلام العالمي والاسلام للاستاذ سيد قطب (مكتبة وهبه بمصر)
الدين والوحي والاسلام للعلامة مصطفى عبد الرازق (دار الكتاب العربي)
الاسلام واوضاعنا القانونية للاستاذ عبد القادر عودة
الخلافة او الامامة العظمى للشيخ محمد رشيد رضا (مطبعة المنار بمصر)
الخصائص المحمدية للاستاذ عبد الفتاح الامام
المذهب الروحاني للاستاذ عبد الله اباحي
آيات الله في الآفاق للعلامة محمد احمد العدوي (مطبعة المنار بمصر)
نداء للجنس اللطيف للشيخ محمد رشيد رضا
نظام الحياة في الاسلام للاستاذ المودودي
الشرع الدولي في الاسلام للدكتور نجيب الارمنازي
الاسلام والاعراض الاقتصادية للاستاذ محمد الغزالي
عقيدة المسلم للاستاذ محمد الغزالي (دار الكتاب العربي)
الاسلام والمرأة للاستاذ سعيد الافغاني (مطبعة الترقى بدمشق)
وهناك بعض المصادر الاخرى اوردناها في حواشي هذا الكتاب

محتويات الكتاب

صفحة

الاهداء	٥
هذه هي دعوتنا « لوائد جماعة عباد الرحمن » الاستاذ محمد عمر داعوق	٦
مقدمة الكتاب	٧
مقدمة الطبعة الثانية .	١٠
كلمة المؤلف	١٢
١ - معنى الاسلام	١٧
المعنى اللغوي ، المعنى الشرعي ، الاديان دعت الى وحدانية الله ، الاختلاف في الدين بسبب البغي والعدوان	
٢ - القرآن الكريم : بعض وجوه اعجازه والدلائل العلمية على انه من الله	٢٢
معنى الوحي ، دحض شبهة عنه ، كتاب القرآن ، جمع القرآن ونسخه في المصاحف ، سلامة القرآن من التحريف ، كيف كان ينزل القرآن وحكمة ذلك ، القرآن يتحدى ، القرآن معجزة محمد ، اسلوب القرآن ، بعض خصائص اسلوبه ، شهادة بعض كتاب الغرب باسلوب القرآن ، بعض وجوه اعجاز القرآن وهي : فصاحته في كل المواضيع ، وفرة بلاغته ، سلامته من التناقض والخطأ ، سمو روحه ، غزارة معانيه ، اشتماله على انباء غيبية ، قصصه ، روحه ، بعض معجزاته العلمية .	

٣ - الايمان بالله ٥٦

البرهان على وجود الخالق ، طريقة القرآن في الدلالة على الخالق ،
النظر في خلق السماوات والأرض ، النظر في خلق الانسان ،
النظر في خلق الذكر بجانب الانثى ، النظر في النسلات الانسانية ،
النظر في خلق الحيوان والزواحف والطيور ، آيات متنوعة تدل على
وجود الله ، الايمان بالله فطرة في النفس الانسانية ، بعض صفات
الله في القرآن ، دحض شبهة عن صفات الله ، العلماء اشد الناس
ايماناً بالله .

٤ - توحيد الله ٧٩

عقائد العرب قبل الاسلام ، الاسلام دعا الى توحيد الله ، معنى لا
اله الا الله ، روح التوحيد في الاسلام ، مهاجمة الاسلام للاشراك
والوثنية

٥ - الايمان باليوم الآخر ٨٤

الادلة العقلية والعقلية على وجود اليوم الآخر ، مذهب الماديين في
اليوم الآخر ، اثر المذهب المادي ، مناقشة الماديين ، ثبوت
الروح علمياً ، حقيقة الروح في القرآن ، البعث ، احوال يوم القيامة
الحساب ، النعيم الحسي ، النعيم الروحي ، الجزاء على العمل السيئ

٦ - الايمان بالملائكة ١٠٩

الغاية من الايمان بالملائكة ، حقيقة الملائكة ، طبيعة الملائكة ،
اعمال الملائكة ، الملائكة تشفع وتستغفر للمؤمنين ، الملائكة
تكتب اعمال الانسان .

٧ - الايمان بكتب الله ١١٣

وجوب الايمان بالكتب الالهية ، القرآن مصدق لما سبقه من الكتب
القرآن هو الحقيقة التي ضل عنها الناس ، نظرة القرآن للتوراة ،
نظرة القرآن للاناجيل

٨ - الايمان بالرسول ١١٦

الفرض من بعثة الرسل ، وجوب الايمان بالرسول ، عصمة الرسل ،

لكل امة رسول ، محمد رسول الى الناس كافة ، محمد خاتم الرسل

٩ - القدر ١٢١

القدر في القرآن ، اختيار العباد ، الهداية والاضلال ، مشيئة
الانسان ضمن مشيئة الله ، اجل الانسان ورزقه محددان ، روح
الايمان بالقدر

١٠ - الحياة الروحية في الاسلام ١٢٨

عالمنا بحاجة الى ثقافة الروح ، نظام الروحية عند اكثر الاديان ،
صلة الانسان بالدنيا في نظر القرآن

صلة الانسان بالدنيا في نظر القرآن ١٣٣

التوسط بين مطالب الروح والجسد ، تفضيل الآخرة على الدنيا ،
التحذير من الاغترار في متع الحياة الدنيا ، الدنيا امتحان للبشر ،
ذم الترف ، تعاليم القرآن الروحية تخفف من شرور المال

صلة الانسان بالله في نظر القرآن ١٤٣

الغاية من صلة الانسان بالله ، الايمان بالله ، الحب بين العباد والرب
خشية الله ، ذكر الله ، الاستغفار ، التوبة ، ابتغاء رحمة الله ،
العبادة ، الشكر لله ، التوكل على الله ، الاخلاص لله ، الدعاء

١١ - الاخلاق في القرآن ١٧١

الفضائل : وتشمل .. الاستقامة واصلاح النفس وترقيتها ،
الاحسان ، التقوى ، الصبر ، العفو ، الصدق وصوره ، الاخلاق
بين الناس ، التعاون ، الايثار ، الكلام الحسن ، معاشرة الاخيار
الاستئذان والتحية

الرذائل وتشمل ... الانقياد لهوى النفس ، الكبرياء ، الخمر والقمار
الزنا ، الكذب وصوره ، السخرية ، الدز ، التنازع بالالقباب ، الظن
السيء ، التجسس ، الغيبة ، الغضب ، الحسد ، اللغو ، الشراة .

١٢ - التسامح الديني في الاسلام ٢٠٩

الصراع بين الاديان ، اختلاف الناس سنة الله في خلقه ، لا اكرهه في

الدين، أسباب منع المسلمة من الزواج بمن يخالفها في دينها ، دحض بعض
المعتقدات التي تؤدي للتعصب ، صور من معاملة المسلمين لاتباع
الاديان الاخرى ، شهادة بعض علماء الغرب في التسامح الاسلامي

١٣ - العلم في الاسلام ٢١٩

الصراع بين العلم والدين في أوروبا - العلم في الاسلام - الاسلام
دين الحجة والبرهان - الاسلام دين اليقين لا الظن - الاسلام عدو
التقليد - الاسلام يدعو للاخذ بالاحسن - العقل في الاسلام -
الاسلام يقرر ان للكون نواميس ثابتة - مقومات النظر والعقل في
الاسلام - التجارب والمشاهدات - العلم الذي يدعو اليه الاسلام -
شهادة بعض علماء الغرب في مدنية الاسلام .

١٤ - نظام الحكم في الاسلام ٢٣٤

واضع الاحكام هو الله - الحكومة الاسلامية ليست تيوقراطية -
الشوري - المساواة - العدالة - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر -
التشريع الاسلامي - بعض الامس التي قام عليها التشريع الاسلامي -
كفاية التشريع الاسلامي وحلله لاي مجتمع - الخلافة .

١٥ - الاقتصاد في الاسلام ٢٦٢

الاقتصاد الرأسمالي - الاقتصاد الاشتراكي - اقرار الملكية الفردية
في الاسلام - التخفيف من طغيان رأس المال ويشمل ما يلي :
الزكاة - قانون التوريث - الوصية - نصيب الفقراء من الغنائم
والفهيء - تحريم كنز الاموال - حفظ اموال الامة والافراد
ويشمل ما يلي : الحجر على السفهاء - اختبار اليتامى قبل تسليمهم
اموالهم - كتابة العقود المالية والرهن - تحريم الربا - تحريم اكل
اموال الناس بالباطل - تحريم القمار - تحريم التلاعب بالمكاييل
والاوزان - ذم الاسراف - البر بالطبقات الفقيرة ويشمل ما يلي :
الاتفاق في سبيل الله - الاتفاق على ذوي الحاجة - الاتفاق من
الطيبات - المال ملك لله - الاحسان قرض لله - الكفارات .

١٦ - منزلة المرأة في الاسلام ٢٨٦

المرأة عند الامم القديمة - تحرير الاسلام للمرأة عموماً - تحرير الاسلام للمرأة العربية - نظرة القرآن الى الزواج - اصول الزواج في الاسلام - مساواة المرأة بالرجل في الحياة الزوجية - الحجاب - اباحة تعدد الزوجات - حقوق المرأة الشخصية - الطلاق - العدة .

٧١ - نظام الحرب في الاسلام ٣٢٠

الحرب ضرورة اجتماعية - نظرة اليهودية والمسيحية الى الحرب - دعوة الاسلام الى السلم القتال للدفاع عن النفس - القتال في سبيل الله - مقارنة بين تشريع الاسلام والقانون الدولي في تشريع القتال - الاستعداد للحرب - وصايا عامة اثناء الحرب - القوة المعنوية - الجزية - المستأمنون - العهود - شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الاسلامي .

١٨ - العقوبات في الاسلام ٣٤٦

حالة الامن قبل بعثة محمد عليه السلام - تعريف الجريمة عامة - التحريم والعقاب - لا جريمة ولا عقوبة بلا نص - عقوبة القتل العمد - عقوبة القتل الخطأ - عقوبة الجناية على الاطراف - عقوبة قطاع الطرق - عقوبة القذف ، عقوبة الزنا ، اللعان ، عقوبة اللواط ، عقوبة السرقة ، عقوبة البغي ، عقوبة شرب الخمر ، عقوبة الارتداد عن الدين ، التعزير ، وصايا عامة للمحافظة على الامن ، المساواة في العقوبة ، عقوبات الاسلام عادلة .

١٩ - صحة الابدان في الاسلام ٣٦٤

النظافة وتشمل ما يلي : الوضوء ، الاستحمام ، تنظيف الاسنان ، قص الاظافر والشعر ، نظافة الثياب ، الاستنجاء ، المأكل والمشرب وبشمل ما يلي : تحريم اكل الميتة وانواعها ، تحريم اكل الحيوان المفترس والطيور الجارح ، تحريم تناول الدم ، تحريم اكل الخنزير ، تحريم تعاطي الخمر ، النهي عن الشراهة ، العسل فيه شفاء للناس ،

الصحة العامة وتشمل ما يلي : التداوي ، الحجر الصحي ، تحريم وطء الحائض ، تحريم الزنا ، التعجيل بدفن الميت ، الابتعاد عن النجاسة ، تقرير نجاسة الكلب ، الرياضة وتشمل ما يلي : الصلاة ، الصيام ، النهي عن الاجهاد .

٢٠ - الصلاة في الاسلام ٣٨٧

الغاية من الصلاة ، حكمة الصلاة ، الوضوء وحكمته ، شروط الصلاة ، عرض لافعال الصلاة ، المعاني التي ترمز اليها سورة الفاتحة من حكم الصلاة في القرآن : تنمية الاعمال القبيحة ، غرس خلق الثبات والشجاعة ، الحضر ، تنمية ملكة حصر الذهن .

٢١ - الصوم في الاسلام ٤٠٠

الصيام في القرآن ، روح ، حكم الصوم وفوائده ، تلطيف الاسلام للشدة المتوقعة من الصوم .

٢٠ - الزكاة في الاسلام ٤٠٦

الضرائب عند الامم السابقة ، معنى الزكاة ، تأثير الفقر في المجتمع منزلة الزكاة ، الزكاة إجبارية ، أنواع الزكاة ، شروط الزكاة ، زكاة الذهب والفضة ، زكاة عروض التجارة ، زكاة المحصولات الزراعية ، زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم ، زكاة ما يعثر عليه في باطن الارض ، مستحقو الزكاة .